أتى أمر الله
بحث موثق بالأدلة الدينية
والمعطيات العلمية
حسن اسماعيل

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ

الأدلة الدينية والمعطيات العلمية والواقعية

مُقَدَّمَةٌ وَمَدْخَلٌ

أَوَّلًا

مُنْذ فَتْرَة سَأَلَنِي أَحَدُهُمْ وَقَدْ بَدَت عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الضَّنَك وَالتَّعب وَالْحِيرَة مَتَى يَنْفُخ إِسْرَافِيلَ فِي الصُّوَرِ ويخلصنا لَقَد تَأَخَّر الْأَمْر كَثِيرًا ؟

هَذَا الْمَوْضُوعُ دَفَعَنِي لِكَي أُفكر كَثِيرًا فِي مَسْأَلَةِ الْقِيَامَة وَخَاصَّةٌ أَكْثَرُنَا يَعْرِفُ أَنَّ أكثر عَلَامَاتُهَا الصُّغْرَى قَدْ تَحَقَّقَتْ وَهُنَاك نُصُوص قُرْآنِيَّة وَأَحَادِيث نَبوِيَّة أَشَارَتْ إِلَى قُرْبَهَا وَاقْتِرَابِهَا وَمَرَّ عَلَى هَذِهِ النُّصُوصُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ عَشْرَةَ قَرْنًا وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الاقْتِرابِ مِنَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَصْبَح أَكْثَر قُرْبًا مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهِ تِلْكَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة وقيلت فِيهِ الْأَحَادِيثُ النَبوِيَّة .

فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ مَوْضُوعُ بَحْثِي هَذِهِ الْمَرَّةِ هُوَ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيم مُحَاوِلا فِيهِ إِثْبَاتُ أَنَّنَا نَعيش رُبَّمَا الْقُرُون الْأَخِيرَةُ الَّتِي بقت للبشرية عَلَى هَذِهِ الْبَسِيطَة وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ .

ثَانِيًا

أَنَّ الْعَقِيدَة الدِينِيَّة بِرُمَّتِهَا تَقُومُ عَلَى أَسَاسِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى والِاعْتِقَاد بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لِذَلِكَ نَرَى أَكْثَرِ النُصُوصِ الْقُرْآنِيَّة الَّتِي تَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَرْبِطُه الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُوَ رَبْطُ وارتباط عَقْلِيٌّ مَنْطِقِي وأخلاقي فبدون هَذَا الْيَوْمِ تُصْبِح مَسْأَلَةُ خَلْقِ الْإِنْسَانَ ضَرْبًا مِنْ ضُرُوبِ الْعَبَث ونستطيع تَشْبِيهُ ذَلِكَ بِوُجُود الْمُوَاطِنِ فِي الدَّوْلَةِ الْيَوْمِ الَّذِي تَنَظَّم حَيَاة مواطنيها وَسُلُوكِهم وتصرفاتهم بأنظمة وَقَوَانِين وَفِي نِهَايَتِهَا تَضَع الْعُقُوبَات الرادعة لِمُخَالَفَتِهَا وَقَوَاعِد لِتَنْفِيذِهَا بِحَقّ الْمُخَالِفِين لِتِلْك الْأَنْظِمَة أَو لِلَّذِين يرتكبون الْجَرَائِم بِحَقّ حَيَاة الْآخَرِين وممتلكاتهم وكرامتهم فَإِنَّ وُجُودَ مَبْدَأ هَذِه الْمُحَاسَبَة أَسَاسِيٌّ وحيوي فِي الدَّوْلَةِ وَبِدُونِه تُصْبِح الدَّوْلَة فَاشِلَة بَل نَتَفِي عَنْهَا صِفَةُ الدَّوْلَة الْقَاهِرَة وَتَحَكُّمْ حَيَاة النَاس عِنْدَهَا قَوَانِين الغاب وشريعتها .

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَمَا وَضَعَ الْإِنْسَانُ وَاسْتَخْلَفَه فِي هَذَا الْأَرْضِ لَمْ يَخْلُقُه عَبَثًا وَلَمْ يَدَعُه وَشَأْنُه بَل حُدَدَ لَهُ مَنْهَج وَشَرْعِيَّة إِذَا سَارَ عَلَيْهِ اسْتَقَرَّتْ حَيَاتُهُ وَإِذَا صَارَ عَلَيْهِ كُلُّ فَرْدٍ تَسْتَقِرّ بِالتَّالِي حَيَاة الْمُجْتَمَع .

وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعُقُوبَات الَّتِي تُطَال أُولَئِك الْمُخَالِفِين وَالْمُعْتَدِينَ عَلَى حَقَ اللَّهِ وَعَلَى حُقُوقِ الْعِبَادِ وَهِيَ نَوْعَانِ عُقُوبَات دُنْيُوِيَّةٌ آنِيَة وَعُقُوبَة أُخْرَوِيَّةٌ مُؤَجَّلَة فَالَّذِين سينفذون مِنْ الْعُقُوبَةِ الدُّنْيَوِيَّة لِسَبَبٍ أَوْ لِآخَرَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْفِرَارَ مِنْ الْعُقُوبَةِ الْأُخْرَوِيَّةَ الَّتِي ستطالهم لَا مَحَالَةَ فَهُم مسؤولون ومذنبون .

وَالْأَفْعَال الشَرِيرَة الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْبَشَر كَثِيرَةٌ وَلَا يُمْكِنُ أحصاءها وَالْكَثِيرُ مِنْ هَذِهِ الشُّرُورِ أَوْ السَّيِّئَاتِ وَفْق التَّعْبِير الْقُرْآنِيّ تُطَال الشَّخْص نَفْسِهِ سَمِعْته أَوْ سُلُوكِه أَوْ حَتَّى حَيَاتِهِ كَمَا تُصِيب الْمُجْتَمَع وَالْقَيَم وَالدين وَالْأَخْلَاق وَأَغْلَب هَذِهِ الْأَفْعَال لَا يُحَاسَبُ عَلَيْهَا القَانُونُ الْبَشَرِيّ الْوَضْعِيّ وَمِنْهَا مَا يَحْدُثُ فِي السَرَ وَالْخَفَاء فَمِنْ غَيْرِ الْمَنْطِقِيَ وَالْعَقْلِيّ أَنْ يَفْلِتَ هَذَا الْفَرْدِ مِنْ عِقَابِ أَوْ يَنْجُو مِنْ مَسَائِلِهِ لِذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ أَنَّ يَكُونَ هُنَاكَ يَوْم لِلْحِسَاب وللسؤال وللعقاب

فَالْإِنْسَان مَخْلُوقٌ واع مَسْؤول وَمُلْتَزِمٌ هَكَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115]

ثَالِثًا

هُنَاك قَضِيَّة أَكْثَر خُطُورِه وَتَأْثِيرًا فِي حَيَاةِ الْبَشَر وَهِي الظُّلْم وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ فالكائن الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ خَلِيفَتَهُ لأعمار الْأَرْض وَالْعَمَل بِمَنْهَج اللَّهِ وَشَرَائِعِه تَحَوَّلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمِنَةِ وَالْأَوْقَات إِلَى عُنْصُرٌ تَخْرِيب وَتَعْطِيل وتدمير وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ عَجَزَت الْمَخْلُوقَات الْأُخْرَى الَّتِي تَعِيشُ مَعَنَا عَنْ فِعْلِهِ .

فعملية التَّخْرِيب الَّذِي قَامَ بِها الْإِنْسَانُ طَالَت كُلَ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْكَب بِمَا فِي ذلك طَبِيعَتَه ومناخه وَكَذَلِك فَإِنْ فَعَلَ التَّعْطِيل قَدْ أَصَابَ النَظَام الفِطري الْإِنْسَانِيّ فِي مَقْتَلٍ وَهُوَ نِظَامٌ قَائِمٌ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ بِوُجُودِه فطريا لَكِن تَمَرَّد الْإِنْسَانِ عَلَى فِطْرَتُه وَاللحاق بِمَا توحي بِه غرائزه فَكُفْرٌ وتفلسف وَمَع مُرُورِ الزَّمَنِ صَارَتْ عِنْدَهُ أَفْكَارِه نَظَرِيَّات فَلْسَفِيَّةٌ وَقَوَانِين اِجْتِمَاعِيَّةٌ واخلاقية عَطَّلَت الْقَوَاعِد السلوكية السَّلِيمَة وَحُوَلَت الْإِنْسَانِ إِلَى وَحْش يُقْتَل وَيَظْلِم

وَيَفْسُد وَهَذَا التَّحَوُّل سَبَبه الرَّئِيس هُو يَقِينه بِعَدَمِ وُجُودِ حِسَاب أَوْ وُجُودُ رَبّ ليحاسب النَاس وتلكم هِي مُصِيبَةٌ الْإِنْسَانِيَّة الْعُظْمَى .

لَكِنَّه لَن يُتْرَك وَلَن يُفْلِت وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى وَاصِفًا هَذَا الهاجز الْإِنْسَانِيّ عندأكثر الْبَشَر (﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : 36]

رَابِعًا

سيبنى بَحَثْنَا هَذَا عَلَى ثَلَاثِ مُحَاورٌ وَمَبَاحِث رئيسية تَنَاقَش الْأَدِلَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ عَلَى أقتراب الْيَوْمِ الْآخِرِ وهي الأدلة الدَينِيَّةُ و المعطيات والمؤشرات الْعِلْمِيَّة و الواقعية أَو الْمَوْضُوعِيَّة وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ نُفْرِد مبحثا لِلتَّعْرِيف بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالِاعْتِقَاد بِه وَتَارِيخ هَذَا الِاعْتِقَادَ عِنْد الْبَشَر الْأَوَائِل وَفِي فلسفاتهم وأساطيرهم .

فَالمعطيات الدَينِيَّة سنأخذها مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةُ النَبَوِيَّةِ .

أَمَّا المعطيات الْعِلْمِيَّةُ فَهِي تِلْك التَظَرِيَّات وَالْآرَاء العِلْمِيَّةِ الَّتِي تَنَاوَلَت مَسْأَلَةْ نِهَايَةْ الْعَالِم وَالْكَون بِسَبَب طَبِيعَة تَكْوِينِه أَوْ حُسِبَ نَظَرِيَّات وُضِعَت تَنَبّأ بِزَوَالِه اسْتَخْرَجْتُ مِنْ الأساسيات الَّتِي تتحكم بِالْكَون .

كَما أَنَّ هُنَاكَ نَظَرِيَّات تَتَحدّث عَن فِنَاء الْأَرْض بِسَبَب التَّغْيِيرَات المناخية الْكُبْرَى أَوْ الدورات الْفَلَكِيَةَ أَوْ بِسَبَب الْعَوَامِل الْبَشَرِيَّة كالحرب النَوَوِيَّة الشَّامِلَة وَغَيْر ذَلِكَ .

وسنتحدث عَنْ المعطيات الْمَوْضُوعِيَّة والواقعية و سنعرض حَالَة عَالِمِنَا الْيَوْم وَكَيفَ يَعِيشُ النَاسُ فِيهِ مِنْ حَيْثُ دَمار الْقَيَم الأَخْلاَقِيَّة والإنسانية وشرعنة الْمُوبِقَات الَّتِي تَحُطّ مِنْ الْكَرَامَةِ الْإِنْسَانِيَّة وَكَذَلِك حَالَات اِسْتِغْلال الجِنْس البَشَرِيَ وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْأَمْثِلَةِ وَالْوَقَائِع الَّتِي تَثْبُتُ أَنَّ الْأُمُورَ تَتَّجِهُ إِلَى نهائية كاريثية محتومة وَرُبَّمَا قَرِيبَة .

خَامِسًا

مَاذَا تُفِيد مِثْلِ هَذِهِ الْكُتُب وَالْأَبْحَاث والدراسات الْمُتعَلِّقَة بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الْيَوْمَ ؟

أُرِيد أَنَا أَتَكَلَّم عَنْ نَفْسِي هُنَا وَأَقُولُ إِنَّ هَذَا الْكِتَاب لَيْسَ هَدَفَه رَدْعُ النَاس وتخويفهم وَبَثّ الهلع وَالْخَوْفُ فِي قُلُوبِهِمْ فالأسلوب الدعوي التقليدي الَّذِي يَقُومُ عَلَى هَذِهِ الركائز فاشِل وَلَا يُعْطِي الْفَوَائِد المرجوة مِنْه وَعَلَيْنَا أَنْ نَتَخَلّص مِنْ هَذَا الْأُسْلُوبَ الدعوي الْخَطَّابِيّ سَوَاءٌ فِي خَطْبِ الْجُمُعَةِ أَوْ الْخِطَابَات الدعوية الإعلامية الَّتِي كَثُرَت بِسَبَبِ التَّقَدُّمِ الْحَاصِلُ فِي وَسَائِل ووسائط الْإِعْلَام الْيَوْم هذا الخطاب الَّذِي يُبْنَى عَلَى إخطاء فَادِحَةٌ فِي اخْتِيَارِ الْمُتَلَقِي وفِي الموضوعية وَفِي سلفيته وَ فِي طَرِيقَة وأسلوب إِيصَال الْمَعْلُومَة أَو الْعِبْرَة لَلمخاطب .

فَعَادَه مَا تَوَجَّهَ هَذِه الْخِطَابَات لِلْمُسْلِمِين الْمُؤْمِنِين وَهَؤُلَاءِ هُمُ بالأساس مِنْ الطَّبَقَةِ الْفَقِيرَة والمظلومة والملتزمة بِعِبَادَتِهَا فَلَيْسَ مِنْ الْمَنْطِقِيّ وَالْمَعْقُول أَنْ نَقُوم بِتَذْكِيرِهِم بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وبأهوال القيامة بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ المرعبة فَهُم بالأساس مَنْ صَنَفَ المقهورين والبسطاء وَالَّذِينَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ وَلَا يَمْلِكُونَ إِلَّا نَصَح أَنْفُسِهِم وَتَهْذِيبِهَا فَمَاذَا نُرِيد مِنْهُم بِهَذَا الْخِطَابِ المهول والمخيف هَل نُرِيد أرهابهم وتخويفهم أَكْثَر ؟

فَمِثْلُ هَذِهِ الْخِطَابَات وَالْأَفْكَار والدراسات وَالْأَبْحَاث يَجِبُ أَنْ تُبْنَى عَلَى أَمْرٍ أَسَاسِيٌّ وَهُوَ اخْتِيَارُ الْمُتَلَقِي الَّذِي يَشُكُّ فِي وُجُودِ اللَّه بِالْأَصْل وَالْمُتَرَدَد اللَّا أَدْرِي والملحد وَالْغَافِل أَو

الْمُسْتَهْتِر وَهَذِهِ الْأَصْنَافُ نَرَاهَا فِي اِزْدِيَادٍ فِي مجتمعاتنا الْإِسْلَامِيَّة وَهِي تُشْكِل ثَمَانُون بالمئة مِن الْمُجْتَمَعات الْغَرْبِيَّة وَأَمْرِيكَا وكندا .

لقدحاولنا فِي كِتَابِنَا هَذَا طُرِح مَسْأَلَةٌ الْيَوْمِ الْآخِرِ بشكل واقعي وعلمي تسترعي الِانْتِبَاه وَالتَّفَكُّر وَالتَّأَمُّل وَالْمُرَاجَعَة فَالْمَسْأَلَة لَيْسَت مَحْضٌ غَيْبِيَّة بَلْ هِيَ وَاقِعِيَّةٌ مُمْكِنٌ لِأَيَ شَخْصٍ إنْ يستقرء معطياتها فَالْوَاقِع وَالْعِلْم يُؤَدي الدَّيْنَ فِي مَقُولَتِهِ أَنَّ هَذَا الْكَوْن هُوَ إِلَى زَوَالٍ لَا مَحَالَة

أَمَّا أُسْلُوب الدَّاعِيَة أَو الْكَاتِبُ أَوْ البَاحِث والدارس فَيَجِبُ أَنْ يَتَسَمّ بِالْمَنْطِق والموضوعية وَلَيْس اثَارِه خَيَالٌ الْمُتَلَقي وَأَخَذَه إِلَى عَالَمٍ بَعِيدٌ جِدًّا عَنْه يحسبه حكاية أسطورية أَوْ فيلم رُعْبٌ .

بَل التَّنَقُّل مَعَه بِخُطُوات وفقرات تَمْهِيدِيَّة تَقُومُ عَلَى أَدِلَّة وَبَرَاهِين عَقْلِيَّةٌ لَا يُمْكِنُ للمتلقي أَن يتجاهلها– إِلَّا إِذَا كَانَ مِنْ صَنَّفَ الْأَغْبِيَاء – لِلْوُصُولِ إِلَى الهَدَفِ المنشود وَهُو الْإِقْنَاع وَالْقَبُولُ وَالرِضَى عَقْلِيًّا بالنتائج .

سَادِسًا وَأَخِيرًا

نَرْجُو مِنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ أَنَّ نَكُونَ قَد وَفَّقْنَا فِي اخْتِيَارِ مَوْضُوعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لبحثنا ودراستنا هَذِه وَنَرْجُو أَنَّ نَكُونَ قَد وَفَّقَنَا أَيْضًا فِي اخْتِيَارِ عُنْوَان لَهَا وَلِهَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ (أَتَى أَمْرُ اللَّهُ)

وَنَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَخِيرًا وَلَيْسَ آخِراً أَنَّ يَكُونَ فِي هَذَا الْبَحْثِ دَلِيلٌ هِدَايَةٌ وَدَعْوَة تَأَمَّل واستيقاظ لِلْكَثِير مِنْ ذَوِي الْقُلُوب الْغَافِلَة أَو الْمُنْحَرِفَة عَن فِطْرَتُهَا وَأَنْ يَكُونَ فِيهِ الْعِبْرَة لِكَثِيرٍ مِنْ الظَّالِمِينَ والمستهزئين والعابثين لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ لِلصَّوَاب وينقذون أَنْفُسِهِمْ وَغَيْرِهِمْ .

فَأَمَر يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَقِيقَة وَوُقُوعُه حَقِيقَة وأهواله حَقِيقَة وَعَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نستذكر قَوْله تَعَالَى الَّذِي هُوَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ بِنَا حِينَمَا قَال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1]

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا هَذَا إِنَّك أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَآخر دَعْوَانَا أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبَ الْعَالَمِينَ .

حَسَنٌ إِسْمَاعِيل

أتى أمر اللَّه

الدلائل الدينية والمعطيات العلمية والموضوعية (الواقعية)

تمهيد وتعاريف

الْقِيَامَة تعْرِيفهَا ومسمياتها

تَعْرِيف و مَعْنَى الْقِيَامَةِ فِي مُعْجَمِ الْمَعَانِي الْجَامِع – مُعْجَم عَرَبِيٌّ عَرَبِيٌّ

الْقِيَامَة : بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْح الْمِيمِ ، مِنْ أَسْمَاءِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ، يَوْمِ بُعِثَ الْخَلَائِق لِلْحِسَاب .

قِيَامِه : (اسم)

القِيَامَةُ : قِوامة ، قِيَامٌ عَلَى الْآمِرِ أَوْ الْمَالِ أَوْ وِلَايَةِ الْأَمْرِ

الْقِيَامَة : اسْم سُورَةٍ مِنْ سُؤْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَهِي السُّورة رُقِم 75 فِي تَرْتِيبِ الْمُصْحَفِ ، مكَيَة ، عَدَدِ آيَاتِهَا أَرْبَعُونَ آيَةً

يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَوْمِ بُعِثَ الْخَلَائِق لِلْحِسَاب

عِيد الْقِيَامَة : عِيد يَحْتَفِلُ بِهِ المسيحيّون ،

قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ : اِنْبِعَاثُهُمْ مِنَ الْمَوْتِ

قَامَت قيامتُه : مَات

قَامَتْ قِيَامَتُهُ : كَانَ فِي حَالَةِ غَضَبٍ شَدِيدٍ

قَوْم : (اسم)

قَوْم : مَصْدَرٌ قامَ

أَسْمَاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ

الْأَسْمَاءِ الَّتِي وَرَدَتْ مرّة وَاحِدَةٍ فِي الْقُرْآنِ هُنَاكَ العَدِيدِ مِنَ

أَسْمَاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي ذُكِرَت فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مرّة وَاحِدَة ، وَبَيَانِهَا فِيمَا يَأْتِي :

الْغَاشِيَة : وَقَد سُمّيَت بِذَلِك ؛ لأنّها تَغَشَّى النَاس ، وتَعمُّهم بأهوالها ؛

قَال –تعالى– : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) .

الْقَارِعَة : وَقَد سُمِّيَت بِذَلِك ؛ لأنّها تَقرع قُلُوب الْعِبَادِ عِنْدَمَا تَأْتِي عَلَيْهِم ، وتُفزعهم ؛ قَال – تعالى– : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ) .

الحاقّة : وسُمِّيت بِذَلِك ؛ لأنّ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ يتحقّقان فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ؛

قَال تعالى : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) .

الطامّة الكُبرى : تُعرَّف الطامّة بِـ : الدَّاهِيَة ، أَو الْمُصِيبَةِ الَّتِي تَصْغُر أَمَامَهَا كلّ مُصِيبَةٌ أُخْرَى ، وسُمِّيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بالطامّة الْكُبرَى ؛ لأنّ فِيه شدّة عَظِيمَةٌ تَهُون كلّ شدّة أَمَامَهَا ؛

قَال تعالى : (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبرَى) .

الصاخّة : الصاخّة اسْمُ فَاعِلٍ أَوْ مَصْدَرٌ مِنْ الْفِعْلِ (صخّ ، يصخّ) ، وَهِي تَعْنِي : الصّيْحَة الَّتِي تَقرَع الْأَذَان لشدّتها ، فتَصمّها ، فَلَا تُسْمَعُ إلّا دعوتها لِلْأَحْيَاء ، وَتَكُونُ هَذِهِ الصّيْحَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ قَال –تعالى– : (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ) .

يَوْم الْوَعِيد وَيَوْم الْمَوْعُود : يُشتَقّ لَفْظًا الْوَعِيد ، والموعود مِن (وَعَدَ) ، وَالْوَعْد يدلّ عَلَى ترجية الْخَيْر ، أَو الشرّ ، أمّا الْوَعِيد فَهُوَ التَّهْدِيدُ بِالشرّ ، والموعود لَفْظ يدلّ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ ؛ قَال تعالى : (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) ،

وَقَال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) .

يَوْمَ الْحَسْرَةِ : وَقَد سُمّي بِذَلِك ؛ لأنّ الْحَسْرَة وَالنَّدَامَة تَعظم فِيه ، وتشتدّ ؛ فَتَضِيع فِيه فُرَص الْفَوْز بِرِضَا اللَّهِ –تعالى– وجنّته ؛ إذْ لَا مَجَالَ فِيه لِلرُّجُوع وَالْعَمَل ، وَقَدْ يُوجِبُ ذَلِكَ اسْتِحْقَاق سَخط اللَّه –تعالى– ، وبالتّالي الْخُلُودِ فِي النَارِ ، وَذَلِك أَعْظَم حَسرة ؛ قَال تعالى : (وَأَنذِرهُم يَومَ الحَسرَةِ) .

يَوْمِ التَّنَادِ : التَّنَاد لَفْظ مَأْخُوذٌ مِنْ النَدَاء ؛ وَهُو الصُّرَاخ ، وسُمّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَوْمِ التَّنَاد ؛ لأنّ النَاسُ فِيهِ يُنَادُون عَلَى بَعْضِهِمْ الْبَعْض ، ويصرخون عَلَى بَعْضِهِمْ الْعَضّ ، ويستجيرون بِبَعْضِهِم الْبَعْض ، وَلَكِنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ تعالى إلّا إلَيْه ؛ قَال تعالى : (وَيَا قَوْمِ إِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ) ، وَفِيه يُنَادِي أهلُ الجنّة أهلَ النَار ؛ قَال تعالى : (وَنادى أَصحابُ الجَنَّةِ أَصحابَ النّارِ أَن قَد وَجَدنا مَا وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَل وَجَدتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا قَالُوا نَعَم) ،

وَيُنَادِي أهلُ النَّار أهلَ الجنّة ؛ قَال تعالى : (وَنادى أَصحابُ النّارِ أَصحابَ الجَنَّةِ أَن أَفيضوا عَلَينا مِنَ الماءِ) ، كَما يُنادي فِيهِ أَصْحَابُ النّار أيضاً مالكاً ؛ قَال –تعالى– : (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) ،

كَما يُنادون ربّهم ؛ قَال تعالى : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ) ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى أنّ أَهْلِ الْأَعْرَافِ يُنادون المُستكبرين مِنْ أَهْلِ النّارِ ؛ قَال –تعالى– : (وَنادى أَصحابُ الأَعرافِ رِجالًا يَعرِفونَهُم بِسيماهُم) .

يَوْمِ التَّلَاقِ : التَّلَاق لَفْظ مَأْخُوذٌ مِنْ اللَقاءِ ، وسُمَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَوْمِ التَّلَاق ؛ لأنّ النّاسُ فِيهِ يلقَون ربَّهم وَقَدْ انْكَشَفَتْ جَمِيع أَسْرَارِهِم لِلْحِسَاب ؛ قَال تعالى : (لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) .

يَوْم التغابُن : التغابُن مَصْدَرٌ مِنْ الْفِعْلِ (تغابَن) ، وَالْغَبَن هُو : غَلَبَة الْبَعْض لِلْآخَر ، وسُمَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَوْمِ التغابُن ؛ لأنّ أَهْل الحقّ وَالْإِيمَان يغبنون فِيهِ أَهْلُ الْبَاطِلِ ؛ فَلَا غَلَبَةً وَلا غُبن أشدّ مِنْ ذَلِكَ ؛ إذ إنّ أَهْل الحقّ فَازُوا بالجنّة ، وَلَم يَنل أَهْلِ الْبَاطِلِ إلّا السُّخْط ، وَالْخُلُودِ فِي النّارِ قَال تعالى : (ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) .

يَوْم الْخُلُود وَالْبَقَاء : وَقَد سُمّي بِيَوْم الْخُلُود ؛ لأنّه يَوْم دَائِمٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ فَأَهْل الْإِيمَان يُخلَّدون فِي الجنّة ، بَيْنَمَا يُخلَّد أَهْل الْبَاطِل ، والشَرك ، وَالنِفَاق فِي نَارِ جهنّم ؛

قَال تعالى : (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ) .

الْأَسْمَاءِ الَّتِي تكرَر وُرُودِهَا فِي الْقُرْآنِ هُنَاكَ العَدِيدِ مِنَ أَسْمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي تكرّر وُرُودِهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَبَيَانِهَا فِيمَا يَأْتِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْقِيَامَة مَصْدَرٌ مِنْ الْفِعْلِ (قام ، يقوم) ، وَإِضَافَة تَاء التَّأْنِيث إِلَيْه يُفيد المُبالغة ، وسُمّيت بالقيامة ؛ لِما يَحْدُثُ فِيهَا مِنْ أُمُورٍ عَظِيمَةٌ ، وَمِنْهَا قِيَامَ النَاسِ لِرَبّهم ، وَقَدْ جَاءَ ذِكرها فِي سَبْعِينَ آيَةً مِنْ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ؛ قَال تعالى : (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

الْيَوْمِ الْآخِرِ : وَقَد سُمّي بِذَلِك ؛ لأنّه آخِرِ يَوْمٍ ؛ قَال –تعالى– : (إِنَّما يَعمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ) ،

ويُسمّى الْيَوْمِ الْآخِرِ أحياناً الْآخِرَة ، أَوْ الدَارُ الْآخِرَةِ ؛ قَال تعالى : (تِلْكَ الدَارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ) .

وَقَال أيضاً : (وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) .

السَّاعَة : وَتَعْنِي فِي اللُّغَةِ : الْجُزْء الْيَسِير غَيْر الْمُحدَّد مِنْ الزَّمَنِ ، أمّا فِي الِاصْطِلَاحِ الشرعيّ فَهِي : وَقْت دَمار العالَم ، وَمَوْت أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَتَأْتِي السَّاعَة الشرعيّة مُعرَّفة عَلَى خِلَافِ السَّاعَة الزمانيّة فِي الْقُرْآنِ ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ –تعالى– بَيْن الساعتَين فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ إِذْ قَالَ : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) .

وَلَا بدّ مِنْ الْإِشَارَةِ إِلَى أنّ الْفَرْقُ بَيْنَ اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تعبيرَ (يوم القيامة) ، وتعبيرَ (الساعة) يتمثّل بِالدَّلَالَة عَنْ الْأُولَى بالبَعث ، والحَشر بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْحِسَاب ، وَمَا يَلِيهِ ، وَالدَّلَالَة بِالثَّانِيَة عَنْ وَقْتِ مَوْت الْإِحْيَاء جَمِيعِهم ، وَهَلَاك العالَم ، وَاضْطِرَاب نِظَامِه ، وَمَا يَحْدُثُ فِيهِ مِنْ أَهْوَالٍ مُتتابِعة ؛ فَتَكُون السَّاعَة المَبدأ بِالْمَوْت وَالْهَلَاك ، وَتَكُون الْغَايَة مِنْ الْقِيَامَةِ البَعث وَالْجَزَاء ، وأحياناً يَأْتِي تَعْبِير الْقُرْآنِ بِأُحُدٍ الْمُصْطَلَحَيْن ، إلّا أنّ الْمَعْنَى المُراد عامّ يَشْمَل المَبدأ وَالْغَايَة ، كَقَوْلِه تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) .

يَوْم البَعث : وسُمِّي بِذَلِك ؛ لأنّ الْمَوْتَى يُبعَثون فِيهِ مِنْ قُبُورِهِمْ ؛ إذ يُعاد إحياؤهم ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ العَدم والتلاشي الَّذِي كَانُوا فِيهِ إِلَى الْوُجُودِ كَمَا كَانَ حَالُهُمْ قَبْل مَوْتِهِم ؛ وَذَلِك

لِإِقَامَة الْقَضَاء بَيْنَهُمْ مِنْ قِبل اللَّه تعالى ؛ قَال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ) .

يَوْم الفَصل : الفَصل هُوَ الْقَضَاءُ ، وسُمَي بِذَلِك ؛ لأنّ اللَّه تعالى يَقْضِي فِيهِ بَيْنَ مَن أحسنَ ، ومَن أَسَاء ؛ قَال تعالى : (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) .

يَوْم الدَين : والدَين لُغَة يَعْنِي : الْحِسَاب ، وَالْجَزَاء ، وسُمَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَوْمِ الدَين ؛ لأنّ اللَّه تعالى يُدين فِيه خَلقَه ؛ فيُحاسبهم ، ويُجازيهم عَلَى أَعْمَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا ؛ قَال تعالى : (وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدَينِ) .

يَوْم الجَمع : الجَمْع مَصْدَرُ الْفِعْلِ (جَمَعَ) ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسماً للمُجتمعين ، وسُمَي بِذَلِك ؛ لأنّ اللَّه تعالى يُجْمَعُ فِيهِ جَمِيعُ الخَلق ؛ لحسابهم ؛ قَال تعالى : (وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) .

وَإِنْ كَانَ الجَمع بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ ، فإنّ قَوْلُه تعالى : (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) ، جُمْلَة استئنافيّة ؛ لِبَيَانِ حَالِ هَذَا الجَمع ، أمّا إنْ كَانَ الجَمع بِمَعْنَى الِاسْمِ ، فإنّ قَوْلُه تعالى : (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) ،

جُمْلَة استئنافيّة ؛ لِبَيَان أنّ هُنَاك جزءاً مِن المجمُوعين فِي الجَنّة ، وجزءاً آخَرَ مِنْهُمْ فِي النَارِ .

الآزِفَة : الآزِفَة مِن أَزِفَ الْوَقْت ؛ أَي اِقْتَرَب ، وسُمَيَت الْقِيَامَة بِذَلِك ؛ لقُرب وُقُوعِهَا ؛ قَال تعالى : (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ) .

يَوْمَ الْحِسَابِ : وَالْحِسَاب يَعْنِي : مُحاسبة الْعِبَاد بِمَعْرِفَة حُقُوقِهِمْ وَوَاجِبَاتِهِمْ ، وسُمَي بِذَلِك ؛ لأنّ اللَّه –تعالى– يُحاسب فِيهِ عِبَادَهُ بَعْد إِحْصَائِه وتعداده أَعْمَالِهِمْ مِنْ إِحْسَان وَإِسَاءَة ، سَوَاءٌ كَانَتْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ دَقِيقَةٌ أَوْ عَظِيمَةٍ ، ثمّ يُعدّد اللَّه –تعالى– نِعَمه الْكَثِيرَةِ الَّتِي تقلّب عُبَادَة فِيهَا ، وتنعّموا بِهَا فِي الدُّنيا ؛ مِن خَلْق ، وَإِيجَاد ، ورزق ، وَهِدَايَة ، فيُقابل أَعْمَالِهِم بِنِعَمه ، فَمَا زَادَ عَنْ الْآخَرِ حُكِم لِلزَّائِد بحُكِمه الَّذِي عيَّنه لَه ؛ خيراً ، أَو شرّاً ؛ قَال تعالى : (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) .

أَسْمَاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْيَوْمِ الْآخِرِ أَسْمَاءَ كَثِيرَةً ، كَيوْم الْقِيَامَة ، وَيَوْم الْخُلُود ، وَيَوْمِ الْحِسَابِ ، وَغَيْرِهَا ، كَما أنّ لَهُ أَسْمَاءً أَوْرَدَهَا الْعُلَمَاء إمّا عَنْ طَرِيقِ الِاشْتِقَاق بِمَا وَرَدَ منصوصاً ، كَيوْم الصَّدْر ، وَيَوْم الجِدال ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الْأَوْصَافِ الَّتِي وَصَفهُ اللَّه تعالى بِهَا ، كيومٍ عَسِيرٌ ، وَمَشْهُودٌ ، وعقيم ، وعبوس ، وقمطرير ، أَوْ بِمَا يُقاربه ويُماثله مِنْ الْأَحْدَاثِ الَّتِي سيشهدها ، كَيوْم الِازْدِحَام ، وَاخْتِلَاف الْإِقْدَام ، وَالِانْكِسَار ، والذلّ وَالْهَوَان ، والمِرصاد ، وَالْمِيقَات ، وَلَا شكّ أنّ كَثْرَة الْأَسْمَاءِ الَّتِي اختصّ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تدلّ عَلَى شَرَفه ، وَمَكَانَته ، وَكَمَالُهُ فِي شدّته ، وَصُعُوبَته .

أهمّية التَّذْكِير بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ رُكن مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ ، وَعَلَى الرَّغْم مِنْ ذَلِكَ ، فإنّ كثيراً مِنْ النَاسِ يَغْفُلُون عَنْهُ مَعَ أَيْمَانِهِمْ بِهِ ؛ قَال تعالى : (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مَنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

وَلِذَلِكَ كَانَ التَّذْكِير بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَحَدٌ مَنَاهِج الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَمَنَاهِج رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم إذْ كَانَ حريصاً عَلَى تَذْكِير الْمُسْلِمِينَ بِهِ فِي خُطَبه ، ودروسه ؛ فَقَد أَوْرَد الترمذيّ عَن أُبيّ بْنِ كَعْبٍ –رضي اللَّه عنه– أنّه قَال : (كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْه وسلَّمَ

إذَا ذَهَبَ ثُلُثَا الليلِ قَامَ فَقَالَ يَا أَيُّها الناسُ اذكُروا اللهَ اُذْكُروا اللهَ جاءتِ الراجفةُ تَتْبَعُها الرادِفَةُ جَاء الموتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الموتُ بِمَا فيه) ،

أمّا الْقُرْآنِ فَلَا تَكَادُ صَفْحَةً مِنَ صَفَحَاتِه تَخْلُو مِنْ ذِكره وتكمن أهمّية التَّذْكِير بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فِي عدّة أُمُور ، وَمِنْهَا مَا يَأْتِي :

تَعْزِيز مَعَانِي الصَّبْر ، وَالِاحْتِسَاب ، وَالرِّضَا فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ؛ فَمَتَى أُصِيب الْمُؤْمِن بِبَلَاء ومُصاب ، فإنّه يتعزّى بِالصَّبْر وَالِاحْتِسَاب ؛ لأنّه يَعْلَم أنّ الدُّنيا دَار مَمرّ وَابْتِلَاءٌ ، وأنّ اللَّه تعالى سيُوفّيه أجرَ صَبره وَاحْتِسَابُه ؛ فَيَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ تعالى ، وقَدَره ، وَيَسْتَسْلِم لَه ، فَيَكُونُ عَلَى خَيْرٍ دَائِمٍ كَما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم : (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، وَعَلَى النَّقِيض مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ الدُّنيا وَالشَّهَوَات ، وَمَا يُصيبهم مِن هَلَع ، وجَزَع ، وخَوف حَال ابتلائهم بِمَرَض ، أَو فَقر ؛ لضَعف أَيْمَانِهم بِالْيَوْمِ الْآخِرِ . تَعْزِيز مَعَانِي الْعَفْوِ عَنْ الظَّالِمِ ، وَقَبُول الْأَعْذَار ، وَالتَّضْحِيَة ، والبَذْل ، وَالْإِنْفَاقِ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَة –رضي اللَّه عنهم– قَادَه فِي هَذِهِ الْعِبَادَاتِ ؛ إذ إنّها مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِين الْمُؤْمِنِين بِالْآخِرَة ، وَهِي تَزْدَاد وضوحاً بِازْدِيَاد الْإِيمَان

بِالْآخِرَة . زُهد قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بِنَعِيم الدُّنيا ، وَرَغْبَتَه فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ ؛ لِعِلْمِه أنّه خَيْرٌ وَأَبْقَى ، وشَتّان بَيْن النعيمَين ؛ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم : (واللَّهِ مَا الدُّنْيا فِي الآخِرَةِ إلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هذِه ، وأَشارَ يَحْيَى بالسَّبَّابَةِ ، فِي اليَمّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ ؟ السَّعي إلَى رُؤْيَةِ وَجْهِ اللَّهِ تعالى ، ونَيل النَّعِيم وَالْخُلُود الأبديَّين بصُحبة النبيّين ، والصدّيقين ، وَالصَّالِحين ؛ لِذَا كَان التَّذْكِير بِالْآخِرَة تذكيراً لَه بهَدفه ، وَعَلَى خِلاف ذَلِك ؛ فَلَا غَايَةَ وَلَا هَدَف لِمَن لَا يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إذْ تَكُونُ جنّته الدُّنيا ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم : (الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ ، وجَنَّةُ الكافِرِ) . تَطْهِير الْقُلُوب مِنْ كَدَر الحِقد ، والحَسَد ، والفُرقة ، وَالِاخْتِلَاف . تَهْدِيد الظَّلَمة ؛ لِيرتدعوا ويكفّوا عَن ظُلمهم ، كَما أنّ فِيه تَعْزِيَة للمظلومين ؛ لِيستكينوا ويصبروا ؛ فَلَا ظُلم ، وَلَا تَضْيِيع لحقٍّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَصَاحِب الحقّ سينال حَقَّه حَتماً لَا مَحالة . إضْفاء الْيَقِينَ عَلَى قُلُوب المُستضعَفين ، والمُضطّهَدين لتَسكُن بِه نُفُوسِهم ؛ فَهُم يتطلّعون لِأَجْر الصَّابِرين ، وَمَا أعدَّه اللَّه تعالى لَهُمْ مِنْ نَعِيم يُنسيهم كلّ بَلَاء ، وضرّ ، وَعَنَاء ، وَسُوء قَد مرّ بِهِم ، وَالَّذِي أعدّه اللَّه تعالى للظَّلَمة مِن بُؤس سيُنسيهم هَناء الدُّنيا ، وَذَلِكَ مِنْ شَأْنِه أَنْ يُهوّن عَلَى هَؤُلَاءِ المُستضعَفين ، ويُعزّيهم . إشْعَارٌ الْقَلْب بِالطُّمَأْنِينَة ، وَرَاحَة

الْبَال . الْغَفْلَةِ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَسَاس الْمَصَائِب ، وَالذُّنُوب ؛ وَلِهَذَا يُعَدّ التَّذْكِير بِه تنبيهاً لِأَهْل الْغَفْلَة مِنْ غَفْلَتِهِم ، وسبباً فِي تَوْبَةِ الْمُذنب وَالْعَاصِي عَن ذُنُوبُهُمَا .

الْيَوْمِ الْآخِرِ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيّ

أَحَادِيثُ فِي عِظَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَحَادِيثُ فِي مِقْدَارِ يومِ القيامَة

أَحَادِيثُ فِي الْحِسَابِ يومِ القيامَة

أَحَادِيثَ عَنْ مَوَازِين يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَحَادِيثَ عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

أَحَادِيثَ عَنْ أَحْوَالِ النَاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَحَادِيثَ عَنْ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَحَادِيثُ فِي عِظَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَرَدَت العَدِيدِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُبين هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْهَا مَا يَأْتِي : إعْلَان عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ –رضي اللَّه عنهما– عَنِ النبيّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ : (يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ) . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ –رضي اللَّه عنهما– قَال : (خطَبَنا رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عَلَيْه وسلَّمَ– : فحمِدَ اللهَ ، وأثْنى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُم قَال : أَمَّا بعدُ ، فإنَّ أصدَقَ الحديثِ كتابُ اللهِ ، وإنَّ أفضلَ الهَدْيَ هَدْيُ محمَّدٍ ، وشرَّ الأمورِ مُحدَثاتُها ، وكلَّ بِدعةٍ ضلالةٌ ، ثُم يرفَعُ صوتَه ، وتحمَرُّ وَجْنَتاه ، ويشتَدُّ غضَبُه إذَا ذكَرَ السَّاعةَ ، كأنَّه مُنذِرُ جيشٍ ، قَال : ثُم يقولُ : أتَتْكُمْ السَّاعةُ ، بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعةَ هَكَذَا –وأشارَ بإصبَعَيهِ السَّبَّابةِ والوُسْطى– صبَّحَتْكُمْ السَّاعةُ ومسَّتْكم ، مَن ترَكَ مالًا فلأهلِه ، ومَن ترَكَ دَيْنًا أَو ضَياعًا فإليَّ ، وعليَّ والضَّياعُ : يَعْني ولَدَه المساكينَ) .

أَحَادِيثُ فِي مِقْدَارِ يومِ القيامَة

بيّنت السُّنَّة النبويّة مِقْدَارُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْ خِلَالِ الْأَحَادِيث التَّالِيَة : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي اللَّه عنه– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (يومَ يقومُ الناسُ لربِ الْعَالَمِين مقدارَ

نصفِ يومٍ مِنْ خَمْسِينَ ألفِ سنةٍ فيهونُ ذَلِكَ عَلَى المؤمنِ كتدلَي الشمسِ للغروبِ إلَى أَنْ تغربَ) . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ –رضي اللَّه عنهما– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (كَيْفَ بِكُمْ إذَا جَمَعَكُمْ اللهُ كَمَا يُجْمَعُ النَّبْلُ فِي الكِنانَةِ خمسينَ ألفَ سَنَةٍ ، ثُمَّ لَا ينظرُ اللهُ إليكُمْ) .

أَحَادِيثُ فِي الْحِسَابِ يومِ القيامَة

وَرَدَت العَدِيدِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَحدّث عَنْ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْهَا مَا يَأْتِي : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي اللَّه عنه– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إلَى أَهْلِها يَومَ القِيامَةِ ، حتَّى يُقادَ لِلشّاةِ الجَلْحاءِ ، مِنَ الشَّاةِ القَرْناءِ) . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي اللَّه عنه– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (أتدرونَ مَا المُفلِسُ ؟ قَالُوا المفلِسُ فِينَا يَا رسولَ اللهِ مِن لاَ درْهمَ لَهُ ولاَ متاعَ . قالَ رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ– : المفلسُ مِن أمَّتي مَنْ يَأْتِي يومَ القيامةِ بصلاتِهِ وصيامِهِ وزكاتِهِ ، وَيَأْتِي قَدْ شتمَ هَذَا ، وقذفَ هَذَا ، وأَكلَ مالَ هَذَا ، وسفَكَ دمَ هَذَا ، وضربَ هَذَا ، فيقعدُ فيقتَصُّ هَذَا مِنْ حسناتِهِ ،

وَهذا مِن حسناتِهِ ، فَإِن فنِيَت حسناتُهُ قبلَ أَن يُقتصَّ مَا عليْهِ منَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فطُرِحَ عليْهِ ، ثمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) .

أَحَادِيثَ عَنْ مَوَازِين يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَرَدَت العَدِيدِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَحدّث عَن مَوَازِين يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْهَا مَا يَأْتِي : عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيّ –رضي اللَّه عنه– قَال : (يُوضَعُ المِيزَانُ يومَ القيامةِ ، فَلَوْ وُزِنَ فيهِ السَّمَوَاتُ و الأرضُ لَوَسَعَتْ ، فَتقولُ الملائكةُ : يَا رَبَ لِمَنْ يزِنُ هَذَا ؟ فيقولُ اللهُ –تعالى– : لِمَنْ شِئْتُ مِن خَلْقِي ، فَتقولُ الملائكةُ ، سبحانَكَ مَا عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ ، و يُوضَعُ الصَرَاطُ مِثْلَ حَدَّ المُوسَى ، فَتقولُ الملائكةُ ، مَنْ تُجيزُ عَلَى هَذَا ؟ فيقولُ : مَنْ شِئْتُ مِن خَلْقِي ، فَيقولونَ : سبحانَكَ مَا عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ) .

عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ –رحمه الله– : (إنَّ عائشةَ –رضيَ اللهُ عنها– ذكَرتْ النَّارَ فبكَتْ فقالَ : مَا يُبكيكِ يَا عائشةُ ؟ قَالَت : ذكرتُ النَّارَ هلْ تذكرونَ أهليكُم يومَ القيامةِ ؟ قالَ : والَّذي نَفْسِي بيدِهِ فِي ثلاثِ مَواطنَ فإنَّ أحدًا لَا يذكرُ إلَّا نفسَهُ إذَا وُضِعَت المَوازينُ ووُزِنَت

الأعمالُ حتَّى ينظرَ ابنُ آدمَ أيخِفُّ ميزانُهُ أَم يثقُلُ وعندَ الصُحفِ حتَّى ينظرَ أبيمينِهِ يأخذُ كتابَهُ أمْ بشمالِهِ وعندَ الصَراطِ) .

أَحَادِيثَ عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

وَرَدَت العَدِيدِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَحدّث عَن أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْهَا مَا يَأْتِي : عَنْ الْمِقْدَادِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الأَسْوَدِ –ضي اللَّه عنه– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (إذا كانَ يومُ القيامةِ أُدْنِيَتِ الشَّمسُ مِنَ العبادِ حتَّى تكونَ قيدَ ميلٍ أَو اثنينِ ، قالَ سُلَيْمٌ بْنِ عَامِرٍ : لَا أَدْرِي أيَّ الميلينِ عنَى ؟ أمسافةُ الأرضِ ، أمُ الميلُ الَّذي تكتحلُ بِهِ العينُ ؟ قالَ : فتَصهرُهُمُ الشَّمسُ ، فيَكونونَ فِي العَرقِ بقدرِ أعمالِهِم ، فَمِنْهُم مِن يأخذُهُ إلَى عَقبيهِ ، وَمِنْهُم مِن يأخذُهُ إلَى رُكْبتيهِ ، وَمِنْهُم مِن يأخذُهُ إلَى حِقويهِ ، وَمِنْهُم مِن يُلجِمُهُ إلجامًا فرأيتُ رسولَ اللهِ –صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ– يشيرُ بيدِهِ إلَى فيهِ : أَي يُلجمُهُ إلجامًا) .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ –رضي اللَّه عنه– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (يجمعُ اللهُ الأولينَ والآخِرين لميقاتِ يومٍ معلومٍ قيامًا أربعينَ سنةً شاخِصَةً أبصارُهم ينتظِرونَ فصلَ القضاءِ)

أَحَادِيثَ عَنْ أَحْوَالِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَرَدَت العَدِيدِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَحدّث عَنْ أَحْوَالِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْهَا مَا يَأْتِي : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ –رضي اللَّه عنهما– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (تجتمِعونَ يومَ القيامةِ فيُقالُ : أينَ فُقَراءُ هَذِه الأُمَّةِ ومساكينُها ؟ قَال : فيقومونَ فيُقالُ لَهُم : مَاذَا عمِلْتُم ؟ فيقولونَ : ربَّنا ابتَلَيْتَنا فصبَرْنا وآثَيتَ الأموالَ والسُّلطانَ غيرَنا فيقولُ اللهُ : صدَقْتُم قَال : فيدخُلونَ الجَنَّةَ قبْلَ النَّاسِ ويَبقى شِدَّةُ الحِسابِ عَلَى ذَوِي الأموالِ والسُّلطان قَالُوا : فأينَ المُؤمِنونَ يومَئذٍ ؟ قَال : يُوضَعُ لَهُم كراسِيُّ مِن نورٍ وتُظَلَّلُ عَلَيْهِم الغَمامُ يكونُ ذلكَ اليومُ أقصَرَ عَلَى المُؤمِنينَ مِن ساعةٍ مِن نهارٍ) . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ –رضي اللَّه عنهما– قَال : (قال رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عَلَيْه وسلَّمَ– ذاتَ يومٍ وَنَحْن عندَه : طُوبَى لِلغُرباءِ ، فَقِيل : مَن الغُرباءُ يَا رسولَ اللهِ ؟ قَال : أُناسٌ صالحونَ فِي أُناسِ سُوءٍ كثيرٍ ، مَن يَعصيهم أكثرُ مِمَّن يُطيعُهم ، قَال : وكنَّا عندَ رسولِ اللهِ –صلَّى اللهُ عَلَيْه وسلَّمَ– يومًا آخَرَ حِينَ طلَعَتِ الشَّمسُ ، فَقَال رسولُ اللهِ –صلَّى اللهُ عَلَيْه وسلَّمَ– : سَيَأتي أُناسٌ مِن أُمَّتي يومَ

القيامةِ ، نورُهم كضَوءِ الشَّمسِ ، قُلْنَا : مَن أولئكَ يَا رسولَ اللهِ ؟ فَقَال : فقراءُ المهاجرينَ ، وَالَّذِين تُتَّقى بِهِم المكارهُ ، يموتُ أحدُهم وحاجتُه فِي صدرِه ، يُحشَرونَ مِن أقطارِ الأرضِ) .

أَحَادِيثَ عَنْ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَرَدَت العَدِيدِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَتَحدّث عَنْ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْهَا مَا يَأْتِي : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي اللَّه عنه– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجابَةٌ ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ ، وإِنِي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتي شَفاعَةً لِأُمَّتي يَومَ القِيامَةِ ، فَهي نائِلَةٌ إِنْ شاءَ اللهُ مَن ماتَ مِن أُمَّتي لَا يُشْرِكُ باللهِ شيئًا) . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَ –رضي اللَّه عنه– قَال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (أنا سيدُ ولدِ آدمَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أولُ مِن تنشقُّ الأرضُ عَنْه يومَ القيامةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أولُ شافعٍ وأولُ مشفَّعٍ وَلَا فَخْرَ ولواءُ الحمدِ بِيَدِي يومَ القيامةِ وَلَا فخرَ) .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْأَسَاطِير والديانات الْقَدِيمَة

فِي الْأَسَاطِير

يتجلّى الْعَالِم الْآخَر فِي مُعْظَمِ الْأَسَاطِير الْقَدِيمَةِ فِي شَكْلٍ ثُنائِيٍّ تناقضي ، طَرَفَاه الْفِرْدَوْس وَالْجَحِيم ، وَالْفِرْدَوْس هُو فَضَاء اُفْتُرِضَت الْأَسَاطِير أَنَّهُ وَجَدَ فِي مَكَان مَا حَيْث السَّعَادَة الْمُطْلَقَة وَالْفَرَح الْمُسْتَمِرّ . أَنَّهَا مَكَان يَخْلُو مِنْ الثَّالُوث الرهيب ؛ الْمَرَض ، والشيخوخة ، وَالْمَوْت . وَقَدْ سَمَّاهُ السومريون" دلمون " وَهِي " مَكَان نَظِيف ، أَرْض دلمون مَكَان طَاهِر ، مَكَان مُضِيءٍ ، فِي أَرْضِ دلمون لَا تنعق الْغِرْبَان ، وَلَا الْأَسَد يَفْتَرِس أَحَدًا ، وَلَا الذِّئْب يَنْقَضُ عَلَى الْحَمْلِ ، وَلَا الْكَلْب الْمُتَوَحش عَلَى الْجَدْي ، وَلَا الْخِنْزِير الْبَرِّيّ يَلْتَهِم الزرع فِي أَرْضِ دلمون لَا أَحَدَ يَعْرِفُ رَمَدِ الْعَيْنِ وَلَا الْأُمّ الرَّأْس ، وَلَا يَشْتَكِي الرَّجُلُ مِنْ الشَّيْخُوخَة ، وَلَا الْمَرْأَةُ مِنْ العجز" ، فَالْجَنَّة السومرية هِيَ أَرْضُ الدَّعَة ، وَالْأَمْن ، وَالْكَمال ، فَلَا أَلَم ، وَلَا تَعِبْ ، وَلَا عَجْزَ ، وَلَا قُصُورٌ ، وَلَا خَوْفٌ ، وَلَا ضَجَرٍ .

وَمُقَابِلُ هَذِهِ الرُّؤْيَة الماضوية لِلْعَالِم الْآخَر ، نَجِد أَسَاطِير كَثِيرَةٌ وَمَن ثقافات مُخْتَلِفَةٌ تَصَوُّره عَالِمًا مستقبليا ، مَا وَرَائِيًا يَتَحَقَّقْ بَعْدُ الْمَوْتِ . فَلَعَلّ فَكَرِه الْجَنَّة (والعالم الْآخَر عموما) كَانَتْ هِيَ التَّحَدَي الماورائي ، لِلْخَوْف الماورائي الَّذِي يهدد كينونة الإنسان ، حَيْث الْحَيَاة

الْخَالِدَة الدَّائِمَة هِيَ الشُّغْل الشَّاغِل لذهن الْإِنْسَان ، وَمَهْمَا اخْتَلَفَت التَّصَوُّرَات ستظل هِي الْمَشْرُوع الْمُدّ شَنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَخِيلَة الْجَمْعِيَّة لاتقاء وطأة وَفَظَاعَةُ الموت" .

وَقَدْ تُصَوَرَ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ أَنَّ "عالمه الآخر" يَقَعُ فِي أَسْفَلِ الْأَرْضِ ، وَلَعَلّ مَرَدّ هَذَا التَّصَوُّرِ مَا رَآهُ مِنْ حَرَكَاتِ سُفْلِيَّةٌ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالظَّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّة الرَّئِيسِيَّة فالنبات ، مَصْدَرٌ غِذَائِه الأَسَاسِيّ ، يَضْرِب بجذوره فِي أَعْمَاقِ الْأَرْض ، وَالْمَاء ، مَصْدَرٌ حَيَاتِه ، يَسْقُط سُقُوطًا سفليا مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ . وَالْإِنْسَان نَفْسِه يُدْفَنُ فِي مَكَان تَحْتِي ، شَحَذ كُلُّ ذَلِكَ مخيلته لتبتكر عَالِمًا سفليا سَيَكُون مَلَاذُه بَعْدَ وَفَاتِهِ .

وَاخْتَلَفَت إِشْكَال هَذَا "العالم السفلي" مِنْ ثَقَافَةٍ إِلَى أُخْرَى فِي بَعْضِ التَّفَاصِيل ، وَإِن ظِلّ الْمَرْجِع الأَسَاسِيّ هُوَ الْوَاقِعُ العيني/ عَالِمُ الْإِحْيَاء الَّذِي سَاعَد الْمَخِيلَة الْبَشَرِيَّة فِي تَشْكِيل تصوراتها الأسطورية حَوْل عَالِمُ الْمَوْتَى ، الَّذِي كَانَ فِي الْبِدَايَةِ فَضَاء مُبْهَمًا ، ضبابيا ، لَا يَكَادُ يَتَمَيَّزُ عَنْ عَالِمِ الْإِحْيَاء ، الْأَرْض ، وَلَا يَكَادُ يَنْفَصِل جَحِيمُه عَلَى فردوسه" فَهُنَاك اعْتِقَاد (أولي) عِنْد البدائيين بِأَن الْمَوْتَى يواصلون سِيَر وُجُودِهِم مِثْل الْإِحْيَاءِ فِي أَمَاكِنَ تَشْتَمِلُ عَلَى ضَعْف مَا هُوَ مَوْجُودٌ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ . يُوجَدْ هَذَا التَّصَوُّرِ فِي إِفْرِيقْيا . وسنكتفي بِمِثَالٍ

وَاحِدٍ : تَرَى قَبَائِل (Bassonta) فِي زامْبيا أَنَّ الْمَوْتَى يَجدُون قُرَى وضيعات عَائِلِيَة وأنهارا ، حَيْث يواصلون مِشْوار حَيَاتِهم فِي الصَّيْدِ ، وَإِقَامَة الْوَلَائِم ، والمشاجرات ، وَالزَّوَاج كَما كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي السابق" .

فَالْعَالِم الْآخَر فِي تَصَوُّرِ هَذِه الشُّعُوبُ فِي –بدائيتها– هُو مِرْآة لِلْحَيَاة عَلَى الْأَرْض مَعَ بَعْض الْمُتَغَيِرات الطفيفة ؛ فَاللَّيْل عِنْد الْإِحْيَاء هُو النَهَار عِنْدَ الْمَوْتَى ، وَالرَّبِيع عِنْدَ هَؤُلَاءِ يُقَابِلُه الشَتَاء عِنْد أُولَئِك . وَلَكِنْ مَعَ تَطَوَّر الْوَعْي الْبَشَرِيّ وَظُهُور أَسْبَاب الحَضَارَة والتمدن ، طَرَأَت تغيرات وَاضِحَةٌ مَسَّت أُسْطورَة الْعَالِم الْآخَر ، وَبَدَأَت الْفُرُوقِ بَيْنَ جَحِيمُه وفردوسه تَتَّضِح تَدْرِيجِيّا ، وَظَهَرَت أَسَاطِير كَثِيرَةٌ حَوْل "الجحيم" ، تَصَوُّرِه مَكَانًا كَئِيبًا ، وبائسا ، تَسْكُنُه مَخْلُوقَات شبحية ، بَعْدَ أَنْ تَقْطَعَ طَرِيقًا مَزْرُوعًا بالفخاخ والأحابيل .

وَلَمْ يَكُنْ سُكَّان الْجَحِيم أُنَاسًا أشرارا أَو مُذْنِبين بِالْمَعْنَى الأَخْلاقِي بِقَدْرِ مَا هُمْ أَرْوَاح بِآيِسَة ، تَاهَت طَرِيقًا أَثْنَاءِ سَفَرِهَا الجهنمي ، فَلَمْ تَكُنْ فكرِه الْجَزَاءُ أَوْ الثَّوابِ وَالْعِقَابِ قَد تَبَلْوَرَت بَعْد ، لَكِن الْخَوْفِ مِنْ الْمَوْتِ ، ومنظر الْجُثَّة البشعة ، ورهاب الْمَجْهُول هُوَ مَا سَاعَدَ عَلَى رَسْمِ صُورَة كَئِيبَة وبشعة لِلْعَالِم الْآخَر . وَكَان لأساطير الشَّرْقِ الأَوْسطِ فَضْل كَبِيرٌ فِي رَسْمِ خَرَائِط

توضيحية لِلْعَالِم الْآخَر ، وسنمثل فِي بَحثْنَا هَذَا بِبَعْضِ الْأَسَاطِير الْمِصْرِيَّة ، والإغريقية ، وَالْهِنْدِيَّة ، وَالْفَارِسِيَّة

الْعَالِم الْآخَرِ فِي الأسطوريات الْمِصْرِيَّة

تَقِف الأهرامات الْمِصْرِيَّة وَكِتَاب الْمَوْتَى دَلِيلًا عَلَى امْتِلَاك الْمِصْرِيِّين القدامى تَصَوُّرَات وَاضِحَةٌ ومتطورة حَوْل الْعَالِم الْآخَرِ الَّذِي يُعَزَّى الْكَثِيرِ مِنْ جُزْئِيَّاتِ هَذَا الْمَوْضُوعُ وَتَفَاصِيله . وَلَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ طَفْرَة بَل امْتَدَّ إِلَى تَارِيخ تَشَكَّلَت فِيهِ الرُّؤْيَةُ " الْأُخْرَوِيَّة " بِصُورَة تَدْرِيجِيَّة .

اعْتَنَى الْمِصْرِيُّون اعْتِنَاء بَالِغًا بِمَصِير مَوْتَاهُم ، فَصَنَعُوا التوابيت ونقشوها وحنطوا مَوْتَاهُم ، وَبَنَوْا الْقُبُور اسْتِعْدَادًا لِأَنّ تَنْتَقِل رَوْحٌ الْمُتَوَفَّى إِلَى عَالَم غَابَ عَنْهُ إله الشَّمْس ، فَإِذَا بِهِ مَكَانَ كَئِيبٌ مظلم" فَالْأَبْوَاب تُغْلِق ، وَالْحَفْر والتوابيت تُقْفَل ، والظلام يَهْبِط ، وَيَسْتَأْنِف النائمون نَوْم الْمَيِّتِ فِي هَيْئَةٍ المومياء ، وَتَظَل أَجْسَادُهُم مُخْفِيه ، مَخْبُوءَة فِي أَعْمَاقِ الْأَرْض ، وَلَكِن أَرْوَاحَهُم وَظِلَالُهُم تَتَبَّع طَرِيق النُّور وَآلِه الشَّمْس لِتَرَى هَذَا الْعَالِمُ فِي شَكْلِ نُجُوم أَو طُيُور مُهَاجِرَة أَمَّا أَجْسَادُهُم فتندو عَنْهَا صَيْحَة عَوِيل أَخِيرَة قَبْلَ أَنْ تُغْلِقَ توابيتها فِي الظلام" .

تُقْطَع رَوْحُ الْمُتَوَفَّى طَرِيقُهَا فِي هَذَا الظَّلَام ثُمّ تَصِلُ إِلَى مَكَان دينونتها ، لتحاكم إمَام مُحْكَمَةٌ إِلَهِيَّة يترأسها أوزريس الَّذِي يُحَاسَب الرُّوحُ عَلَى مَا جَنَّتِه فِي حَيَاتِهَا وَيُقَدَّم كِتَاب الْمَوْتَى مُشَاهَدٌ مِنْ الْمُحَاكَمَة الأوزيرية ، الَّتِي يَصِر فِيهَا الْمُتَوَفَّى ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَخْرِقْ قَوَانِين الْمُجْتَمَع وَتَعالِيمِه الصَّارِمَة عَلَى الصَّعِيدِ الاقْتِصَادِيّ ، والاجتماعي بِقَدْرِ مَا كَانَ مُلْتَزِمًا بالطقوس وَالشَّرَائِع الدَينِيَّة ، ولنسمع أَحَدُهُم يَقُول : " لَم أَغَشّ قَوَانِين الْآلِهَة ، لَم أَزَح قرابين الممجدين ، لَم ارْتَكَب الزَنَا ، لَم أدنس نَفْسِي فِي مَوْضِعٍ إِلَه مدينتي الْمُقَدَّسَة ، لَم اِنْقَضّ القرابين الْمُسْتَحَقَّة ، لَمْ أَزِدْ وَلَم أَنْقَص شِبْرًا مِنْ الْأَرْض ، لَم انْتَزَع اللَّبَن مِنْ فَم رَضِيعٌ ، لَم اِسْتَوْل عَلَى حُقُول الْآخَرِين ، لَم أَغَشّ الْكَيل ، لَم أطفف الْمِيزَان ، وَلَم اطَّرَد مِن مراعيه ، وَلَم . . . ، وَلَم . . . ، وَلَم . . . " .

تَعْكِس فكَرِه الْمُحَاكَمَة تَطَوُّرا مَلْحُوظًا فِي وَعِيّ الْبَشَرِيَّة ، وَفِي تَرْكِيبه الْمُجْتَمَع ، فكَرِه الدينونة الْمُرْتَبِطَة بظهور" الدولة" ، وإرساء قَوَاعِد الْمُجْتَمَع ، وأخلاقياته ، ولوائح قِيمَة ، وَكَان عَدَالَة الْآلِهَة فِي الْعَالَم الْآخَر هِي اسْتِمْرَار لِعَدَالَة الْمُلُوكَ فِي الْعَالَم الْأَزَلِيّ . وَلَا أَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ طَبِيعَة اعْتِرَافُ الْمَيت الَّتِي تَمَسّ الْحَيَاة بشقيها الدَينِيّ والدنيوي . وَإِذَا ثَبتَ أَنّ

الْمُتَوَفَّى كَانَ كَاذِبًا فِي اعترافاته ، فَإِنَّه سَيَلْقَى عِقَابًا شَدِيدًا ، وعادلا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يَسْتَنِدُ إِلَى مَرْجِعِيَّة صَادِقَةٌ ، أَسَاسُهَا شَهَادَة أَعْضَاء الْمُتَوَفَّى عَلَى ذَاتِهِ ، " فَأَمَّا الْقَلْب فَقَد اعْتَبَرَه الْمِصْرِيُّون الْعُضْو الْبَشَرِيّ الرَّئِيسِيّ لِلْإِرَادَة وَالرَّغْبَة ، أَنَّه الْإِرَادَة الْخِيَرَة الَّتِي تَتَحَمَّل الْمَسْؤُولِيَّة عَنْ السُّلُوكِ الرَّدِيء وَالسُّلُوك الْحِسَيّ ، وَالْقَلْب الْبَشَرِيّ يُوحِي دَائِمًا بالخطط الشَرِيرَة الَّتِي تَعَارَضَ الْقَامُوس الْمَقْدِس للخليقة ، وَفِي يَوْمِ الْحِسَابِ عَلَى الْمَيِّتِ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ قَلْبه لَن يَشِي بِسُلُوكِه السَّيِئ ، لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُؤَدِي بِهِ إِلَى الْخُلُودِ فِي العذاب" .

لَم يتفنن الْمِصْرِيُّون فِي تَصْوِيرِ إِشْكَال الْعَذَاب الجَسَدِيّ ، الَّذِي يَقُومُ عَلَى الْحَرْق ، وَالْكَيّ – كَما سنلاحظ ذَلِك لَاحِقًا فِي الثَّقَافَات الموالية– بَل تَوَعَّدْت الْمُذْنِبين بِالْحِرْمَانِ مِنْ نُورِ الْآلِهَة أُوزِيرِيس ، وَالْفَنَاء التَّامّ فـ" الْغَرَض الْحَقِيقِيَ مِنْ الرُّعْبِ الجحيمي لَيْس التَّعْذِيب الْأَبَدِيّ فِي حَدَ ذَاتِهِ أَوْ اعْتِبَارِه ضَرْبًا مِنْ التَّطْهِيرِ ، وَإِنَّمَا الْإِبْعَاد الْمُطْلَق لِكُلَ مَا هُوَ مُعَادٌ لأوزيريس وَالنَظَام الْمَقْدِس لِذَا تَتَعَرَّض شَخصِيَّات المدانين للتدمير التَّامّ وتطرح أَجْسَادُهُم لِلنِيرَان الحارِقَة ، وَبَدَلًا مِنْ الأَرِيج الَّذِي يَخْلِط بالمباركين يَحْيَا المدانون نَتْن الْجَحِيم ، وَبَدَلًا مِنْ الْقِيَامِ مِنْ الأَعْمَاقِ لِلتَّمَتُّع بِنُورِ الْآلِهَة يَسْقُط المدانون فِي الظَّلَامِ دَاخِلٌ أَعْمَاق وَهَدَأَت الْأَرْض ، وَبَدَلًا

مِنْ أَنَّ يستيقظوا ويتجددوا يَكُونُون مهددين بِالْعَدَم التَّامّ الْمُطْلَق النهائي ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَيْتَة الثَّانِيَة الَّتِي تَتَحدّث عَنْهَا أُصُول الْأَبَدِيَّة " لَقَدْ قَضَيْتَ بحذفكم وَحَكَّمت عَلَيْكُم بالإعدام" هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَات الموحشة الَّتِي يُخَاطَبُ بِهَا رع أَعْدَاءَه فِي مَرْكَز الإبادة" .

تَحْتَوِي هَذِهِ الرُّؤْيَة عَلَى بُعْدٍ تجريدي/ رُوحِي يتسامى عَن التشخيص والتجسيد وَهَذَا مَا يُعَدُّ تَصَوُّرًا سَابِقًا لأوانه . حِين انْتَبَهَت إِلَى عَذَاب الرُّوح ، مِمَّا يَسْتَوْجِب مِنْ الْإِنْسَان يكافح شَهَوَاتِه لِيُشْعِر لأَوَّل مَرَّةٍ بِنِدَاء الضَّمِير وَحِسّ الْوَاجِب فَهَذَا التَّصَوُّر يَقُوم أَسَاسًا عَلَى سَعْيٍ الْمِصْرِيِّين القدامى إِلَى ضَبْط مجتمعهم وَالْمُحَافَظَة عَلَيْهِ مِنْ نزعات الْإِنْسَان الشَرِيرَة ، فَاهْتَدَوْا إِلَى فكره "الحساب" فِي الْعَالَم الْآخَر بَعْدَ أَنْ أَدْرَكُوا أنّ الْحِسَاب وَالْعِقَاب فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يَكْفِيَانِ .

تمحورت الْمُعْتَقَدَات الْمِصْرِيَّة الْقَدِيمَة بِالْحَيَاة الْآخِرَة حَوْل مَجْمُوعِه مُتَنَوِّعَةً مِنَ الطقوس المعقدة الَّتِي تَأَثَّرَت بالجوانب الْمُتَعَدِّدَة للثقافة الْمِصْرِيَّة . كَانَ الدَّيْنُ مساهمًا رئيسيًا ، لِأَنَّهُ كَانَ مُمَارَسَة اِجْتِمَاعِيَّةٌ مُهِمَّةٌ رُبِطَت جَمِيع الْمِصْرِيِّين معًا . مثلًا ، لَعِب العَدِيدِ مِنَ الْآلِهَة الْمِصْرِيَّة أدوارًا فِي إرْشَادِ أَرْوَاحُ الْمَوْتَى إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَة . مَع تَطَوَّر الْكِتَابَة ، دُونت الْمَبَادِئ الدِينِيَّة وَانْتَشَرَت

بِسُرْعَةٍ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْمِصْرِيّ . كَانَ صَوْغُ مُتُونِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ هُوَ الَّذِي سَبَّبَ هَذِهِ الْمَبَادِئَ وَأَطْلَقَهَا ، إِذْ أَوْضَحَتْ هَذِهِ النُّصُوصُ وشرحت مَا يَحْتَاجُ الْمَوْتَى إِلَى مَعْرِفَتِهِ لِإِكْمَالِ الرِّحْلَةِ بِأَمَانٍ .

تَضَمَّنَتِ التَّعَالِيمُ الدِّينِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ ثَلَاثَ أيديولوجيات عَنْ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ : الْإِيمَانُ بِالْعَالِمِ السُّفْلِيِّ وَالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ وَوِلَادَةِ الرُّوحِ مِنْ جَدِيدٍ . كَانَ لِلْعَالِمِ السُّفْلِيِّ ، الْمَعْرُوفِ أيضًا بِاسْمِ دوات ، مَدْخَلٌ وَاحِدٌ فَقَطْ يُمْكِنُ بُلُوغُهُ عَنْ طَرِيقِ الِانْتِقَالِ عَبْرَ قَبْرِ الْمُتَوَفَّى . تَكُونَ الصُّورَةُ الْأَوَّلِيَّةُ الَّتِي سَتَظْهَرُ لِلرُّوحِ عِنْدَ دُخُولِهَا هَذَا الْعَالِمُ عِبَارَةٌ عَنْ مَمَرٍّ تصطف عَلَى جَانِبَيْهِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ التَّمَاثِيلِ المبهرة ، بِمَا فِي ذَلِكَ شَكْلٌ مُخْتَلَفٌ لِلْآلِهَةِ حورس ذُو رَأْسِ الصَّقْرِ . لَرُبَّمَا تَفَاوُتٌ المسار الْمُتَّبَعِ إِلَى الْعَالِمِ السُّفْلِيِّ بَيْنَ الْمُلُوكِ وَعَامَّةِ الشَّعْبِ . بَعْدَ الدُّخُولِ ، تُقدم الْأَرْوَاحُ لِآلِهَةٍ بَارَزَ آخَرَ وَهُوَ أُوزِيرِيس . سيحدد أُوزِيرِيس طَهَارَةَ رُوحِ الْمُتَوَفَّى ويمنح مِن يَعْتَبِرْهُ جديرًا حَيَاةً آخِرِهِ يسودها الِاطْمِئْنَانُ . غالبًا مَا كَانَ الْمَفْهُومُ الْمِصْرِيّ عَنْ « الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ » بِأَنَّهَا وِلَادَةٌ جَدِيدَةٌ إِلَى أَجَلٍ غَيْرُ مُسَمًّى . لِذَلِكَ ، تُرشد الْأَرْوَاحُ الَّتِي أَمْضَتْ حَيَاتِهَا بَرْقِي إِلَى أُوزِيرِيس لِتَوَلُّدٍ مِنْ جَدِيدٍ .

مِنْ أَجْلِ تَحْقِيق الْحَيَاة الْآخِرَة المثالية ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ إِجْرَاءِ العَدِيدِ مِنَ الْمُمَارَسَات خِلَال حَيَاةَ الْمَرْءِ . كَان امْتِلَاك صِفَةُ الْعَدْل وَاتِّبَاع معتقدات الدِيَانَة الْمِصْرِيَّة مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْمُمَارَسَات . بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، شَدَّد الْمِصْرِيُّون عَلَى الطقوس الَّتِي تُنجز بَعْدَ انْتِهَاءِ حَيَاة الْفَرْد . بِمَعْنًى آخَرَ ، كَانَت مَسْؤُولِيَّة الْإِحْيَاء تَنْفِيذ التَّقَالِيد النِهَائِيَّة الْمَطْلُوبَة حَتَّى يَتَمَكَّنَ الْمَوْتَى عَلَى الْفَوْرِ مِنْ مُوَاجِهَة مَصِيرَهُم النهائي . بِالنَّتِيجَة ، فَإِن الْحُفَّاظُ عَلَى الْأَخْلَاقِ الدِينِيَّة الْعَالِيَة مِنْ قِبل الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ عَلَى حَدَ سَوَاءٍ ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الِالْتِزَام بِمَجْمُوعِه مُتَنَوِعَةً مِنَ التَّقَالِيد يَضْمَن لِلْمُتَوَفَّى انتقالًا أَكْثَر سَلاسَة إِلَى الْعَالِمِ السُّفْلِيّ .

الْمُمَارَسَات الجنائزية

كَانَتْ هُنَاكَ العَدِيدِ مِنَ الصُّعُوبَات الَّتِي تُعِينُ عَلَى الْمَوْتَى مواجهتها قَبْل تَمَكُّنِهِمْ مِنْ الدُّخُولِ فِي المراحل النِهَائِيَّة لِلْحَيَاة الْآخِرَة . إِلَّا أَنَّهُ مِنْ خِلَالِ دَعْم الْإِحْيَاء ، تَمَكَّن الْمَوْتَى مِنْ الْحُصُولِ عَلَى الْحِمَايَة وَالْمَعْرِفَة الَّتِي يحتاجونها لِلْوِلَادَة مِنْ جَدِيدٍ فِي الْعَالَمِ السُّفْلِيّ .

المدافن

اخْتَلَف تَصْمِيم المدافن الْمِصْرِيَّة وحجمها مِن فَتْرَة إِلَى أُخْرَى ، إِلَّا أَنْ وَظِيفَتُهَا ظَلَّت كَمَا هِيَ . فِي حِينِ أَنَّ مُعْظَمَ المدافن بُنيت خِلَال حَيَاة الشَّخْص الْمَقْصُود ، فَقَد شُيدت المدافن الْمِصْرِيَّة لِإِيوَاء جَسَدِ الْمَيِّتِ ، وَلَكِنَّهَا عَمِلْت أيضًا عَلَى نَقْلِ الرُّوح إِلَى الْعَالِمِ السُّفْلِيّ . مُعْظَمُ مَا يعُثر عَلَيْهِ فِي الْمَدْفِن يُعْتَمَدُ عَلَى مَكَانِهِ الشَّخْص الْمَدْفُون بِدَاخِلِه . وَمَعَ ذَلِكَ ، مِنْ أَجْلِ مُسَاعَدَة الْمَوْتَى ، نُقشت مُعْظَم المدافن بِنُصُوص تَهْدِفُ إِلَى الْمُسَاعَدَة فِي إِرْشَادِ رَوْحٌ الْمُتَوَفَّى إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَة ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَاحٌ لِلْجَمِيع .

نُصُوص الْآخِرَة

عَلَى مَرَّ الْقُرُون ، نَقْش الشَّعْب الْمِصْرِيّ مدافنه وتوابيته بتعاويذ وَنُصُوص دِينِيَّةٍ عَلَى أَمَلِ مُسَاعَدَة الْمَوْتَى فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَة . مَع تَطَوَّر الثَّقَافَة الْمِصْرِيَّة ، تَطَوَّرَت هَذِهِ النُّصُوصُ أيضًا وَأَصْبَحَت أَكْثَر تعقيدًا واتساعًا فِي طَبِيعَتِهَا .

مُتُون الأَهْرَام

كَانَت مُتُون الأَهْرَام أَوَّل التَّعَاوِيذ الدِينِيَّةِ الَّتِي نُحتت عَلَى جُدْرَان الأهرامات الْمِلْكِيَة الْمِصْرِيَّة الْقَدِيمَة . بدءًا مِنْ عَصْرِ الدَّوْلَة الْقَدِيمَة ، اقْتَصَر نَقْش الْمُتُونِ عَلَى جُدْرَان مدافن الْفَرَاعِنَة

الْمِصْرِيِّين . إلَّا أَنَّهُ سُرْعَانَ مَا بَدَأَت الْمَلَكَات المصريات وَكِبارٌ رِجَالٌ الدَّوْلَةُ فِي اسْتِخْدَامٌ مُتُون الأَهْرَام فِي مدافنهم أيضًا . كَانَ الْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الْمُتُون مُسَاعَدَة الفرعون عَلَى إكْمَالِ رِحْلَتِه بِنَجَاح إلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَة ، مِنْ خِلَالِ نَقَل الْمَعْرِفَة إلَى الْمُتَوَفَّى حَوْل المسارات الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَسْلُكُهَا وَالْمَخَاطِر الَّتِي قَدْ يُوَاجِهَهَا عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ .

نُصُوص التوابيت

فِي فَتْرَةِ الْمَمْلَكَة الْوُسْطَى ، استُبدل بمتون الأَهْرَام نُصُوص التوابيت . كَانَت نُصُوص التوابيت عِبَارَةٌ عَنْ تَعَاوِيذ نُقشت فِي تَوَابِيتَ الْمَوْتَى . كَانَ مِنْ الْمُفْتَرض أَن تَحْمِي الْمُتَوَفَّى فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَة وتزوده بِسَحَر الِانْتِقَال الَّذِي يَحْتَاجُهُ طِوَال رِحْلَتِه . بِشَكْلٍ عَامً ، كَانَت نُصُوص التوابيت هَذِه متاحة لِلْجَمِيع ، مِمَّا وَفَرّ لِلْعَامَّةِ فِي مِصْرِ الْفُرْصَة لِبُلُوغ حياةٍ لَائِقَة بَعْدَ الْمَوْتِ . مِنْ الْمُهِمّ أيضًا مُلَاحَظَةُ أَنَّ مَجْمُوعِه نُصُوص التوابيت الْمَعْرُوفَةِ بِاسْمِ كِتَاب الطَّرِيقَيْن كَانَتْ بِمَثَابَةِ أَوَّلُ دَلِيلٍ مَرْجِعِي إلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَة .

كِتَاب الْمَوْتَى

كَان كِتَاب الْمَوْتَى عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِه كَبِيرَةً مِنْ التَّعَاوِيذ الَّتِي تَضَمَّنَتْ عباراتٍ مِنْ مُتُونٍ الأَهْرَام وَنُصُوص التوابيت . فِي عَصْرِ الدَّوْلَة الحَدِيثَة ، كَان كِتَاب الْمَوْتَى يُدون عادةً عَلَى وَرقٍ الْبَرْدِيّ . لَكِنْ يُمْكِنُ إِيجَادُهُ أيضًا عَلَى جُدْرَان المدافن والتوابيت وَدَاخِل لَفَائِف التَّحنيط الَّتِي تَغَلُّفٌ المومياوات . كَنُصُوص التوابيت ، اسْتَفَاد الْجَمِيع مِنْ التعويذات الْمُوضِحَةِ فِي كِتَابِ الْمَوْتَى . قَدَّمْتُ هَذِهِ التَّعَاوِيذ التَصِيحَة وَالْحِمَايَة وَالْمَعْرِفَة لِلْمَوْتَى أَثْنَاء انْتِقَالِهِم إِلَى الْعَالِمِ السُّفْلِيّ .

كُتُبِ الْعَالِمِ السُّفْلِيّ

احْتَوَت كُتُب الْعَالِمِ السُّفْلِيّ عَلَى نُصُوص مُتَعَدَدَة زودت الْمُتَوَفَّى بِوَصْف لِلْعَالِمِ السُّفْلِيّ وَكَانَت بِمَثَابَة دَلِيلٌ لِمُسَاعَدَة الْمَوْتَى خِلَال رحلتهم الْأَخِيرَة . نظرًا لِاعْتِبَار أَنَّ الْمُتَوَفَّى يُحَاكِي دَوْرُه ولَادَة رع مِنْ جَدِيدٍ أَثْنَاء انْتِقَالِه إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَة ، فَقَد رُكِزَت هَذِهِ النُصُوصُ بِشَكْل أَسَاسِيٌّ عَلَى النَصْفِ الثَّانِي مِنْ رَحْلِهِ إِلَه الشَّمْس ، الَّذِي أَخَذَتْهُ إِلَى الْعَالِمِ السُّفْلِيّ ليلًا . قسّمت كُتُب الْعَالِمِ السُّفْلِيّ السَابِقَة ، وَالَّتِي شَمَلَت كِتَاب الْآخِرَة وَكِتَاب البوابات ، وَصْفِهَا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ جزءًا ، وترمز إِلَى الِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً الَّتِي يُمْضِيهَا إِلَه الشَّمْس فِي الْعَالَمِ السُّفْلِيّ .

اُسْتُخْدِمَت كُتُب لَاحِقَةٌ ، مِثْلِ كِتَابِ الكهوف وَكِتَاب الْأَرْض ، منهجًا أَكْثَر تقسيمًا عِنْدَ تَقْدِيمِ وَصُوفُهَا . تَحْتَوِي جَمِيعِ هَذِهِ الْكُتُبِ عَلَى رُسُومٌ إيضاحية مُعَقَّدَة لِلْعَالِمِ السُّفْلِيّ ، وَيُمْكِن رُؤْيَتِهَا مَنْحُوتَةٌ عَلَى تَوَابِيت وَجُدْرَان المدافن .

كتب السَّمَاء

تَأَلَّفَت « كُتُب السَّمَاء » مِنْ ثَلَاثَةِ نُصُوص عَنْ الْآخِرَةِ هِيَ : كِتَاب نَوت وَكِتَاب النَهَار وَكِتَاب اللَّيْل . أَكْدَت هَذِهِ النُصُوصُ المنحوتة عَلَى أُسْقُف المدافن عَلَى الدُّورِ الَّذِي لعبته الْآلِهَة نَوت فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَة الْمِصْرِيَّة .

التوابيت

يَعُود تَارِيخ التوابيت فِي الثَّقَافَةِ الْمِصْرِيَّة إِلَى عَصْرِ الدَّوْلَة الْقَدِيمَة . خِلَال هَذِه الحِقْبة ، كَانَت التوابيت بَسِيطِه نسبيًا ؛ صُنعت عَلَى شَكْلِ مُتَسَاوِي أَضْلَاع مَع تَفَاصِيل بَسِيطِه . تَضَمَّنَت ثَلَاث فَتَحَاتّ ، كَانَت إِحْدَاهَا مِنْ أَجْلِ عُبُور آلِكَا (الجوهر) مِنْ خِلَالِهَا وَاثْنَتَان تمثلان الْعُيُون . وَمَعَ ذَلِكَ ، بِمُرُور الْوَقْت تَطَوَّرَت التوابيت وهياكلها . بِحُلُول عَصْر الدَّوْلَة الحَدِيثَة ، ازْدَادَت شَعْبِيَّةٌ التوابيت فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمِنْطَقَة ، ووُزعت لِلْبَيْع أيضًا . أَصْبَح جَسَد الْمُتَوَفَّى مُمثلًا

بالتابوت إذْ كَانَ لَهُ شَكْلٌ مُحَدَّد وزُين بملامح تُشْبه الْفَرْدِ الَّذِي بِدَاخِله . غالبًا مَا صُوّر الْمُتَوَفَّى بِمَلَابِس بَيْضَاء ، لِأَنَّهَا تَمَثَّل نَقَاء الرُّوح بَعْدَمَا أُصدر حُكْمُهَا فِي قَاعَةٍ ماعت . بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، كَان تَوْجِيه الْمُتَوَفَّى مهمًا جدًا بِالنَسْبَة لِقُدَمَاء الْمِصْرِيِين . فِي الْفَتَرَات الْأُولَى ، كَان الْجَسَد يُوضَعُ عَلَى جَنْبِهِ فورًا وَرَأْسُه مُوَجّهٌ إِلَى الجَنُوب . تُغَيَرَ هَذَا الْأَمْر لاحقًا مِنْ خِلَالِ وَضَع الْجَسَد مسطحًا عَلَى ظَهْرِهِ ، فَأَصْبَح الشَمَال موقعًا أَكْثَرُ مُلاءَمَةً لإرقاد رَأْس الْمُتَوَفَّى .

التَّحنيط

كَان التَّحنيط مُمَارَسَة تَبَنَّاهَا المِصْرِيُّونَ القُدَماءُ لِأَنَّهُم اعْتَقَدُوا أَنَّهُ مِنْ الضَّرُورِيَ الْحُفَّاظُ عَلَى الْجَسَدِ حَتَّى يُولَدَ الْمَوْتَى مِنْ جَدِيدٍ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَة . فِي الْبِدَايَةِ ، اعْتَقَد الْمِصْرِيُّون أَنَّ أَجْسَادَهُمْ الْمَادَيَّة ، أَو الخات ، كَما رع ، سَوْف تَسْتَيْقِظ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ أَنْ تُكْمِلَ رِحْلَتِهَا عَبَر الْعَالِم السُّفْلِيّ . بِمُجَرَّدِ أَنَّ أَدْرَكَ الْمِصْرِيُّون أَن جُثَثَ مَوْتَاهُمْ سَوْف تَتَحَلَّلُ فِي النَهَايَةِ ، بَدَءُوا فِي رُؤْيَةِ رَفَاُت الْمَوْتَى كَإِنَاء لِرُوح الْمُتَوَفَّى . قُطع الْجَسَد لأشلاء ولُف بضمادات لحمايته ، فِي حَالِ قَرَرْت الرُّوح الْعَوْدَة .

قرابين الْجِنازّة

بالنّسْبَة للعديد مِنْ الْمِصْرِيّينَ ، كَان يُنظر إِلَى الْقَبْرِ عَلَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ لِلْمَوْتَى ، لِذَلِكَ كَانَ مِنْ الْمُعْتَادِ تَرَكَ القرابين بِالْقُرْبِ مِنْ جُثَّة الْمُتَوَفَّى . اعْتَقَد الْمِصْرِيُّون أَنَّهُ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِ الْمَرْء ستعيش رُوحَه لِأَنّ طَاقَة حَيَاتِه عِبَارَةٌ عَنْ كِيان مُسْتَقِلٌّ يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْ الْجَسَدِ . سُمَيَت طَاقَة الْحَيَاة هَذِه بالكا ، واعتُبرت جزءًا مِمَّا اعْتَقَد الْمِصْرِيُّون أَنَّه الرُّوح الْخَالِدَة . كَانَت البا جزءًا آخَرَ مِنْ الرُّوحِ وَتَمَلُّك قَدَرَه أَكْثَرَ عَلَى الْحَرَكَةِ وَتَسْكُن دَاخِلٌ آلِكَا . شَمَلَت القرابين الَّتِي تُركت لِلْمَوْتَى الْمَلَابِس وَالْحُلِيّ الثَّمِينَة . وَمَعَ ذَلِكَ ، كَانَ أَهَمَّ قُرْبَان هُوَ الطَّعَامَ ، لِأَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْفِصَالِ آلِكَا عَنِ الْجَسَدِ إِلَّا أَنَّهُ لَا زَالَ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَمُوتَ جوعًا .

الْعَالِم الْآخَرِ فِي الأسطوريات البابلية

يُمْكِنُ أَنْ نستخلص مَلامِح الْعَالِم الْآخَرِ فِي بِلَادِ الرافدين وَخَاصَّةً فِي عَصَرَهَا الْبَابِلِيّ انْطِلَاقًا مِن أَثَرَيْن عالميين ، كَانَ لَهُمَا وصمتهما الْخَاصَّة قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بأسطورة عِشْتار ، وَقِصَّة هبوطها إِلَى الْعَالِمِ السُّفْلِيّ بَحَثًا عَنْ حبيبها تَمُوز ، وملحمة جَلْجامِش ؛ الْمَلِك الْبَابِلِيّ الَّذِي سَافَرَ إِلَى الْعَالِمِ الْآخَر بَاحِثًا عَنْ الْخُلُود وَالنَّعِيم الْأَبَدِيّ .

عِشْتار أَو عشتروت آلِهَةُ الْحبّ ، وَالْجَمَال ، وَالحَرْب فِي الأسطوريات البابلية ، تَقَابَل إنانا السومرية ، وأفروديت الْيُونَانِيَّة ، ، وفينوس الرومانية تَقُول الأُسطورة "إن عِشْتار هَبَطَت إِلَى الْعَالِمِ السُّفْلِيّ ، وَبَعْدَ أَنْ جَاوَزَت الْأَبْوَاب السَّبْعَة وَخَلَعَت عِنْدَ كُلَ بَابٍ مِنْهَا مَا كَانَتْ تَتَحَلَّى بِهِ مِنْ ثِيَاب وَجَوَاهِر حَتَّى وَصَلَتْ عَارِيَّة إِلَى قَاعَة الْمُحَاكَمَة ، هُنَاك حَكَمت عَلَيْهَا نيرشكيغال وَزَوْجُهَا نيرجال بِالْمَوْت الْأَبَدِيّ ، غَيْر أَنْ "إيا" إلَه الْمَاء وَالْحِكْمَة ، أَرْسَل مَاءُ الْحَيَاةِ ليبعثها مِن مَوْتِهَا ، فاستعادت ملابِسَها وجواهرها عِنْد الْأَبْوَاب السَّبْعَةِ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهَا إِلَى سَطْحِ الأَرْضِ وَتَرَكْت وَرَاءَهَا تَمُوز يَحِلّ مَحَلَهَا بَيْن الموتى" .

تَدُلّ هَذِه الأُسطورة عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ الْآخر مَكَان كَرِيه ، وموحش ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ دُخُولِه أَوْ زِيَارَته مُؤَقَّتًا بِمَا فِي ذَلِكَ الْآلِهَة ، أَيْ أَنَّهُ مَكَانٌ اللارجوع ، فَلَا بَعَث ، وَلَا نُشُور ، وَلَا عَوْدُهُ إِلَى الْعَالِمِ الْأَرْضِي كَمَا تَدُلُّ فكَرِه "المحاكمة" الَّتِي تديرها الْآلِهَة نيرشكيغال وَزَوْجُهَا عَلَى وُجُودِ معايير أَخْلاقِيَة لمحاسبة الْمَوْتَى ، وفرزهم بَيْن أَشْرَار وأتقياء ، وَهَذَا مَا تَجَلَّى فِيمَا بَعْدُ فِي شَرَائِعَ حامورابي الَّتِي تَعُودُ إِلَى عَامَ 1750 ق . م وَقَد صيغت فِي شَكْلِ اِسْتِنْطاقٌ واعترافات تَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّمَاءَ تَفْتِيَ فِي شُؤُونِ الْأَرْض ، وَأَنَّ مَنْ يُخَالِفُ الْقَوَانِين الاجْتِمَاعِيَّة

فَكَأَنَّه اِخْتَرَق القَانُون الْإِلَهِيّ الْكَونِيّ ، لِذَا سَيَكُون مَصِيرَه تعيسا فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ لَا يَمْلِكُ مِنْهَا فِكَاكًا أَو تلطيفا .

أَمَّا مَلْحَمَةٌ جَلْجامِش فتروي قِصَّة الْمَلِك الْبَابِلِيّ جَلْجامِش فِي رَحْلِه بَحثَه عَن الْعَالِم الْآخَرِ بَعْدَ أَنْ فَجَّع بِمَوْت صَدِيقِه أنكيدو ، وَقَدْ تُعْرَفُ إِلَى حَقِيقَةٍ مُذْهِلَة اسْمُهَا الْمَوْت / الْفَنَاء ، فسينتهي بِهِ الْمَطَافُ كَما

انْتَهَى بأنكيدو ، إِلَى مَكَان ضَيِّقٍ بَائِس :

إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي لَا يَرْجِعُ مِنْهُ مِنْ دَخَلَهُ

إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي لَا رَجْعَةَ لسالكه

إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي حَرَّمَ ساكنوه مِنْ النُّورِ

حَيْث التُّرَاب طَعَامِهِم وَالطِّين قُوتِهِم .

هُرُوبًا مِنْ هَذَا الْمَصِير المأساوي رَاح جَلْجامِش يَبْحَثُ عَنْ أَسْبَابِ الْخُلُود وَالنَّعِيم الدَّائِم ، وَقَادَه الْبَحْثُ إِلَى جَنّةِ الْخُلْدِ ، حَيْث يُقِيم أتونبشتم مَع زَوْجَة ، وَيَذْهَل جَلْجامِش بِمَعْرِفَة

حَقَائِق مُفْزِعَةٌ ، أَوَّلُهَا أَنْ الْخُلُودَ قَدْر إِلَهِي اخْتَصَّتْ بِهِ الْآلِهَة دُون الْبَشَر ، وَمَا أتونبشتم إِلَّا حَالَة اسْتِثْنَائِيَّةً تَوَكَّد الْقَاعِدَةِ وَلَا تَنْفِيهَا ، وَثَانِيهَا أَنَّ مَا مِنْ جَنَّة خَلَد وَلَا فِرْدَوْس مَوْعُود يَنْتَظِر الْإِنْسَانُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، إِذَنْ لَا يَتَحَقَّقُ الْخُلُود إِلَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِح وَمُعَاطَاة الْعِلْم وَالْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَة .

أَن أُسْطورَة عِشْتار وجلجامش هِي انْتِصَار لِلْحَيَاة عَلَى الْمَوْتِ ، وللوجود الدُّنْيَوِيّ الزَّائِل عَلَى الْخُلُودِ الوهمي الْأَبَدِيّ ، لِذَا قَرَّر جَلْجامِش أَنْ يَعِيشَ حَيَاتِه الزَّاهِنَة بَدَلًا مِنْ الْخُلُودِ فِي جَنَّةِ أتونبشتم وَزَوْجِه ، أَيْ إِنْ يَعِيشَ عَالِمَة الْأُخْرَوِيّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ .

الْعَالِم الْآخَرِ فِي الأسطوريات الإغريقية

كَانَتْ هَذِهِ الأُسطورة فِي الْبِدَايَةِ ضَبابِيَّة ، غائمة ، فَلَم تشر الْأَسَاطِير الْيُونَانِيَّة إِلَّا إِلَى مَكَان ذِي أُصُول مِصْرِيَّة يُسَمَّى "تارتار . " يُرْبَط بَوْل غيسوني (Paul GHISONI) بَيْن تارتار وداردروت الْمِصْرِيَّة ، وَهِيَ كَلِمَةٌ مُوحِيَة تَدُلُّ عَلَى الْبَيْتِ الْأَبَدِيّ ، كَما تَعْنِي حُفْرَةً فِي شَكْلِ جَرَّه تَنْتَهِي بِعُنُق ضِيق تَخْرُجُ مِنْهُ جذُور الْعَالِم " .

وَظِلّ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ ظَهَرَتْ الأورفية (ORPHISME) فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ قَبْلَ المِيلاَدِ ، كَرَدّ فِعْلٍ عَلَى سِلْسِلَة الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّة الَّتِي عَمَّتْ الْمُدُن الدَّاخِلِيَّة الإغريقية ، فَجَاءَت هَذِهِ الْحَرَكَةُ تِيَارًا دِينِيًّا قَوِيًّا يُحَاوِلْ أَنْ يَتَعَالَى عَلَى هزائم الْوَاقِع وانكساراته بِخَلْق عَالَمٍ آخَرَ بُدَيْل ، يَنْعَم فِيه الصَّالِحُون بِنَعِيم أَبَدِي ، وَيُعَانِي فِيه الْمُذْنِبُون عِقَابًا مُقِيمًا .

تَفَرَّغَت هَذِهِ الْعَقِيدَةِ لِلْعَالِم الماورائي تفرغا تَامًّا ، وَوَضَعَت نَصَب عَيْنَيْهَا أَنْ تُسَهّل الطَّرِيق لِرُوح الْمُتَوَفَّى كَي تَصِل بِسَلَام إِلَى مَمْلَكَة الْمَوْتَى فـ"كان عَلَى مُعَلِمِي الأورفية أَن يلقنوا الرّوح مَا ستفعله لتهبط بِسَلَام وَمَا سَوْف تَقُولُه لحراس الْعَالِم الْآخَر حَتَّى يَسْمَحُوا لَهَا بِالْمُرُور ، وَالِاسْتِقْرَار فِي أَرْض الْأَبَدِيَّة وَالْخُلُود ، وَلَقَد تَبَلْوَرَت هَذِه التعليمات فِيمَا يُسَمَّى بـ ''الألواح الذهبية'' أَو "الألواح الأورفية" الَّتِي كَانَتْ تُوضَع مَعَ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِه ، أَوْ تَعَلَّقَ فِي عُنُقِه عَلَى هَيْئَةِ تمائم لِتَكُون مرشدة فِي عَمَلِيَّة النُّزُولُ إِلَى الْعَالِم الْآخَر " ، وَهَذَا مَا يَتَشَابَه إِلَى حَدَ كَبِيرٌ مَعَ كِتَابِ الْمَوْتَى ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَثَرِ الْمِصْرِيّ فِي الميثولوجيا الإغريقية .

الْعَالِم الْآخَرِ فِي الأسطوريات الْهِنْدِيَّة

اِهْتَمَّت البُوذية بتشكيل تَصَوُّرَات أسطورية/ دِينِيَّة عَن الْعَالِم الْآخَر ، فَكَان ثَمَّة اعْتِقَاد بِالسَّفَر الجهنمي ، وَالْمُحَاسَبَة ، وجلسات الْمُحَاكَمَة ، وميزان الْأَعْمَال ، وَكَانَ هُنَاكَ تَنْوِيعات جُغْرَافِيَّةٌ لخريطة الْعَالِم الْآخَر ، كَما تفننت الْأَسَاطِير فِي رَسْمِ عذابات الْأَرْوَاح الشقية ، وَنُعَيْم أَرْوَاح المباركين ، فروت كَيف "تتوجه الرُّوحَ بَعْدَ الْوَفَاةِ أَمَّا لِلْجَحِيم الَّذِي يَقْتَضِي تمثيلات لِنِظَام مُرْعِب بِوَاسِطَة الْحَيَوَانَاتِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوص ، وَأَمَّا نَحْوُ دَرَجَةً مِنْ دَرَجَاتِ الْفِرْدَوْس الْمَوْجُودِ فِي الْقَمَرِ انْتِظَارا لميلاد نِظَام رَاق ، وَيُسَمَّى هَذَا الدَّرْب "الدرب القمري" أَو "طريق الآلهة" لِأَنَّ الشَّمْسَ تَسْمَحُ لَهُمْ بِالْوُصُولِ إِلَى الْعَالِم المتسامي للبراهمان" .

وتختصر الْأَسَاطِير الْهِنْدِيَّة حَدِيثِهَا عَن الْفِرْدَوْس ، لِتَتَفَرَّغ فِي إِبْدَاعٌ تَصَوُّرَات خَارِقَةٌ حَوْل عَذَابٌ الْأَشْقِيَاء فِي جَهَنَّمَ "يوجد عَدَدٌ لَا يُحْصَى مِنْ المواصفات الَّتِي ابْتَدَعَهَا الهندوس حَوْلِ وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ جحيما ، فالمذنبون تنهشهم أَفَاعِي ومخلوقات متوحشة ، كَما أَنَّهُمْ يشوون بعناء ، ويقطّعون بِالْمَنَاشِير ، ويجهدهم الْجُوعِ وَالْعَطَشِ ، وَيَغْلُّون فِي الزَّيْتِ ، أَو يهرسون فِي مقامع مِنْ حَدِيدٍ أَوْ حجر" .

تَلاَشَت هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ الأسطورية لِلْعَالِم الآخر فِي الحَضَارَة الْهِنْدِيَّة بِحُلُول "نظرية التناسخ" الَّتِي آمَنْت بِأَن النَفْس تَمُوت وَتُوَلَد بِصُورَة تكرارية ، لانِهائِيَّة ، وَيَكُون انْتِقَال الرُّوحُ مِنْ جَسَدٍ إِلَى آخر عَلَى قَدْر الْفَضَائِل أَوْ الذُّنُوب الَّتِي ارْتَكَبهَا الْإِنْسَان فِي التجسيد السَّابِق ، فَمَن ثَقُل مِيزَان سَيِّئَاتِه حلّت رَوْحَةٌ فِي جَسَدٍ كَلْبٍ أَوْ خِنْزِيرٍ أَوْ دُودَةٍ أَرْضٍ أَوْ حَشَرَةٌ ، وَمَن ثَقُل مِيزَان حَسَنَاته ، حَلَّت رُوحه بِجَسَد قِدِيس أَو نَاسِكٌ ، وَيُمْكِن لِلرُّوح أَن تَتَخَلَّص مِنْ هَذَا التَّحَوُّل الْمُمِلّ إِذَا تَخَلَّصْت مِن إِغْلَال الْوَاقِع المادي ، واستطاعت أَن تتّحد مَع الرُّوح الْمُطْلَق ، فَتَبْلُغ النيرفانا ، أَوْ حَالَة الْغِبْطَة النَهَائِيَّة ، وَلَا يتمّ هَذَا الْأَمْر بِسُهُولَة ، بَل يَسْتَلْزِم كِفَاحًا مُتَطَرِّفا لِضَبْط النَفْس وَتَهْذِيب الْجَسَد ، فتنعتق الرُّوح مِنْه ، وَتَتَسَاقَط الْخَطَايَا عَنْ عَاتِق الْإِنْسَانُ الَّذِي آمَنَ بفرديته ، ومسؤوليته التَّامَّة عَنْ أَخْطَائِهِ ، وَعَن اخْتِيَارَاته الأَخْلاَقِيَّة ، لِذَا فـ "فكرة التَّضْحِيَة والقرابين الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَقَدَّمَ للآلهة حَلّ مَحَلَهَا التَّفْكِير باتّباع نِظَام أَخْلاَقِيٌّ صَارِمٌ لِضَبْط النَفْس وللتأمل ، وَبِذَلِك تَتَّحِد الذَّات الْبَاطِنِيَّة الْعَمِيقَة لِلْفَرْد مَع الرُّوح الْمُنْطَلِق أَوْ الْحَقِيقَةِ الخالدة" .

كَانِ "العالم الآخر" بِالنَسْبَةِ إِلَى الحَضَارَة الْهِنْدِيَّة لَعْنَة لَا بُدَّ مِنْ التَّخَلُّص مِنْهَا ، إِمَّا عَنْ طَرِيقِ الِاتِحَاد بِالْمُطْلَق ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الْحِكْمَة ، وَالْأَخْلَاق ، وَالْمَعْرِفَة ، وَلَعَلّ مَرَدّ هَذِهِ الرُّؤْيَة التشاؤمية لِلْحَيَاة الماورائية هُو بُؤْس الظُّرُوف الْإِنْسَانِيَّة الَّتِي عَاشَهَا الْهِنْد ، فأصرّ عَلَى الْخَلَاص إصرارا مُنْقَطِعٌ النَظِير

لَا تَكَادُ حَضَارَةٌ قَدِيمَةٌ فِي الْعَالَم تَخْلُو مِنْ أَسَاطِير حَوْل الْعَالِم الْآخَر ، وَقَد أسهمت مُجْتَمِعَةً فِي تَأْثِيثٌ هَذَا الْعَالِمُ الماورائي وَفْق تَصَوُّرَات ميثيولوجية ، عجائبية ، تُسْتَمَدّ جُزْئِيَّاتِهَا مِن الْوَاقِع الْعَيْنِيّ . إِذَا كَانَ الْمَاءُ ، وَالْخُضْرَة ، وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ قواسم مُشْتَرَكَةٍ فِي أَسَاطِير الْفِرْدَوْس خَاصَّةً عِنْدَ أُمَمٌ الشَّرْقِ الأوْسطِ وَالْأَدْنَى الَّتِي عانت مِنْ حَرَارَةِ الْمُناخ ، وَكَانَت النَار ، والقارب ، وَالْكِلَاب ، والأفاعي ، ومقامع الْحَدِيد هِي موتيفات أَسَاطِير الْجَحِيم خَاصَّةً عِنْدَ الحضارات الَّتِي عانت مِنْ الْبَرْدِ وَالْجَلِيد ، كُنَا متعمّدين أَنْ تَكُونَ الشَّوَاهِد وَالْأَمْثِلَة مِن حضارات مُخْتَلِفَةٌ دُونَ أَنْ نَلْتَفِتْ إِلَى الْأَسْبَق إلاّ مَا جَاءَ عَرْضًا فَكُلّ ثَقَافَةٌ قُدَمَت تجربتها ، وتصوراتها لإثراء هَذِه الأُسطورة الْإِنْسَانِيَّة ، الْكَوْنِيَّة .

تجدر بِنَا الْإِشَارَةُ إِلَى نُقْطَة هَامَة ، فَقَد لاحظنا أَن أَسَاطِير الْجَحِيم كَانَتْ أَكْثَر حُضُورًا ، وثراء ، وتنوعا مِن أَسَاطِير الْفِرْدَوْس ، وَلَعَلّ الْخَوْفِ مِنْ الْمَوْتِ ، ومنظر الْجُثَّة البَشِع ، ورهاب الْمَجْهُول هُوَ مَا سَاعَدَ عَلَى رَسْمِ صُورَة كَئِيبَة وبشعة لِلْعَالِم الْآخَر ، أَوْ لَعَلَّ الْخَيَال الْبَشَرِيّ يَكُونُ أَكْثَر توقدا وإبداعا وَهُو يَصِف مَناظِر التَّرْهِيب ، وَالْعَذَاب ، وَالدَّمَار "فما مَعْنَى كُلَ هَذَا ؟ ألأنّ الْإِنْسَان جَبَّار يتعشّق الْحَيَاة الصاخبة ، وَالتَّبْدِيل ، وَالتَّغْيِير ، فَقَدْ وُجِدَ ضَالَّته فِي جَهَنَّمَ ، وَأَلْفَى السماء/الفردوس رتيبة ومملة ؟ أَم لِأَنَّه جَبَانٌ ، يذعن للترهيب أَكْثَر مِمَّا يُصْغِي إِلَى التَّرْغِيب ، فَكَانَ عَلَى خدّام الْإِيمَانِ أَنْ يَعْمَلُوا فِي هَذَا الِاتِّجَاهُ ؟ " .

فِي الْمُعْتَقَدَاتِ الدِّينِيَّة الْقَدِيمَة

الْيَوْمِ الْآخِرِ فِي الْأَدْيَانِ الصِّينِيَّة

تَعَدَّدَت الْأَدْيَان الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا الصَينِيَّة مِن دِيَانَات شَعْبِيَّةٌ لفلسفات أَخَذَت شَكْل الدَين الإحيائية الأرواحية : هِي الِاعْتِقَاد بِوُجُود الْأَرْوَاحِ وَإِنْ أَي نِظَام حَيَ أَوْ كَائِنٍ أَوْ حَتَّى الْمَوَادّ الْجَامِدَة أحياناً تمتلك نوعاً مِنْ الرُّوحِ مِثْل الْحِجَارَة ، وَالنَبَاتَات ، وَكَذَلِكَ فِي الظَّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّة مِثْلُ الرَّعْدِ .

أَن الأرواحية لَا تُؤَمَّنَ بِالْحَيَاة الْخَالِدَة ذَات النَعِيم الأبديّ أواللعنة الْأَبَدِيَّة . وَفِي وَجْهه نَظَرُهَا لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ جَحِيم مُلْتَهب كَذَلِكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَاب .

الشامانية : دَيْنٌ بَدَائِيٌّ يَتَمَيَّز بِالِاعْتِقَاد بِوُجُود عَالِمٌ مَحْجُوبٌ هُوَ عَالِمٌ الْآلِهَة وَالشَّيَاطِين وَأَرْوَاح السَّلَف . وَأَنَّ هَذَا الْعَالِمُ لَا يَسْتَجِيبُ الاّ للشامان وَهُو كَاهِنٌ يَسْتَخْدِم السَحْر لِمُعَالَجَة الْمَرْضَى وَلِكَشْف المخبأ وَالسَّيْطَرَة عَلَى الْأَحْدَاثِ وَلَم تَتَطَرَّق هَذِه الدَيَانَة لِلْعَالِم الْآخَر

الشنتوية : لَيْس لِعَقِيدَة التَّوْحِيد مَكَان فِي الشنتوية ، فَبِسَبَب تَعَدَّد الْمَظَاهِر الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تتجلى فِيهَا الْقُوَى الْإِلَهِيَّة ، وَيُمْكِن لِأَيَ شَخْص إنْ يُعَيَنَ أَلَهَتْه الْخَاصَّة . لَا يُوجَدُ فِي الشنتوية حَيَاة بَعْدَ الْمَوْتِ ، يُعْتَبَر جَسَد الشَّخْص الْمَيَتِ شَيْئًا مُدَنَّسا ، تَنْطَلِق رُوحُ الْمَيَتِ ، بَعْدَ أَنْ تَتَحَرَّر مِن جَسَدِهَا المادي فتندمج مَع قُوَى الطَّبِيعَة .

طاوية : شَكْل آخَرَ مِنْ إشْكَال التَّضْحِيَة هُو حَرَق وَرَق الجوس ، بِافْتِرَاض أَنَّ الصُّوَرَ الَّتِي تَحْتَرِق سَتَظْهَر مَرَّةً أُخْرَى –ولكن لَيْس كَصُورَة مُجَرَّدَة ، بَل كعنصر حقيقي– فِي عَالَم الْأَرْوَاح ، مِمَّا يَجْعَلُ الْأَجْدَاد والأحباء الَّذِين غَادَرُوا متاحين مجدداً .

وَتَتَمَثَّل المؤشرات غَيْرِ الْمَرْئِيَّةِ فِي أَرْوَاحِ الْأَجْدَاد ، ضَامِنَةٌ اِسْتِمْرارِيَّة حَيَاة الْقَبِيلَةُ أَوْ الْعَشِيرَة الْمُنْتَمِيَة إِلَيْهِم ، وَفِي أَرْوَاحُ الْمَوْتَى بِصِفَةٍ عَامَّةٍ ، وَفِي الطلاسم والتَّعاوِيذ الَّتِي يَصْنَعُها الْكُهَان ، زَاعِمِين أَنَّهَا ذَاتُ فَعَالِيَّةٍ عَالِيَة لمقدرتها عَلَى تَغْيِيرِ مَجَارِي الْأُمُورَ الطَّبِيعِيَّة ، وَخَلْقٌ الظُّرُوف الْحَسَنَة أَو السَّيِّئَة .

فأساس فَكَرِه عُبَادَة أَرْوَاح الْأَسْلَاف . الَّتِي يُعتقد أَنَّهَا وَسِيطِه بَيْنَ الْأَحْيَاءِ والآلهة وَأَنَّهَا شَفِيعَه . هُوَ أَنْ الْحَيَاةَ عَلَى الْأَرْضِ لَا تَتَوَقَّفُ بِمُفَارَقَةِ الرُّوحِ لِلْجِسْم ، بَلْ هِيَ اسْتِمْرَار سَرْمَدِي للفعالية وَالحَيَوِيَّة ، إِذْ لَيْسَ الْمَوْت حدثًا يُسَبَب قَطْعُ الصَّلَاةِ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ، إِنَّمَا هُوَ غَفْوَة وارتخاء مِنْ جَرَّاءِ ضَعْضَعَة فِي الْقُوَةِ الحيوية .

الْيَوْمِ الْآخِرِ فِي الدِّيَانَةِ الهندوسية

تَظْهَر مُعْتَقَدَاتِهم فِي " الكارما " ، وَتَنَاسُخ الْأَرْوَاح ، والانطلاق ، وَوَحْدَة الْوُجُود :

I- " الكارما " : قَانُون الْجَزَاء ، أَيْ إِنْ نِظَام الْكَون إِلَهِي قَائِمٌ عَلَى الْعَدْلِ الْمَحْض ، هَذَا الْعَدْلِ الَّذِي سَيَقَع لَا مَحَالَة ، أَمَّا فِي الْحَيَاةِ الْحَاضِرَة ، أَوْ فِي الْحَيَاةِ القَادِمَة ، وَجَزَاء حياةٍ يَكُونُ فِي حَيَاةِ أُخْرَى ، وَالْأَرْض هِيَ دَارٌ الِابْتِلَاء ، كَمَا أَنَّهَا دَارُ الْجَزَاءِ وَالثَّوَاب .

2- تَنَاسُخُ الأَرْوَاحِ : إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ يَفْنَى مِنْه الْجَسَد ، وتنطلق مِنْهُ الرُّوحُ لتتقمص وَتَحِلّ فِي جَسَدٍ آخَرَ بِحَسَبِ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمِلَ فِي حَيَاتِهِ الْأُولَى ، وتبدأ الرُّوحُ فِي ذَلِكَ دَوْرُه جَدِيدَة .

3- الِانْطِلَاق : صَالِح الْأَعْمَال وَفَاسِدُهَا يَنْتُجُ عَنْهُ حَيَاة جَدِيدَة مُتَكَرِّرَة لتثاب فِيهَا الرُّوحَ أَوْ لتعاقب عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّمْت فِي الدَّوْرَةِ السَّابِقَة .

- مَنْ لَمْ يَرْغَبْ فِي شَيْءٍ وَلَنْ يَرْغَبُ فِي شَيْءٍ وَتَحَرَّر مِنْ رِقَ الْأَهْوَاء ، وَاطْمَأَنَّت نَفْسِه ، فَإِنَّهُ لَا يُعَادُ إِلَى حَوَاسَه ، بَل تَنْطَلِق رُوحَه لتتحد بالبراهما .

الكونفوشيوسية

خَلَت تقريبًا مِن التَّطَرُّقَ إِلَى مَسَائِلَ الميتافيزيقا الْكُبرَى كبداية الْخَلْق وَالْآخِرَة وَعَالِمْ الْغَيْب ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَرَى بِوُضُوح أَن الكونفوشيوسية كَانَت بالأساس وَمُنْذ الْبِدَايَة هِي مَدْرَسَة فَلْسَفِيَّةٌ فِي الْأَخْلَاقِ وَالِاجْتِمَاع وَالسَيَاسَة قِبَلَ أَيَ شَيْءٍ آخَرُ ، إِلَّا أَنَّهَا تَمّ التَّعَامُل مَعَهَا مَعَ مُرُورِ الْوَقْت كَمذْهَب دِينِي

وَهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بِالْجَنَّة وَالنَّارَ وَلَا يَعْتَقِدُون بِالْبَعْث أصلاً ، إذ إنّ هَمَّهم منصبّ عَلَى إصْلَاحِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْ مَصِير الأَرْوَاحِ بَعْدَ خُرُوجِهَا مِنْ الْأَجْسَاد .

الْيَوْمِ الْآخِرِ فِي الدِّيَانَةِ البُوذية

تَدُور الْحَيَاة بِجَمِيع أَشْكَالِهَا مِنْ الْمَوْتِ وَأَعَادَه الْبَعْث ، فِي الدَيَانَةِ البُوذية ، فِي دَوْرُه مُتَتَابِعَة تُدعى "السامسارا" ، تَقْضِي بِأَنَّه عِنْدَمَا يَمُوت الشَّخْص تَنْتَقِل طَاقَتِهِ إِلَى شكلٍ آخَر ، وَيُؤَمَن البوذيون كَذَلِك بِمَفْهُوم "الكارما" ، فَمَن خِلَال الأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ مِثْل اتِبَاع السُّلُوك الأَخْلاقِي ، وإنماء الْحِكْمَة ، يَسْعَى البوذيون لِضَمَان مُسْتَقْبل أَفْضَل لِأَنْفُسِهم .

بناءً عَلَى الْأَعْمَالِ الَّتِي قَامَ بِهَا البوذي فِي حَيَاتِهِ السَّابِقَة تَكُون الْوِلَادَة الْجَدِيدَة ، فَيَبْعَثُ عَلَى هَيْئَةِ إِنْسَانٌ ، أَوْ حَيَوَانٍ ، أَو شَبَح ، أَوْ نِصْفِ إِلَه ، أَوْ آلِهَةٍ ، وَمَعَ هَذَا تُوجَد طَرِيقَة للإفلات مِنْ هَذِهِ الدَّائِرَة ، إِذْ يَلْزَمُ الْمَرْءِ أَنْ يَصِلَ لِحَالَةِ "التنوير" ، أَو "النيرفانا" ، وَالَّتِي تَعْنِي السَّكِينَة ؛ لتتمكَّن رُوحُهُ مِنْ الْخُرُوجِ مِنْ دُورِهِ "السامسارا" تِلْك .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ دِيَانَات الْعِرَاق الْقَدِيمَة

أَنَّ الْحَدِيثَ عَنْ معتقدات وأَفْكَار الدَيَانَات الَّتِي مَضَتْ وَتَرَكْت أَثَرُهَا فِي ذَاكِرَة التَّارِيخ ، لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْإِخْبَارُ عَنْ الشُّعُوب والأقوام الْأُولَيْن فُحِسب ، بَل يُشكل عاملًا مهمًا فِي قضايانا الْمُعَاصَرَة ، كَمسْأَلَة الْأَحَقيَّة والهوية التَّارِيخيَّة لِلشُّعُوب الَّتِي سُلبت أَرَاضِيهَا أَوْ الْعَكْسُ ، كَمَا أَنَّهُ يُعطي الْأَفْضَلِيَّة لِلْبِلَاد الَّتِي سَبَقَتْ غَيْرِهَا فِي الْبَحْثِ وَالتَّدْقِيق ، وأخيرًا يُقدم لَنَا التَّسَلْسُل الزمني لِنُهُوض الحضارات الْبَشَرِيَّة بِكُلّ الْمَجَالات ، أَهَمَهَا الدَين ، حَتَّى وَصَّلْنَا لِمَا وَصَّلْنَا إِلَيْه لِذَلِكَ فَإِنَّ الْمُعْتَقَدَات الدَينِيَّة للحضارات الْقَدِيمَة ، مَحَطّ اهْتِمَام وَدِرَاسَة الْمُؤَرِخين والباحثين حَتَّى يومنها هَذَا ، واستكمالًا لـ تَقْرِيرنَا السَّابِق ، سنتحدث الْيَوْمُ عَنْ الأيدولوجيا الدَينِيَّة لِبَعْض أَشْهُر الحضارات الَّتِي عَرَفَهَا الْإِنْسَان .

الدِّينِ فِي بِلَادِ مَا وَرَاءَ النهرين

يُعرف الْبَاحِثُون مُصْطَلَح "ديانة بِلَادِ مَا بَيْنَ النهرين" بِأَنَّهَا الْمُعْتَقَدَات والممارسات الدَينِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُؤْمِنُ بِهَا كُلُّ الْأَقْوَام الَّتِي سَكَنَت الْعِرَاق وبابل قديمًا ، مِن السومريين والأكاديين الساميين الشرقيين والأشوريين والبابليين ، وَمِنْ ثَمَّ آمَنَ بِهَا الْمُهَاجِرُونَ الآراميون والكلدان الَّذِينَ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي بِلَادِ مَا بَيْنَ النهرين (منطقة تَشْمَل الْعِرَاق الْحَدِيث وجنوب شَرَق تُرْكِيًا وَشِمَال

شَرَّق سوريا) الَّتِي كَانَتْ تَحكُّمْ الْمِنْطَقَة لِمُدَّة 4200 سُنَّةْ ، مُنْذ الْأَلْفِيَة الرَّابِعَةِ قَبْلَ المِيلاَدِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ بِلَادِ مَا بَيْنَ النهرين وَحَتَّى الْقَرْنِ الْعَاشِرِ تقريبًا بَعْد الْمِيلَاد فِي أَشُور .

كَانَ الدَّيْنُ فِي الْعِرَاقِ الْقَدِيم تمامًا كَمَا كَانَ فِي مِصْرٍ ، مِنْ حَيْثُ خُضُوعِه للتأثيرات السَيَاسِيَّة بِالْمَقَام الْأَوَّل ، وَكَان يُمَثَل دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنْ التعليمات والالتزامات الأَخْلاَقِيَّة

أَنَّ الدَيَانَةَ البابلية مَا هِيَ إِلَّا دِيَانَة سومويةٍ مقتبسة مِن ساميي وَادِي الرافدين وَكُلَّمَا تَبَدَّلَت دَوْلَة مِن الدُّوَل البابلية ، تَرِث الْأُخْرَى الدَيَانَة وتحترمها وَلا تَفكُّرٍ فِي إِلْغَائِهَا ، بَلْ رُبَمَا تَضَيَّف إِلَيْهَا وَتَطَوُّرِهَا ، فَقَد وَرِث الكلدان نُصُوص الدَيَانَات السومرية وَالْآكَدِيَّة وَعَمِلُوا بِهَا وتبحروا فِيهَا .

كَانَ الدَّيْنُ فِي الْعِرَاقِ الْقَدِيم تمامًا كَمَا كَانَ فِي مِصْرٍ ، مِنْ حَيْثُ خُضُوعِه للتأثيرات السَيَاسِيَّة بِالْمَقَام الْأَوَّل ، وَكَان يُمَثَل دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنْ التعليمات والالتزامات الأَخْلاَقِيَّة ، وَكَانَ لَهُ عِنْدَ الْعِرَاقِيِينَ وَالْمِصْرِيِين عَلَى حَدَ سَوَاءٍ الْمَكَانِ الْأَوَّل فِي حَيَاتِهِمْ الْعَامَّة وَالْخَاصَّة .

كَمَا كَانَ لِلْعَامِلِ الجغرافي والاجتماعي تأثيرهما مِثْل بِدَايَة الدَيَانَة الْمِصْرِيَّة والإغريقية ، إذْ كَانَ لِكُلَ مَقَاطِعِه مِن المقاطعات الْعِرَاقِيَة آلِهَةٌ تَحْرُسُهَا ، وَلِكُلّ آلِهٍ اسْم خَاصٌ فِي كُل مَقَاطِعِه مِنْ تِلْكَ المقاطعات ، فَفِي مَدِينَة أريدو كَان الْآلَة الْأَعْلَى يُسمى "أيا- أو- أنكي" ، وَفِي نيبور "أنليل أو- بعل" ، وَفِي أُوْرٌ "سن" ، وَفِي لكش "نين جيرسوا" .

الْآلِهَة فِي بَابِل تَرْجِع مِنْ جِهَةِ أَصْلِهَا إلَى قُوى الطَّبِيعِيَّة ، كمثيلاتها عِنْد الْمِصْرِيِين ، حَيْثُ اخْتَارَ الْعِرَاقِيُّون أَهَمّ الظَّوَاهِر الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي كَانَ لَهَا أَثَرٌ قَوِيٌّ فِي حَيَاتِهِمْ ، وشخصوها عَلَى هَيْئَةِ آلِهَةٌ

الدَين فِي الْعِرَاقِ الْقَدِيمَ كَانَ وَضْعِيٌّ مُتَعَدَد الْآلِهَة بِطَبِيعَة الْحَال ، وَبِذَلِك فَإِن مُعْتَقَدٌ الْأُلُوهِيَّة كَانَ عِنْدَهُمْ يَخْضَع للتفريد وَلَيْس التَّوْحِيد ، فَكَانُوا يُفْضِلُون إلَه عَنْ الْآخَرِينَ ، دُون تَرْكِهِم ، حَيْثُ كَانَتْ مَكَان آلِهَتِهِم مُتَفَاوِتَةٌ ، تبعًا لِتَفَاوُت المقاطعات السَيَاسِيَّة ولسيطرة بَعْض المقاطعات عَلَى الْأُخْرَى نَتِيجَة الْحُرُوب الَّتِي كَانَتْ تَدُور بَيْنَهَا وبالتالي تَرْتَفِع مَكَانَه إلَه المقاطعة المنتصرة .

ثُمَّ أَصْبَحَ الْعِرَاق الْقَدِيم يُحكم مِنْ ثَلَاثٍ آلِهَةٌ وَهُم "أدوم أَو أنو" إِلَه السَّمَاء ، و"أنليل أَو بعل" إِلَه الْهَوَاء وَالْأَرْض ، و"أنكي أَو أيا" إِلَه الْبِحَار والمحيطات وَكَانَت هُنَاك مَجْمُوعِه كَبِيرَةً مِنْ الْآلِهَة عَدَا هَؤُلَاءِ لَهَا اختصاصات أُخْرَى فِي الْكَوْنِ .

والآلهة فِي بَابِل تَرْجِع مِنْ جِهَةِ أَصْلِهَا إِلَى قُوَى الطَّبِيعِيَّة ، كمثيلاتها عِنْد الْمِصْرِيِّين ، حَيْثُ اخْتَارَ الْعِرَاقِيُّون أَهَمّ الظَّوَاهِر الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي كَانَ لَهَا أَثَرٌ قَوِيٌّ فِي حَيَاتِهِمْ ، وشخصوها عَلَى هَيْئَةِ آلِهَةٌ ، وَبَقِيَتْ صِفَةُ الظَّوَاهِر الطَّبِيعِيَّة بَارِزَة فِي آلِهَةُ الْعِرَاقِ حَتَّى بَعْدَ أَنْ تَطَوَّرَت وابتعدت عَن نَشْأَتِهَا الْأُولَى ، لَكِن وَعَلَى عَكَسَ لَمْ تَكُنْ لِلْحَيَوَانَات فِي بَابِل أَي قُدْسِيَّة – عَلَى عَكْسِ الدَيَانَة الْمِصْرِيَّة –

لَمْ تَكُنْ للديانة البابلية كَتَبَهَا الْمُقَدَّسَة ، لَكِن كَتَبُوا الْمَلَاحِم وَالْقَصَائِد الشَعْرِيَّة الَّتِي تَمَكَّنت الكشوفات مِن التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا ، كملحمة "كلكماش" وملحمة الْخَلْق البابلية "الاينوما اليليش" الَّتِي جَمَعَتْ مُعْتَقَدَاتِهِم وفلسفاتهم وأساطيرهم .

مَلْحَمَةُ الْخَلْق "الإينوما إيليش" تَرْوِي حِكَايَة الْبَدْء بامتزاج "أبسو" ، الَّذِي يُمَثل الْمِيَاه الْعَذْبَة ، بـ"تيامات" (تعامة) ، الَّتِي تَمَثَّل المحيطات ، ليخلقا آلِهَةٌ كَبِيرَة وَشَدِيدُه الصَّخَب ، مِنْهُم "أيا" وَإِخْوَتِه

إمَّا عَنْ نَظَرِيَّة بَدَأ الْخَلْق البابلية ، فَكَانَ النَاسُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ طِينَةِ الْأَرْض وشكلوا حَتَّى يشبهوا الْآلِهَة ، وَأَنَّهُمْ مَا خُلِقُوا إلَّا لعبادتهم وَطَاعَتُهُم وَلِذَلِكَ اُعْتُبِرَ النَاس أَنْفُسِهم ملزمين تُجَاه تِلْك الْآلِهَة بِالْخُشُوع وَالْعِبَادَة وَتَقْدِيم القرابين ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ غَايَتُهَا لِلْحُصُولِ عَلَى الْحَيَاةِ الْخَالِدَة ، بَل طمعًا فِي النَعَمِ الْمَادَّيَة الْمَلْمُوسَة فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

أَمَّا مَلْحَمَةُ الْخَلْق "الأينوما إيليش" تَرْوِي حِكَايَة الْبَدْء بامتزاج "أبسو" الَّذِي يُمَثل الْمِيَاه الْعَذْبَة ، بـ"تيامات" (تعامة) الَّتِي تَمَثَّل المحيطات ، ليخلقا آلِهَةٌ كَبِيرَة وَشَدِيدُه الصَّخَب ، مِنْهُم "أيا" وَإِخْوَتِه ، فينزعج أبسو ويهمُّ بِقَتْلِهِم ، لكِن تيامات تَرْفُض وتحذرهم مِن نواياه ، فَيُقْتَل أَيَا أَبَاه وَيُصْبِح بَعْدَ ذَلِكَ كَبِيرُ الْآلِهَة .

يَتَزَوَّج أَيَا مَنْ "دامكينا" وينجبا "مردوخ" ، الَّذِي يوهَب الرِيح كَي يُلْعَبُ بِهَا ، فَيَسْتَعْمِلَهَا لِصُنْع عواصف تُرَابِيَّة وزوابع ، مَا يُعَكر صَفْو تيامات والآلهة الَّتِي تَسْكُن جَسَدِهَا وَيَمْنَعَهَا مِنْ

التَوْمِ ، لِذَا تَقَتَع هَذِه الْآلِهَة تيامات بِالِانْتِقَام لِزَوْجِهَا أبسو ، فِيمَا يَقْتَع مُرْدُوخ آلِهَةً أُخْرَى بالانضام إِلَيْهِ فِي معركته ضِدّ تيامات ، فيتغلب عَلَيْهَا وَيَقْتُلُهَا ، ثُمّ يشطر جَسَدِهَا إِلَى قِسْمَيْنِ ، يَصْنَع السَّمَاءِ مِنْ أَحَدِهِمَا وَالْأَرْضُ مِنْ الْآخَرِ ، وَيُخْلَق الْإِنْسَانِ مِنْ دِمَاءِ "كنغو" ، الزَوْجِ الثَّانِي لتيامات .

وَفِيمَا يَخُصُّ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ الْأُخْرَى ، فَإِنَّ الِاعْتِقَادَ بِالْحَيَاة الْأُخْرَى نَما نموًا بطيئًا جدًا فِي الدَيَانَةِ البابلية ، لَكِنَّه تَأَثَّر بالمعتقد الْمِصْرِيّ عَنْ الْعَالِم السُّفْلِيّ ، لُؤْمٌ يَشُكّ البابليون فِي حَتْمِيَّةْ الْمَوْت وَفَرْضُهُ عَلَى الْبَشَرِ وَجَمِيع الْإِحْيَاء وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ فَكَرِه الْبَعْث بَعْد الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهَا ، لَم يَعْرِفُوهَا فِي بَدْءِ أَمْرَهُمْ عَلَى خِلَافِ الْمِصْرِيِين الْقُدَمَاء .

الدَيَانَة البابلية تَأَثَّرَت بِشَكْل كَبِيرٌ بِالدَيَانَة الْمِصْرِيَّة ، لَكِنَّهَا بِالْمُقَابِل أَثَّرَت عَلَى عَدَدِ كَبِيرٌ مِنْ الدَيَانَاتِ التَّابِعَة للحضارات الْأُخْرَى

كَانَت عَقِيدَتِهم فِي الْحَيَاةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ يَعْمَل صالحًا ، فَقَدْ اسْتَحَقَّ رِضَى الْآلِهَة ، وَعَاش ممتعًا بِالسَّعَادَة ، أَمَّا إِذَا أَذْنَبَ – بِقَصْد أَوْ دُونَ قَصْدِ – فَإِنَّ الْإِلَهَ حَامِيَة يَتَخَلَّى عَنْه فتتلقفه مَخْلُوقَات الشَّرّ ويتردّى فِي عَالَمِ الرَّذِيلَة ، وَعِنْدَمَا يَأْتِي الْمَوْتُ تَنْفَصِل الرُّوح عَنْ الْجِسْمِ ،

وَتَنْتَقِلُ إِلَى طَوْر جَدِيدٍ مِنْ الْوُجُودِ إذ تَنْحَدِر بَعْدَ وَضْعِ الْجِسْمَ فِي الْقَبْرِ إِلَى عَالَمِ الْأَرْوَاح وَهُوَ الْعَالَمُ السُّفْلِيّ وتعيش هُنَاكَ إِلَى الأَبدِ حَيْثُ لَا قِيَامُهُ وَلَا جَنَّةً وَلَا نَارَ .

انْتَقَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُعْتَقَدَات الْمِصْرِيَّة إِلَى بَابِل ، بِشَأْن عَوْدِه الرُّوح إِلَى الْجِسْمِ فِي الْقَبْرِ ، وَالْحِسَاب وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ ، وَطُرُق الدَّفْن لَدَيْهِم ، وَمَا نَجِدُ فِي قُبُورِهِمْ مِنْ الْأَثَاثِ وَاللَّوَازِم الْخَاصَّة بِالْمَيت ، تدللنا عَلَى ذَلِكَ ، كَذَلِكَ وَرَدَ فِي اللَّوْحِ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ مَلْحَمَةٌ جَلْجامِش "أن بَعْض الْمَوْتَى مِمَّن خلّفوا الْحَسَنَات وَالْمَآثِر الصَّالِحَة . . يَعِيشُ فِي هَذَا "لعالم السفلي" عيشًا فِيهِ بَعْضُ الرَّاحَة حَيْث يَمْنَح الْمَاء والطعام" .

اِحْتَلْت عِشْتار مكانًا بارزًا فِي دِيَانَة وَادِي الرافدين وَانْتَشَرَت عِبَادَتِهَا إِلَى جَمِيعِ أَنْحَاءِ الشَّرْقِ الأَدْنَى وَأَنْحَاء أُخْرَى مِنْ الْعَالِمِ

مِنْ الْوَاضِحِ فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الدَيَانَةَ البابلية تَأَثَّرَت بِشَكْل كَبِيرٌ بِالدَيَانَة الْمِصْرِيَّة ، لَكِنَّهَا بِالْمُقَابِل أَثَّرت عَلَى عَدَدٍ كَبِيرٌ مِنْ الدَيَانَاتِ التَّابِعَة للحضارات الْأُخْرَى ، كَآلِهَة الْقَمَر كَانَ اسْمُهُ عِنْد السومريين والبابليين "سين" وَمَعْنَاه رَجُلٌ السَّمَاء ، الَّذِي عَبْدِه الفينيقيون وَالْعَرَب الْأَوَائِل الَّذِين

أسموا "سيناء" بِاسْمِه ، وَانْتَقَلَت عُبَادَة الْقَمَرِ إِلَى جِهَاتٍ سُورِيا وَشَيَّد لَهُ مَعْبَدُ فِي "حران" ، ثُمَّ إِلَى الفينقيين ، وقدسه البَدْو الآراميون والبدو الْعَرَب .

اِحْتَلْت عِشْتار مكانًا بارزًا فِي دِيَانَة وَادِي الرافدين وَانْتَشَرَت عِبَادَتِهَا إِلَى جَمِيعِ أَنْحَاءِ الشَّرْقِ الأَدْنَى وَأَنْحَاء أُخْرَى مِنْ الْعَالِمِ ، وَأَخَذ عِبَادَتِهَا الإغريق وَسَمَّوْهَا بِاسْم "أفروديت" وَعَبْدُهَا الرومان بِاسْم "فينوس" وَقَدْ سَمَّاهَا السومريون بِاسْم "إينانا" ، والساميّون بِاسْم "عشتار" وَعَرَفْت بِاسْم "عشتاروت وعشتوريت" عِنْدَ الْإِقْدَامِ السامية الْأُخْرَى لَا سِيَّمَا فِي جِهَاتِ سورِيَة ، وَعَبْدُهَا الْعَرَب فِي الجَنُوب .

عِنْد الكنعانيين

يُعتبر الكنعانيون الَّذِين أَطْلَقَ عَلَيْهِمْ الإغريق اسْم الفينيقيين ثَانِي جَمَاعَةٌ لعبت دورًا مهمًا فِي تَارِيخِ بِلَادِ الشَّامِ بَعْدَ الآموريين ، فَكَانَت هِجْرَتُهُم فِي بِدَايَةِ الْأَلْف الثَّالِثَةِ قَبْلَ المِيلاَدِ إِلَى فِلَسْطِينَ مِنْ أَوَّلِ الهجرات الْبَشَرِيَّة ، وَيَقُول بَعْضُ الْمُؤَرِخِينَ أَنَّهُم قَبِيلَة عَرَبِيَّة تَنْتَمِي إِلَى الشُّعُوب السامية ، هَاجَرَت مِن الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ 4 آلاَفِ سَنَةٍ ق . م ، وَاسْتَقَرَّتْ فِي جَنُوب سُورِيا وَلُبْنَان والأردن وَفِلَسْطِين فَوْق أَحَدٌ جِبَال الْقُدْس ، الْمَوْقِع الَّذِي وَفَرّ لَهُمْ الْأَمْنُ

وَالْحِمَايَة ، فِي الْعَصْرِ الحَجَرِيَ الْحَدِيثِ نَحْوَ 3000– 1200 ق . م ، كَمَا أَنَّ آخِرَ وَفْد كَنْعانِي أَتَى إِلَى فِلَسْطِينَ قَبْلَ مَجِيءِ الْيَهُود إِلَيْهَا بـ50 عامًا .

كَانَت دِيَانَة الكنعانيين تَقُومُ عَلَى تَقْديس مَظَاهِر الطَّبِيعَة وَالْكَوْن مِثْل بَاقِي الدَيَانَات الْقَدِيمَة ، وَتَنَوَّعَت الْآلِهَة الَّتِي عبدوها عَلَى حَسَبِ التَّقْسِيم الجغرافي

فِيمَا تَؤَكَّد بَعْض الْأَبْحَاث والاكتشافات أَن مَدِينَة كَنْعَان أَقْدَمُ مِنْ شِبْهِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ ، أَيْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عربًا ، وَهُنَاك دِراسات وَأَبْحَاثٌ تَقُولُ إِنْ الكنعانيين أَوَّل الشُّعُوب السامية الَّتِي اسْتَقَرَّتْ فِي الشَّرْقِ الأَوْسطِ .

وَذَلِكَ بَعْدَ وُصُولِهِمْ إِلَى إِفْرِيقْيا عَبَّر مِصْر ، واسْتَقَرُّوا فِي فِلَسْطِينَ بَعْدَ أَنْ سَقَطَتْ الحَضَارَة الغسولينية بِهَذِه الْمِنْطَقَةَ فِي 3300 ق . م ، بَيْنَمَا يَرَى ابْنُ تَيْمِيَّةَ أَنَّ الكنعانيين هُم سُكَّان حُرَّان وَمُلُوكِهِم هُم النماردة .

كَانَت دِيَانَة الكنعانيين تَقُومُ عَلَى تَقْديس مَظَاهِر الطَّبِيعَة وَالْكَوْن مِثْل بَاقِي الدَيَانَات الْقَدِيمَة ، وَتَنَوَّعَت الْآلِهَة الَّتِي عبدوها عَلَى حَسَبِ التَّقْسِيم الجغرافي وَعَلَى حَسَبِ مَكَانَتِها وَقُوَّتِهَا ،

وَكَبِيرِهِم هُوَ الْآلَة "إيل" الْأَب ، الَّذِي كَانَ يُعرف بعدّة أَسْمَاءً وَصِفَاتٍ عِنْد الكنعانيين ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى مَكَانَتِه المبجلة عِنْدَهُم ، فَسَمَّوْه بِاسْم بَعْلٌ لُبْنَان ، وشميم أَي سَيّد السَّمَوَات ، وَظَهَر أيضًا بِاسْم بَعْلٌ حمون ، وبعل صافون .

أَمَّا الْآلِهَة "يم" هِيَ الْأُمُّ لَدَى الكنعانيين ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ هُوَ اعْتِقَادِهِم بِأَنَّ الْمَاءَ هِيَ الْأُمُّ الْأُولَى الَّتِي خُلِقَتْ الْكَوْن ، و"عشتار أَو عشتروت" فَهِي آلِهَةٌ الْحَبّ والإخصاب ، وَالرَّبِيع فَعَرَفْت بِاسْم تَأَنَّيْت ، وَمَن الْآلِهَة الفينيقية الْمُهِمَّة الْأُخْرَى الْآلَة "أشمون" وَهُوَ إِلَهٌ الشَفَاء ، وَكَذَلِك الْآلَة "رشف" وَهُوَ إِلَهٌ الْحَرْب وَسَيّد الصَّوَاعِق ، و"شم أَو شميم" إِلَه السَّمَاء الْأَوَّلُ فِي عَقِيدَتهمْ ، و"أديم أَو أدمة" هِي آلِهَةٌ الْأَرْض .

تَبَيَّنَ مِنْ اكتشافات عَام 1929 عَلَى يَدِ المنقبين ، لألواح طينية مِنْ الْكُنُوزِ الأوغاريتية فِي صُوَرٍ وقبرص وقرطاج ، الْكَثِيرِ مِنْ مَلامِح الميثولوجيا الكنعانية وَعِلَاقَة الْآلِهَة عِنْدَهُم وَأَنْسَابُهُم ، وَاعْتُبِرَت هَذِه الاكتشافات الْمَرْجِع الْأَكْثَر عَراقَة ، حَيْث يَعُودُ تَارِيخُهَا إِلَى الْقَرْن الـ15 قَبْلَ الْمِيلَادِ .

لَا يُوجَدُ تَسَلْسَل دَقِيق لمراحل الْخَلْق وَالتَّكْوِين الكنعانية وَذَلِكَ نَتِيجَةُ لِلتَّلَف الَّذِي أَصَابَ الْأَلْوَاح الفخارية ، خَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بأساطير بَعْلٌ

تَبَيَّن بالاكتشافات أَنَّ الْحَيَاةَ كَانَت مَنْبَع اعْتِقَادِهِم الدَينِيّ ، فَكَانَت العَنَاصِر الْأَرْبَع الْمُكَوِّنَة لِلْحَيَاة فِي اعْتِقَادَاتِهِم – الَّتِي أَخَذَهَا الإغريق عَن الكنعانيين – دُور فِي تَصَوُّر أَرْبَاب وَآلِهَه لِتِلْك العَنَاصِر (النار ، التُّرَاب ، الْهَوَاء ، الماء) ، وَالدَّلِيل الَّذِي يُؤَكِد أَخَذ الإغريق عَن الكنعانيين اعْتِقَادَاتِهِم وآلهتهم ، هِي الْمُقَابَلَة فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ الْهَائِل مِنْ أَسْمَاءِ الْآلِهَة فِي الحضارتين الكنعانية والإغريقية ، وَكَوْن الحَضَارَة الكنعانية قَدْ سَبَقَتْ الحَضَارَة الإغريقية بِزَمَنٍ طَوِيلٍ ، فَبَاتَ مَنْ الْمُؤَكَّدِ اسْتِعَارَةٌ وَتَبَنِي تِلْكَ الِاعْتِقَادَاتِ الكنعانية مِن الإغريق الَّذِين تَعَرَّضُوا لاجتياح كَنعانِي حَرْبِيّ وتجاري .

إمَّا عَنْ نَظَرِيَّة الْخَلْق ، فتصنف الْأَلْوَاح الفخارية الَّتِي قُدِمَتْ لَنَا الأُسطورة الكنعانية ضَمِن ثَلَاث مَجْموعَات : الْأُولَى تُضَمّ الْأَسَاطِير الْمُتَعَلِّقَة بِالْآلِهَة بَعْلٌ ، وعلاقته مَعَ بَقِيَّةِ آلِهَةٌ الْمَجْمَع الفينيقي ، وَتَنْطَوِي ضَمِنَهَا أُسْطورَة التَّكْوِين الكنعانية ، الْمَجْمُوعَة الثَّانِيَة تُضَمُّ مَلْحَمَةٌ "كرت" ، وَالْمَجْمُوعَة الثَّالِثَة تُضَمّ مَلْحَمَةٌ "أقهات" .

لَا يُوجَدُ تَسَلْسَل دَقِيق لمراحل الْخَلْق وَالتَّكْوِين الكنعانية وَذَلِكَ نَتِيجَةُ لِلتَّلَف الَّذِي أَصَابَ الْأَلْوَاح الفخارية ، خَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بأساطير بَعْل ، مِمَّا أَتَاح الْمَجَال إمَام الْإِطْنَاب فِي وَضْعِ تسلسلات مِن الأكاديميين ومترجمي الأَبَجَدِيَّة الأوغاريتية .

عَلَى غِرَارْ التكوينين الكنعاني والبابلي ، وَقَبْل بِدَايَة الْكَوْن كَانَتْ حَالَة الْعَمَاء الَّتِي يُمَثِّلُهَا هُنَا "يم" ، وَلِأَنَّهُ كَانَ لَا بُدَّ فِي لَحْظَةِ مَا إنْ يَنْشَأَ شَيْءٌ مِنْ الْعَدَم ، كَانَ هُنَاكَ "بعل" إلَه الْخِصْب الَّذِي يَلْعَبُ بِهَذِه الأُسطورة نَفْس الدَّوْرِ الَّذِي لَعِبُه مُرْدُوخ فِي "الأينوما إيليش" البابلية فِي قَهْرِ الْمِيَاه الْأُولَى وَإِحْلَال نِظَام الْكَوْن .

بَعْد انْتِصَار بَعْلْ يَبْدَأ رِحْلَتِه بتنظيم الْكَوْن وَوَضَع أَسَس الحَضَارَة ، لكِن يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ بِنَاءً بيتٍ خَاصٌّ بِهِ ، حَيْثُ يُطْلَبُ مُسَاعَدَة مَحْبُوبَتَه عَنَاه لِلْحُصُولِ عَلَى الْبَيْتِ المنشود

تَصَوُّر الْأَلْوَاح الفخارية هَذَا النِّزَاعُ بَيْنَ بَعْلْ ويم ، فتبدأ الأُسطورة بِأَن يَعْزُو يَم إلَى اثْنَيْنِ مِنْ رُسُلِهِ إرْسَال كِتَابٍ إلَى مُجْمَعِ الْآلِهَة ، يُطْلَبُ فِيهِ تَسْلِيمُ بَعْلْ لِيُصْبِح عبدًا لَه ، وَبَعْد وُصُول الرّسُولَيْن يَقُومَان بِقِرَاءَة مُطَالَبْ يَم مباشرةً إمَامِ مُجْمَعْ الْآلِهَة ، فَيَغْضَب بَعْلْ ، وَيَنْهَض بِسِلَاحِه لِقَتْل الرّسُولَيْن ، لكِن الإلهتين عَنَاه وعشتار تمنعانه مِنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْعُرْفَ يَقْضِي بِصِيَانَة حَيَاة

الرُّسُل ، بَعْدَهَا يتعاون الْإِلَهَان الحرفيان "كوثر" و"حاسيس" مَع الْآلَة بَعْلٌ ، فَيَقُومَان بِصُنْع سلاحين فتاكين ليستخدمهما ضِدّ يَم ، لِيَسْقُط يَم إمَامِه معلنًا هَزِيمَة الفَوْضَى وَالْعَمَاء .

بَعْد انْتِصَار بَعْلٌ يَبْدَأ رِحْلَتِه بتنظيم الْكَون وَوَضَع أَسَس الحَضَارَة ، لَكِن يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ بِنَاءً بيتٍ خَاصٌّ بِهِ ، حَيْثُ يُطْلَبُ مُسَاعَدَة مَحْبُوبَتَه عَنَاه لِلْحُصُولِ عَلَى الْبَيْتِ المنشود ، فتصعد عَنَاه إِلَى أَبِيهَا "إيل" كَبِيرٌ الْآلِهَة فِي أَعْلَى السَّمَاوَات فيرتعد لقدومها ويختبئ فِي غُرْفَتِه ذَلِكَ لِأَنَّ عَنَاه وَكَغَيْرِهَا مِن إلهات الْخِصْب تَحْمِل قُوَى مُتَنَاقِضَة فَهِي مَحَبَّة رَقِيقِه ، قَوِيَّةٌ جُبَارَة ، لِدَرَجَة أَن أَبِيهَا آيِلٌ كَبِيرٌ الْآلِهَة يَخْشَاهَا .

فَتَعْرِض مَطْلَبِهَا عَلَيْه وَتُؤَيد دَعْوَاهَا زَوْجَة آيِلٌ وَأَوْلَادِه ، فينبري آيِلٌ لمطلبها ويولي مُهِمَّةٌ بِنَاءِ الْبَيْتِ إِلَى كُوثِر وحاسيس ، لَكِن لِسَبَب غَيْرُ مَعْلُومٍ تَبْدَأ عَنَاه بالفتك بِالْجِنْس الْبَشَرِيّ ، فَيَقُوم بَعْلٌ بِإِرْسَال مبعوثيه إِلَى الْآلِهَة الغاضبة ، وَيَطْلُب مِنْهَا إِحْلَال الْخِصْب بِالْأَرْض .

أَمَّا الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ الْأُخْرَى عِنْدَ الكنعانيين ، فَهُم اعْتَقَدُوا بِوُجُود حَيَاة أُخْرَى بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَكَانُوا يُقِيمُون طقوسًا جنائزية خاصةً ، هدفها حِمَايَة الْمَيِّتِ مِنْ قِبل الْآلِهَة عِنْدَ انْتِقَالِه إِلَى الْعَالِم الْآخَر

فَتُوَافِق بلهفة شَدِيدَة ، وتطير قَاطِعَةٌ مِئات الْأَمْيَال ، وَعِنْدَمَا يَرَاهَا بَعْلٌ قَادِمَةٍ مِنْ بَعِيدٍ يَذْبَح لِأَجْلِهَا ثورًا ، ويحتفل بِهَا احتفالاً مشهودًا ، وبقدومها تبتهج الطَّبِيعَة ، فَيَرْقُص النَبَات ويتكاثر الْحَيَوَان .

أَمَّا الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ الْأُخْرَى عِنْدَ الكنعانيين ، فَهُم اعْتَقَدُوا بِوُجُود حَيَاة أُخْرَى بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَكَانُوا يُقِيمُون طقوسًا جنائزية خاصةً ، هدفها حِمَايَة الْمَيِّتِ مِنْ قِبل الْآلِهَة عِنْدَ انْتِقَالِهِ إِلَى الْعَالِمِ الْآخَر ، وَكَانُوا يَضَعُونَ الْمَيِّتَ مَعَ ذَبِيحَة فِي قُبُورِ مُزَيَّنَة بنُصب جَنَائِزِيٌّ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَاحِ تَثْبُت بِالطِين إِمَام الْقُبُور ، وأحيانًا تَمَثَّل الْأَلْوَاح وَجْهِ الْمَيِّتِ أَوْ تَكُونُ اللَّوْحَة مزخرفة عَلَى شَكْلِ مُثَلَّث .

تجدر الْإِشَارَةُ أَنَّ الْبَاحِثِيْنَ يَعْتَبِرُون الْأَلْوَاح المكتشفة وَغَيْرِهَا مِنْ الاكتشافات تَثْبُت الْأَحَقِيَّة التَّارِيخِيَّة للفلسطينين عَلَى أَرْضِهِمْ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ اسْمَ أَرْضِ كَنْعَانَ ، وَهُوَ أَقْدَمُ اسْم عُرفت بِه فِلَسْطِين ، وَقَام الكنعانيون بِبِنَاء مُعْظَم مُدُنِها قَبْلَ قُدُومِ الْعِبْرَانِيِين إِلَيْهَا بمئات السَنِين ، وَمَن الْمُدُن الْقَدِيمَة الَّتِي أَقَامُوهَا أَرِيحا ونابلس وبيسان وَعَسْقَلَان وَعَكَّا وَحَيْفًا وَالْخَلِيل وأسدود وبئرالسبع وَبَيْت لَحْم ، وظلت فِلَسْطِين تُسمّى أَرْضِ كَنْعَانَ حتّى عَام 1200 ق . م .

عِنْد الْيُونَان

شَمِل الدَيَانَة الإغريقية الْقَدِيمَة مَجْمُوعِهِ مِنْ الْمُعْتَقَدَاتِ والطقوس والأساطير الَّتِي نَشَأَت فِي الْيُونَان الْقَدِيمَةِ فِي هَيْئَةٍ دَيْنٌ الْعَامَّة الْمُفضل ومُمارَسات الطَّوَائِف . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُعْظَمَ الْمُعْتَقَدَات والطقوس كَانَت مُتَشَابِه بِشَكْل كَبِيرٌ ، إلَّا أَنَّهَا اخْتَلَفَت بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ حَتَّى يُمْكِنَ التَّحَدُّثُ عَنْ الْأَدْيَان الْيُونَانِيَّة أَو « الطَّوَائِف » فِي صِيغَةِ الْجَمْعِ .

عُرِف مُعْظَم الإغريق الْقُدَمَاء الْآلِهَة والإلهات الِاثْنَيْ عَشَرَ الأولمبيون : (زيوس ، هيرا ، بوسيدون ، ديميتر ، أَثِينَا ، آريز ، أفروديت ، أبولو ، أرتميس ، هيفايستوس ، هيرميز ، وَأَمَّا هيستيا أَو ديونيسوس) . عَلَى الرَّغْمِ .

مِنْ أَنَّ الفلسفات مِثْل الرواقية وَبَعْض إشْكَال الأفلاطونية تُسْتَخْدَم لُغَة يَبْدُو أَنَّهَا تَحْمِل إلهًا واحدًا متعالًا ، فغالبًا مِا كَانَتْ الْمُدُن الْمُخْتَلِفَة تَعْبُدٌ نَفْس الْآلِهَة ، وأحيانًا بِكُنية تميزهم وَتَحَدُّدٌ طبيعتهم الْمَحَلِّيَّة .

امْتَدَّت الْمُمَارَسَات الدَينِيَّة لليونان خَارِج مِنْطَقَة الْيُونَان الْقَارِئَة ، إلَى جَزَر وسواحل إيونية فِي أُسِيء الصُّغْرَى ، وَإِلَى مَاجِنًا غراسيا (صقلية وجنوب إيطاليا) ، وَإِلَى المستعمرات الْيُونَانِيَّة

الْمُتَفَرِّقَةُ فِي غَرْب البَحْرِ الأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ ، مِثْل ماسالا (مارسيليا) . اِمْتَزَجَت الدِّيَانَة الإغريقية بـ الْعِبَادَة الإتروسكانية وَاعْتِقَادِهَا لتشكل الْكَثِيرِ مِنْ الدِّيَانَةِ الرومانية الْقَدِيمَةِ فِي وَقْتِ لاَحِقٍ .

الْمُعْتَقَدَات

كَانَتْ هُنَاكَ مَفَاهِيم قَلِيلِه عالَمِيَّة لِجَمِيع الشُّعُوب الْيُونَانِيَّة ، كَانَتْ هُنَاكَ اعتقادات مُشْتَرَكَة تشاطرها الْكَثِيرُون منها .

الْإِلَهِيَّات

كَانَت الْإِلَهِيَّات الإغريقية الْقَدِيمَة شَائِعَةٌ ، وَذَلِك استناداً إِلَى اِفْتِرَاض وُجُود العَدِيدِ مِنَ الْآلِهَة والإلهات . كَان تَرْتِيب الْآلِهَة هرمياً فِي الْأَسَاسِ ، حَيْث يَعْلُوه مِلْك الْآلِهَة زيوس ، وَالَّذِي لَدَيْه السَّيْطَرَة الْمُطْلَقَةِ عَلَى جَمِيعِ الْآلِهَة الْآخَرِين ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْجَبَّار المسيطر . كَانَ لِبَعْضِ الْآلِهَة السِّيَادَةُ عَلَى جَوَانِبِ مُعَيَّنَةٍ مِنْ الطَّبِيعَةِ . فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، كَان زيوس إِلَه السَّمَاء ، حَيْث بِإِمْكَانِه إِرْسَال الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ ، كَان بوسيدون حَاكِم الْبِحَار وَالزَّلَازِل ، وهيمنت قُوَة هاديس اللافتة فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ عوالم الْمَوْت وَالْعَالِم السُّفْلِيّ ، كَما كَانَ يسيطر

هيليوس عَلَى الشَّمْسِ . سيطرت الْآلِهَة الْأُخْرَى عَلَى الْمَفَاهِيم الْمُجَرَّدَة . عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ كَانَت أفروديت المسيطرة عَلَى الْحُبّ . تَمّ تَصْوِير كُلّ الْآلِهَة الْهَامَة عَلَى أَنَّهَا « أَنْسَانِيه » فِي الشَّكْلِ ، رَغِم أَنَّه بِإِمْكَان الْآلِهَة التَّحَوُّلُ إِلَى حَيَوَانَات أَوْ ظَوَاهِرُ طَبِيعِيَّةٌ .

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهَا خَالِدَة ، إِلَّا أَنْ الْآلِهَةَ لَمْ تَكُنْ بِالتَّأْكِيد كُلُّهَا مُحَسَنَة أَوْ حَتَّى قَوِيَّةٌ . كَانَ عَلَى الْآلِهَةِ أَنْ يُطِيعُوا الْقَدْر ، الْمَعْرُوفِين فِي الميثولوجيا الإغريقية بِاسْم مويراي ، وَالَّتِي تَتَجَاوَز قُدُرَاتِهِم الْإِلَهِيَّةِ أَوْ إِرَادَتُهُم . عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، فِي إِحْدَى قَصَص الميثولوجيا ، كَان مَصِير أوديسيوس أَنْ يَعُودَ إِلَى مَوْطِنُه إيثاكا بَعْدَ حَرْبِ طِرْوادَة ، وَكَان بِإِمْكَان الْآلِهَة فَقَطْ إِنْ تُطيل رِحْلَتِه وَتُجْعَل الْأَمْرُ أَكْثَرَ صُعُوبَة بِالنِسْبَةِ لَهُ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا مَنَعَه .

أفروديت تَرْكَب بَجَعَةٌ ، رَسْمِه أغريقية ذَا خَلْفِيَّة بَيْضَاء مَعَ رَسْمِ أَحْمَر عَلِيّ كيليكس تَعُود لحوالي 460 ق . م ، وُجدت فِي كاميروس (رودس)

تَصَرَّفَت الْآلِهَة مِثْل الْبَشَر وَكَان لَدَيْهِم رَذَائِل بَشَرِيَّة . كَانُوا يتواصلون مَع الْبَشَر ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ينجبون الْأَطْفَال مِنْهُم . فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَت بَعْض الْآلِهَة تَعَارَض بَعْضِهَا الْبَعْضِ ، مُحَاوَلَة التَّفَوُّق عَلَى بَعْضِهِمْ الْبَعْض . فِي الإلياذة ، كلاً مِن أفروديت وآريز وأبولو دعما جَانِب

طِرْوادَة فِي حَرْبِ طِرْوادَة ، بَيْنَمَا دَعْم كُلٌّ مِنْ هيرا وأثينا وبوسيدون الإغريق (انظر حَرْب الْآلِهَة) .

اِرْتبَطْت بَعْض الْآلِهَة بِشَكْل خَاصّ بِمَدِينَة مُعَيَّنَة . كَمِثَال : اِرْتبَطْت أَثِينَا بِمَدِينَة أَثِينَا ، وأبولو مَع دلفي وديلوسو زيوس مَع أوليمبيا وأفروديت مَع كورنث . اِرْتبَطْت آلِهَةٌ أُخْرَى مَعَ دُوَلٌ خَارِج الْيُونَان . حَيْثُ كَانَ بوسيدون مرتبطاً بإثيوبيا وطروادة ، وَكَان آريز مرتبطاً بتراقيا .

هَوِيَه الْأَسْمَاء لَمْ تكُنْ ضمانًا لِطَائِفَة مُشَابِهٌ ، كَان الإغريق أَنْفُسِهِم يُدْرِكُون جيداً أَن أرتميس كَان يُعبد فِي أسبرطة عَلَى أَنَّهَا الصيادة الْعَذْرَاء ، كَانَت إلهًا مختلفًا لِلْغَايَة عَن أرتميس الَّتِي كَانَتْ آلِهَةٌ طقوس الخُصُوبة فِي أفسس . عَلَى الرَّغْم مِنْ أَنَّ عُبَادَةَ الْآلِهَة الرَّئِيسِيَّة انْتَشَرَت مِنْ مَكَان إِلَى آخِرِ ، وَعَلَى الرَّغْم مِنْ أَنَّ مُعْظَمَ الْمُدُن الْكَبِيرَة كَانَت تُضَمّ مَعابِد لِإِلَهِه كَبِيرَة ، إِلَّا أَنْ التَّعَرُّف عَلَى آلِهَةٍ مُخْتَلِفَةٌ بأماكن مُخْتَلِفَةٌ ظِلّ موجوداً حَتَّى وَقْت طَوِيلٌ .

أسقليبيوس ، إِلَه الطَبّ . نُسْخَة رخامية رومانية (القرن الثَّانِي الميلادي) لِأَصْل يُونَانِيٌّ مِنْ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ المِيلاَدِ . لَمْ يَكُنْ أسقليبيوس أَحَدٌ الأولمبياد الِاثْنَيْ عَشَرَ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ معروفًا لَدَى الْأَطِبَّاء مِثْل باوسانياس ومرضاهم .

الْعَالِم السُّفْلِيّ الْيُونَانِي

اعْتَقَد الإغريق فِي وُجُودِ عَالِمٌ سُفْلِي حَيْثُ تَذْهَبُ إِلَيْهِ أَرْوَاحُ الْمَوْتَى بَعْدَ الْمَوْتِ . وَاحِدَةٍ مِنْ أَكْثَرِ الْمَنَاطِق انْتِشَارًا فِي هَذَا الْعَالِمُ السُّفْلِيّ كَانَ يُحْكِمُهُ هاديس ، شَقِيق زيوس ، وَكَانَ هَذَا الْمَكَانِ يُعْرَف بِاسْم هاديس (يسمى فِي الْأَصْلِ « مَكَان هاديس ») . الْمِنْطَقَة الْمَعْرِفَة الْأُخْرَى هِيَ تارتاروس ، مَكَان الْعَذَاب لِلْمُذْنِبِين ، وإليسيون ، مَكَان الْمَلَذَّات لِلطَّيِّبِين . فِي أَوَائِلِ الدَيَانَة الميسينية كَانَ جَمِيعُ الْمَوْتَى يَذْهَبُونَ إِلَى هاديس ، لَكِن صُعُود الطقوس الْغَامِضَة فِي الْعَصْرِ الْقَدِيم أَدَّى إِلَى ظُهُورِ أَمَاكِن مِثْل تارتاروس وإليسيون .

بَعْض اليونانيين ، مِثْل أَخْيَل ، الْكُمَيْن ، أمفيراس ، غانيمادس ، إينو ، مالشيتيز ، مينلاوس ، بيليوس ، وَعَدَد كَبِيرٌ مِنْ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي حُرُوبِ طِرْوادَة وثيفا ، تَمّ إعتبراهم مخلدين جسديًا وجلبوا لِلْعَيْش إِلَى الأَبدِ أَمَّا فِي إليسيون أَوْ جَزِيرَةِ المباركين أَوْ الْجَنَّةِ أَوْ الْمُحِيطِ أَوْ تَحْتَ الْأَرْضِ . يَتمّ الْعُثُور عَلَى هَذِهِ الْمُعْتَقَدَات فِي أَقْدَم مَصَادِر يونانية ، مِثْل هُومِيرُوس وهسيودوس . هَذَا الِاعْتِقَادَ بَقِي قويًا حَتَّى فِي الْعَصْرِ الْمَسِيحِيّ . بِالنَسْبَة لِمُعْظَم النَاسُ فِي لَحْظَةِ الْمَوْتِ ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيْ أَمَّل فِي أَيَ شَيْءٍ سِوَى اسْتِمْرَارُ الْوُجُودِ كَنَفْس بِلَا جَسَد .

بَعْض اليونانيين ، مِثْل الْفَلَاسِفَة فِيثَاغُورْس وأفلاطون ، تبنوا فكره تَنَاسُخ الأَرْوَاحِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا لَمْ يُقبل إِلَّا مِنْ قِبَلِ عَدَد قَلِيلٌ . اعْتَقَد إبيقور أَنَّ التَنْفُسَ كَانَتْ بِبَساطَة ذَرَّات وَالَّتِي تَذُوب عِنْدَ الْمَوْتِ ، لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وُجُود بَعْدَ الْمَوْتِ .

عَقِيدَة الْيَوْمِ الْآخِرِ عِنْدَ الْيَهُودِ

كتابهم التَّوْرَاة : فَقَد خَلَا تماماً مِنْ ذِكْرِ الْجَنَّةِ وَالنَارِ ، والْبَعْثُ والنُشُورِ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْكُتُبِ الْمُلْحَقَة فِيهِ إِلَّا نزراً يسيراً .

فَمِنْ ذَلِكَ صُورَةٌ غَيْرِ وَاضِحَةٍ وَرَدَتْ فِي (سفر دانيال) (12/2) وَهُوَ قَوْلُهُمْ : (وَكَثِيرُونَ مِنْ الراقدين فِي تُرَابِ الْأَرْضِ يَسْتَيْقِظُون هَؤُلَاءِ إِلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةُ ، وَهَؤُلَاء إِلَى العَارِ للازدراء الأبدي) وَيَذْكُر الدكتور (علي وافي) : أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي فَرْقِهِمْ الشَّهِيرَة مَنْ يُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ففرقة الصادوقيين تُنكِر قِيَام الْأَمْوَات ، وَتَعْتَقِدُ أَنَّ عِقَاب الْعُصَاة وَأَثَابَه الْمُتَّقِين إِنَّمَا يَحْصُلَانِ فِي حَيَاتِهِمْ .

وَفُرْقَة الفريسيين تَعْتَقِدَ أَنَّ الصَّالِحِينَ مِنْ الْأَمْوَاتِ سينشرون فِي هَذِهِ الْأَرْضَ ؛ ليشتركوا فِي مِلْكِ الْمَسِيح الَّذِي يَأْتِي آخِرُ الزَّمَانِ ، فَهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَى هَذَا الْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَمَنْ نَظَرَ أَدْنَى نَظَرُهُ فِي كِتَابِ الْيَهُودِ التَّوْرَاة وَالْكُتُب الْمُلْحَقَة بِهَا يَجِدُ أَنَّ الوعود الْوَارِدَةُ فِيهِ مُقَابِلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ تدورُ حَوْلَ الْمُتْعَة الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ انْتِصارٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَكَثْرَة الْأَوْلَاد ، وَنَمَاء الزَّرْع ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، كَذَلِك الْوَعِيدِ الْوَارِدِ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْكُفْرِ ، كُلُّه يَدُورُ حَوْلَ انْتِصَار الْأَعْدَاء عَلَيْهِم وَسَبْيِ ذَرَارِيهِمْ وَمَوْت زَرْعِهِم وماشيتهم إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْعُقُوبَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ حَسَب التَّوْرَاة وَالْكُتُب الْمُلْحَقَة بِهَا

وَهَذَا يَخْتَلِفُ عَمَّا لَدَيْهِم فِي التَّلْمود ، حَيْث صرَّحوا بِالنَّعِيم وَالْجَحِيم ، فَقَدْ وَرَدَ فِيهِ : أَنَّ الْجَنَّةَ مَأْوَى الْأَرْوَاح الزَّكِيَة لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الْيَهُودُ ، وَالْجَحِيم مَأْوَى الْكُفَّار ، وَلَا نَصِيبٌ لَهُمْ فِيهِ سِوَى الْبُكَاء ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ الظَّلَام والعفونة وَالطِّين ، وَإِن الْجَحِيم أَوْسَعُ مِنْ النَّعِيم سِتِّين مرَّة .

كَما وَرَدَ فِي نَصّ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ عَشَرَ الَّتِي وَضَعَهَا مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ ، وَجَعَلَهَا أَرْكَانِ الْإِيمَانِ الْيَهُودِيّ ، قَوْلُهُمْ فِي الرُّكْنِ الثَّالِثُ عَشَرَ : (أَنَا أُومِن إيماناً كاملاً بِقِيَامِه الْمَوْتَى ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَنْبَعِث فِيهِ بِذَلِكَ إِرَادَةَ الخالق– تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى ذكره– الْآن وَإِلَى أَبَد الآبدين) .

وَهَذَا لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ بعثاً دنيويًّا عَلَى نَحْوِ عَقِيدَة الفريسيين السَّابِقَة ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَغَيُّرٍ فِي الْعَقِيدَةِ لَدَيْهِم عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ

أَسْلَافِهِم الْمُتَقَدِمِين ، وَلَعَلَّهُ مِنْ تأثرهم بِعَقِيدَة الْمُسْلِمِين ؛ لاحتكاكهم بِهِم ؛ لِأَنَّ مُوسَى بْنُ مَيْمُونٍ كَان طبيباً للأيوبيين فِي مِصْرٍ .

يُشِير مُصْطَلَح الْفِكْر الْأُخْرَوِيّ عِنْدَ الْيَهُودِ إِلَى جُمْلَةِ الْمَفَاهِيم وَالْمَوْضُوعَات وَالتَّعَالِيم الْخَاصَّة بِعَوْدِه الماشيَّح ، وَالْمِحَن الَّتِي ستحل بالبشرية بِسَبَب شرورها ، والصراع النهائي بَيْن قُوَى الْخَيْرِ وَالشَّرَ ، وَالْخَلَاص النهائي وَعَوْدِه الْيَهُود المنفيين إِلَى أَرْضِ الْمِيعَاد ، وَيَوْمِ الْحِسَابِ وخلود الرُّوح وَالْبَعْث .

وَالْعَالِم الْآخَرِ يَعْنِي بِالْعِبْرِيَّة "عولام هبّا" وَهُو مُصْطَلَح أُخْرَوِيّ يَعْنِي "العالم الْآتِي آخِرَ الأيام" مُقَابِل "عولام هازية" أَي "هذا العالم" .

وَلَقَد مَرَّت فكره الْيَوْمِ الْآخِرِ عِنْدَ الْيَهُودِ بِثَلَاثِ مَرَاحِلَ رافقت المراحل التَّارِيخِيَّة لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مُنْذُ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ ؛ فَفِي الْمَرْحَلَةِ الأولَى أَغْفَلْت الدَيَانَة الْيَهُودِيَّة الْحَدِيثِ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ وتجاهلت هَذِهِ الْعَقِيدَةِ . أَمَّا الْمَرْحَلَة الثَّانِيَةُ فَهِيَ أَثْنَاء وُجُودِهِمْ فِي فِلَسْطِينَ بِغَزْو الْمُعْتَقَدَات الشَّرْقِيَّة حَيْث تَوَضَّحَت فكره الْعَالِم الْأَسْفَل ، وَأَصْبَحَت قَرِيبَةٌ مِنْ التَّصَوُّرِ السومري

والبابلي . وَفِي الْمَرْحَلَة الثَّالِثَةِ وَهِيَ مَا بَعْدَ السَّبْي الْبَابِلِيّ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا اِحْتَلّ الْفَرس بِلَاد بَابِل ، فاحتك الْيَهُود بِهِم ، وتأثروا بديانتهم الَّتِي تتبنى عَقِيدَة الْيَوْمِ الْآخِرِ .

وَلَم تشر التَّوْرَاة إِلَى هَذَا الْيَوْمِ بِشَكْل واضحٍ وَصَرِيح ، أَمَّا أَسْفَارِ الْأَنْبِيَاءِ فَفِيهَا إِشَارَات بَسِيطِه عَنْ يَوْمِ الْجَزَاءِ وَأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا ، كَما أَشَارَتْ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْجَحِيم ، إِلَّا أَنَّهَا إِشَارَات مَحْدُودَةٌ جدًا وَلَا تُعْطِي صورةً وَاضِحَةٌ كَما يَجِبُ أَنْ تَرُدَّ فِي كِتَابٍ سماويّ . .

يَعْنِي ذَلِك أنّ النُّصُوص عَامَّةٍ لَمْ تأتِ عَلَى تَفْصِيلٍ وَفِيهَا تَضَارُبٌ أيضًا ، وتُشير بَعْض النُّصُوص إِلَى أَنْ يَوُمَّ الرَّبّ يَوْم أَرْضِي دَاخِلٌ التَّارِيخ ، كَما تُشِير نُصُوص أُخرى أَنَّه يومٌ خَاصٌّ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَبِذَلِك يُمْكِن لَنَا أَنْ نَتَبَيَّن مَدَى تناقضات التَّفْكِير الْأُخْرَوِيّ عِنْدَ الْيَهُودِ .

وَيَظْهَر أنّ سَبَبٌ تَضَارُبٌ هَذِهِ النُّصُوصُ وَعَدَم وُجُودِ صُورَةٍ وَاضِحَةٌ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ عِنْدَ الْيَهُودِ لَا كَما قَالَ ابْنُ كَمُّوْنَة بِأَن أَحْبَارُهُم عَلَى عِلْمٍ بِهَا فَلَمْ يَلْزَمْ التَّأْكِيد عَلَيْهَا ، فالعقائد وَإِنْ كَانَ النَاسُ عَلَى عِلْمٍ بِهَا فالأَولى تَوْضِيحِها وَشَرْحِهَا وَالتَّأْكِيد عَلَيْهَا ، فَلَيْس أَوْضَحُ مِنْ الْإِيمَانِ بِوُجُود اللَّهُ تَعَالَى وَمَعَ ذَلِك جَاءَت آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ تَوَكَّد عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ وَهُوَ أَوْضَحُ الْوَاضِحَات . بَلْ يَرْجِعُ السَّبَب إِلَى مَا أَصَابَ التَّوْرَاةِ مَنْ تَبْدِيلٍ وَتَحْرِيفٌ كَما بَيْنَ الْقُرْآن الْكَرِيم

: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : 13] .

وَكَذَلِك نَجِد أنّ هَذَا التَّحْرِيف وَالتَّبْدِيل قَالَ بِهِ النَبِيُّ إرْمِيا : "كَيفَ تَقُولُونَ : نَحْنُ حُكَماءُ وَشَرِيعَةُ الرَبَ مَعَنَا ؟ حَقًّا إِنَّهُ إِلَى الْكَذِبِ حَوَّلَهَا قَلَمُ الْكَتَبَةِ الْكَاذِبُ . "

إمَّا عَنْ نَشْأَة الْفِكْر الْأُخْرَوِيّ عِنْدَ الْيَهُودِ فَقَدْ سَلَكَ الْبَاحِثُون مَسْلَكَين فِي ذَلِك ، وَهُمَا : حَسَبَ بَعْضِ الْبَاحِثِين فَقَد نَشَأَت عَقَائِد الْيَوْمِ الْآخِرِ فِي الدَيَانَةِ الْيَهُودِيَّة متأثرة بِطَابَع التَّارِيخ الْيَهُودِيّ الْعَامّ ؛ حَيْثُ كَانَ لشتات الْيَهُود الدَّائِم وتشردهم الْمُسْتَمِرّ دُور كَبِيرٌ فِي تَطَوُّرِ نَظَرِه الْيَهُودُ إِلَى حَقِيقَةِ الْأَحْدَاث وَالْمُلِمَّات الَّتِي تحيق بِهِم ، خَاصَّةً بَعْدَ سُقُوطِ مَمْلَكَتِي إِسْرَائِيل ويهوذا عَلَى يَدِ الآشوريين والبابليين عَلَى التَّوَالِي ، فَبَيْنَمَا كَان ثَوَابِهم وعقابهم مَقْصُورِين عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِزَعْمِهِم ، نَجِد أَن تَدَهْوَر أوضاعهم السَيَاسِيَّة وَسُقُوط مملكتهم جَعَلَهُم يتجهون إِلَى التَّفْكِيرِ فِي إِمْكَانِيَّةٌ بَعَث الْمَمْلَكَة مِنْ جَدِيدٍ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَيَّام .

وَيَذْكُر إِسْمَاعِيل الْفَارُوقِيّ أنّ الْيَهُودِيَّة لَمْ تَكُنْ تَعْتَقِد بِآيَة آخِرِه ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْمَوْتَ خَاتِمَةٌ كُلَ شَيْءٍ ، فَلَمَّا شَاهَدُوا تَحْطِيم مملكتهم وتقتيل رجالاتهم عَلَى يَدِ كُلَ مِنْ البَابِلِيّين ثُمّ اليونانيين ثُمّ الرومانيين ثُمّ الأنطاكيين أَخَذُوا يتقبلون فكرِه الآخِرَة ، إِذْ لَمْ يَعُدْ يَعْقِل عِنْدَهُمْ أَنَّ الآلَة لَن يَنْصُر شُعْبَة الْمُخْتَارِ بَعْدَ سُقُوطِهِ .

وَيَقُول وَلّ ديورانت : "ولم تُبن فكرِه الْبَعْث فِي خَلَدٍ الْيَهُودِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ فَقَدُوا الرَّجَاءِ فِي أَنَّ يَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ فِي الأَرْضِ ، وَلَعَلَّهُم أَخَذُوا الفِكْرَة عَن الْفَرَس ، أَوْ لَعَلَّهُمْ أَخَذُوا شيئًا مِنْهَا عَنْ المصريين..."

مُقَابِلَ ذَلِكَ يُرَى فَرِيقٌ مِنَ الْبَاحِثِين أَن فكرِه الْيَوْمِ الآخِرِ كَانَتْ مَوْجُودَةً لَدَى بَعْضُ الْيَهُودِ وَإِنْ خَلَتْ مِنْهَا التَّوْرَاةِ أَوْ جَاءَتْ بِذِكْر مُجْمَلٌ لَهَا ، فَيَذْكُر ابْن كَمُؤْنَة أَنَّ الْيَهُودَ اعْتَقَدُوا بِأَن ثَوَاب الطَّاعَةِ هُوَ الْخُلُود بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ وَالْعَالِم الآتِي ، وَالْعَذَابِ فِي جَهَنَّمَ مِنْ غَيْرِ خُلُودٌ لِلْعَاصِي لمعتقد الشَّرِيعَة الْيَهُودِيَّة ، وَلَم تبيّن التَّوْرَاة ذَلِك تبيينًا صريحًا ، إِلَّا أَنْ الْعُلَمَاءَ وَأَحْبَار الأُمَّة وَنَقَلَه الشَّرِيعَة نَقَلُوا هَذَا الاِعْتِقَادَ

أَمَّا سعدايا الْفَيُّومِيّ فَيَرَى أَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ مِمَّا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ ، فاختصرت التَّوْرَاة الْحَدِيثِ عَنْهُ ، كَمَا أَنَّ النُّبُوَّةَ مِنْ شَأْنِهَا الْكَلَامَ عَنْ الْحَوَادِثِ الْقَرِيبَة لِلْحَاجَةِ إِلَيْهَا وتختصر فِي الْحَوَادِثِ الْبَعِيدَة .

وَيُمْكِن اسْتِحْضَار قَوْلُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ فِي كِتَابِهِ الْجَوَابُ الصَّحِيحُ لِمَن بَدَلَ دِيْنِ الْمَسِيحِ حِينَ قَالَ : "وكذلك التَّوْرَاة لَيْسَ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ الْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَّا أُمُور مُجْمَلَةٌ . "

إِذًا فعقيدة الْيَوْمِ الْآخِرِ كَانَتْ مَوْجُودَةً عِنْدَ الْيَهُودِ –وإن لَمْ تَكُنْ بِصُورَة واضحة– وَهِي شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَنَّ الْيَهُودَ سَاقُوا عَلَى هَذِهِ الشَّرِيعَةِ تبديلاً وتحريفًا ، وَمَا قَالَ بِهِ بَعْضُ الْبَاحِثِين فِي أَنَّ هَذِهِ الفِكْرَة لَمْ تَظْهَرْ إِلَّا بَعْدَ تَأَثُّر الْيَهُود بالأقوام الَّذِين خالطوهم وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ شَتَاتٌ وَتَعْذِيب فَيَبْدُو أنّ هَذَا التَّأَثُّر جَاء ثانيًا ، فَالْيَهُود وَجَدُوا فِي أَصْلِ شَرِيعَتِهِم الْحَدِيثِ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ .

وَقَدْ كَانَ لِلنَّزعَة الْمَادَيَّة عِنْدَ الْيَهُودِ دُور فِي كِتْمَانِ مَا جَاءَتْ بِهِ التَّوْرَاةُ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَبَقِيَت هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُضْطَرِبَة الَّتِي نَجِدْهَا فِي كُتُبِهِمْ المحرفة الْيَوْم ، وَمِنْ هُنَا نفسر كَرَاهِيَة الْيَهُود لِلْمَوْت وَمَا بَعْدَهُ ، لِئَلَّا ينشغلوا بِالْآخِرَة عَنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعُهَا ، وَقَد تَحَدَّاهُم الْقُرْآنِ

الْكَرِيمِ أَنْ يتمنوا الْمَوْتُ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ، فَلَم يَتَمَنَّوْه ! قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : 94 ، 95] .

أَمَّا فِي التَّلْمود فَيُعَدّ الْعَالِم الْآخر مِنْ أَبْرَز الْأَفْكَار الأَسَاسِيَّة الَّتِي تَنَاوَلَهَا ، كَما حَاوَل عُلَمَاء التَّلْمود وَالْمُفَسرُون إِثْبَاتِ أَنَّ التَّوْرَاةَ لَم تَغْفُل فكره إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَذَلِك باللجوء إِلَى تَأْوِيلٍ جَمَل التَّوْرَاة وتحميلها معانٍ لَم تشر إِلَيْهَا قَطّ ، فَوَرَدَ فِي بَابِ سنهدرين : سَأَل الرَبّي سيمايي : مِنْ أَيْنَ نَسْتَدِلّ أَنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ ؟ استنادًا إِلَى مَا وَرَدَ فِي خُرُوجِ 6/4 "وأيضًا أَقَمْت عَهْدِي مَعَهُمْ إِنْ أُعْطِيهِم أَرْض كَنْعَانَ . "فهو لَمْ يَقُلْ "أعطيها لكم" أَي لِلْمُخَاطَبين وَلَكِنْ قَالَ : "أعطيها لهم" أَي لِلْغَائِبين ، مِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ كَما قَالَ الرَبّي سيماي .

وَلَقَد فَتْح الرَبّي سيماي الْبَاب إِمَام جَمِيع مُعَلِمِي الجِمَارا تَأْوِيل جَمَل التَّوْرَاة لِلتَّأْكِيد عَلَى أَنَّ فَكَرِه إِحْيَاءِ الْمَوْتَى تَمَثَّل عَقِيدَة رَاسِخَةٌ فِي مَصْدَرِ التَّشْرِيع الْأَوَّل ، بتأكيده أَنَّهُ لَا تُوجَدُ جُمْلَةً

فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ لَا تَحْتَوِي عَلَى عَقِيدَة إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، وَلَكِنْ كُلُّ فِقْرَةٍ بِحَسَبِ مَا يَقُولُ تَحْتَاجُ إِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى إِمْعَانِ النَظَرِ مِنْ أَجْلِ تَفْسِيرِهَا وَهَذَا لَن يَتَأَتَّى إِلَّا عَنْ طَرِيقِ التَّأْوِيل .

وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّلْمود ذِكَر لِلْجَنَّة وَالنَار وَلَكِنْ فِي صُورَةٍ مُضْطَرِبَةٌ ، أَقْرَبُ مِنْهَا للخرافة والأساطير إِلَى حَقَائِقِ الْعَقِيدَة ، فَتَذَكَّر هَذِه الفقرات أَنَّ الْجَنَّةَ تَأْوِي إِلَيْهَا الأَرْوَاحَ الزَّكِيَة ، وَأَنَّهُ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا الْيَهُودُ ، وَأَنَّ أَهْلَهَا يُطْعِمُون مِنْ لَحْمٍ أُنْثَى الْحُوت الْمَمْلَحَة ، وَإِن شَرَابُهُم نَبِيذ عَصْرِه اللَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ الْأَيَّامِ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا الْعَالِم .

وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ التَّلْمود جَاءَ عَلَى عَقِيدَة الْيَوْمِ الْآخِرِ عِنْدَ الْيَهُودِ ، بَل نَجِد مَسَحَهُ مِنْ شَكْل الأُسطورة كَمَا فِي الْمِثَالِ الْمَذْكُورِ ، وَقَدْ أَكَّدَ رِجَالِ الدِينِ الْيَهُودِيّ عَلَى هَذَا الْيَوْمِ ، وفسّروا التَّوْرَاة وَقَامُوا بتحريف النُصُوص ليؤكدوا عَلَى وُجُودِهِ ، بَل وَذَكَر التَّلْمود أنواعًا مِنْ الْبَرَاهِين وَالْحُجَج وَقَام كتّابه بِالرَّدَ عَلَى الْمُنْكِرِينَ مَنْ فَرَّقَ الْيَهُود .

الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فِي الدِّيَانَةِ الْمَسِيحِيَّة

المسيحيون يُؤْمِنُون بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ الدينونة يَوْمَ الْحِسَابِ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ السَّيَدُ الْمَسِيحِ فِي إِنْجِيل يوحنا " تَأْتِي سَاعَةٍ فِيهَا يَسْمَع جَمِيع الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَه . فَيَخْرُج الَّذِينَ فَعَلُوا

الصَّالِحَات إِلَى قِيَامِهِ الْحَيَاة ، و الَّذِين عَمِلُوا السيآت إِلَى قِيَامِهِ الدينونة " (يُو ٥ : ٢٨–٢٩) ... وَيَقُول السَّيِّدِ الْمَسِيحِ فِي إِنْجِيل مَتَى " وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْدِه وَجَمِيع الْمَلَائِكَة القديسين مَعَه ، فَحِينَئِذ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِه . وَيَجْتَمِع إِمَامِه جَمِيع الشُّعُوب ، فَيُمَيِّز بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيِّز الرَّاعِي الخِرَاف مِن الْجِدَاء . فَيُقِيم الخِرَاف عَنْ يَمِينِهِ وَ الْجِدَاء عَنْ الْيَسَارِ . ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِك لِلَّذِين عَنْ يَمِينِهِ تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رَثُوا الْمَلَكُوت الْمُعَدّ لَكُم مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالِم . لِأَنِي جُعْت فأطعمتموني . عَطِشَت فسقيتموني . كُنت غَرِيبًا فآويتموني . عُرْيَانًا فكسوتموني . مَرِيضًا فزرتموني . مَحْبُوسًا فأتيتم إِلَيّ . فَيُجِيبُه الْأَبْرَار حِينَئِذ قَائِلِين . يَارَبّ مَتَى رَأَيْنَاك جَائِعًا فاطعمناك . أَو عَطْشَانًا فسقيناك . وَمَتَى رَأَيْنَاك غَرِيبًا فأويناك . أَوْ عُرْيَانًا فكسوناك . و مَتَى رَأَيْنَاك مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا فَأَتَيْنَا إِلَيْك . فَيُجِيب الْمَلِك وَ يَقُولُ لَهُمْ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ بِمَا أَنَّكُم فَعَلْتُمُوه بِأَحَد إِخْوَتِي هَؤُلَاء الْأَصَاغِر فَبِي فَعَلْتُم . ثُمَّ يَقُولُ أَيْضًا لِلَّذِين عَنْ الْيَسَارِ اذْهَبُوا عَنِي يَا مَلَاعِين إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّة الْمُعِدَة لِإِبْلِيس و مَلَائِكَتِه . لِأَنِي جُعْت فَلَم تُطْعِمُونِي . عَطِشَت فَلَم تسقوني . كُنت غَرِيبًا فَلَم تأووني . عُرْيَانًا فَلَم تكسوني . مَرِيضًا و مَحْبُوسًا فَلَم تَزُورُونِي . حِينَئِذ يُجِيبُونَه هُمْ أَيْضًا قَائِلِين يَارَبّ مَتَى رَأَيْنَاك جَائِعًا أَوْ عَطْشَانًا أَو غَرِيبًا أَوْ عُرْيَانًا أَوْ مَرِيضًا أَوْ مَحْبُوسًا وَلَمْ نخدمك . فَيُجِيبُهُم قَائِلًا الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ بِمَا

أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوه بِأَحَد هَؤُلَاء الْأَصَاغِر فَبِي لَمْ تَفْعَلُوا . فَيَمْضِي هَؤُلَاءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيّ و الإبْرارُ إِلَى حَيَاة أَبَدِيَّةٌ " (مت ٢٥ : ٣١–٤٦)... كَمَا يَقُولُ السَّيِّدُ الْمَسِيحِ فِي سَفَرِ الرّؤْيَا عَنْ يَوْمِ الدينونة " هَا أَنَا آتِي سَرِيعًا واجرتي مَعِي لاجازي كُلُّ وَاحِدٍ كَمَا يَكُونُ عَمَلُهُ " (رو ٢٢ : ١٢)

كَما ذَكَرْنَا يُؤْمِن المسيحيون بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَوْ "يوم الدين" وَلِكِن الْيَوْمِ الْآخِرِ عِنْدَهُم يَخْتَلِفُ عَنْهُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِين . فَالْيَوْم الْآخَرُ عِنْدَ الْمَسِيحِيِّينَ إِيذَانٌ بِالْمَجِيء الثَّانِي لِلسَّيِّد الْمَسِيح . وَأَمَّا صِفَةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَتَظَلَّم الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَتَسْقُط النُّجُوم وتنفخ الْمَلَائِكَةُ فِي بَوَق عَظِيمٌ ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ نَجَاةٌ الْمَسِيحِيِّين فَيَجْمَعُون مِن الأقصاء إِلَى الأقصاء ، بَيْنَمَا تَنُوح قَبَائِل الْأَرْض فَعَن عَلَامَةٌ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَصِفَتُهُ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيد نَقْرَأ : "وَلِلْوَقْتِ بَعْدَ ضِيقِ تِلْكَ الأَيَامِ تُظْلِمُ الشَّمْسُ ، وَالْقَمَرُ لاَ يُعْطِي ضَوْءَهُ ، وَالنُّجُومُ تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَقُوَّاتُ السَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ . وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلاَمَةُ ابْنِ الإِنْسَانِ فِي السَّمَاءِ . وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ ، وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ . فَيُرْسِلُ مَلاَئِكَتَهُ بِبُوقٍ عَظِيمٍ

الصَّوْتِ ، فَيَجْمَعُونَ مُخْتَارِيهِ مِنَ الأَرْبَعِ الرِّيَاحِ ، مِنْ أَقْصَاءِ السَّمَاوَاتِ إِلَى أَقْصَائِهَا" . (متى 29 : 24-31)

وَيُؤْمَن المسيحيون بِالْحِسَاب والدينونة . فَعَن ذَلِك نَقْرَأ فِي الْعَهْدِ الْجَدِيد : "وَلكِنْ أَقُولُ لَكُم : إِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ بَطَّالَةٍ يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ سَوْفَ يُعْطُونَ عَنْهَا حِسَابًا يَوْمَ الدِّينِ" . (متى 36 : 12)

الرَّبْطُ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

لَا يُعَادِلُ أَهَمِّيَّة الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَقِيدَة سِوَى الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لِذَلِكَ فَنَجِد الْكَثِيرِ مِنْ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّة تُقْرَن بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

الْإِيمَانِ بِاللَّهِ يَسْتَلْزِم الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ يَسْتَلْزِم الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحِ بِاللَّه –سبحانه– يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِكَمالِ اللَّه وقدسيته ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ أَوْ عَيْبٍ ، وَمَن كَمالِه –سبحانه– أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ خَلْقه عبثاً يَنْتَهِي كُلَ شَيْءٍ بموتِهم ، قَال – تعالى– : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) . وَمَنْ آمَنَ بِكَمال اللَّهُ سُبْحَانَهُ كَانَ إِيمَانُهُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ ، وَمَن صِحَّة وَسَلَامُه إِيمَانِه بِكَمال اللَّه –سبحانه– ، وَبُعْدُهُ عَنْ العبثية وَالنَّقْص ، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَمْ يَكُنْ مؤمناً بكمالِ ربّه –سبحانه– .

الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ بِعَدْل اللَّهَ خَلَقَ اللَّهُ الْعِبَادَ وكَلَّفهم وَأَمَرَهُم بِالْعَدْل وَاجْتِنَاب الظُّلْم والاعتداء عَلَى بعضٍ ، ورتَّبَ عَلَى ذَلِكَ الثَّوَابَ وَالْعِقَابِ ، قَال –تعالى– : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) ،

وَلَن يتحقّق كَمال عدلِ اللَّه –سبحانه– إِلَّا بِالْقَضَاءِ وَالْحُكْم بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الْآخِرَةِ ، وسيبعث عُبَادَة وَيُحْكَم بَيْنَهُم ، وَيُعِيد للمظلومين حُقُوقِهم ، وَيَنَال الظَّالِمُون عِقَابِهم ؛ لِيَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ كَمالُ الْعَدْلِ الَّذِي اتّصف بِه –سبحانه– . ثَوَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَعِقَابِه مُكْتَمل فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ

الْإِيمَانِ بِاللَّهِ –سبحانه– الإيمانُ بتكْلِيف عُبَادَة ، وأَنَّه رتَّبَ الْجَزَاءِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَى أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ واعتقاداتهم ، وَجَزَاء ذَلِكَ لَا يَكْتَمِل فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، بَل تَمَامِه إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ بِمِيزَان عدلٍ : (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) .

وَمَن صحَّ إِيمَانِه بِاللَّه –سبحانه– وَبِأَنَّه كلَّف عبادَه وَأَمَرَهُم وَنَهَاهُم فَإِنَّه يَبْذُل وُسْعِهِ فِي الِالْتِزَامِ بِتِلْك التَّكَالِيف لِيَكُونَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْمُفْلِحِينَ ، وَبِهَذَا يَكْتَمِل وَيُسَلَم الْإِيمَانِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي أَثْنَى اللَّهُ –عز وجل– عَلَيْهَا أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ، وَمِنْ ذَلِكَ إِيمَانُهُمْ بِاللَّه وَأَيْمَانِهم بِالْيَوْمِ الْآخِرِ .

وَإِنَّمَا انْبَنَى أَيْمَانِهم هَذَا عَلَى النقلِ وَعَلَى التَّأَمُّل وَالتَنَظَرِ فِي عَجَائِبِ هَذَا الْكَوْن الْعَظِيم وَمَا فِيهِ مِنْ آيَاتِ دَالَّةٌ عَلَى اللَّهِ الْخَالِقُ الْبَارِئُ سُبْحَانَهُ ، فَلَم يُوجد ذَلِك ليفنى وَيَنْتَهِي وَإِنَّمَا لِيَحْكُم بَيْنَ عِبَادِهِ وَيُجْزِئ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هُمَا رُكْنَا الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ الَّذِي يتفرّع عَنْهُ كُلُّ مَا اتَّصَلَ بِالْغَيْبِ مِمَّا أَخْبَرَنَا اللهُ –عز وجل– ورسلُه به .

مَنْ كَفَرَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ نسبَ إِلَى اللَّهِ التَنْقص اللَّه –عز وجل– خَالِق هَذَا الْكَوْن هُوَ الْكَامِلُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَأَكْثَر حَوَادِثِ الدُّنْيَا والعلاقات بَيْنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةَ لَا تُفْصلُ وتُنهى فِيهَا ، بَلْ تَبْقَى معلقةً غَيْر مُنْتَهِيَةٌ ، وَلَا يَتِمُّ الْفَصْل وَالْحُكْمُ فِيهَا إِلَّا بِحَيَاة أُخْرَى يَكُونُ فِيهَا الْجَزَاءَ وَالْحُكْم بِالْحَقّ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ نُسِب الظُّلْم والعبثيَة إِلَى اللَّهِ –عز وجل– ، وَجَعَل أَفْعَالَ اللَّهِ –سبحانه– خَارِجَةٌ عَنْ الْحِكْمَةِ وَالْعَدْل وَالْكَمال .

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاَللَّهِ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي تَنْبَنِي عَلَيْهِ كُلُّ الْأُصُولِ ، وَالْإِتْيَان بِالْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى الْجَزَاءِ ، وَعَلَى مَا يَلْقَاهُ الْإِنْسَانِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَيَأْتِي فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ، وَيَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ فِي مَجَالِ التَّرْغِيب الْعَمَل بِالْأُمُور الْمَشْرُوعَة مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْصُلَ الْإِنْسَانِ عَلَى الثَّوَابِ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ فِي التَّرْهِيبِ أَنْ يَحْذَرَ الْإِنْسَانِ مِنْ الْوُقُوعِ فِي الْأُمُورِ الْمُحَرَّمَة ؛ لِئَلَّا يَحْصُلَ لَهُ الْعِقَاب .

وَمِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩] وَهَذَا فِي التَّرْغِيبِ ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالرَّدِّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَجَاءَ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ : ﴿ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [الطلاق : ٢] .

وَأَمَّا فِي السَّنَةِ فَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُسَافِرَ إِلَّا مَعَ ذِي محرم) وَكَذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : (من كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خيراً أَو ليصمت) ، ، وَهُوَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَكُلّ جُمْلَة فِيهِ فِيهَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَذَلِكَ إِمَّا ترغيباً فِي فِعْلِ الْخَيْرِ لِيَحْصُل الْأَجْر ، وَأَمَّا ترهيباً مِنْ فِعْلِ الشَّرِ حَتَّى يُسَلَمَ مِنْ الْوِزْرِ .

إِذاً : فَالْجَمْعُ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ أَجْلِ التَّنبيهُ عَلَى الِاسْتِعْدَادُ لِذَلِكَ الْيَوْمِ ، فيقدَم الْإِنْسَان الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَيُحَذَرُ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي الْمُحَرَّمَاتِ ؛ ليحصَّل لَهُ الثَّوَابُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ وَلْيُسَلَم مِنْ الْعِقَابِ فِيهَا أيضاً .

وَيَأْتِي فِي الْقُرْآنِ –أيضاً– الْجَمْعِ بَيْنَ أَكْثَرَ مِنْ أَصْلَيْنِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَذْكُرَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِه ، وَكُتُبِه ، وَرُسُلِه ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَذَلِكَ كَما فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، فَقَد اشْتَمَلَت الْآيَةِ عَلَى خَمْسَةِ أُصُولٍ مَنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ .

وَالْمَقْصُود بِالْكِتَاب الْكُتُب ، و (أل) فِيهِ لِاسْتِغْرَاقِ الْجِنْسِ ، وَلَيْسَت لِلْأَفْرَاد ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْخَمْسَةِ جَاءَتْ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء : ١٣٦] .

وَجَاء ذِكْرَ هَذِهِ الْخَمْسَةِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، وَالْخَامِس أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ((وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)) ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الْيَوْمَ الْآخِرِ .

فَجَاءَت هَذِهِ الْأُصُولِ الْخَمْسَةَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثَ مُجْتَمِعَةٌ : فِي الْبَقَرَةِ فِي آيَتَيْن ، وَفِي النِّسَاءِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَمَّا الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ فَقَدْ جَاءَ مستقلاً فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، وَقَوْلُه : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ [الحديد : ٢٢] .

وَأَكْثَرُ مَا اجْتَمَعَ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ خَمْسَة ، وَأَقَلُّهَا اثْنَان : الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتِلْك الْأُصُول الْخَمْسَةِ الَّتِي اجْتَمَعَتْ هِيَ مَا دُونَ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ .

اهْتِمَام الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

يَرْجِع عِنَايَة الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ واهتماماته بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى مَا يَلِي :

أولاً : إِنْكَار الْمُشْرِكِين واستبعادهم لِوُقُوعِه

إِذَا كَانَ كُفَّارِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، قَد أَنْكَرُوا تَوْحِيد الْأُلُوهِيَّة بِالرَّغْمِ مِنْ إِقْرَارِهِم لِتَوْحِيد الرُّبُوبِيَّة ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُنْكِرِين أَشَدّ الْإِنْكَار لِلْيَوْمِ الْآخِرِ ، ومستبعدين تَمَام

الِاسْتِبْعَاد لِقِيَامِ النَّاسِ مَنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ أَنْ مَاتُوا وَصَارُوا عظاماً ورفاتاً ، حَيْثُ يَقُولُ قَوْمٌ مِنْ هَؤُلَاءِ عَنْ نَبِيِّهِمْ :

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : 34-37] .

وَجَاء كِفَاء مَكَّة فرددوا هَذَا الْقَوْل حَتّى حَكَى الْقُرْآن عَنْهُمْ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : 81-83] .

وَلِذَلِك فَإِن الشَّهْرِسْتَانِي حِينَمَا تُحَدثُ عَنْ مُعَطِّلَة الْعَرَب ، ذُكِرَ مِنْ أَصْنَافِهِم صِنْفَيْن : صِنْف أَنْكَرُوا الْخَالِق وَالْبَعْث وَالْإِعَادَة ، وَقُولُوا بِالطَّبْع الْمُحْيِي وَالدَّهْر الْمُفْنِي ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الدهريون – الَّذِين سَبَقَ الْحَدِيث عَنْهُمْ – وَكَانَ شِعَارُهُمْ "إن هِيَ إِلَّا أَرْحَام تَدْفَع وَأَرْض تبلع" .

وَصِنْفٌ مِنْهُمْ أَقَرُّوا بِالْخَالِق وَابْتِدَاء الْخَلْق وَالْإِبْدَاع ، لَكِنَّهُمْ أَنْكَرُوا الْبَعْث وَالْإِعَادَة . وَانْتَهَى إِلَى أَنْ شُبُهَاتِهِم كَانَتْ مَقْصُورَةً عَلَى شبهتين : إِنْكَار الْبَعْث (بعث الأجسام) وَجَحَد الْبَعْث (بعث الرسل) . وَيَقُول شَارِح الطحاوية : "فإن الْإِقْرَار بِالرَّبّ عَامٌّ فِي بَنِي آدَمَ ، وَهُو فِطْرِيّ ، كُلُّهُم يُقِرّ بِالرَّبّ إِلَّا مِنْ عَانَدَ كَفِرْعَوْن ، بِخِلَافِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِنْ مُنْكِرِيه كثيرون" .

ثانياً : فَسَاد تَصَوُّر الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِلْيَوْمِ الْآخِرِ

إِذَا كَانَتْ التَّوْرَاة الْمَنْزِلَة عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْإِنْجِيل الْمُنَزَّلُ عَلَى عِيسَى بْنُ مَرِيمَ – عَلَيْهِمَا السَّلَامُ – قَد احْتَوَى كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى عَقِيدَة الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، كَمَا أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ الْقُرْآن الْكَرِيم فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهِ ، فَإِن كلاً مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَد انْحَرَفَ فِي تَصَوُّرِهِ لِلْيَوْمِ الْآخِرِ عَمَّا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السلام[2] ، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَصْحِيحٍ شَامِلٌ ومفصل لَمَّا قَامُوا بِهِ مِنْ تَضْلِيل وَإِفْسَاد ، وَمَا أَحْدَثُوه مِنْ تَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ فِي عَقَائِدِ أَنْبِيَائِهِم ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ كُلُّهُم – كَمَا يَقُولُ شَارِح الطحاوية – مُتَّفِقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بالآخرة[3]

ثالثاً : إِثْرَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لَهُ أَثَرٌ عَظِيمٌ : وَتَأْثِير عَجِيبٌ فِي تَوْجِيهِ وَضَبْط سُلوكُ الإِنْسانِ عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَاد والمجتمعات ، مِمَّا يُؤَدِي إِلَى الِالْتِزَام بِمَحَاسِن الْأَخْلَاق وشيوع التَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرَ وَالتَّقْوَى ، وَتَرَكَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَالْحَثَ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى التَّحَلِي بِالْفَضَائِلِ ، وَالتَّخَلِي عَنْ الرَّذَائِلِ ، وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إِلَّا مِنْ خِلَالِ مَا يُحْدِثُهُ الْإِيمَان بِالْآخِرَة مِنْ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السَرَ والعلن ، وَالطَّمَعِ فِي ثَوَابِهِ ، وَالْخَوْفُ مِنْ عِقَابِهِ ، يَقُولُ تَعَالَى عَنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام : 92] ، وَيَقُول سُبْحَانَه ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [المؤمنون : 74] .

رابعاً : عُمُوم وخلود رِسَالَة الْإِسْلَام

لَمَا كَانَ النَبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَلَمَّا كَانَتْ رِسَالَتِه مُتَضَمَنَةٌ عَنَاصِر الْبَقَاء وَالْخُلُود ؛ لِأَنَّهَا لِلنَّاسِ كَافَّةً ، وَبَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمِ هُوَ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ الْحَدِيثِ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ بِالتَّفْصِيل ، وَأَنْ يَأْتِيَ عَلَى قَضِيَّةِ الْبَعْث بِالْقَوْل الْفَصْل .

الْإِيمَان بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَإِثَارَة النَّفْسِيَّة

الْإِيمَان بِيَوْمِ الدِّينِ كلية مِن كُلِّيَاتُ الْعَقِيدَة الْإِسْلَامِيَّة ، لَهَا آثار طَيِّبَة عَلَى نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَحَيَاتِه وَسُلُوكِه فِي الدُّنْيَا ، لِأَنَّهُ يَجْعَلُ الْإِنْسَان يَعْلَق نَظَرِه ورجاءه بِاللَّهِ تَعَالَى فِي عَالَمِ آخَرَ بَعْدَ عَالِمْ الْأَرْض ، فَلَا تَسْتَبِدُّ بِهِ ضَرُورَات الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا يَسْتَبِدَّ بِهِ القَلَقُ عَلَى تَحْقِيقِ جُزْءًا سَعْيُهُ فِي عُمْرَةِ الْقَصِيرِ الْمَحْدُود ، وَبِذَلِك يَمْلِك الْقُوَّةُ عَلَى الْعَمَلِ لِوَجْهِ اللَّهِ وَانْتِظَار الْجَزَاء حَيْث يُقَدِّرُهُ اللَّهُ ، فِي طُمَأْنِينَةِ وَثَقَه وَيَقِين فِي اللَّهِ . وَفِي إصرار عَلَى الْحَقَ وَلَوْ كَانَ مراً . وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يُمَثِّل مَفْرِق الطَّرِيقِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ بَيْنَ الْعُبُودِيَّة للنزوات وَالشَّهَوَات ، وَبَيْن التَّعَلُّق بِالْقِيَم الرُّوحَانِيَّة وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَى الْقَيَم الْأَرْضِيَّة .

الْإِيمَان بِحَيَاة أُخْرَى بَعْدَ الْمَوْتِ لَهُ أَثَرٌ بَالَغَ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَان وَسُلُوكِه وَأَخْلَاقِه . الْمُؤْمِن بِالْآخِرَة يَفْعَلْ الْخَيْرَ ، وَإِنْ كَانَ يَبْدُو غَيْر مَرْبَحٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَتَجَنَّب الشر ، وَإِنْ كَانَ يَبْدُو مربحاً ، لِأَنَّهُ يَقْدِرُ الْأُمُورَ بعواقبها النَهَائِيَّة ، وَلَيْس بِمَدَى مُوَافَقَتِهَا لنزاوته وَغَرَائِزَه .

الْمُؤْمِن بِالْآخِرَة وبالحساب بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ يُرَاقِب أَفْعَاله وَيُحَاسَب نَفْسِه ، وَيَكُون حريصاً عَلَى أَلَّا يَضِيع سَعَادَتُه الْأَبَدِيَّة مُقَابِل مَكْسَب دُنْيَوِيّ عَابِر .

هُنَاك فَرْق جَوْهَرِي بَيْن الْمُؤْمِن بِالْآخِرَة وَبَيْن الْكَافِر بِهَا ، فِي أخلاقهما ، وَفِي مقاييسهما ، ونظرتهما إِلَى الْأُمُور ، الْعَمَل الْحَسَن فِي نَظَر الْكَافِر هُوَ كُلُّ مَا يُجْلَبُ لَه كسباً وربحاً فِي الدُّنْيَا ، وَكُلّ هَمُّه إِشْبَاع رَغَبَاتِه الذَّاتِيَة ، لَا يَتَحَرَّجُ مِنْ اسْتِخْدَام الْوَسَائِل الظَّالِمَة لِبُلُوغ أَهْدَافه ، وَالْعَمَل السَّيِّء فِي نَظَرِه هُوَ كُلُّ مَا يَدْخُلُ ضرراً عَلَى مَصَالِحِه الدُّنْيَوِيَّة ، أَو يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِشْبَاع شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِه .

أَمَّا الْمُؤْمِنُ بِالْآخِرَة فَالْعَمَل الْحَسَن فِي نَظَرِه هُوَ كُلُّ مَا يَرْضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَالْعَمَل السَّيِّئ هُوَ كُلُّ مَا يُؤَدِي إِلَى غَضَبُه ، وَالْعَمَل الْحَسَن يَكُون حسناً ، فِي نَظَر الْمُؤْمِن ، وَإِنْ لَمْ يَجْلِبْ لَهُ مَنْفَعَةُ شَخْصِيَّةٌ عَاجَلَه فِي الدُّنْيَا . بَلْ يَكُونُ حسناً وَإِنْ كَانَ مُضِرّاً ببعض مَصَالِحِه الدُّنْيَوِيَّة لِأَنَّهُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ اللَّهَ سَيُجَازِيه فِي الْحَيَاةِ الدَّائِمَة .

الْمُؤْمِن بِالْآخِرَة لَا يَسْلَمُ بنسبية الْأَخْلَاق ، لِأَنَّهَا قَيَم ثَابِتَةٌ مُطْلَقَة مَنْزِلَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لِهَذَا كُلِّه فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْآخِرَة هُوَ الَّذِي يُجْعَلُ الْإِنْسَان يُخْتَارُ فِي الدُّنْيَا طريقاً أَو سلوكاً دُونَ آخَرَ .

وَفِي الْحَقِيقَةِ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ صالحاً إِذَا كَانَ كافراً بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، لِأَنَّ إِنْكَارَ الحَياةُ الأُخْرَى وَالْحِسَاب يَقْتَلِع الْإِحْسَاس بِالْمَسْؤولِيَّة مِنْ قَلْبِهِ ويهبط بِهِ مِنْ مُسْتَوَىً الْإِنْسَانِيَّة الْمُكَرَمَة إِلَى مُسْتَوَى أَسْفَل الْحَيَوَانَات .

وَالْإِيمَان بِالْآخِرَة يُفيض السَّلَام وَالسَّكِينَة عَلَى رُوحُ الْمُؤْمِن وَشُعُوره ، وَيُبْعَدَ عَنْهُ القَلَق وَالسَّخَط وَالْقُنُوط ، الْإِيمَان بِالْآخِرَة يَعْنِى الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْحِسَاب الختامي لَيْسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، بَلْ هُوَ هُنَاكَ فِي الْحَيَاةِ الأُخْرَى حَيْثُ الْعَدَالَة الْمُطْلَقَة مَضْمُونَةٌ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ ، فَلَا نَدِم أَذَّنَ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ، وَلَا قَلِق وَلَا قُنُوط بِسَبَبِ مَا يَقَعُ لِلْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَالْعَدْل وَالْجَزَاء وَاقِعٌ لاشك فِيه .

وَالْإِيمَان بِالْآخِرَة حَارِسٌ لِلْقَيَمِ الأَخْلاَقِيَّة النبيلة ، حَاجِزٌ دُون الِانْدِفَاع فِي الصراع الْمَحْمُوم عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا ، ذَلِك الصراع الَّذِي تُدَاس فِيه الْقَيَمِ وَالْحُرُمَات وَالْأَخْلَاق وأوامر اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ بِلَا حَرَجٍ وَلَا حَيَاءَ .

ثُمَّ إِنَّ مَعْرِفَةَ الْمُؤْمِنِ بِأَنَّ غَايَةَ الْوُجُود الْإِنْسَانِيّ هِيَ الْعِبَادَةُ ، وَأَنَّه مَخْلُوقٌ لِيُعْبَدَ اللَّهُ ، مِنْ شَأْنِهَا ، ولاشك ، أَن تَرْتَقِي بِهِ إِلَى هَذَا الْمُسْتَوَى الرَّفِيعُ مِنْ الْأَخْلَاقِ ، تَرْتَقِي بشعوره واهتماماته

وأنشطته وَأَعْمَالِه ، وَتَنَظُّف وَسَائِله ، فَهُوَ يَقْصِدُ بنشاطه وعمله ، وَكَسْبُه وَإِنْفَاقُه ، عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ يُرِيدُ بِامْتِثَال كُلُّ أَمْرٍ وَاجْتِنَاب كُلّ نَهْيٌ ، الْعِبَادَة . فَأَوْلَى بِه ، وَذَلِكَ هُوَ قَصَدَه التَبيل ، إِلَّا يَغْدِر وَلَا يَفْجُر وَلَا يَغُشَّ وَلَا يُخْدَعُ ، وَلَا يطغى وَلَا يتجبر ، وَأَوْلَى بِهِ إِلَّا يَسْتَخْدِم أَدَّاه مدنسة ، وَلَا وَسِيلَةً خَسِيسَة .

الْإِيمَان بِالْآخِرَة لَيْس طريقاً لِلثَّوَاب فِي الْآخِرَةِ فَحَسْب كَمَا يَعْتَقِد بَعْضُ النَاس ، إِنَّمَا هُوَ حافِز ، كَذَلِك ، عَلَى الْخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، حافِز عَلَى إِصْلاحِهَا وإنمائها ، أَنَّه وَسِيلَةٌ لِتَحْقِيق حَيَاة كَرِيمَة لَائِقَة بِالْإِنْسَان الَّذِي كَرَّمَهُ اللَّهُ وَفَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ . وَرَفْعُهُ عَنْ دَرْكِ الْحَيَوَان ، لِتَكُون اهتماماته وَأَهْدَافِه أَرْفَعَ مِنْ ضَرُورَاتِ الْحَيَوَان .

أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْآخِرَة ، وَبِمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ فِيهَا مِنْ الْجَزَاءِ الْأَوْفَى ، إِذَا رَسَخ فِي الْقَلْبِ تَحَوَّلَ إِلَى قُوَّةِ دَافِعَةٌ تَجْعَلُ الإِنْسَانَ مستعدّاً للبذل وَالْعَطَاء وَالتَّضْحِيَة فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، وَتُجْعَل خَلْقِه وَسُلُوكِه مستقيماً ، وَتُجْعَل الْأَوْضَاع الاجْتِمَاعِيَّة صَالَحه قويمة ، لِأَنَّ الْأَفْرَادَ إِذَا كَانُوا صَالِحِينَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَ أَحْوَالِهِم الاجْتِمَاعِيَّة تَفْسُد وتنحرف .

وَلِكَي يَبْقَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ قُوَّة حَيَّةٌ فِي الضَّمِيرِ تَدْفَعُ إِلَى الْخَيْرِ ، وَتُحْبَس عَن الشر ، فَرَضَ اللَّهُ الْعِبَادَات وحدَّ الْحُدُود ، لِتَكُونَ وَسِيلَةً لِتَجْدِيد الْإِيمَان وَزِيَادَتُه وَتَقْوِيَته ، وَبِقَدْرِ مَا يُدَاوِم الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا يَكُونُ تَجَدَّد إِيمَانِه وَتَأْثِيرُه فِي النَفْسِ وَالسُّلُوك وَالْأَخْلَاق .

بَيَان إِثْرَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ عَلَى الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَع

اذَا كَانَتْ الدُّنْيَا وَسِيلَةٌ ، فَإِن الْآخِرَةَ هِيَ الْغَايَةُ ، وَإِذَا كَانَتْ الدُّنْيَا طَرِيق فَإِن الْآخِرَةَ هِيَ الهَدَف ، وَالْعَلَّاقَةُ بَيْنَهُمَا : أَمَّا بَيْنَ إِفْرَاطِ وَتَفْرِيطٍ ، أَوْ بَيْنَ سَلْبِ وَإِيجَاب . فَحِين تَقُوم عِلاقَة الْإِنْسَان بِالْآخِرَة عَلَى مَبْدَأ : « إِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ » (١) ، فَإِن الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَكُون عِلاقَة إِيجَاب ؛ إِذْ نَظَرَ إِلَى أَنْ الدُّنْيَا وَسِيلَةٌ ، وَالْآخِرَة غَايَة وَهَدَف ، وَحِين تَقُوم عِلاقَة الْإِنْسَان بِالْآخِرَة عَلَى مَبْدَأ « مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ » فَإِن الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَكُون عِلاقَة سَلْب ؛ حَيْث نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا أَنَّهَا هَدَف وَغَايَة ، فَصَرَف هِمَّتُه ، وَكُلّ طَاقَتِه ، لِتَحْصِيلِهَا عَلَى حِسَابِ آخِرَتِه ، فَيَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩] قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ : " أَي : لَا تَنْسَوْا ذِكْرِ اللَّهِ فينسيكم الْعَمَل لِمَصَالِح أَنْفُسَكُم الَّتِي تَنْفَعُكُم فِي معادكم ، فَإِنَّ

الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) ﴾ أ ي : الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللهَ الِهالكُون يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْخَاسِرُون يوْم معادهم" (١) ، وَمَعَ ذَا فَقَدْ خَسِرَ دُنْيَاه ، فَفِي الْحَدِيثِ : « وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِرَ لَهُ » ، أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الرَّئِيسَة بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْآخِرَة : هِي عِلاقَة الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ ، وَفِيهَا سيجد الْإِنْسَانُ كُلُّ مَا عَمِلَهُ فِي دُنْيَاهُ ، إمَامِه حاضراً ماثلاً ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت : ٤٦] ، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عِمْرَان : ٣٠] .

بَيَّنْت نُصُوص الوَحْيَيْن خَطَر الْمَسْؤُولِيَّة الْأُخْرَوِيَّة ، وَمَا الَّذِي سيُسأل عَنْه الْمَرْءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

[(أ) نُصُوصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي إثْبَاتِ سُؤَال الْمُحَاسَبَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ اللَّهُ تعالى]

- ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) ﴾ [الأعراف : ٦] .

- ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) ﴾ [الحجر : ٩٢] .

- ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ﴾ [النحل : ٥٦] .

- ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [النحل : ٩٣] .

- ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

- ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

- ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾ [الأحزاب : ٨] .

- ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) ﴾ [الأحزاب : ١٥] .

- ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات : ٢٤] .

- ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف : ١٩] .

- ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

- ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر : ٨] .

نُصُوص السُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ فِي إِثْبَاتِ سُؤَال الْمُحَاسَبَة يَوْم القيامة

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَقُول : عَنْ النَبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَال « لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ ، عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ » (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَقُول : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ – يَعْنِي العَبْدَ مِنَ النَعِيمِ – أَنْ يُقَالَ لَهُ : أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ »

وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ النَبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ ، كِتَابُ اللهِ ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِي ، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » قَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ . . . » .

فَهَذِه النُصُوصُ وَغَيْرُهَا ، تَدُلُّ عَلَى الْمَسْؤُولِيَّة التَّامَّة الشَّامِلَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِكُلَ مَا عَمِلَهُ الْعَبْدُ فِي دُنْيَاهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرَ " وَفِي ضَوْءِ نَجَاحِه أَو فَشَله لِتَحَمُّل هَذِه الْمَسْؤُولِيَّة ، يَتَقَرَّر جَزَاؤُه ومصيره ، فَإِمَّا إِلَى جَنّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْض وَإِمَّا إِلَى جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مصيراً" .

أَن الْمَسْؤُولِيَّة فِي الْآخِرَةِ ، مَسْؤُولِيَّة فَرْدَيْه ، فَلَا يَتَحَمَّلُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ ، وَلَا يَسْأَلُ أَحَدٌ بدلاً عَنْ أَحَدٍ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، أَي : لَيْسَ هَذَا أَمْرٌ تَنْفَعُ فِيهِ الْكَفَالَة وَيَقُوم أَحَدٌ مَقَام أَحَدٌ فِيهِ .

فَالْعَلَاقَة بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْآخِرَة : عِلاقَة مَسْؤُولِيَّة وَجَزَاء ، فَالْإِنْسَان مَسْؤُول عَمَّا عَمِل ، مُجْزِئٌ عَلَيْه .

وَمَن النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ الْقُرْآنِيَّة الشَّرِيفَة ، الدَّالَّةِ عَلَى أَثَرِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فِي تَقْوِيمِ السُّلُوك ، وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِ الشَّرِيعَةِ مَا يَلِي :

١ – يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

يَقُولُ الْإِمَامُ الطَّبَرِيُّ فِي بَيَانِ إِثْرِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فِي عَدَمِ كِتْمَانِ الْمَرْأَةِ الْمُطَلَّقَةِ مَا خَلَقَ اللَّهُ رَحِمِهَا : " أَنَّ كِتْمَانَ الْمَرْأَةِ الْمُطَلَّقَةِ زَوْجِهَا المطلقها ، مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى فِي رَحِمِهَا ، مِنْ حَيْضٍ وَوَلَد ، فِي أَيَّامِ عِدَّتِهَا مِنْ طَلَاقِهِ ضراراً لَهُ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ مِنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ،

وَلَا مِنْ أَخْلَاقِهِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ مِنْ لَا يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وأخلاقهن مِنْ النَسَاءِ الْكَوافِرِ ، فَلَا تتخلقن آيَتهَا الْمُؤْمِنَات بأخلاقهن ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لكِن ، إِنْ كُنْتُنَّ تُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وكنتن مِن المسلمات" .

وَمَعَ كَوْنِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ مُؤْتَمَنَةٌ عَلَى عِدَّتِهَا وَحَمْلَهَا . . . إِلَّا أَنْ الَّذِي يَحْمِلُهَا عَلَى عَدَمِ خِيَانَة هَذِهِ الْأَمَانَةِ ، ويحجزها عَنْ ذَلِكَ ، هُو إِيمَانُهَا بِاَللَّهِ تَعَالَى وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

2 – قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾ [البقرة : ٢٣٢] ، دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةِ : عَلَى نَهْيِ الْأَوْلِيَاء ، عَن عَضَل مولياتهم عَنْ النَكَاحِ ، وَهَذَا الَّذِي نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ مِنْ عضلهن عَنْ النَكَاحِ ، عِظَة مِنَي مِنْ كَانَ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَاسُ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يَعْنِي : يَصْدُق بِاَللَّه فيوحده وَيُقِرّ بِرُبُوبِيَّتِه ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَعْنِي : يَصْدُق بِالْبَعْث لِلْجَزَاء وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ؛ ليتقي اللَّهُ فِي نَفْسِهِ ، فَلا يَظْلِمْهَا بِضِرَار وَلِيّه ، وَمَنَعَهَا مِنْ نِكَاحٍ مَنْ رَضِيته لِنَفْسِهَا ، مِمَّن أَذِنْتُ لَهُ فِي نِكَاحِهِ .

وَهَذَا خِطَاب لِجَمِيعِ الْأَوْلِيَاءِ ، أَي : لِمَنْ صَدَّقَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَوَعِيدُه وَالْبَعْث فَأَطَاع اللَّهُ فِي هَذِهِ الْحُدُودِ ، فَهُو أَزْكَى لَه وَأَطْهَر مِنْ الرِيبَةِ .

٣ – يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، قِيل : المنّ فِي الصَّدَقَةِ بِمَنْزِلَةِ الْحَدَثِ فِي الصَّلَاةِ ، يُبْطِلُهَا ويحبطها . وَقِيل : فِي إِحْبَاطِ الْفَضْلِ دُونَ الثَّوَاب ، وَمِثْلُ هَذَا : كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ : أَي كَإِبْطَال الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ؛ لِأَنَّ الرِيَاءَ يُبْطِلُ الصَّدَقَةَ ويحبطها , وَلِذَا لَوْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَعَرَفَ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الثَّوَابِ الْعَظِيمَ الْجَزِيل ، لَمَا رَأَى بِصَدَقَتِه ؛ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ مَعَ الرِيَاءِ لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ الْمُؤْمِنِين ، فَمَنْ كَانَ يرجوا ثواباً ، أَوْ يَخْشَى عقاباً ، فَلَن يُرَائِي .

٤ – يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

تَأْوِيلًا (٥٩) ﴾ [النساء : ٥٩] , أَمَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : الرَّدّ حِين التَّنَازُعِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، فِي كُلَ شَيْءٍ مِنْ أُصُولِ الدِينِ وَفُرُوعِهِ ، وَهَذَا تَحَاكَمَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِ مَأْمُورٌ بِهِ ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يُتَحَاكَم فِي مَجَالِ النَزَاعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمَا ، فَلَيْس مؤمناً بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَالشَّرْطُ فِي قَوْلِهِ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ هُوَ شَرْطٌ يُرَادُ بِهِ الْحَضَ عَلَى اتَبَاعِ الْحَقَ ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِوَعِيد مَنْ لَمْ يَرِدْ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .

وَدَلَّت الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : عَلَى أَثَرِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فِي الرَّدَ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ حِين التَّنَازُع ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُوجِبُ لِلرَّدَ ، يَقُول الْعَلَّامَةُ أَبُو السُّعُودِ : " فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهِمَا يُوجِبُ ذَلِكَ – الرَّدّ – أَمَّا الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فلما فِيهِ مِنْ الْعِقَابِ عَلَى المخالفة" (٣) .

وَيَقُول الْعَلَّامَة الشوكاني : "قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الرَّدَ مُتَحَتَم عَلَى الْمُتَنَازِعِين ، وَأَنَّهُ مِنْ شَأْنِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " .

٥ – يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ﴾ [التوبة : ١٨] .

أبانت هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ الْمُسْتَحِقَ لِعِمَارَة الْمَسَاجِد ، وَهُوَ مِنْ اتَّصَفَ بِجُمْلَةٍ مِنْ الصِفَاتِ ، ابْتَدَأَهَا بِقَوْلِه : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ وَهُوَ شَرْطٌ فِيمَنْ يُعَمِرْ الْمَسْجِدَ ؛ لِأَنَّ الْمَسْجِدَ مَوْضِعَ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مؤمناً بِاَللَّه امْتَنَعَ أَنْ يُعَمِرَ موضعاً يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ : يَعْنِي : وَآمَنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَإِنَّهُ حَقٌّ كَائِنٌ ؛ لِأَنَّ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ لِأَجْلِ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَجَزَاء أُجْرَة إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ ، فَمَنْ أَنْكَرَ الْآخِرَةَ لَمْ يُعْبَدْ اللَّهَ ، وَلَمْ يُعَمِرْ لَه مسجداً (١) . وَيَقُولُ الْإِمَامُ الرَّازِيّ : " وَإِنَّمَا قُلْنَا : أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مؤمناً بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ لِأَنَّ الِاشْتِغَالَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، إِنَّمَا تُفِيدُ فِي الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ أَنْكَرَ الْقِيَامَة ، لَمْ يُعْبَدْ اللَّهَ ، وَمَنْ لَمْ يُعْبَدْ اللَّهَ ، لَمْ يَبْنِ بِنَاء لِعِبَادَةِ اللَّهِ تعالى"

٦ – يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥ .

بَيَنْت الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : حَال الْمُؤْمِنِين الْمُصَدَقِين الْمُوقِنِين ، وَحَال الْمُنَافِقِين المشككين الْمُتَحَيِرِين ، فِي الْقُعُودِ عَنْ الْغَزْوِ ، فَالْمُؤْمِنُون الصادقون الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ الْجِهَادَ قُرْبَةٌ ، فلإيمانهم بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ

الآخِرِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ عَظِيمِ الْجَزَاءِ لِلْمُجَاهِدِين ، لِمَا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ بَادِرُوا وَامْتَثَلُوا ، بِخِلَافِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ثَوَابَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، قَد ارْتَابَت قُلُوبِهم ، حِينَ شَكَتْ فِي دِيْنِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلِذَا فَهُم ﴿ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾ فَيُقَدِمُون رجلاً ، وَيُؤَخِرُون أُخْرَى ، فَلَيْسَت لَهُمْ قَدَمٌ ثَابِتَةٌ فِي شَيْءٍ ، فَهِمَ قَوْمٌ حَيَارَى هَلْكَى .

٧ – يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢] .

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : دَلَالَةً وَاضِحَةً فِي بَيَانِ إِثْرَ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ ، يَقُولُ الْإِمَامُ الطَّبَرِيّ : "وقوله (إن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ يَقُول : إِنْ كُنْتُمْ تصدقون بِاَللَّهِ رَبكُمْ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَإِنَّكُم فِيه مَبْعُوثُون لحشر الْقِيَامَة ، وللثواب وَالْعِقَاب ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ بِذَلِكَ مصدقاً . . . فَإِنَّهُ لَا يُخَالِفُ اللَّهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ؛ خَوْف عِقَابِه عَلَى معاصيه" (٢) .

يَقُول سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : قَوْلُه : (إن كنتم) يَعْنِي : الْحُكَّام (تؤمنون) يَعْنِي : تصدقون ، (بالله) يَعْنِي : بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ، (واليوم الآخر) يَعْنِي وتصدقون بِالْبَعْث الَّذِي فِيهِ جَزَاءً الْأَعْمَال ، فَأَقِيمُوا الْحُدُود (وليشهد) يَعْنِي : وليحضر (عذابهما) يَعْنِي حَدَّهُمَا (٣) .

الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى إِثْبَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ

دَلِيلُ الْعَدَالَة

أَنَّ كَمَالَ الْعَدَالَة الْإِلَهِيَّة تَقْتَضِي وُجُودَ يَوْمٍ آخَرَ ، يُحاسب فِي النَّاسِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةَ .

فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوق مِنَّا يَرْفُض التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الظَّالِم وَالْمَظْلُوم ، وَالْمُطِيع وَالْعَاصِي وَالْمُحْسِن وَالْمُسِيء ، وَالْقَاتِل وَالْمَقْتُول ، وَيَبْذُل جهده لِإِقَامَة الْعَدْل (١) ، فَإِنَّ هَذَا أَوْلَى فِي مُقْتَضَى عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلِذَا نَجِد الْقُرْآن يُشِيرُ إِلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ويؤكدها ، بِأَنَّهُ لَا مُسَاوَاةَ بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ .

وَعَلَيْه : فَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ يُثاب فِيه الْمُحْسِن ، وَيُعَذَّب وَيُعَاقَب فِيه الْعَاصِي وَيُمَيّز أَحَدُهُمَا عَنْ الْآخَرِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ . . . ﴾ [يونس : ٤] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) ﴾ [طه : ١٥] وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا مُقِرٌّ هَذَا الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ وَوَقْتُه فَقَال : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عِمْرَان : ١٨٥] .

فَفِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيم تَظْهَر آثار أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ ، وَيَظْهَر فِيهِ تَمَامُ عَدْلُه ، وَكَمَال مِلْكِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَلَمَّا لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا صَالِحَةً لِتَحْقِيقِ مَعْنَى الْعَدَالَة التَّامَّةِ مِنْ إِثَابَةُ الْمُطِيعِ ، وَعِقَابُ الْعَاصِي ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ يَوْمٍ آخَرَ يَتَحَقَّقُ فِيهِ مَعْنَى هَذِهِ الْعَدَالَة ، فَيُجَازَى كُلٌّ بِمَا كَسَبَ ، قَالَ تَعَالَى عَنْهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢]

وَحَيْثُ إنَّ الْكَثِيرِين مِن الطُّغَاة فِي الدَّارِ الدُّنْيَا يدركهم الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يُجْرَى اللَّهُ فِيهِمْ عَدْلُه ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْب وَضْعٍ آخَرَ يَقُومُ فِيهِ الْعَدْلُ الْكَامِل ، الْأَمْرُ الَّذِي يُنير لِلْعُقُول الطَّرِيقُ إِلَى إِثْبَاتِ الْحَيَاة الثَّانِيَة .

دَلِيلُ الْحِكْمَة

أَنَّ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ حُكْمُهُ ظَاهِرَةً أَوْ خُفَّيْهِ تَقْتَضِيه ، وَاَللَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ لَمْ يَخْلُقْهُمْ عبثاً ، وَلَم يَتْرُكُهم سُدَى ، فَحُكْمه اللَّه الْبَالِغَة تَأْبَى ذَلِكَ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون ١١٦] .

فَاَللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ للمكذبين بِالْبَعْث ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أَي : لِغَيْر بَعَث وَلَا حِسَابَ ، ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ أَي : قَد حَسِبْتُم ذَلِك فَإِنَّا لَمْ نخلقكم عبثاً ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَاكُم لِلْبَعْثِ وَالْحِسَابِ.

فَلم يَخْلُقَ الْخَلْقَ لعباً وعبثاً لَا لِحُكْمِه ، وَلِذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] ، أَي : لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنهى ، وَإِنَّمَا خُلِقُوا لِلْعِبَادَة وَإِقَامَة أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالَّتِي يَقُوم الْعِقَاب وَالْحِسَاب عَلَيْهَا ، فالأساس الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ لِأَجْلِهِ الْخَلْقِ مِنْ أَنَسٍ وَجِنَّ هُو عِبَادَتِه سُبْحَانَه وَحْدَه ، وَبِهَا يَثْبُت وَيُعَاقَب . وَإِلَّا لَكَانَ هَذَا الْخَلْقَ عبثاً لَا غَايَةَ لَهُ وَلَا هَدَف ، وَمِنْ هُنَا لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانٌ هَذِهِ الدُّنْيَا فَحَسْبُ يَنْتَهِي بنهايتها ، لَكَانَت حَيَاتِه تَافِهَة لَا مَعْنَى لَهَا ، رَغِم إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ سُخَرَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، .

وَلَم يُسخر لِشَيْء أبداً وَوَهَبَه جَمِيعُ أَسْبَابِ الْكَمَالِ مِنْ الْعَقْلِ وَالْإِرَادَة وَالْقُدْرَة ، وَلَكَانَت الْحِكْمَة نَاقِصَة ، وَغَيْر كَامِلَة فِيمَا يَتَّصِل بِخَلْقِه وَوُجُودُه ، مَا لَمْ يَتَدَارَكْ هَذَا النَّقْصَ فِي الْحِكْمَةِ مَنْ وُجُودِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فِي عَالَمِ آخَرَ وَرَاءَ هَذِهِ الْحَيَاةَ ، لِيَسْتَوْفِي كُلُّ إِنْسَانٍ جُزْءًا عَمَلِه ، خيراً أَم شراً .

وَمَعَ التَّسْلِيمِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ خُلِقَ لِحِكْمَةِ وَهَدَف وَمَقْصَدٌ وَغَايَة ، إِلَّا أَنَّهُ مَتَى قَصَر نَظَرُهُ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَجِدْ لِوُجُودِه حُكْمِهِ أَوْ مَعْنَى ، إِذْ لَا بدّ مِنْ حَيَاةِ أُخْرَى تُتَمِّم الْحَيَاة

الْأُولَى ، وَتُعْطِي لِلْوُجُود الْإِنْسَانِيّ قِيمَتُه وَمَعْنَاه فَلَا يَظْهَرُ مَعْنَى لِلْوُجُود الْإِنْسَانِيّ إِلاَّ بِالإِيمَانِ بِهِمَا .

دَلِيلُ الْفِطْرَة

أَنَّ مَنْ طُرُقِ الْعِلْمِ ومفيداته الَّتِي تُوَصَلُ بِها الْمَرْءُ إِلَى الْعِلْمِ بِشَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ ، هُو مَعْرِفَتِه الوجدانية ، وإحساسه الدَّاخِلِيّ ، وَشُعُورِه المتمثل فِي آلَمه وَفَرْحَة وَحُزْنِه وَرِضَاه وسعادته ، وَهَذَا الْوَجْد وَالشُّعُور مِمَّا فُطِرَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَلِذَا فَهُم يَسْعَوْنَ إِلَى مَا يُلائم طِبَاعِهِم الفطرية الْبَشَرِيَّة ، ليستجلبوا أَبْوَاب السَّعَادَة وَالرِضَا .

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مَلِيئَة بالمنغصات والمكدرات الَّتِي رُبَّمَا أُحِلَّت السُّخْط مَكَان الرِضَا ، وَالْبُغْض مَكَانَ الْحِبَ ، وَالَّتِي رُبَّمَا عَجَز الْبَعْضِ عَنْ إِيجَادِ سُبُل للمواءمة بَيْن يؤملون ، مَعَ مَا طُبِعَت عَلَيْه الْحَيَاةُ مِنْ الأكدار :

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا . . . صفواً مِنْ الْأَقْذَارِ وَالْأَكْدَار

ومتكلف الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا . . . مُتَطَلَبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ .

فَلَمَّا كَانَتْ طَبِيعَة الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَائِمَةً عَلَى الْكَبِدِ والمنغصات سَعَت النَّفْس الْبَشَرِيَّة بِمَا فطرت عَلَيْه للتطلع إِلَى حَيَاة خَالِدَة وَلَوْ فِي غَيْرِ هَذَا الْعَالِمُ ، تَحَيَّل السَّعَادَة فِيهَا مَحَلُّ الشَّقَاء ، وَالْفَرَح مَحَلّ الْحُزْن ، وَالرِّضَا مَحَلّ السُّخْط ، وَالْحَبّ مَحَلّ الْبُغْض ، فَجَاءَت الأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ تُبَشر بِوُجُود حَيَاة أُخْرَى بَعْدَ الْمَوْتِ مَلِيئَة بِكُلّ مَعَانِي الْفَرَح وَالْحُبُور وَالسُّرُور لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلِ فِي دُنْيَاهُ . فَهَذَا الشُّعُور الْعَامِ الَّذِي يُنَازَع النَّفْس ويخالجها ، دَالٌّ عَلَى وُجُودِ حَيَاةٍ ثَانِيَة .

وَمَن سَرْد هَذِهِ الْأَدِلَّةِ يُعلم : أَنَّ أَصْلَ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَوَاقِعٌ بِالسَّمْع ، فَإِنَّ اللَّهَ نَبَّهَ الْعُقُول إِلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ الْكِتَاب وَذَكَرَ بِمَا هُوَ مُسْتَقِرٌّ فِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِحُكْمِه اللَّه وَحَمِدَه أَنْ يَتْرُكَ النَّاسَ سُدًى ، أَوْ أَنَّ يَكُونُوا خُلِقُوا عبثاً لَا يُؤْمَرُونَ وَلَا يَنْهَوْنَ وَلَا يُثَابُون وَلَا يُعَاقَبون ، وَأَنَّ الْعُقُولَ الصَّحِيحَةُ تُنْكِرَ ذَلِكَ أَشَدُّ الْإِنْكَار وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهَدٌ مَحْسُوسٌ .

وَلِذَا فَالْمُؤْمِن الَّذِي يُمْعِنْ النَّظَرَ فِي مُشَاهَدَة هَذَا الْكَوْن ونواميسه ، وَيَلْمِس فِيهِ مَا يَذْهَبُ بِلُبِّه ، يُمْلَكْ عَلَيْهِ شُعُورُه مِنْ الْعَظَمَةِ وَالْإِتْقَان ، يَجِد كُلّ الطُّمَأْنِينَة وَالْحَقُّ فِي إِثْبَاتِ الْحَيَاة الْآخِرَة ،

وَيَجِد أَنَّ الْحَيَاةَ الْأُخْرَوِيَّة لَيْسَتْ مِمَّا يَخْرُجُ عَنْ طَاق الْقُدْرَة الْإِلَهِيَّة ، قَدَّرَه مُبْدِع هَذَا الْكَوْن وَمُدْبِرَة ، وَلَا عَنْ حِكْمَتِه السامية

وَقَدْ أَشَارَ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ إِلَى أَنْ أَدِلَّة الْبَعْث تَنْتَظِم الْجَوَازَ وَالْوُجُوبَ ، قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ نَجْمٍ الْعَبَّادِيّ الْحَنْبَلِيّ : " وَالْأَدِلَّةُ عَلَى الْبَعْث جوازاً ووجوباً : أَمَّا الْجَوَازُ ، فالنظائر الْحِسِّيَّة ، وَأَمَّا الْوُجُوبُ ، فَمَا وَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ الْبَعْث وَالْإِعَادَة ، وَإِكْرَام الطائعين بِجَنَّتِه ، وَإِهَانَةُ الْمُجْرِمِين بِعُقُوبَتِه ، وَمَا اِقْتَنَع لِلْخَلْق بِتَكْرِير وَعْدَه الصَّادِق حَتَّى حَلَفَ عَلَى ذَلِكَ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ .

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

الأدلة الدِّينِيَّةِ عَلَى قُرْبِ القيامة

مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

إنْ عَلِمَ السَّاعَةِ وَتَارِيخ وَوَقْت حُدُوثِهَا قَدْ خُصَّ بِهِ اللَّهُ نَفْسَهُ وَلَا يَعْلَمُهُ إلَّا هُوَ حَتَّى رُسُلُ اللَّهِ وأنبياءه وَمَلَائِكَتِه وَسَائِر خَلْقِه وَمَخْلُوقَاتِه لِذَلِك كَثِيرِ مَا كَانَ يَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ قِبَلِ الْمُؤْمِنِين بِالرُّسُل وَقَدْ اتَّخَذَ الْمُشْرِكِين وَالْكُفَّار مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَةِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ بِوَقْت يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُجَّةَ لَهُمْ بَلْ مثارا للسخرية بوعدهم وَإِنْذَارِهِم لِلنَّاس بِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيم .

عِلْمُ السَّاعَةِ

غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَبَوِيَّةِ ، فَإِنْ عَلِمَ السَّاعَةِ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ ، فَلَم يُطلع عَلَيْهِ مِلْكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿يسألونك عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِي لَا يُجَلِيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَت فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُم إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَك كَأَنَّك حَفِي عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَاسِ لَا يعلمون﴾ [الأعراف : 187] فَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا (ﷺ) أَنْ يُخْبِرَ النَاسَ أَنَّ عَلِمَ السَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَحْدَهُ ، فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ جَلِيَّةٌ أَمْرِهَا ، لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿يسألك النَاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَة تَكُون قريبا*﴾ [الأحزاب : 63] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿يسألونك عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا *فيم أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا *إِلى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا *﴾ [النازعات : 42-44] . (الأشقر ، الْيَوْمِ الْآخِرِ ،

فَمُنْتَهَى عِلْمُ السَّاعَةِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولَ اللَّه (ﷺ) عَنْ وَقْتِ السَّاعَة -كما فِي جَاءَ حَدِيثٌ جِبْرِيلَ الطويل- قَالَ النَبِيُّ (ﷺ) : « مَا الْمَسْؤُول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » . فَجِبْرِيل لَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَكَذَلِك مُحَمَّد (ﷺ) .

وَعُلِم السَّاعَة هِيَ إِحْدَى الغيبيات الْكُبْرَى السِّتَّةِ الَّتِي اِخْتَصَّ اللَّهُ نَفْسَهُ بِعِلْمِهَا وَحْدَه يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 34]

لَكِن هُنَاك نُصُوص قُرْآنِيَّة تَبَيَّنَ لَنَا أَنْ وَعَدَهَا قَدِ اقْتَرَبَ وَإِن أَشْرَاطِهَا قَدْ حَلَّتْ وَكَذَلِك هُنَاكَ أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ كَثِيرَةٌ تَتَحَدّث عَنْ الْعَلَامَاتِ الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى لِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيم وَسَنُبَيِّنُ ذَلِكَ بِالتَّفْصِيل فِي وَقْتِهِ .

آيَات وَرَدَ فِيهَا "الساعة"

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١ الأنعام﴾

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠ الأنعام﴾

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧ الأعراف﴾

أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧ يوسف﴾

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿ ٨٥ الحجر﴾

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧ النحل﴾ .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١ الكهف﴾

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦ الكهف﴾

قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥ مريم﴾

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥ طه﴾

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩ الأنبياء﴾

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١ الحج﴾

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧ الحج﴾

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥ الحج﴾

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢ الروم﴾

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤ الروم﴾

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥ الروم﴾

إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤ لقمان﴾

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣ الأحزاب﴾

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣ سبإ﴾

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦ غافر﴾

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩ غافر﴾

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧ فصلت﴾

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠ فصلت﴾

اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧ الشورى﴾

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿18 الشورى﴾

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿66 الزخرف﴾

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿85 الزخرف﴾

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿27 الجاثية﴾

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿32 الجاثية﴾

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿18 محمد﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿1 القمر﴾

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿46 القمر﴾

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿42 النازعات﴾

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿34 الأعراف﴾

لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿117 التوبة﴾

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿45 يونس﴾

قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿49 يونس﴾

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿61 النحل﴾

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿11 الفرقان﴾

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿30 سبإ﴾

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿61 الزخرف﴾

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿35 الأحقاف﴾

ما هي دَلَالَات هَذِهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّة

أَوَّلًا : التَّأْكِيد مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ مِنْ الغيبيات الْكُبْرَى وَلَا يَعْلَمُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ .

ثَانِيًا : يَحْذَر اللَّهُ النَاسَ مَنْ عَظْمِهِ وَفَظَاعَةٌ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيم .

ثَالِثًا : يَتَحَدَّث عَنْ قُرْبِ وُقُوعِهَا .

رَابِعًا : هِي مَوْعِد وميعاد للمحاسبة وَلَن يُفْلِت أَحَدًا مِنْ المسائلة .

خَامِسًا : أَنَّ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالسَّاعَة وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقِيَامَة ويستهزئ بِهَا فَهُوَ زُمْرَة الْكُفَّار وَالْمُشْرِكِين وَالْمُلْحِدِين .

الْفَرْقُ بَيْنَ السَّاعَة وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

كَثِير مِنَّا مَنْ لَا يُفَرق بَيْن السَّاعَة وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ وتتصور بِأَنَّهُمَا تعبيرين لِمَضْمُون وَاحِد ، لَكِني أَرَى غَيْرِ ذَلِكَ فَالسَّاعَة الَّتِي تَأْتِي بَغْتَة وَالَّتِي لَهَا أَشْرَاطِهَا إِنَّمَا تَعْنِي زَوَالِ الدُّنْيَا وَفَنَائِهَا ، لَكِن يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ يَوْمُ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبَ الْعَالَمِينَ لِلْحِسَاب وَتَوْفِيَة الْأُجُور وَقَدْ يَكُونُ بَيْنَ السَّاعَة وَالْقِيَامَة زَمَنٍ لَا نَعْلَمُهُ وَقَدْ لَا يَكُونُ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَنْ يَكُونَ عَلَى أَرْضِنَا هَذِه ، فَتِلْك الْأَرْض ستزول عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ ، لَكِنْ بَعْدَ إِحْدَاثِ الزَّوَال سَيَتِمّ الْبَعْث مُبَاشَرَة وسيقوم النَّاسُ لِرَبَ الْعَالَمِينَ .

فستتزلزل الْأَرْض وَتَخْرُج بَرَاكِين مِنْ جَوْفِهَا وتنسف الْجِبَال وستختبئ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي مَا زَالَتْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ يَهْمِس بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَنْ الذُّعْرِ ثُمّ تَزُول الْأَرْض وَمَا عَلَيْهَا ، وستكشط السَّمَاء وَتُفْتَح لِتَصِير أَبْوَابًا ، ...ثم ...وثم ، لِذَلِك رَأَيْت أَنْ تَتِمَّ دِرَاسَة مَا وَرَدَ بِكِتَابِ اللَّهِ عَنْ السَّاعَةِ وَعَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَفْصِيلًا حَتَّى يَقِفَ الْقَارِئ بِتَدَبُّر واع لِكِتَابِ اللَّهِ عَنْ إِحْدَاثِ الْآخِرَة .

وَلَقَد جَمَعَ اللَّهُ أَحْداثُ السَّاعَةِ وَالْقِيَامَة فِي سُورَةِ وَاحِدَةً ، فَقَد جَمْعُهَا فِي سُورَةِ التَّكْوِير ، وَجَمْعُهَا فِي سُورَةِ الانْفِطارِ ، لَرُبَّمَا لِبَيَان تَلَاصُق الْعَهْدَيْن وَصَيْرُورَة كُلَّ الْأَمْرِ لِلَّه .

وَفَائِدَة دِرَاسَة الْفَرْق بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ يُعِيد صِيَاغَة تفهمنا لِمَعَانِي مَا وَرَدَ مِنْ آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ ، وبالتالي تَعْدِيل كَثِيرٍ مِنْ أَفْكَار السَّلَف عَمَّا يَدَّعُونَهُ مِنْ بَعْضِ التَّأْوِيلَات الْمُخَالَفَة لمرامي الْآيَات

وَلَقَد تكَرَرَت كَلِمَة السَّاعَة بالقرءان 35 مَرَّةً فِي أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ آيَة ، بَيْنَمَا تكَرَرَت كَلِمَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ 70 مَرَّةً فِي سَبْعِينَ آيَةً ، وَكَمَا نَعْلَم بِأَنَّهُ لَا تَرَادُف فِيمَا وَرَدَ بالقرءان مِنْ كَلِمَاتِ ، فَلِكُلّ كَلِمَة مَدْلُولِهَا الْخَاصَ بِهَا لِتَبَيُّن مَا عَنَاه اللَّه بِدِقَّة مُتَنَاهِيَة ، فَحِين يَذْكُرُ اللَّهَ كَلِمَهُ السَّاعَةِ فَلَا تَعْنِي أَبَدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَعْنِي لَفْظ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّه السَّاعَة .

أَوَّلًا : الســـاعـــة

كَما نوهت سَلَفًا فَإِن السَّاعَة هِيَ سَاعَةٌ دَمار الْكَوْن ، وَتَكُونُ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ، وَهِيَ مِنْ جِنْسِهِ ، وَهِي تَحَيَّن وَتَقُوم وَلَا زَالَ بِالدُّنْيَا نَبْض حَيَاة ، بِمَا يَعْنِي وُجُود إِحْيَاء بِالدُّنْيَا حِين قِيَامِهَا ، لِذَلِكَ فَهِيَ تَقُوم عَلَيْهِمْ وَعَلَى كُلِّ مَظَاهِرِ الْحَيَاة فتدمرها ، أَمَّا الْقِيَامَة فَتَكُون بَعْدَ ذَلِكَ فَوْرًا أَوْ بفترة لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ ، وَهِي تَقُومُ عَلَى الأَمْوَاتِ فتحييهم ، وَتَكُون بِأَوَّل أَيَّامِ الآخِرَةِ ، وَالْقِيَامَة لَهَا أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضَنَا وسماء غَيْرِ تِلْكَ الَّتِي تظلنا ، فسماؤنا الَّتِي تظلنا يَتِمّ تَدْمِيرِهَا ، وتدمير نُجُومِهَا وَكَوَاكِبِهَا ونظامها حِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ بِنَاء لَعَهْد

جَدِيد فِيه حِسَاب بِلَا عَمَلٍ ، لِذَلِك سُمّيَ يَوْمُ الْجَزَاءِ ، بَيْنَمَا يَوْم السَّاعَة هَدَم لَعَهْد قَدِيمٌ كَانَ فِيهِ الْعَمَلُ بِلاَ حِسَابٍ ، وَالْقِيَامَة يُحْشَرُ النَاسُ جَمِيعًا كُلُّهُم فِيهَا ، بَيْنَمَا السَّاعَةِ لَا تَقُومُ إلَّا عَلَى بَعْضِ النَاسِ وَالْإِحْيَاء .

وللساعة أَشْرَاط أَي عَلَامَات حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ محمد18 ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ لِلسَّاعَة أَشْرَاط مِنْهَا مَا جَاءَ وَمِنْهَا مَا سَيَأْتِي ، وَتَدُلّ الْآيَة أَيْضًا عَلَى أَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ فَجْأَة ، وَلَا يَتَلَمَّظ متلمظ فَيَتَصَوَّر بِأَن الْأَشْرَاط تُخَالِف الفُجاءة ، فَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ الْمَقْبُول فِي السَّوِيَّة الْفِكْرِيَّة ، فالأشراط تَقَعُ فِي أَجْيَالٌ تَنْسَى بَعْضِهَا مَا حَدَثَ للجيل الَّذِي سَبَقَهُ ، وَالنَسْيَان مِنْ طِبَاعِ بَنِي آدَمَ ، لِذَلِكٍ فَالسَّاعَة تكُون بَغْتَة ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الأنعام44 ؛ وَيَقُول جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الزخرف66 ؛ فَالنَسْيَان وَعَدَم الشُّعُور هُوَ مَا يَغْلِبُ عَلَيْنَا فِي أَمْرِ السَّاعَة ، والبغتة فِي قِيَامِ السَّاعَةِ تَعْنِي وُجُود شُعُور وَإِدْرَاك بِمَا يَعْنِي قِيَامُهَا عَلَى أَحْيَاءَ ، لَكِن الْقِيَامَة تَكُونُ عَلَى

الأَمْوَاتِ فَلَا يُهِمّ فِيهَا الْفُجَاءَة ، وَلَا بَغْتَة تبغت الْمَوْتَى ، فأعمال السَّاعَةَ لَنْ يَشْهَدْهَا مَنْ سَبَقَ لَهُمْ الْمَوْت قَبْلَهَا .

وَأَشْرَاط السَّاعَة ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَبَيَّنَهَا عَلَيْهَا السُّنن الْعَمَلِيَّة وَالْقَوْلِيَّة لِرَسُولِ اللَّهِ ، فَبَعْثَتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الَّتِي جَاءَتْ دُونَ أَنْ نَدْرِي ، أَوْ لَعَلَّ بَعْضُنَا أَخَذَتْه الدِرَايَةِ ثُمَّ نَسِينَا وذريتنا تِلْكَ الْعَلَامَةَ الْفَارِقَة ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى بِسُورَة النَّازِعَات : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿ 42 ﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿ 43 ﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿ 44 ﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿ 45 ﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿ 46 ﴾ .

وَلَعَلَّ الْفُقَهَاءَ قَسَّمُوا شَرَائِطِ السَّاعَةِ إِلَى كُبرَى وصغرى ، لَكِنْ مَا يهمني دِرَاسَتِه هِيَ تِلك الْوَارِدَة بِكِتَابِ اللَّهِ فَلَا يُنَازَعُ فِيهَا مُنَازِع ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى بِسُورَة الْأَنْبِيَاء : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿ 96 ﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ 97 ﴾ فَدَلَّت تِلْكُم الْآيَتَيْن عَنْ أَنْ فُتِحَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ بَيْنِ الْأَشْرَاط لِقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَهَا ، فالوعد

الْحَقُّ هُوَ فَتْح رَدْم يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَخُرُوج ذَرَارِيّهُم إِلَى كُلّ الدُّنْيَا فَسَادًا وَقَتْلًا وتخريبا كَمَا جَاءَ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّة الْمَطْهَرَة ، إِيذَانًا بِزَوَال الدُّنْيَا ثُمَّ حِسَاب يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَيَقُول تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ النمل82 ؛ فَخُرُوج الدَّابَّةِ الَّتِي تكَلَّمَ النَّاسُ عَلَى غَيْرِ الْمَعْهُود ، أَمْرٌ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، وَلَن تَخْرُج تِلْكَ الدَّابَّةَ مِنْ رَحِمَ أُمَّهَا لكِن تَخْرُجُ مِنْ رَحِمَ الْأَرْض .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ التكوير1 ؛ فَلَا تَزَالُ شمسنا غَيْر مُسْتَدِيرَةٌ حَتَّى الْآنَ وَذَلِكَ لِاسْتِمْرَار خُرُوج حممها البركانية الْمُسْتَمِرّ مِنْ كُلّ جِهَةٍ مِنْهَا بِمَا يَمْنَعُ استدَارَتها لِآيَة لَحْظَة حَتَّى الْآنَ ، لكِنْ إِنْ هَدَأَت تِلْك الحُمَم فستبرز اسْتِدَارَة الشَّمْس وَذَلِكَ مِنْ الْعَلَامَاتِ ، وَهِيَ غَيْرُ وَاقِعَةٍ جَمْع الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ القيامة9 ؛ وتكور الشَّمْس بِدَايَة لانكدارها كنجم متلألأ الْآن بِالسَّمَاء .

وَيَقُول تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ التكوير2 ؛ أَيْ أَنَّهَا ستنطفئ ، يَعْقُبُ ذَلِكَ عَصْر بَارِد مُظْلِم عَلَى الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ الزَّمَنِ الَّذِي يَسْتَغْرِقُه ذَلِكَ الْعَصْرِ .

وَيَقُول جَلَّ فِي عُلَاهُ : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ ﴾ التكوير6 ؛ وَهُوَ مَا يَعْنِي خُرُوجَ الْحُمَم البركانية مِنْ بَاطِنِ الْبَحْرِ إِلَى السَّطْح ؛ وَيَكُونُ أَيْضًا بِفَصْل ذَرَّات وَجُزْئِيَّات الْمَاءِ إِلَى إِيدرُوجِين مُشْتَعِل وأوكسجين يُسَاعِدُ عَلَى الاشْتِعَال ، فيشتعل ثُلُثَي الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ لِأَنّ ثُلُثَيهَا مَاء بِحَار

وَيَقُول جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ الانفطار2 ؛ أَي ستخرج الْكَوَاكِب مِن منظومتها الدورانية حَوْل نَفْسِهَا وَحَوَّل بَعْضِهَا لِاخْتِلَال أَنْظِمَه الْجَذْب فَتَكْثُر ارتطاماتها بِبَعْضِهَا ، وبالتالي تَدْمِيرِهَا .

وَيَقُول تَعَالَى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴾ طه105 ؛ وَنَسْف الْجِبَال يَعْنِي أَنَّ تَمِيدَ الْأَرْض كَمَا كَانَتْ قَبْلَ خَلْقِ اللَّهُ لِلْجِبَال وَوَضَعَهَا فِي أَمَاكِنِهَا كأوتاد لِلْأَرْض .

وَمَن الْجَدِير بِالْبَيَان أَنَّ كُلَّ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ أَحْدَاثِ السَّاعَةِ وَالَّذِي سيستغرق زَمَنًا يُعَدّ بالأحقاب ، فَإِنَّ مَا يهمني ذِكْرُهُ هُوَ آيَةٌ بَعَثَهُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٍ لِلنَّاس ، فَهِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الصُّغْرَى ، كَذَلِك خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، فالآيتين مُجَرَّد اقْتِرَاب أَمَّا الْأَشْرَاطُ الْكُبْرَى فَإِنَّ قِيَام أَحَدُهَا لَا يَنْفَعُ مَعَهُ إِيمَانٌ ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن

قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ الأنعام158 ؛ لِذَلِك فَإِنَّ قِيَامُ بَعْض تِلْكَ الْعَلَامَات الْكُبْرَى لَا يَنْفَعُ بَعْدَهَا إِيمَانِ مَنْ عاصروا بُزُوغ تِلْكَ الْعَلَامَة ، وَتِلْك الْعَلَامَات وَالْآيَات تَحْدُث فَجْأَة ، لِذَلِك فَإِنِي أَجِد أَنَّ بَعْثَة رَسُولُ اللَّهِ لِلنَّاسِ جَمِيعًا هُوَ مِنْ بَيْنِ الإنذارات الْأَخِيرَةِ مِنْ السَّمَاءِ لِأَهْلِ الْأَرْض ، لَكِنْ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَتَوَالَد هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا قَبْلَ قِيَامِ الْأَشْرَاطُ الْكُبْرَى لِلسَّاعَة ، فَمَا مَصِير ذَرَارِيَّهُم ؟

فَحِين يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴾ الأنعام31 ؛ إِنَّمَا يَعْنِي أَنَّ مَنْ بغتته السَّاعَةَ لَنْ يَسْتَطِيع التَّوْبَة ، فَلَقَد الْتَصَقَ بِهِ عَمَلُهُ السَّيِئ أَوْ كُفْرَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وَمِنْ بَدِيعِ الْبَيَان القرءاني إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ الإسراء 15 ؛ وَحَيْثُ إِنَّهُ سَيَكُونُ بِالْأَرْض بَعْض مِمَّن مَسَّتْهُم رحمات الْهِدَايَة فَهَؤُلَاء يَكُونُوا رُسُلُ اللَّهِ لِتِلْك الذَّرَارِيَ مِنْ أَبْنَاءِ مِنْ حَقَ عَلَيْهِمْ العَذَابَ ، وَقَدْ يَمُوتُ هَؤُلَاء الْأَبْنَاءِ دُونَ أَنْ يلتقوا بِمَن

يُذكَرهُمْ بِاَللَّهِ ، لِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سيبتليهم بِالِاخْتِبَار يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا يُدْخِلُ اللَّهُ أَحَدًا النَارِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ وَالْبَيَان .

ثَانِيًا : يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وللقيامة بِأَوَّل أَمْرِهَا نفختان ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ الزمر 68 ؛ هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ برغم كُلّ أَحْداثُ السَّاعَةِ السَّابِقُ بَيَانُهَا ، فَإِن بَعْضًا مِنْ الْحَيَاةِ سَيَكُون عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْكَوَاكِب ، فَيَقُوم إِسْرَافِيل بِالنَفْخَةِ الْأُولَى الَّتِي تُنهي كُلُّ مَظْهَرِ مِنْ بِوَاقِي مَظَاهِرِ الْحَيَاة ، بِعَذَاب تِلْك الصّيْحَة ذَات النَفْخَة ، لِكِن هُنَاكَ مَنْ سيموتون دُون سَمَاع تِلْك الصّيْحَة وَكَأَنَّمَا أَصَابَهُم صَمَّم ، وَهُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؛ ثُمَّ يُنْفَخُ النَفْخَة الثَّانِيَةِ فَيَكُونَ الْبَعْث للقيامة الْعَامَّة ، وَالصُّورَة التَّفْصِيلِيَّة لِأَحْدَاث الْبَعْث تُبَيِّنُهَا الْآيَات التَّالِيَة : .

فَيَقُول سُبْحَانَه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ يس51 .

وَيَقُول تَعَالَى : ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ القمر7 .

وَيَقُول جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ المعارج 43 .

وَيَكُونُ مَعَ خُرُوجِ الْأَجْسَاد مِنْ الْقُبُورِ تَزْوِيج الْأَنْفُس ـ الَّتِي سَبَقَ وَكَانَت بِمَكَانٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ـ للأجساد الَّتِي كَانَتْ بِالْقُبُور الْأَرْضِيَّة ، وَالْأَنْفُس لَمْ تَكُنْ بِمَا يُطلق عَلَيْه الْبَعْض الْبَرْزَخ ، فالبرزخ مَا هُوَ إِلَّا فَاصِلٌ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ وحياتهم ، وَالْأَمْوَات ومكانهم ، فَعَلَى ذَلِكَ لَا يُوجَدُ مَكَان اسْمُه الْبَرْزَخِ وَلَا حَيَاةَ اسْمُهَا الْحَيَاة البرزخية ، فَذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا ، لَكِنَّهَا خَيَالَاتٌ بَعْضُ الْمُفَسرِينَ .

وَأَوَّل مَقُولَة يَقُولُهَا الْكَافِرُونَ بَعْدَ الْبَعْثِ : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ يس52 ؛ فَلِأَنَّهُم كَانُوا يُكذبون بِالْبَعْث وَأَصْبَح الْبَعْث حَقِيقَة وَاقِعَةٌ فَهُمْ يَقُولُونَ : ، بَلْ تَجدُهُمْ مِن خرفهم وَكُفْرِهِم يَقُولُون : ، فَهُمْ لَا يَزَالُونَ فِي ضلالهم غَيْر مُصَدقِين ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّكْذِيب الْآنَ كَمَا كَانُوا بِالْمَاضِي حَال حَيَاتِهِم ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِوُقُوع الْبَعْثِ الَّذِي يُهَيِّئُهُم لِلْحِسَاب وَاقِعًا مَلْمُوسًا .

وَمَنْ بَيْنَ مَا أَنْبَأَنَا بِهِ كِتَابُ اللَّهِ أَنْ كُلَّ نَفْسٍ تَبْعَث يَكُونُ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ ، ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ق21 ؛ فالسائق يَقُودُهَا إِلَى الْمِيزَانِ ثُمَّ إِلَى الْمَحْشَرِ ، وَالشَّهِيد يُحْمَل أَعْمَالِهَا ، وَقَدْ يَكُونُ الْمَحْشَر الْعَامّ أَوَّلًا ثُمَّ الْمِيزَان ، وَهُوَ مَا لَمْ أَسْتَطِعْ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ تَحْدِيدًا ؛ ثُمَّ بَعْدَهَا يَكُونُ تَطَايَر الْكُتُب ثُمّ الْمَحْشَر الْخَاصّ ثُمّ الْمَصِير الْأَبَدِيّ .

ويحشر النَاسِ كُلِهِمْ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ بِأَرْض الْمَحْشَر ، ويبدوا أَنَّهُ سَيَكُونُ هُنَاك زِحَام شَدِيدٌ لِمَا تعنيه كَلِمَة حُشِر وَكَلِمَة مَحْشَر ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّه تُحْشَرُونَ ﴾ آل عمران158 ؛ وَيَقُول جَلَّ فِي عُلَاهُ : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الأنعام72 ؛ وَلَن يَقِف أَمَر الْحَشْر عَلَى النَاسِ فَقَطْ بَلْ يَكُونُ عَلَى كُلَ الْخَلَائِق ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ الأنعام38 .

وَأَرْض الْمَحْشَر مُضِيئَةٌ مِنْ ذَاتِهَا حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى بِسُورَة الزُمَر : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَبِيِينَ وَالشُهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقَ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ 69 ﴾

وَلَعَلّ هُنَاك مَشْهَد آخَرَ لَمْ نَذْكُرْهُ وَهُوَ طَرِيقَةُ اِقْتِيادُ الْمُجْرِمِين إِلَى الْمَحْشَرِ وَإِلَى جَهَنَّم ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ الأنفال50 ؛ فَكَلَّمَه (يتوفى) بِمَعْنَى يَتَوَلَّى وَلَيْسَتْ بِمَعْنَى الْمَوْت .

وَحَتّى لَا يَقُولَنَّ قَائِلٌ بِشَفَاعَة فِي يَوْمِ الْحَشْرِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الأنعام51 ؛ وَقَدْ يَكُونُ مِنْ السَّابِقِ لأوانه فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ أَذْكُرَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ مريم68 . بَيْنَمَا سيحشر الْمُتَّقِينَ فِي مَحْشَر خَاصٌّ ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ مريم85 ؛ بِمَا يَعْنِي بِأَنْ هُنَاكَ حُشِر عَامٍ ثُمَّ حُشِر خَاصٌّ لِكُلّ فِيه ، وَهُوَ مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْقِعَه بِهَذَا الْبَحْث .

ويحشر الْمُذْنِبين الَّذِين تَمَت إدانتهم زُرْقًا ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ طه102 ؛ وَيَا لَيْتَ الْأَمْر يَقِفُ عِنْدَ حَدَّ اخْتِلَاف اللَّوْن بِلَوْن فَاضِحٌ ، لَكِنْ انْظُرْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ طه124 ؛ فَهُم يُحْشَرُون عُمْيًا ؛ وَمَن مَصَائِب الْكَافِرِين أَنَّهُمْ لَا يُحْشَرُون وَاقِفِين بَل

يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ الفرقان34 ؛ بَلْ لَا تَقِفُ الْمُصِيبَة عِنْدَ هَذَا الْحَدَ ، فَتَدَبَّرْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ الإسراء97 ؛ فَمَا أَرَى مِنْ ذُلَ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا ، وَهُو ذُلٌّ يُشْهِدُه الْخَلَائِق جَمِيعًا .

وَبَعْد الْحَشْر الْعَامّ يَتّم سُوق النَاس لِلْمِيزَان ، حَيْثُ يَرَى كُلَّ مِنْهُمْ عَمَلِه ، الْخَيْر وَالشَّرَ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مَنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ الأنبياء47 ؛ وَيَقُول جَلَّ شَأْنُهُ بِصَدَد رُؤْيَة الْأَعْمَال : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ ﴾ آل عمران30 .

فَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا صَالِحًا ، وَلَيْس مُؤْمِنًا فَقَط ، فَإِن مِيزَانِه ثَقِيلٌ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الأعراف8 ؛ إِمَّا أَنْ كَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ فَإِنْ مِيزَانِه يَطِيش لِخِفَّتِه ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ﴾ الأعراف

. 9

ثُمَّ تَكُونُ الْمُقَاصَّة بَيْن عَمَلُك الصَّالِحُ وعملك الْفَاسِد ، وَنَتِيجَة تِلْك الْمُقَاصَّة هِي مصيرك الْأَبَدِيّ الَّذِي لَا فِكَاك مِنْه ، فالحسنات تُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ، وَالسَّيِّئَات تَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ ، ثُمّ يُطْبَع لَك كِتَابك الَّذِي يَأْتِيك وَلَا تَأْتِيه ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ﴿ 19 ﴾ إِنِي ظَنَنتُ أَنِي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ ﴿ 20 ﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿ 21 ﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿ 22 ﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿ 23 ﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿ 24 ﴾ .

وَأَمَّا مَنْ أُتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَنْهُمْ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ ﴿ 25 ﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ﴿ 26 ﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿ 27 ﴾ مَا أَغْنَى عَنِي مَالِيهْ ﴿ 28 ﴾ هَلَكَ عَنِي سُلْطَانِيهْ ﴿ 29 ﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿ 30 ﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿ 31 ﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴿ 32 ﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿ 33 ﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿ 34 ﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ

هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿ 35 ﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿ 36 ﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ ﴿ 37 ﴾ .

وَهُنَاكَ مَنْ يَأْتِيهِم كِتَابِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى بِسُورَة الِانْشِقَاق : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ ﴿ 10 ﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ﴿ 11 ﴾ وَيَصْلَى سَعِيراً ﴿ 12 ﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴿ 13 ﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿ 14 ﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴿ 15 ﴾ ؛ وَالْحَقِيقَة لَسْت أَدْرِي أَهِيَ ثَلَاثُ صُوَرٍ لِوُصُول الْكِتَاب لِابْنِ آدَمَ أَم صُورَتَيْن ، لِأَنَّ سُؤْرَهُ الْحَاقَّةِ أَبْرَزَت صُورَتَيْن ، الْأَوْلَى أَنْ يَأْت الْكِتَاب عَنْ يَمِينِ وَالثَّانِيَةُ عَنْ شِمَالِ الْعَبْد ، أَمَّا سُورَة الِانْشِقَاق فَذَكَرَت صُورَتَيْن أَيْضًا ، الْأُولَى عَنْ يَمِينِ وَالثَّانِيَةُ مِنْ الْخَلْفِ ، وَذَلِكَ هُوَ سَبَبُ عَدَمِ الْجَزْمِ عَمَّا إِذَا كَانَتْ صُوَرًا ثَلَاثَةً أَمْ صُورَتَيْن .

ثُمّ يُقَاد الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَيُسَاق الْمُجْرِمِين إِلَى النَارِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى بِسُورَة مَرْيَم : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴿ 85 ﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴿ 86 ﴾ ؛ وَيَقُول تَعَالَى بِسُورَة الزُّمَر : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿ 71 ﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ 72 ﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿ 73 ﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿ 74 ﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ 75 ﴾ .

إِحْدَاث الْقِيَامَة سَتقَع بِالْمُسْتَقْبَل وَلَكِن الْحَدِيث بِصِيغَةِ الْمَاضِي

مِنْ خِلَالِ الْآيَات التَّالِيَة . . ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاء اللَّه . حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُم السَّاعَة بَغْتَة . قَالُوا يَا حسرتنا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ (الأنعام : 31) . وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿ وَوَضَع الكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِين مُشْفِقِين مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا . وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ (الكهف : 49) . وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٌ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمِلْك صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر : 22) . . فَمَاذَا تُلَاحِظ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وَغَيْرِهَا الْكَثِير الْكَثِيرِ مِنْ الْآيَاتِ الْمُشَابِهَة ؟ رُبَمَا الْمُلَاحَظَة الأبرز إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَحَدَّثُ

فِي الْآيَاتِ عَنْ مُشَاهَدْ وَإِحْدَاث سَتَقَع بِالْمُسْتَقْبَل وَلَكِن الْحَدِيث بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، أَي كَأَنَّمَا تِلْكَ الْأَحْدَاثِ وَالْمَشَاهِد قَدْ وَقَعتْ وَانْتَهت ! فَلِمَاذَا لَم يَسْتَخْدِم الْقُرْآن صِيغَة الْمُسْتَقْبَل عَنْ إِحْدَاثِ لَمْ تَقَعْ بَعْدَ ، كَانَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى بدلاً مِن ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهُ فَلَا تستعجلوه ﴾ (النحل : 1) وَيَقْصِد يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِتَكُون (سيأتي أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تستعجلوه) أَلَيْسَت الصَيغَة الثَّانِيَةُ بِالنِسْبَةِ لَنَا أَقْرَبَ لِلْفَهْمِ والتقبل ؟ نَحْن الْبَشَر نَفْهَم أَنَّ أَيَّ فَعَلَ يُحَدَث الْآنَ مَعَ الْكَلَامِ نُسَمِيه فعلاً مضارعاً أَوْ حَاضِرًا . وَأَيّ فَعَل تَمّ وَانْتَهَى قَبْلَ الْكَلَامِ ، نُسَمِيه فعلاً مَاضِيًا ، وَأَيّ فَعَل سَيَأْتِي فِي قَادِمِ الزَّمَن ، أَوْ بَعْدَ الْكَلَامِ ، نُسَمِيه مستقبلاً . وَحِين تَتَأَمَّل عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ سُورَة المسد ، وَفِيهَا بَيَان الْمَصِير النهائي لِأَبِي لَهَبٍ وَزَوْجَتِه وَأَنَّهُمَا فِي النَّارِ ، قَد تستغرب كَمَا اِسْتَغْرَب مَنْ سَمِعُوا بِالسُّورَة حِينَذاك . إِذْ كَيْفَ يُقَرَر الْقُرْآن نِهَايَةٌ شَخْصٌ لَا يَزَالُ حياً هُوَ وَزَوْجَتُهُ ، بَل وَيُقَرَر ويحسم نهايتهما أَو مصيرهما الْأَخِير يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ بَعْدَ حِينٍ مِنَ الزَّمَنِ قَصِيرٌ ؟ الْأَمْرَ قَدْ يربك بَعْضُ الشَّيْءِ مِثْلَمَا قِيل وَحَدَّث يَوْمِهَا ، مِنْ أَنَّ أَبَا لَهَبٍ كَانَ بِإِمْكَانِه نَقَض الْقُرْآن وَأَنَّهُ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا مِنْ تَأْلِيفِ النَبِيُّ الْكَرِيمُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَبَّر إِعْلَان إِسْلَامِهِ وَلَوْ ظاهرياً . . لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ الْوُضُوح لِنِهَايَتِه وَزَوْجَتِه ، لَم يُسْلِمَا وَمَاتَا كَافِرَيْن فَعَلِمَ النَاسُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كلاماً مِنْ عِنْدِ بِشْرٍ . هَل نَحْن نَعيش الْمَاضِي ؟ حَتَّى لَا ينفرط

خَيْط الْمَوْضُوع مِنَّا ، دَعُونِي ارْجِعْ إِلَى النُّقْطَة الرَّئِيسِيَّة لِمَوْضُوع الْيَوْم ، وَأَقُول : هَلْ مَعْنَى هَذَا بَعْدَ كُلَ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ ، أَنَّنَا مَعْشَرَ الْإِنْسِ وَالْجِنَ وَبَقِيَّة الْمَخْلُوقَات وَالْكَائِنَات ، نَعيش فِي الْمَاضِي ؟ وَإِن قِصَّة الْخَلْق وَالْحَيَاة مُنْذُ البِدايَةِ حَتَّى النِهَايَة ، قَدْ انْتَهَتْ فعلاً بِالتَّمَامِ وَالكَمالِ ؟ وبالتالي حِين يَتَحَدَّث الْقُرْآن عَنْ إِحْدَاثِ مستقبلية بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، هَلْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَيَاةَ انْتَهَت ، وَإِن حَيَاتِنَا الدُّنْيَا الْآن أَشْبَه بفيلم سِينَمائِي طَوِيلٌ سيتوقف وَيَنْتَهِي بَعْدَ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ ، طَالَ أَمْ قَصُرَ ؟ بِالنَسْبَةِ لَنَا نَحْن الْبَشَر ، وَلِأَنّ حَيَاتِنَا مُرْتَبِطَةٌ بِشَيْء اسْمُه الزَّمَن ، قُمْنَا بِتَقْسِيم الزَّمَن إِلَى مَاض وَحَاضِرٌ وَمُسْتَقْبَل . مَاض نحزن عَلَى فَوَاتِهِ ، وَحَاضِرٌ نَعيش لَحَظَاتُه ، وَمُسْتَقْبَل نَحْمِل هَمُّه . نصدّق الْمَاضِي أَكْثَر ونتعظ ونتعلم مِنْه ، ونحاول أَن نَعيش الْحَاضِر بِكُلّ تَفَاصِيلَه ، لِكِنَنَا نتهيب أَو نَخَاف ونشكك فِي الْمُسْتَقْبَلِ . وَقَد تتساءل عَنْ سَبَب تَخَوَّفْنَا مِنْ الْمُسْتَقْبَلِ ، الَّذِي أَجِدْه معروفاً دُونَ حَاجَةِ لِكَثِير شروحات وتفصيلات . الْمُسْتَقْبَلُ بِالنَسْبَةِ لَنَا غَيْب وَمَجْهُولٌ ، وَالْإِنْسَان بِفِطْرَتِه يتوجس خِيفَةً مِنْ الْمَجْهُولِ . وَهَكَذَا هِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وبشكل مُخْتَصَر . الْمُسْتَقْبَلِ عِنْدَ اللَّهِ مَاض التَّقْسِيمَات الزَّمْنِيه الَّتِي فِي حَيَاتِنَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ عِنْدَ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ . إذ حِين يَتَحَدَّث اللَّهِ عَنْ الْمُسْتَقْبَلِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَذْكُر لَك الْحَقَائِق الَّتِي سَتَقَع لَا مَحَالَة ، بِغَضَ النَظَرِ عَنْ الْوَقْتِ ،

مستقبلاً قريباً كَانَ أُمَّ بَعِيدًا . أَنَّ مَا يَذْكُرُهُ الْقُرْآنِ مِنْ وَقَائِع وَإِحْدَاث مستقبلية ، هِيَ وَاقِعَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا . خُذ مثالاً عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيب فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ غُلبت الرّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبَهُم سيغلبون ، فِي بِضْعَ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبلِ وَمِنْ بَعْدِ ﴾ (الروم 1–4) . أَمَر مُسْتَقْبِلِي قَرِيبٌ بِالنَسْبَة لِلَّذِينَ كَانُوا وَقْت نُزُول الْآيَات تِلْك . وَقَدْ حَدَّث فعلاً إِنْ غَلَبَ الفرسُ الرومَ ، ثُمَّ بَعْدَ سَنَوَات تَتَغَيَّر الظُّرُوف ، فيتغلب الرومُ عَلَى الْفَرَسِ وَيَفْرَح الْمُؤْمِنُون ، كَمَا جَاءَ فِي السُّورَةِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ إِذَا قَالَ أمراً فَإِنَّه سَيَكُون دُون أَدْنَى رَيْب ، وَهَذِه حَقِيقَةً لَا جِدَالَ عَلَيْهَا . الأَمْر نَفْسِه يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيد – بِالنَسْبَةِ لَنَا – كَإِحْدَاث آخِرِ الزَّمَانِ ثُمّ الْقِيَامَةِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ حَيَاةِ الْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . كُلُّهَا إِحْدَاث وَوَقَائِع مَذْكُورَةٌ فِي الْقُرْآنِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، عَلَى رَغْمِ أَنَّهَا إِحْدَاث مستقبلية سَتَقَع دُون أَدْنَى شَكٍّ . مَا يُمْكِنُ إِيجَازُه هَا هُنَا ، أَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ بِالنَسْبَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ مَاض . لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُحْكِمُه زَمَن وَلَا مَكَان . إِنَّ تفرّد الْقُرْآن بِذِكْر إِحْدَاث الْمُسْتَقْبَل ووقائعه وَكَأَنَّمَا وَقَعَت وَانْتَهَت ، فَهُو سِرّ مِنْ أَسْرَارِ الْإِعْجَاز فِي الْقُرْآنِ . إِذْ لَا أَحَدَ مِنْ الْجِنَ وَالْإِنْسِ يَقْدِر وَيَجْزِم لَك بِوُقوعِ أَمْرٍ مُسْتَقْبِلِي بِكَافَّة تَفَاصِيلَه الدَّقِيقَة سِوَى مَنْ لَهُ السَّيْطَرَة التَّامَّة الْمُطَلَّقَةِ عَلَيْهِ ، وتلكم هِيَ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّة . لُبّ الْمَوْضُوع اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِأَنّ عِلْمِه يَسْبِق كُلَ

شَيْءٍ ، يَعْلَم بِأَمْرِنَا مُنْذ أَن خَلَقْنَا فِي عَالَمِ الذَّرّ ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الْعَالِمِ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَرَأَى أَفْعَالِنَا كُلُّهَا مِنْ لَحْظَة الْوِلَادَةِ حَتَّى الْمَمَاتِ ، مروراً بِعَالِمِ الْبَرْزَخ ، وَانْتِهَاء بمصائرنا النَهَائِيَّة يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَيْث عَالِمْ الْخُلُود ، جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ . فَكَتَب كُلُّ ذَلِكَ فِي لَوْحَة الْمَحْفُوظ . أُسْلُوب الْقُرْآنِ فِي ذِكْرِ إِحْدَاث مستقبلية بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ . وَرُبَمَا إِرَادَة سُبْحَانَه بِتِلْك الطَّرِيقَة ، لِأَنَّ الْمَاضِيَ لَهُ تَقْدِير عِنْدَ الْإِنْسَانِ ، لَا يُشَكَّكُ فِيهِ وَلَا يَخْشَاه كَالْمُسْتَقْبِل ، وَخَاصَّةً إِنْ كَانَ هُوَ نَفْسُهُ قَدْ عَاصَر وعايش أَحْدَاثِه ، وبالتالي يَكُونُ ذِكْرَ الْأَحْدَاثِ المستقبلية فِي الْقُرْآنِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، ذَا أَثَر أَبْلَغُ وَأَكْثَرُ وقعاً بِالنَفْس الْبَشَرِيَّة . وَحِين يَذْكُر لَك اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أمراً سَيَحْدُثُ فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَإِنَّه سَيَحْدُثُ دُونَ أَدْنَى رَيْب ، بَلْ هُوَ بِمَثَابَةِ وَعَد إِلَهِي ، مِمَّن بِيَدِه مَقَالِيد السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَالسَّيْطَرَة التَّامَّة الْمُطْلَقَةِ عَلَى الْأُمُورِ ، عَلَى أَنَّهُ أَمَرَ وَاقِعٍ لَا مَحَالَةَ . الْعِبْرَة مِنْ كُلَ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ يَكُونَ لَدَى الْإِنْسَان مِنَّا يَقِين تَامّ بِتِلْك الْحَقِيقَة ، لِتُفْعَل تِلْكُم الْحَقِيقَة فِعْلِهَا بِالنُفُوس ، وتدفعها للاستعداد والتزود بِكُلَ مَا يُؤَدِي لِنِهَايَة سَعِيدَة كَمَا يُرِيدُهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ .

ثَبت – بكتاب اللَّه وَالسُّنَّة النَّبوِيَّةِ الصَّحِيحَة الصريحة – أَنَّ هُنَاكَ عَلَامَات وأشراطا تُسْبَق قِيَامِ السَّاعَةِ ، مِنْهَا مَا ظَهَرَ وَانْقَضَى ، كبعثة النَّبيّ (صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) وَمَوْتِه ، وانشقاق الْقَمَر وَغَيْرِهَا ، وَمِنْهَا مَا ظَهَرَ وَلَا يَزَالُ يَكْثُر ، كَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الرُّعَاة يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ ، وَكَثْرَة الْهَرْج والمرج ، وَانْتِشَار الزِّنَا وَمِنْهَا مَا لَمْ يَظْهَرْ بَعْدَ كعلامات السَّاعَة الْكُبرَى ، وَمِنْهَا « نُزُولِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَخُرُوج الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا » .

وَثَبت وُقُوعِهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنَّة النَّبوِيَّةِ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ ، وَقَدْ ذَكَر جَمْعٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ نَقْلِ الْإِجْمَاعِ عَلَى صِحَّةِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ بأشراط السَّاعَة الْكُبرَى وَوُجُوب تَصْدِيقِهَا وَالإِيمَانُ بِهَا . (المطرفي ، آرَاء مُحَمَّد رَشِيد رِضَا فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبرَى ، .

مُنْتَهَى عِلْمُ السَّاعَةِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) عَنْ وَقْتِ السَّاعَة –كما فِي جَاءَ حَدِيثُ جِبْرِيلَ الطويل– قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) : « مَا الْمَسْؤُول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ »

عَلَامَات السَّاعَة الصُّغْرَى

أَوَّلًا : أَخْبَارُ النَّبِيّ (ﷺ) عَن الْغُيُوب المستقبلية

أَخْبَرَ النَبيُّ (ﷺ) بِمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَذَلِكَ مِمَّا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ الْغُيُوبِ المستقبلية ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، حَتَّى بَلَغَتْ التَّوَاتُرَ الْمَعْنَوِيَّ (المصري ، رَحْلِه إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، ص 205) ، فَمِنْهَا :

مَا رَوَاهُ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَقَد خَطَبَنَا النَبيّ (ﷺ) خُطْبَةٍ مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ ، عِلْمِهِ مِنْ عِلْمِهِ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ، إِنْ كُنت لَأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيَت ، فَأَعْرِفْه كَمَا يُعْرَفُ الرَّجُلَ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآه فَعَرَفَه . (البخاري ، الصَّحِيح الْجَامِع ، رُقِم 6348) .

رَوَى أَبُو زَيْدٍ عُمَرُ بْنِ أَخْطَبَ الأَنْصَارِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَال : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الْفَجْر ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ ، فَنَزَل ، فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا . فَهَذِه أَدِلَّة صَحِيحَةٌ عَلَى أَنَّ النَبيَّ (ﷺ) قَدْ أَخْبَرَ أُمَّتِه بِكُلَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فِيمَا يَخُصُّهُم .

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، وَرُوِيَت بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ لِكَثْرَةِ مَنْ نَقَلَهَا مِنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

تَدُلّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَة وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ ودنوها ، فَإِنَّ ظُهُورَ أَكْثَرَ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ دَلِيلٌ عَلَى قُرْبَهَا ، وَعَلَى أَنَّنَا فِي آخِرِ أَيَّامِ الدُّنْيَا

ثَانِيًا : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ، وَيُشِيرُ بِأُصْبُعَيْهِ فَيَمُدُّهُمَا » .

(عياض ، الشَّفَا ، 1/650)

ثَالِثًا : قَرُب قِيَامِ السَّاعَةِ

تَدُلّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَة وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ ودنوها ، فَإِنَّ ظُهُورَ أَكْثَرَ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ دَلِيلٌ عَلَى قُرْبَهَا ، وَعَلَى أَنَّنَا فِي آخِرِ أَيَّامِ الدُّنْيَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ معرضون﴾ [الأنبياء : 1] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَة تكُون قريبا﴾ [الأحزاب : 63] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿إنهم يَرَوْنَه بعيدا* ونراه قريبا﴾ [المعارج : 6-7] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿اقتربت السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القمر﴾ [القمر : 1] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةُ

الدَّالَّةِ عَلَى قُرْبِ نِهَايَةُ هَذَا الْعَالِمُ الدُّنْيَوِيّ ، وَالِانْتِقَالُ إِلَى دَارِ أُخْرَى ، يَنَال فِيهَا كُلُّ عَامِلٍ عَمَلِه ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ، وَيُشِيرُ بِأُصْبُعَيْهِ فَيَمُدُّهُمَا » .

(عياض ، الشَّفَا ، 1/650)

رَابِعًا : مُجْمَلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الصُّغْرَى :

تَحْدُث الْعُلَمَاءِ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، وَإِلَيْك أَهَمَهَا مِمَّا ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ النَبَوِيَّة مِنْهَا :

بَعَثَهُ النَبِيُّ (ﷺ) .

مَوْتِ النَبِيَ (ﷺ) .

فَتْحَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

طَاعُونِ عَمَوَاسَ .

اسْتِفَاضَة الْمَال ، وَالِاسْتِغْنَاء عَنِ الصَّدَقَةِ .

ظُهُور الْفِتَن ، كَظُهُورِهَا مِنْ الْمَشْرِقِ ، وَمَقْتَل عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَوْقِعُه الْجَمَل ، وَمَوْقِعُه صَفَّيْن وَظُهُور الْخَوَارِج ، وَمَوْقِعُه الْحَرَّة ، وَاتِّبَاع سُنَن الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ .

ظُهُور مُدَّعِي النُّبُوَّةِ .

ظُهُور نَار الْحِجَاز .

انْتِشَار الْأَمْن .

قِتَال التُّرْك .

قِتَال الْعَجَم .

ضَيَاع الْأَمَانَة .

قَبْض الْعِلْم ، وَظُهُور الْجَهْل .

كَثْرَة الشُّرَط وَأَعْوَان الظَّلَمَةِ .

انْتِشَار الزِّنَا .

انْتِشَار الرِبَا .

ظُهُور الْمَعَازِف وَاسْتِحْلَالُهَا .

كَثْرَةُ شُرْبِ الْخَمْرَ وَاسْتِحْلَالُهَا .

زَخْرَفَةُ الْمَسَاجِدِ ، وَالتَّبَاهِي بِهَا .

التَّطاوُل فِي الْبُنْيَانِ .

أَنْ تَلِدَ الأَمَة رَبَّتَهَا .

كَثْرَة الْقَتْل .

تَقَارَب الزَّمَان .

تَقَارَب الْأَسْوَاق .

ظُهُور الشَرْكِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ .

ظُهُور الْفُحْش ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ ، وَسُوء الْجِوَار .

تَشَبَّب الْمَشْيَخَة .

كَثْرَة الشِّحّ .

كَثْرَة التِّجَارَة .

كَثْرَة الزَّلَازِل .

ظُهُور الْخَسْف وَالْمَسْخ وَالْقَذْف .

ذَهَاب الصَّالِحِين .

ارْتِفَاع الْأَسَافِل .

التَّحِيَّة لِلْمَعْرِفَة : أَيْ لَا يَرْمِي الْمَرْء السَّلَام إِلَّا عَلَى مَنْ يَعْرِفُهُ .

الْتِمَاس الْعِلْم عِنْدَ الْأَصَاغِر .

ظُهُور الكاسيات العاريات .

صَدَق رُؤْيَا الْمُؤْمِن .

كَثْرَةِ الْكِتَابَةِ وَانْتِشَارِهَا .

التَّهَاوُن بِالسُّنَن الَّتِي رَغَّبَ فِيهَا الْإِسْلَامُ .

انْتِفَاخ الْأَهِلَّة .

كَثْرَة الْكَذِب ، وَعَدَم التَّثَبُّتُ فِي نَقْلِ الْأَخْبَار .

كَثْرَة شَهَادَةُ الزُّورِ ، وَكِتْمَان شَهَادَةَ الْحَقّ .

كَثْرَةَ النِسَاءِ وَقِلَّةَ الرِجَال .

كَثْرَة مَوْتَ الْفَجْأَةِ .

وُقُوع التَّنَاكُر بَيْنَ النَاسِ .

عَوْد أَرْضِ الْعَرَبِ مروجا وأنهارا .

كَثْرَة الْمَطَر ، وَقِلَّة النَبَات .

حَسَر الْفُرَاتِ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ .

كَلَام السّبَاع وَالْجَمَادَات لِلْإِنْسَان .

تَمَنّي الْمَوْتِ مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاء .

كَثْرَة الرُّوم ، وَقِتَالِهِم الْمُسْلِمِين .

فَتْح قُسْطَنْطِينِيَّة .

قِتَال الْيَهُود .

نَفْي الْمَدِينَة شِرَارِهَا ، ثُمّ خَرَابِهَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ .

بَعْث الرّيح الطَّيّبَة لِقَبْض أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ .

اسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَهَدْمِ الْكَعْبَةِ .

هَذِه أَهَمّ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الصُّغْرَى الَّتِي جَاءَتْ فِي أَحَادِيثِ النّبِيّ (ﷺ) وَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّع وَمَعْرِفَة الْأَحَادِيث فَلْيُرَاجِع كِتَاب "أشراط الساعة" فَفِيه التَّفَاصِيل .

أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةُ

أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ .

أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ . (الجزيرة)

1- الدُّخَان

قَالَ تَعَالَى : ﴿فارتقب يَوْم تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَان مبين* يَغْشَى النَّاس هَذَا عَذَابٌ أليم﴾ [الدخان : 10-11]

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَة وأشراطها الْعُظْمَى ظُهُور دُخَان قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ كُلَّهَا ، فَتُصْبِح كَبَيْت أَوْقَدِ فِيه ، فَيَأْخُذ بِالْمُؤْمِنِين كَالزُّكْمَة ، وَيَدْخُلُ فِي مَنَافِذ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مُسَمَعٌ مِنْهُم

فَعَن حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ الْغِفَارِيَ أَنَّهُ قَالَ : اطَّلَعَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَال : « مَا تَذْكُرُونَ ؟ » قُلْنَا : نَذْكُر السَّاعَة ، قَال : « أَنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ ، فَذَكَر : الدُّخَان ، وَالدَّجَّال ، وَالدَّابَّة ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولِ عِيسَى بْنُ مَرِيمَ ،

وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، و3 خُسُوف : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ » . (الوابل ، أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، ص 344)

2- الخسوفات الثَّلَاثَة

وَهِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، جَاءَ ذِكْرُهَا فِي الْأَحَادِيثِ ضَمِن الْعَلَامَات الْكُبْرَى ، فَعَن حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَال : « أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا عَشْرُ آيَاتٍ . . (فذكر منها) وَثَلاثَةُ خُسُوفٍ ، خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ » .

وَهَذِه الْخُسُوف تكُون عَظِيمَةٌ وَعَامَّة لِأَمَاكِن كَثِيرَةٍ مِنْ الْأَرْض ، فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ . وَقَدْ وُجِدَ عَبْرَ التَّارِيخِ الْخَسْف فِي مَوَاضِعَ ، وَلَكِنْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْخُسُوف الثَّلَاثَة قَدْرًا زَائِدًا عَلَى مَا وُجِدَ ، كَأَنْ يَكُونَ أَعْظَمُ مِنْهُ مَكَانًا وَقَدْرًا .

3- خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَلَامَةً مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الْكُبرَى ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ظُهُورِهِمْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ :

وَالْآيَات الدَّالَّةِ عَلَى ظُهُورِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ هِي :

قَالَ تَعَالَى فِي سِيَاقِهِ لِقِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ : ﴿قالوا ياذا الْقَرْنَيْن أَن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مفسدون فِي الْأَرْضِ فَهَل نَجْعَل لَك خَرجَا عَلَى أَنَّ تُجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سدا* قَالَ مَا مَكَنِي فِيهِ رَبّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُمْ ردما* أَتُونِي زُبَرُ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصدفين قَال انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغُ عَلَيْهِ قطرا* فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يُظْهِرُوه وَمَا اسْتَطَاعُوا لَه نقبا* قَالَ هَذَا رَحِمَهُ مِنْ رَبِي فَإِذَا جَاءَ وَعَد رَبِي جَعَلَه دكاء وَكَان وَعَد رَبِي حقا* وَتَرَكْنَا بَعْضُهُم يَوْمَئِذ يَمُوج فِي بَعْضٍ وَنَفَخ فِي الصُّوَرِ فَجَمَعْنَاهُم جمعا﴾ [الكهف : 94-99] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿حتى إِذَا فَتَحْتَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلَ حَدَبٍ ينسلون* وَاقْتَرب الْوَعْد الْحَقَ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَار الَّذِينَ كَفَرُوا يَا ويلنا قَدْ كُنَا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَا ظالمين﴾ [الأنبياء : 96-97] .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَخَّر ذَا الْقَرْنَيْنِ الْمَلِك الصَّالِح لِبِنَاء السّد الْعَظِيم ، ليحجز يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ الْقَوْم الْمُفْسِدِين فِي الْأَرْض عَنْ النَاس ، فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الْمَعْلُوم ، وَاقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ ، اِنْدَكّ هَذَا السّدّ ، وَخَرَج يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بِسُرْعَة عَظِيمَةٌ ، وَجَمع كَبِيرٌ ، لَا يَقِفُ أَمَامَهُ أَحَدٌ مِنْ الْبَشَرِ ، فماجوا فِي النَاس ، وعاثوا فِي الْأَرْض فَسَادًا ، وَهَذِه عَلَامَةٌ عَلَى قُرْبِ النَفْخِ فِي الصُّوَرِ ، وَخَرَاب الدُّنْيَا ، وَقِيَام السَّاعَة .

وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الدَّالَّةِ عَلَى ظُهُورِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ كَثِيرَةٌ مِنْهَا :

عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا يَقُول : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرَ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » وَحَلَق بِأُصْبُعِي الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا . قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتِ جَحْشٍ : فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ اِنْهَلَك وَفِينَا الصَّالِحُونَ ، قَال : « نَعَم ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ » . (الوابل ، أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، ص 344) .

4- خُرُوج الدَّابَّة

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُم دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُم أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يوقنون﴾ [النمل : 82] .

فَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةِ جَاءَ فِيهَا ذِكْرُ خُرُوج الدَّابَّة ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ ، وَتَرَكُهُم أَوَامِرِ اللَّهِ ، وتبديلهم الدِينَ الْحَقَّ ، يَخْرُجُ لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ ، فَتَكَلَّم النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وقع القول﴾ : وَجَب الْوَعِيدَ عَلَيْهِمْ ، لتماديهم فِي الْعِصْيَانِ وَالْفُسُوق وَالطُّغْيَان ، وَأَعْرَاضِهِمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَتَرَكُهُم تدبرها ، وَالتُزُول عَلَى حُكْمِهَا ، .

وانتهائهم فِي الْمَعَاصِي إِلَى مَا لَا تَنَجَّح مَعَهُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ ، وَلَا تَصَرُّفِهِم عَن غَيَهِم تَذَكَّره ، يَقُول عَزَّ مَنْ قَائِلٍ فَإِذَا صَارُوا كَذَلِك : ﴿أخرجنا لَهُم دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ تكلمهم﴾ : دَابَّة تَعَقُّل وَتَنْطِق ، وَالدَّوَابّ فِي الْعَادَةِ لَا كَلَامَ لَهَا وَلَا عَقْلَ ، لِيَعْلَم النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ آيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَبِيّ (ﷺ) قَال : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا : الدَّجَّال ، وَالدُّخَان ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَأَمَر الْعَامَّة ، وخويصة أَحَدُكُم » .

5- نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ثَابِتٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةُ الْمُتَوَاتِرَة ، وَذَلِكَ عَلَامَةُ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَة الْكُبْرَى :

أ- الْأَدِلَّةِ مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ولما ضَرْبَ ابْنِ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمِك مِنْه يَصُدُّون وَقَالُوا آَلِهَتنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَك إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدَ أَنْعَمْنَا عَلَيْه وَجَعَلْنَاه مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَو نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنْكُم مَلَائِكَة فِي الْأَرْضِ يخلفون وَأَنَّه لِعِلْم لِلسَّاعَة فَلَا تمترن بِهَا واتبعون هَذَا صِرَاط مستقيم﴾ [الزخرف : 57-61] .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ جَاءَتْ فِي الْكَلَامِ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَجَاءَ فِي آخِرِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : أَيْ نُزُولَ ﴿وإنه لِعِلْم للساعة﴾ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَامَةٌ عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ . (الوابل ، أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، 58) .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وقولهم أَنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا إِتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *وإن مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : 157–159]

فَهَذِهِ الْآيَاتُ ، كَمَا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ لَمْ يُقْتُلُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَم يصلبوه ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إذ قَال الله﴾ [آل عِمْرَان : 55] فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ سيؤمن بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِهِ ، وَقَبْل مَوْتِه ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِك الْأَحَادِيث الْمُتَوَاتِرَة الصَّحِيحَة .

وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيّ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي (الصحيحين) عَنْ النَّبِيّ (ﷺ) أَنَّهُ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلا ، وَإِمَامًا مُقْسِطًا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ » .

وَثَبتَ فِي (الصحيح) عَنْهُ أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَى الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، وَأَنَّهُ يُقْتَلُ الدَّجَّال ، وَمَن فَارَقَتْ رُوحُهُ جَسَدَهُ ، لَمْ يُنْزِلْ جَسَدِهِ مِنْ السَّمَاءِ ، وَإِذَا أُحْيِي ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ قَبْرِهِ . (الوابل ، أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، ص 67) .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنِي مُتَوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِرُكَ مِنْ الَّذِينَ كفروا﴾ [آل عِمْرَان : 55] فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْنِ بِذَلِكَ الْمَوْت ، إِذْ لَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمَوْت ، لَكَان عِيسَى فِي ذَلِكَ كَسَائِرِ الْمُؤْمِنِين ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبِض أَرْوَاحَهُم ، ويعرج بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَعُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ خَاصَيَّة ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : وَلَوْ كَانَ قَدْ فَارَقَتْ رُوحُهُ ﴿ومطهرك مِنْ الَّذِينَ كفروا﴾ ، لَكَان بَدَنِهِ فِي الْأَرْضِ ، كَبدَن سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، أَوْ غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وما قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شَبَّه لَهُمْ وَإِنْ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عَلِمَ إِلَّا إِتْبَاعُ الظَّنَ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إليه﴾ [النساء : 157-158] فَقَوْلُهُ هُنَا يُبَيِنَ أَنَّهُ رَفَعَ بَدَنِه ﴿بل رَفَعَهُ اللَّهُ إليه﴾ ، كَما ثَبتَ فِي (الصحيح) أَنَّهُ يَنْزِلُ بِبَدَنِه وَرُوحِه ، إِذَا لَوْ أَيَّد مَوْتِه لَقَال : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ بَلْ مَاتَ .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وإن مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ موته﴾ [النساء : 159] قَال : قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى بْنُ مَرِيمَ .

ب- وَالْأَدِلَّةَ مِنْ السُّنَّةِ عَلَى نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَةٌ ومتواترة مِنْهَا :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَع الْحَرْب ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ ؟ » .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِ ، ظَاهِرِين ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَال : فَيَنْزِلُ عِيسَى بْنُ مَرِيمَ فَيَقُولُ لَهُ أَمِيرُهُم : صَلَ لَنَا ، فَيَقُول : لَا ، أَنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ ، تَكْرِمَةُ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةِ » .

وَقَدْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثِ فِي نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصَحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيد وَغَيْرِهَا مِنْ دَوَاوِينِ السُّنَّة ، وَهِيَ تَدُلُّ دَلَالَةً صَرِيحَةً عَلَى نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ رَدَّهَا .

6- طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا

مِنْ أَعْظَمِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبرَى ، وَبِه يُغْلَق بَابَ التَّوْبَةِ .

الْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ : قَدْ ذَكَرَ اللَّهِ تَعَالَى طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا فِي قَوْلِه جَلَّ وَعَلَا : ﴿هل يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيهم الْمَلَائِكَةِ أَوْ يَأْتِي رَبك أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبك يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبك لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قِبَلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُل انْتَظِرُوا أَنَا منتظرون﴾ [الأنعام : 158] .

وَقَدْ دَلَّتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةِ أَنْ الْمُرَادَ بِبَعْض الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ هُوَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِرِينَ .

قَالَ الطَّبَرِيُّ بَعْدَ ذِكْرِهِ أَقْوَالَ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : "وأولى الْأَقْوَال بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ مَا تَظَاهَرَت بِهِ الْإِخْبَارَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) أَنَّهُ قَالَ : « ذَلِكَ حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » " وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا قَوْلُهُ (ﷺ) : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ ، فَرَآهَا النَاس ، آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَاكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قِبَلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » . (الطبري ، التَّفْسِير ، 6/8) .

7- النَارَ الَّتِي تُحْشَر النَاس

وَمِنْهَا خُرُوج النَار الْعَظِيمَة ، وَهِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى ، وَأَوْلَى الْآيَات الْمُؤْذِنَة بِقِيَام السَّاعَة ، وَجَاءَت الرِّوَايَاتِ بِأَنْ خُرُوجَ هَذِهِ النَارِ يَكُونُ مِنْ الْيَمَنِ ، مِنْ قَعْرِهِ عَدْن ، فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ فِي ذِكْرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى قَوْلُه (ﷺ) : « وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ الْيَمَنِ ، تَطْرُدُ النَاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ » ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ عَنْ حُذَيْفَةَ أَيْضًا : « وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِهِ عَدْن تَرْحَل النَاس » .

وَكَون النَار تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِهِ عَدْن لَا يُنَافِي حشرها النَاسِ مَنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ خُرُوجِهَا مِنْ قَعْرِهِ عَدْن ، فَإِذَا خَرَجَتْ انْتَشَرَتْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهَا . . وَعِنْدَمَا تَنْتَشِر يَكُون حشرها لِإِهْلِ الْمَشْرِقِ . (النووي ، الْمِنْهَاج شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمِ بْنُ الْحَجَّاجِ ، 18/65)

النُّصُوص الْقُرْآنِيَّة الدَّالَّةِ عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ ومناقشتها

أَن أَسَاس هَذَا الْبَحْثِ وَمَوْضُوعُه ومحوره هُو مُنَاقَشَةٌ المعطيات المؤشرة لِقُرْبِ وَقْتِ السَّاعَة وَمِنْهَا النُّصُوص الْقُرْآنِيَّة وَالْأَحَادِيث النَبَوِيَّةِ الَّتِي توحي لَنَا بِذَلِكَ وَسَنُورِد أَوَّلًا النُّصُوص الْقُرْآنِيَّة الْمُتَعَلَقَةِ بِذَلِكَ وَمَنْ ثَمَّ الْأَحَادِيثِ النَبَوِيَّة .

النُّصُوص الْقُرْآنِيَّة

يُمْكِن تَقْسِيمِ هَذِهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّة إِلَى قِسْمَيْنِ :

نُصُوص يُذْكَرُ فِيهَا أَنَّ السَّاعَةَ أَتت وَآتِيه

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 1]

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [طه : 15]

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : 7]

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر : 59]

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر : 78]

﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد : 14]

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : 85]

نُصُوص قُرْآنِيَّة يُذْكَرُ فِيهَا أَنَّ السَّاعَةَ اقْتَرَبَت أَوْ هِيَ قَرِيبًا

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 185]

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1]

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 97]

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : 1]

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : 51]

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب : 63]

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17]

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ [المعارج : 6] ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج : 7]

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ : 40]

صِيَغ الْأَفْعَال بِالْمَاضِي

أَتى وَجَاء

فِي الْقَامُوسِ (أتى) لَهَا عِدَّةُ مَعانٍ ، مِنْهَا جَاء ، وَقَرُب ، وَفَعَل .

وَعِنْد اسْتِقْرَاء الْآيَات نُلَاحِظ أَن (أتى) تُسْتَعْمَل غالباً لِلْمَجِيء السَّرِيع ، مِثْل آيَات نُزُولِ الْعَذَابِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] .

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طه : 60] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ [الأنعام : 40] .

﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ [يونس : 24]

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ وَقَوْلُه (فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقَ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78) غافر) هُنَاكَ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ (أَتَى أَمْرُ اللّهِ) فَلَا تستعجلوه هُو قَرُب ، أَتَى يَدُلُّ عَلَى الْمَاضِي أَنَّه اِقْتَرَب لَمْ يُصَلَ بَعْدَ فَلَا تستعجلوه ، (فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقّ) هُنَا الْأَمْرُ وَاقِعٌ لِأَنَّ فِيهِ قَضَاءُ وَخُسْرَانٌ أَي المجيئين أَثْقَل ؟ (فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقَ)

أَثْقَل ، يُصَوِّر مشهداً واقعاً أَمَّا فِي الْآيَةِ الْأُولَى لَمْ يَأْتِ بَعْدُ وَلَمْ يَقَعْ بَعْدَ فَمَع الَّذِي لَمْ يَأْتِ بَعْدُ اُسْتُعْمِل أَتَى وَلَمَّا حَصَلَ مَا وَقَعَ وَمَا فِيهِ مِنْ قَضَاءِ وَخُسْرَانٌ اُسْتُعْمِل جَاء .

عِنْدَمَا نتأملُ قولَه تَعَالَى : (إذا جاءَ نصرُ اللَّه والفتح) نتساءل : لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ إِذَا أَتَى نَصْرِ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ؟ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ جَاء وَأَتَى فِي الِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيّ ؟

هُنَا لَطِيفَةٌ ، نَبَّه إِلَيْهَا أَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِير ، حَيْثُ قَالُوا : جَاء لِلْأَمْر الصَّعْب ، وَأَتَى لِلْأَمْر السَّهْل . وَأَوْضَحُ آيَةٍ تفرقُ بَيْن الفعلينِ قولُه تَعَالَى : (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا » (مريم : 27) ، الْحَمْل سَهْل ، لكنْ ، مَا جَاءَتْ بِهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، حَيْث أَنْجَبَت سَيِّدَنَا عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، وَلِذَلِكَ قَالُوا لَقَدْ جِئْت شيئاً فرياً ، فعقولُهم عَجَزَتْ عَنْ تَصْدِيقِه وَالإِيمَانِ بِهِ . وَلِذَلِك ، نَصْرِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ أمراً سهلاً ، بَلْ جَاءَ بَعْدَ صعوبات وتضحيات كُبْرَى ، لِذَا ، لَمَّا نَزَلَتْ السورةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَقَد نُعيت إِلَيّ نَفْسِي » .

عِنْدَمَا يَتَحَدَّث اللَّهُ تَعَالَى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وأهواله يَقُول : إِذَا جَاءَ ، « فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى » (النازعات : 34) ، وَيَقُول : « فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ » (عبس : 33) .

أَمَّا أَتَى ، فَتَأْتِي لِلشَّيْء الْيَسِير ، يَقُول : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ » . . لَمْ يَقُلْ أَتَتْك الْغَاشِيَة ، وَإِنَّمَا حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ، فالغاشية تَعْنِي الْقِيَامَة ، لَكِنَّهَا لَمْ تَقُمْ ، وَلَمْ تَكُنْ رَأْيِ الْعَيْنِ كالصاخة والطامة ، فَهِي مُجَرَّد حَدِيث عَنْهَا ، وَلَيْسَ مِنْ رَأَى كَمن سَمِع .

وَأَمْرُ اللَّهِ مَرَّة تَرَاه مقترناً مَع جَاء ، وَمَرَّة تَرَاه مقترناً مَع أَتَى ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « أَتَى أَمْرُ اللَّهُ فَلَا تستعجلوه » ، لِأَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يستهينون بِعَذَابِ اللَّهِ وَبِيَوْم الْقِيَامَة ، وَيَقُولُون باستخفاف ائْتِنَا بِمَا تعدنا ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَمَرَهُ وَعَذَابه شَيْءٌ يَسِيرٌ جداً ، وَسَيَأْتِي ، فَلَا تستعجلوه . لَكِن ، عِنْدَمَا يَحِلّ الْعَذَاب ، وَيَنْزِل أَمَرَ اللَّهُ بِالْعِقَاب ، هُنَا يَكُونُ الْأَمْرُ أَشَدَّ وَأَعْظَم ، حِينِهَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : (فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقّ ، وَخسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » . قَبْلَ وُقُوعِ الْعَذَابِ قَالَ أَتَى ، لَكِنْ بَعْدَ وُقُوعِهِ قَالَ جَاءَ . . فَتَأَمَّل .

وَفِي قِصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، الَّذِي أُعطي ملكاً لَم يُعط لِأَحَدٍ قَبْلَهُ ، قَالَ اللَّهُ : « حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ . . » (النمل : 17) ، لِأَنَّ سَيِدَنَا سُلَيْمَانُ مَشَى بِسُهُولَة ويُسر ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ حَرْب ، فَأَتَى عَلَى وَادِي النَّمْل ، وَسَمِع كَلَامِهَا ، وَتَبَسَّم ضاحكاً .

أَمَّا فِي سُورَةِ يُوسُفَ ، فَعَبَّرَ عَنْ الْمَوْقِف بِقَوْلِه : « وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » (يوسف : 16) ، لِأَنّ إِخْوَةِ يُوسُفَ ارْتَكَبُوا شيئاً عظيماً ، بِإِلْقَاء أَخِيهِم فِي الْبِئْرِ ، وادعائهم أَنَّ الذِئْبَ قَتَلَه .

هَذِه خُلَاصَة الْفَرْقُ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ (جاء وأتى) .

النُّصُوصُ الَّتِي تدلُّ عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ

أَوَّلًا

أَتَى أَمْرُ اللَّهُ فَلَا تستعجلوه

تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ : يُخْبِر تَعَالَى عَنْ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ ودنوها مُعَبرًا بِصِيغَةِ الْمَاضِي الدَّالَ عَلَى التَّحَقُّقِ وَالْوُقُوع لَا مَحَالَةَ [كَمَا قَالَ تَعَالَى] : (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) [الْأَنْبِيَاء : 1] وَقَال : (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) [الْقَمَر : 1] .

وَقَوْلُه : (فَلَا تستعجلوه) أَي : قَرُبَ مَا تَبَاعَدَ فَلَا تستعجلوه .

يُحْتَمَلُ أَنْ يعُودَ الضَّمِيرُ عَلَى اللَّهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْعَذَابِ ، وَكِلَاهُمَا متلازم ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (ويستعجلونك بِالْعَذَاب وَلَوْلَا أَجَلٍ مُسَمًّى لجاءهم الْعَذَاب وليأتينهم بَغْتَة وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يستعجلونك بِالْعَذَاب وَإِن جَهَنَّم لمحيطة بِالْكَافِرِين) [الْعَنْكَبُوت : 53 ، 54] .

وَقَدْ ذَهَبَ الضَّحَّاكُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى قَوْلٍ عَجِيبٌ ، فَقَالَ فِي قَوْلِهِ : (أَتَى أَمْرُ اللَّهُ) أَي : فَرَائِضِه وَحُدُودِه .

وَقَدْ رَدَّهُ ابْنُ جَرِيرٍ فَقَال : لَا نَعْلَمُ أَحَدًا اسْتَعْجَل الْفَرَائِض وَالشَّرَائِع قَبْلَ وُجُودِهَا بِخِلَافِ الْعَذَاب فَإِنَّهُم استعجلوه قَبْلَ كَوْنِه ، اسْتِبْعَادًا وَتَكْذِيبًا .

تَفْسِير الْبَغَوِيّ

(أَتَى) أَيْ جَاءَ وَدَنَا وَقَرُب ، (أَمَرَ اللَّهُ) قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ : تَقُولُ الْعَرَبُ : أَتَاك الْأَمْرِ وَهُوَ مُتَوَقَّعٌ بَعْد ، أَي : أَتَى أَمْرُ اللَّهُ وَعْدًا فَلَا تستعجلوه وُقُوعًا .

(أَمَرَ اللَّهُ) قَالَ الْكَلْبِيُّ وَغَيْرُهُ : الْمُرَادُ مِنْهُ الْقِيَامَة .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَمَّا نَزَلَ قَوْله تَعَالَى " اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ " (الْقَمَر – 1) قَال الْكُفَّار بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ : أَنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَرُبَتْ فَأَمْسَكُوا عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ حَتَّى تَنْظُرُوا مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَلَمَّا لَمْ يُنْزِلْ شَيْءٌ [قَالُوا : مَا نَرَى شَيْئًا فَنَزَلَ قَوْله " اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ " (الْأَنْبِيَاء – 1) فأشفقوا ، فَلَمَّا امْتَدَّت الْأَيَّام قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ مَا نَرَى شَيْئًا مِمَّا تَخَوَّفْنَا بِه] فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (أَتَى أَمْرُ اللَّهُ) فَوَثَب النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُفِعَ النَّاس رُءُوسَهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهَا قَدْ أَتَت حَقِيقَة فَنَزَلَت (فَلَا تستعجلوه) فاطمأنوا .

وَالِاسْتِعْجَال : طَلَبُ الشَّيْءِ قَبْلَ حِينِه .

وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ ، وَإِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقَنِي " .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ بَعْثُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَلِمَا مَرَّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَهْل السَّمَوَات مَبْعُوثًا إِلَى مُحَمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا : اللَّهُ أَكْبَرُ قَامَتِ السَّاعَةُ .

وَقَالَ قَوْمٌ : الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ هَاهُنَا : عُقُوبَة الْمُكَذِبِين وَالْعَذَاب بِالسَّيْف وَذَلِكَ أَنَّ النَّضْرَ بْنُ الْحَارِثِ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ ، فَاسْتَعْجَل الْعَذَاب ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة . وَقَتْل النَّضْر يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا .

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) مَعْنَاه تَعَاظَم بِالْأَوْصَاف الْحَمِيدَة عَمَّا يَصِفُه بِهِ الْمُشْرِكُونَ .

تَفْسِير القرطبى

قَوْله تَعَالَى : أَتَى أَمْرُ اللَّهُ فَلَا تستعجلوه قِيل : أَتَى بِمَعْنَى يَأْتِي ، فَهُوَ كَقَوْلِك : إِنْ أَكْرَمْتَنِي أَكْرَمْتُك ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَخْبَارَ اللَّهِ – تَعَالَى – فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ سَوَاءٌ ، لِأَنَّه آت لَا مَحَالَة ، كَقَوْلِه : وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ . و أَمَر اللَّه عِقَابه لِمَنْ أَقَامَ عَلَى الشِّرْكِ وَتَكْذِيب رَسُولِه . قَالَ الْحَسَنُ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَالضَّحَّاكُ : أَنَّهُ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ فَرَائِضِهِ وَأَحْكَامِه . وَفِيهِ بُعْدٌ ; لِأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الصَّحَابَةِ اسْتَعْجَل فَرَائِض اللَّهِ مِنْ قِبَلِ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَّا مستعجلو الْعَذَاب وَالْعِقَاب فَذَلِك مَنْقُولٌ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ ، حَتَّى قَالَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ الْآيَة ، فَاسْتَعْجَل الْعَذَاب .

اُفْتُتِحَت السُّورَة الْكَرِيمَة ، بِتَهْدِيد الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْبَعْث ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ ثَوَاب أَوْ عِقَاب ، ويستبعدون نَصْر الله- تعالى- لِأَوْلِيَائِه ، فقال- تعالى- : أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ وَالْفِعْل « أَتَى » هُنَا ، بِمَعْنَى قَرُب وَدَنَا بِدَلِيل « فَلَا تستعجلوه » ، لِأَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْ الِاسْتِعْجَال يُقْتَضَى أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي اسْتَعْجَل حُصُولِه لَمْ يُحْدِثْ بَعْدَ .

وَالْمُرَاد بِأَمْرِ اللَّهِ : مَا اقْتَضَتْهُ سُنَّتِه وحكمته- سبحانه- مِن أَثَابَه الْمُؤْمِنِين وَنَصَرَهُم ، وَتَعْذِيب الْكَافِرِين ودحرهم .

وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ « فَلَا تستعجلوه » لِلتَّفْرِيع . وَالِاسْتِعْجَال : طَلَبُ حُصُولِ الشَّيْءِ قَبْلَ وَقْتِهِ .

وَالضَّمِير الْمَنْصُوب فِي « تستعجلوه » يَعُودُ عَلَى « أَمَرَ اللَّهُ » ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَحَدَث عَنْه ، أَوْ عَلَى « اللَّه » - تعالى- ، فَلَا تستعجلوا اللَّهُ فِيمَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ .

وَالْمَعْنَى : قَرُب وَدَنَا مَجِيء أَمَر الله- تعالى- وَهُو إِكْرَام الْمُؤْمِنِين بِالنَصْر وَالثَّوَاب ، وَإِهَانَةٌ الْكَافِرِين بالخسران وَالْعِقَاب ، فَلَا تستعجلوا- أَيُّهَا المشركون- هَذَا الْأَمْرِ ، فَإِنَّه آت لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَكِنْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يحدده اللَّه تعالى- ويشاؤه .

وَعَبَّرَ عَنْ قُرْبِ إِتْيَان أَمَر الله- تعالى- بِالْفِعْل الْمَاضِي « أَتَى » لِلْإِشْعَار بِتَحَقُّق هَذَا الْإِتْيَانُ ، وللتنويه بِصِدْق الْمُخْبَرِ بِهِ ، حَتَّى لكَانَ مَا هُوَ وَاقِعٌ عَنْ قَرِيبٍ ، قَدْ صَارَ فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ فِعْلًا . وَفِي إِبْهَام أَمَرَ اللَّهُ ، إِشَارَةٌ إِلَى تهويله وَتَعْظِيمِه ، لِإِضَافَتِهِ إِلَى مَنْ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

قَوْلُه « فَلَا تستعجلوه » زِيَادَةً فِي الْإِنْذَارِ وَالتَّهْدِيد ، أَىّ : فَلَا جَدْوَى مِن استعجالكم ، فَإِنَّه نَازِلٌ بِكُم سَوَاءٌ استعجلتم أَمْ لَمْ تستعجلوا .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْخِطَابَ هُنَا لِلْمُشْرِكِين ، لِأَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعْجِلُون قِيَامِ السَّاعَةِ ، ويستعجلون نُزُولِ الْعَذَابِ بِهِم ، وَقَدْ حَكَى الْقُرْآن عَنْهُمْ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ :

مِنْهَا قوله– تعالى– : يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِها ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ .

نُلَاحِظ أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيس وَرَاء اخْتِلَاف التَّفَاسِير الْمُتَعَلِّقَة بِهَذِهِ الْآيَة الْكَرِيمَة يَعُودُ إِلَى كَوْن فِعْل (أَتَى) هُو بِالْمَاضِي

لَكِنَّه فِعْلِيًّا لَمْ يَحْصُلْ فِي الْحَاضِرِ وَهَذَا يَرْجِعُ بتقديري إِلَى مَوْضُوعٍ نِسْبِيَّةٌ الزَّمَن بِالنِّسْبَةِ لَنَا نَحْن الْبَشَر فَالزَّمَن هُوَ أَحَدُ الْأُسُس الَّتِي تتحكم بِالْكَوْن أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَلَا يُقَيِّدُهُ زَمَانٍ وَمَكَانٍ فَالْمَاضِي وَالْحَاضِر وَالْمُسْتَقْبَل هُوَ كَائِنٌ بِدُونِ انْفِصَالٍ فِي عِلْمِ اللَّهِ لِذَلِكَ قَالَ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّه (أَتَى) فَهُوَ أَمْرٌ وَاقِعٍ لامحالة فِي عِلْمِ اللَّهِ أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لَنَا فَهُوَ أَمْرٌ سَيَحْدُثُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَمَهْمَا يَكُنْ فَهَذَا النَّصُّ يَدُلُّ بِوُضُوح أَنَّ السَّاعَةَ قَدْ قَرُبَتْ وَهِيَ فِي طَرِيقِهَا لِلتَّحَقُّق وَالْوُقُوعَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي حَدَّدَهُ اللَّهُ لَهَا أَنْ تَقَعَ وَهِيَ مَسْأَلَةُ وَقْتٍ لَكِنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ كَثِيرًا لِذَلِك يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِين (لا تستعجلوه) أَيْ لَا تَطْلُبُونَ الِاسْتِعْجَال أَوْ الْعَجَلَةِ فِي حُصُولِهِ فَالَّذِي حَدَّد وَقْت السَّاعَة هُو خَالِقُهَا .

ثَانِيًا

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 185

عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَعْنَى (مَلَكُوت السوات وَالْأَرْض) فِي التَّفْسِيرِ الْوَسِيط يُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ

أَيّ : وَكَمَا أَرِينا إِبْرَاهِيم الْحَقَ فِي خِلَافِ مَا عَلَيْهِ أَبُوهُ وَقَوْمُهُ مِنْ الشَّرْكِ ، نريه- أيضا- مَظَاهِر ربوبيتنا ، ومالكيتنا للسموات وَالْأَرْض ، ونطلعه عَلَى حَقَائِقِهَا .

لِيَزْدَاد إِيمَانًا عَلَى إِيمَانِهِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْعَالَمِينَ عِلْمًا كَامِلًا لَا يَقْبَلُ الشَّكّ بِأَنَّهُ عَلَى الْحَقَ وَإِنْ مخالفيه عَلَى الْبَاطِلِ

وَالرُّؤْيَةُ هُنَا الْمَقْصُودِ بِهَا الِانْكِشَاف وَالْمَعْرِفَة .

فَتَشْمَل الْمُبْصِرَات والمعقولات الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْحَقَ

وَالْمَلَكُوت : مَصْدَرٌ كالرغبوت والرحموت وَالْجَبَرُوت ، وَزِيدَتْ فِيهِ الْوَاو وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْمِلْكُ الْعَظِيمِ وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِمِلْكِه – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – كَما قَالَ الرَّاغِبُ فِي مُفْرَدَاتِهِ فاالنص الْكَرِيم يَدْعُو إِلَى التَّظَرِ وَالتَّطَلُّعِ إِلَى هَذَا الْكَوْن وحينها سَيَعْلَمُون أَنَّه سيرجعه اللَّه سِيرَتِه الْأُولَى وَإِنْ مَوْعِد ذَلِكَ قَرِيبٌ وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ .

وَهَذَا أَمْرٌ أَكَّدَه الْعُلَمَاء الحديثيون كَما سنرى ذَلِكَ مُفَصَّلًا حِينَمَا عَرَفُوا قَوَانِين الْكَوْن وَتَارِيخ نَشْأَتِه .

ثَالِثًا

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1]

هَذَا النَّصَ الْقُرْآنِيَ فِيهِ تَصْرِيحٌ وَاضِحٌ مِنْ أَنَّ الْيَوْمَ الْمَوْعُود قَدِ اقْتَرَبَ وَتَتَضَمَّن تَحْذِير خَفِي لِلنَّاسِ مِنْ أَنَّهُمْ غَائِبِين ومشغولين عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ وَهَذَا النَّصُّ قَدْ نَزَلَ مُنْذُ مَا يُقَارِبُ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا حَيْثُ لَمْ يَكُنْ مَشَاغِل الْحَيَاة وَبَهْجَتِهَا تَشْغَل النَّاسِ كَما هِيَ الْيَوْم وَهُم قَوْلًا وَفِعْلًا

غَافِلِين عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْكَوْنِيَّة الْإِلَهِيَّة يَوُمُّ أَنْ تُصْبِحَ الْأَرْض صَعِيدًا جُرُزًا وَبَعْدَهَا يُوضَعُ الْمِيزَانُ الْقِسْط وَيُحَاسَب النَّاسِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ .

رَابِعًا

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : 97]

وَفِي هَذِهِ الْآيَة الْكَرِيمَة تَأْكِيدٌ إِلَهِي عَلَى اقْتِرَاب يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي سَمَّاهَا رَبَّنَا الْكَرِيم (الْوَعْد الْحَقّ) فَهُو الْوَعْدَ الَّذِي قَطَعَهُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ لِلنَّاس يُحَذِّرُونَهُم مِن أهواله وويلاته وَهُوَ الْحَقُّ فِي صِدْقِ وُقُوعِه وَحُدُوثِهِ وَهُوَ حَقٌّ لِأَنَّه بِدَايَة حِسَاب ومسؤولية تَقُومُ عَلَى قَوَاعِدِ الْعَدَالَة السَّمَاوِيَّة حَيْثُ لَا يَنْفَعُ وساطات أَوْ مَالٍ أَوْ بِنُون أَو قَبِيلَةً أَوْ حِزْبٍ أَوْ دَعْم مِنْ أَيَ نَوْعٍ سَيْف الْإِنْسَان وَحِيدًا وَشُهُود الِادَعَاء عَلَيْه كَثُرَ وَهُوَ الْوَحِيد الَّذِي سيدافع عَنْ نَفْسِهِ .

خَامِسًا

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : 1]

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يُبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دَلِيلًا مَادِّيًّا ظَاهِرًا عَلَى قُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فيربطه بِحَادِثَة انْشِقَاقِ الْقَمَرِ

انْشِقَاقِ الْقَمَرِ هِيَ إِحْدَى مُعْجِزَاتِ النَبِيِّ مُحَمَّدٍ كَمَا وَرَدَ فِي الْمَصَادِرِ الْإِسْلَامِيَّة . حَدَثَتْ فِي مَكَّةَ وَقَبْل الْهِجْرَةِ النَبَوِيَّةِ عِنْدَمَا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ النَبِيِّ مُحَمَّدٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ دَعْوَتِه ، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ نِصْفَيْن (أو فلقتين) ، فِلْقَة عَلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ وَفِلْقَةٌ عَلَى جَبَلِ قُعَيْقِعَانَ .

أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةِ هِيَ مِنْ عَلَامَاتِ الَّتِي اقْتَرَنَت باقتراب السَّاعَة ، إِذْ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْقَمَر : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ .

وانشقاق الْقَمَر دَلِيلٌ عَلَى اقْتِرَاب الْقِيَامَة ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْقِيَامَةَ إِذَا قَامَتْ انْشَقَّت السَّمَاءِ بِمَا فِيهَا مِنْ الْقَمَرِ وَغَيْرِهِ وَقِيلَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ هُو انْشِقَاق الظَّلَمَة عَنْه .

يُرَى بَعْضُ الْمُفَسِرِينَ والباحثين أَن الِانْشِقَاق فِي الْقُرْآنِ يَأْتِي بِمَعْنَى اِبْتِعَادٌ وَانْفِصَال الْأَشْيَاءِ عَنْ بَعْضِهَا وَلَا يَأْتِي بِمَعْنَى قِسْمَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ إِلَى قِسْمَيْنِ اثْنَيْن . وَيَسْتَشْهِد هَذَا التَّفْسِيرِ بنظرية إِنَّ الْقَمَرَ وَالْأَرْض قَد ظُهْرًا مَعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَمِنْ جِسْمٌ وَاحِد ، وَعِنْدَمَا انْشَقَّ الْقَمَرُ عَنِ

الْأَرْض ، تَحَوَّلَ إِلَى كُتْلَة صُلْبَه . أَمَّا بَعْض الْبَاحِثِين الْمُسْلِمِينَ فِي مَوْضُوعِ الْإِعْجَاز الْعِلْمِيّ فَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ الشُّقُوق تَؤَكِّد صَدَقَ نَبِيِّ الْإِسْلَام محمدعليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَنَّهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى شُقُوقٌ فِي الْقَمَرِ قَبْل اخْتِرَاع التِلِسْكُوب ، كَمَا أَنَّهُمْ لجأوا لِلِاسْتِشْهَاد بِالصُّوَرِ الَّتِي أطلقتها نَاسَا عَن الأَخَادِيد القَمَرِيَّة .

مُعْظَم الْمُؤَرِّخِين الْغَرْبِيِّين يُنْكِرُون وُقُوع هَذِهِ الْمُعْجِزَة مُحْتَجِين إِنْكَارَ الْقُرْآنِ نَفْسِه بِحُدُوث مُعْجِزَات . وَلَكِنْ فِي مَقَالَة نُشِرَت عَام 2016 للدكتور تُوماس ووترز مِن مَتْحَف الطَّيَرَان الوَطَنِيّ التَّابِع لمؤسسة سِمِيثْسُونِيان شَرْح فِيهَا نظريته فِي أَنَّ الْقَمَرَ ينكمش أَو يَتَقَلَّص ؛ هَذَا الِانْكِمَاش أَدَّى لِظُهُور بُرُوز عَلَى سَطْحِ الْقَمَر نَتَجَ مِنْ اصْطِدام جَانِبِي الْقِشْرَة القَمَرِيَّة مَعًا نَتِيجَة لتقلص الْقَمَر .

وَقَد تَدَاوَلَت الْكَثِيرِ مِنْ مَوَاقِع الويب مَوَاضِيع الْإِعْجَاز الْعِلْمِيّ وَأَصْبَحَت تُتَدَاوَل هَذِهِ الصُّوَرِ عَلَى نطاقٍ وَاسِعٌ ، رُغم تَأْكِيدٌ وَكَالَة نَاسَا عَلَى أَنَّه لَا يُوجد دليلٌ عَلَى انْشِقَاقِ الْقَمَرِ فِي أيّ يومٍ مِنْ الْأَيَّامِ فِي الْمَاضِي ، فالأخاديد عَلَى سطحه هِي ظَاهِرُه طبيعيّة نَاتِجَةٌ عَن حَادِثِ جِيُولُوجِي عَلَى الْقَمَرِ . كَمَا يُنْكِر عُلَمَاء الْفَضَاء وُجُودِ دَلِيلِ عِلْمِي عَلَى حُدُوثِ انْشِقَاق فِي

الْقَمَرِ . وَلَكِن وَكَالَة نَاسَا أيضًا لَمْ تُقَدَّمْ حَتَّى الْيَوْم تفسيرًا واضحًا لِأَحَد أَنْوَاع الشُّقُوق القَمَرِيَّة ، وَوَصَفْته بِأَنَّه « مُثِير لِلْجَدَل » و « مَحَلُّ خِلَافٍ » .

الْعِلْمِ الْحَدِيثِ وَحَادِثَة انْشِقَاقِ الْقَمَرِ

أَثْبَتَت الدراسات الْعِلْمِيَّة الحَدِيثَة الَّتِي أُجْرِيَتْ عَلَى سَطْحِ الْقَمَر ، وُجُود مَجْمُوعِهِ مِنْ الشُّقُوق والشروخ الْغَرِيبَة

أَغْرَقَت مؤخراً الحُمَم البركانية مَنَاطِق مُنْخَفِضَة فِي الْجُزْءِ الْخَارِجِيّ لِسَطْح الْقَمَر ، فَقَامَت بِتَغْطِيَة الشُّقُوق

قَد أَثْبَتَت الدراسات الَّتِي أَجْرَاهَا الْعُلَمَاءُ فِي وَكَالَةِ نَاسَا عَلَى تِلْكَ الشُّقُوق وَالْأَوْدِيَة الْمَوْجُودَةَ عَلَى سَطْحِ الْقَمَر ، أَنَّهَا نَتِيجَة حُدُوث كَسْر وَشِقّ فِي الْقَمَرِ ، وَتَبَيَّن لَهُم وُجُودُ شُقُوقٍ كَبِيرَةٌ عَلَى سَطْحِهِ ، مِمَّا يُؤَيِّدُ حُدُوث مُعْجِزَة شَقّ الْقَمَر الَّتِي تَمَّ تأكيدها عِلْمِيًّا .

التَّوْثِيق التاريخي لِحَادِثَة انْشِقَاقِ الْقَمَرِ

سَجَّل التَّارِيخ الْبَشَرِيّ فِي الْهِنْد اسْمُ مَلِكٍ مِنْ الْمُلُوكِ فِي الْهِنْد يُدْعَى : (جاكرواني فرماس) وَقَدْ ذَكَرَت المخطوطات التَّارِيخِيَّة الْهِنْدِيَّة الْقَدِيمَة مُشَاهَدَتِه لِحَادِثَة انْشِقَاقِ الْقَمَرِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَة .

جَاءَ فِي تِلْكَ المخطوطة عَلَى لِسَانِ صَاحِبِهَا : (شاهد مِلْك ماجبار "مالابار" بِالْهِنْد جاكرواني فرماس انْشِقَاقِ الْقَمَرِ ، الَّذِي وَقَعَ لِلنَّبِيّ مُحَمَّد صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم وَعِنْد اسْتِفْسَارُه عَن انْشِقَاقِ الْقَمَرِ عِلْمٍ بِأَنَّ هُنَاكَ نُبُوءَة عَنْ مَجِيءِ رَسُولٌ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، فَقَام بِتَعْيِين ابْنِه خَلِيفَةً لَهُ ، وَانْطَلَق لِمُلَاقَاتِه وَتُعْتَبَر هَذِه المخطوطة شَهَادَة مُوثَقَةٌ تاريخيا .

سَادِسًا

أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (51)

فِي التَّفْسِيرِ الْوَسِيط وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ : أَوْ كُونُوا خَلْقاً أَيّ : مَخْلُوقًا سِوَى الْحِجَارَة وَالْحَدِيد مِمَّا يَكْبُرُ أَيّ : يَعْظُم ويستبعد- فِي صُدُورِكُمْ المظلمة- قَبُولُه لِلْحَيَاة ، قُلْ لَهُمْ : كُونُوا أَيّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ غَيْرِهِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِن الله-تبارك وتعالى- لَا يُعْجِزُهُ إِنْ يعيدكم

إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى ، لِكَي يُحَاسِبُكُم عَلَى أَعْمَالِكُم ، ويجازيكم عَلَيْهَا بِمَا تَسْتَحِقُّون مِنْ عِقَابٍ .

فَالْمَقْصُودُ مِنْ الْجُمْلَةِ الْكَرِيمَة ، بَيَانُ أَنَّ قُدْرَةَ الله–تبارك وتعالى– لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ . . قَال الْجَمَل : أَجَابَهُم الله–تبارك وتعالى– بِمَا مَعْنَاهُ : تَحَوّلُوا بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى أَيّ صِفَةٌ تَزْعُمُون أَنَّهَا أَشَدُّ مُنَافَاةً لِلْحَيَاة ، وَأَبْعَدُ عَنْ قَبُولِهَا ، كَصِفَة الْحَجَرِيَّة والحديدية وَنَحْوِهِمَا .

فَلَيْسَ الْمُرَادُ الْأَمْرُ ، بَلْ الْمُرَادُ إِنّكُم لَوْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ لِمَا أعجزتم الله–تبارك وتعالى– عَنْ الْإِعَادَةِ وقوله–تبارك وتعالى– : فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا أَيّ : فَسَيَقُولُون لك– أَيُّهَا الرَّسُولُ الكريم– مِن يُعِيدنَا إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ أَنْ نَكُونَ حِجَارَةٍ أَوْ حَدِيدًا أَوْ غَيْرِهِمَا ؟ .

وقوله– سُبْحَانَه – : قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ رَدٌّ عَلَى جهالاتهم وَإِنْكَارِهِم لِلْبَعْثِ وَالْحِسَابِ

أَيّ : قُلْ لَهُمْ : الله–تبارك وتعالى– الَّذِي فَطَرَكُمْ وخلقكم ، أَوَّلَ مَرَّةٍ ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ ، قَادِرٌ عَلَى أَنَّ يعيدكم إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى .

كَما قال–تبارك وتعالى– : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

ثُمّ بين– سُبْحَانَه – مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مَنْ اسْتِهْزَاء وَسُوء أَدَب عِنْدَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الإِجابات السَّدِيدَة ، فَقَال : فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتى هُوَ . أَيّ : فسيحركون إِلَيْك رُءُوسِهم عِنْدَ مَا يَسْمَعُونَ رَدّك عَلَيْهِم ، وَيَقُولُونَ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالتَّكْذِيب : مَتَى هُوَ ؟ أَيّ مَا ذَكَرْته مِنْ الْإِعَادَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، أَوْ مَتَى هُوَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي سنعود فِيهِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ نُصَيْر عِظَامًا ورفاتا .

فَالْجُمْلَة الْكَرِيمَة تَصَوَّر تَصْوِيرًا بَلِيغًا مَا جبلوا عَلَيْهِ مِنْ تَكْذِيب بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ اسْتِهْزَاء بِمَن يُذَكِّرُهُم بِأَحْوَال ذَلِكَ الْيَوْمِ العصيب .

وَمَن اسْتِبْعَاد لِحُصُولِهِ كَما قال–تبارك وتعالى– : حِكَايَةً عَنْهُمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى : وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .

وقوله–تبارك وتعالى– : قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً تَذييل قَصَدَ بِهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ لَهُم .

أَيّ : قُل لهم- أَيُّهَا الرَّسُولُ الكريم- عَلَى سَبِيلِ التَّأْنِيب وَالْوَعِيد : عَسَى هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي تستبعدون حُصُولِه ، يَكُونَ قَرِيبًا جِدًّا وُقُوعِه .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ قَرِيبٌ ، لِأَنَّ عَسَى فِي كَلَامِ اللهِ-تبارك وتعالى- لِمَا هُوَ مُحَقَّقُ الْوُقُوعِ ، وَكُلُّ مَا هُوَ مُحَقَّقُ الْوُقُوعِ فَهُوَ قَرِيبٌ ، وَلِأَنّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » - وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى .

سَابِعًا

﴿ يَسْأَلُكَ النَاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

[الأحزاب : 63]

تَفْسِيرِ الْبَغَوِيّ

قَوْلُه - عَزَّ وَجَلَّ - : (يَسْأَلُك النَاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ) أَي : أَيّ شَيْءٍ يُعَلّمُك أَمر السَّاعَة ، وَمَتَى يَكُونُ قِيَامِهَا ؟ أَي : أَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ (لَعَلّ السَّاعَة تَكُونُ قَرِيبًا)

وَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ

ثُمّ بين- سُبْحَانَه - أَنَّ وَقْتَ قِيَامِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ فَقَالَ : يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ ، وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً .

وَالسَّائِلُون هُنَا قِيلَ : هُمُ الْيَهُودُ ، وَسُؤَالُهُم عَنْهَا كَانَ بِقَصْدِ التَّعَنُّت وَالْإِسَاءَة إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أَىّ : يَسْأَلُك الْيَهُود وَأَشْبَاهِهِم فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ ، عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّت وَالِامْتِحَان لَك

قُلْ لهم- أَيُّهَا الرَّسُولُ الكريم- إِنَّما عَلِمَ وَقْتَ قِيَامِهَا عِنْد الله-تبارك وتعالى- وَحْدَه ، دُون أَىّ أَحَدٌ سِوَاهُ

وَما يُدْرِيكَ أَىّ : وَمَا يُعَلِّمُك لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً أَي لَعَلّ قِيَامِهَا وَحُصُولِهَا يَتَحَقَّقُ فِي وَقْتِ قَرِيبٍ وَلَكِنَّ هَذَا الْوَقْتِ مَهْمَا قَرُبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَلَّامُ الغيوب- سُبْحَانَه - .

وَلَقَدْ كَانَ النَبِيُّ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم يَقُول : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وَيُشِيرُ إِلَى إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى .

تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِالسَّاعَة ، وَإِنْ سَأَلَهُ النَاسُ عَنْ ذَلِكَ . وَأَرْشَدَه أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، كَمَا قَالَ لَهُ فِي سُورَةِ " الْأَعْرَاف " ، وَهِي مَكِّيَّةٌ وَهَذِهِ مَدَنِيَّةٌ ، فَاسْتَمَرّ الْحَالِ فِي رَدَ عِلْمَهَا إِلَى الَّذِي يُقِيمُهَا ، لَكِن أُخْبِرَهُ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ بِقَوْلِه : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَة تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [الْقَمَر : ١] ، وَقَال ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الْأَنْبِيَاء : ١] ، وَقَال ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهُ فَلَا تستعجلوه ﴾ [النَحْل : ١] .

تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيّ

قَوْله تَعَالَى : يَسْأَلُك النَاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَة تَكُونُ قَرِيبًا .

قَوْله تَعَالَى : يَسْأَلُك النَاسُ عَنْ السَّاعَةِ هَؤُلَاء المؤذون لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَا توعدوا بِالْعَذَاب سَأَلُوا عَنْ السَّاعَةِ ، اسْتِبْعَادًا وَتَكْذِيبًا ، موهمين أَنَّهَا لَا تَكُونُ .

قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ أَيْ أجبهم عَن سُؤَالِهِم وَقُل عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَيْسَ فِي إخْفَاءِ اللَّه وَقْتِهَا عَنِي مَا يُبْطِلُ نُبُوَّتِي ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ النَبِيُّ أَنْ يَعْلَمَ الْغَيْبَ بِغَيْر تَعْلِيمِ مَنْ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ

وَمَا يُدْرِيكَ أَيْ مَا يُعْلِمُك لَعَلّ السَّاعَة تَكُونُ قَرِيبًا أَيْ فِي زَمَانٍ قَرِيبٌ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ إلَى السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ، خَرَّجَه أَهْلِ الصَّحِيحِ .

وَقِيل : أَي لَيْت السَّاعَة تَكُونُ قَرِيبًا ، فَحَذَف هَاءِ التَّأْنِيثِ ذَهَابًا بِالسَّاعَة إلَى الْيَوْمِ ; كَقَوْلِه : إنَّ رَحْمَةَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ وَلَمْ يَقُلْ قَرِيبَة ذَهَابًا بِالرَّحْمَة إلَى الْعَفْوِ ، إذْ لَيْسَ تَأْنِيثُهَا أَصْلِيًّا وَقَدْ مَضَى هَذَا مُسْتَوْفًى .

وَقِيل : إنَّمَا أَخْفَى وَقْت السَّاعَة لِيَكُونَ الْعَبْدُ مُسْتَعِدًّا لَهَا فِي كُلَ وَقْتٍ .

ثَامِنًا

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17]

قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ السَّاعَة : القيامةُ ، وَهِي مُغيَّبةٌ ، السَّاعَة قيامُ الساعةِ مُغيَّبٌ عَن الخَلِيقةِ ، فَلَا يَعلمُ مَتَى السَّاعَةُ لَا مَلَكٌ مقرَّبٌ وَلَا نبيٌّ مرسلٌ ، يَعْنِي : عَلِمَهَا ثَقُلَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْنِي : حدثٌ عظيمٌ لَا يَعْلَمُ لَهُ أحدٌ توقيتاً ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الَّذِينَ فُتِحَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْمَعْرِفَةِ والحسابِ مَا فُتِحَ لَا يَعْلَمُونَ مَتَى السَّاعَةُ ، وَلَا يُمْكِنُ وَإِنْ قالَ أحدٌ شيئاً مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ الخَرْصُ ، ويُعلَم بِذَلِك كذبُ مَن يدَّعي أَنَّ السَّاعَةَ تقومُ كَذَا مَتَى كَذَا ، بَعْدُ كَذَا ، كلُّ هَذَا تَعْلَم قطعاً أَنَّه كذبٌ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ ﴾ ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ [القمر : 1] ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ الَّذِين لَا يُؤْمِنُونَ بالقيامة يقولونَ : "متى السَّاعَة ؟ مَتَى ؟ هاتِها" ؛ لجهلِهم وإصرارِهم عَلَى الْبَاطِلِ وَالْكُفْرَ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾

لأَنَّهم لَا يخافونَ مِنْهَا ، يُكذَبون بِالْبَعْث والنشورِ ، وَيَقُولُون : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : 82]

تاسِعًا

﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ الْمَعَارِج : 6 , 7]

أَنَّ سَبَبَ سُخْرِيَة الْمُشْرِكِين والمشككين فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، أَنَّهُم يَرَوْنَه بعيداً ، يَرَوْنَ الْعَذَابَ بعيداً ، وَالْمَقْصُود بِالْبُعْد هُنَا أَمَّا أَنْ يَكُونَ : أَنَّهُم يستبعدونه بِعُقُولِهِم ونظرتهم ؛ أَنَّهُ بَعْدَمَا نَمُوت ونبلى وَنَتَحَوَّل إِلَى رَمِيمٌ وَتَتَفَرَّق الْعِظَام وَاللَّحْم وننددرس تُبْعَث مِنْ جَدِيدٍ ؟ ! هَذَا بَعِيدٌ . وَلِهَذَا كَانُوا يَقُولُونَ : ((أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ))[ق : 3] ، مُسْتَبْعَد بِعُقُولِهِم الكليلة الضَّعِيفَة .

أَوْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ : أَنَّهُم يَرَوْنَه بعيداً فِي الْوَقْتِ فِي الزَّمَانِ ؛ وَلِذَلِكَ لَا يُقِيمُونَ لَه وزناً ؛ لِأَنَّهُم مَشْغُولُون بِالشَّيْء الْقَرِيبُ وَهُوَ الدُّنْيَا .

وَالْمَقْصُود عَلَى كُلّ حَالٍ : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْم لَمْ يُقِيمُوا لَه وزناً وَلَا شأناً ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ((وَنَرَاهُ قَرِيبًا)) يَعْنِي فِي الْوَقْتِ ، وَإِنْ كَانَ فِي نَظَرِهِمْ بعيداً لاستعجالهم ، إِلَّا أَنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى قَرِيبٌ وَقُلْنَا إِنَّ الْمَاضِيَ وَالْحَاضِر وَالْمُسْتَقْبَل عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَمْرٌ وَاقِعٍ فِي عِلْمِهِ .

وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ((كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً))[الأحقاف : 35] ، سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ ، ((إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ))[الأحقاف : 35] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ((كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا))[النازعات : 46] ، يَعْنِي : السَّاعَة ((لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا))[النازعات : 46] ، وَحَكَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ طَه لِمَا يَتَسَاءَلُون ويتخافتون بَيْنَهُم : كَم لبثنا فِي الدُّنْيَا ؟ كَم مَكَثْنَا ؟ ((إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا))[طه : 103] ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ((نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا))[طه : 104] ، يَعْنِي : وَاحِدٍ يَقُولُ : أَيْنَ هَذِهِ الْعَشْرِ ؟ لِمَاذَا ؟ لِأَنَّ هَذِهِ رَاحَت وَصَارَت شيئاً قديماً ، ودائماً الْأَشْيَاءِ الَّتِي مَضَتْ عِنْدَ الْإِنْسَانِ كَأَنَّهَا لَا شَيْءَ ، ((إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا))[طه : 104] ، ((قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا))[المؤمنون : 113] ، بَل ((أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ))[المؤمنون : 113] ، لَيْس يوماً كاملاً ، ((بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادَيْنَ))[المؤمنون : 113] ، إِذَا مَا كُنَّا صَادِقِينَ فِي كَلَامِنَا أَسْأَل الْعَادَين اللَّذَيْن يُحْصَوْن ويضبطون الْأُمُور ، يَعْنِي :

هُم مُصَدَقُون أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَن مكثهم فِي الدُّنْيَا كَانَ يوماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ((وَنَرَاهُ قَرِيبًا)) يَعْنِي : إِذَا جَاءَ تَغَيَّرَت الْمَوَازِين وَالْحِسَابَات عِنْدَ هَؤُلَاءِ النَاس تغيراً كبيراً . .

تـوَقُّف الزَّمَن عِنْد الْأَمْوَات

فَحَقِيقَة أَنَّ الْمَوْتَى لَا يَشْعُرُونَ بِالزَّمَن تَدُلُّ عَلَى انْعِدَام (مرور) الزَّمَن بِالنِسْبَةِ لَهُمْ ، وَإِذَا صَدَّقْنَا بِذَلِك فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَى أَمَّا لَا يَشْعُرُونَ بِالْمَكَان (ولذلك فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بالزمان) أَو بِأَنَّهُمْ لَا يحتويهم مَكَان (وبذلك لَا يحتويهم زمان) ، وَالِاحْتِمَالُ الثَّانِي يَعْنِي إِمَّا إِنَّهُمْ يُسَبَحُونَ فِي فَضَاءٍ (لا–مكان) أَوْ أَنَّهُمْ يَتَحَرَّكُون بِسُرْعَة عَالِيَة (تعادل سُرْعَة الضَّوْء أَو تَقْتَرِب مِنْهَا ، حَيْث يَتَوَقَّف الزمن) . وَالِاحْتِمَال الْآخَرُ هُوَ وُجُودُ أَرْوَاحُ الْمَوْتَى فِي مَكَان يَتَعَطَّل فِيه الْبُعْد الزمني . فِي مَا يَلِي ، سَوْف نَقُول (و الْعِلْم لله) بِأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الِاحْتِمَالَاتِ يُمْكِنُ أَنْ تكُونَ صَحِيحَةً .

أولاً ، فالموتى لَا يَشْعُرُونَ بِالْمَكَان ، أَيْ اللَّحْدِ الَّذِي يَسْكُنُونَه ، لِأَنَّهُم أَجْسَاد مَيْتَة خَالِيَةً مِنْ الرُّوحِ ، وَلِذَلِك فَهَذِه الْأَجْسَاد لَا تَشْعُرُ ، كَمَا يَقُولُ الْحَقَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْآيَةِ 22 مِنْ سُورَةِ فَاطِر "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي

الْقُبُورِ" . وَحَتَّى وَلَوْ قُلْنَا بِأَنَّ أَرْوَاحَهُم تَكُونُ مَعَهُمْ بِشَكْل غَيْرُ دَائِمٍ (أي مِنْ حِينِ لآخَرَ ، حَيْثُ إِنَّهُمْ أحياناً يَسْمَعُون ، كَما يَدُلُّ مثلاً حَدِيث "السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَار قَومٍ مُؤْمِنِينِ وإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّه بِكُمْ لاحِقُونَ ، ودِدْتُ أَنَّا قَدْ رأَيْنَا إِخْوانَنَا") ، فَهَذَا أيضاً لَا يَعْنِي أَنَّهُمْ سيشعرون بِالزَّمَن ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِالْمَكَان ، فَالزَّمْن بِالنَسْبَةِ لَهُمْ مُتَوَقَفٌ لِأَنَّ الْمَكَانَ مُتَوَقَفٌ ، أَيْ لَا يَتَغَيَّرُ بِالِانْتِقَالِ مِنْ مَكَان لِآخَر ، كَما يَفْعَلُ الْإِحْيَاء ، مِمَّا يُشْعِرُهُم بِمُرُورِ الزَّمَنِ ، وأيضاً لِأَنّ الْأَمْوَات لَا يَشْعُرُونَ بالدورة اليَوْمِيَّة لِلْوَقْت (من الصَّبَاحِ إِلَى المساء) وَلَا بالدورة الأُسْبُوعِيَّة وَلَا غَيْرِهَا ، فَالزَمْن بِالنَسْبَةِ لَهُمْ مُتَوَقَفٌ ، هَذَا طبعاً إِنْ كَانُوا يَشْعُرُون فِي إِلْحَادِهِم ، بِأَيّ طَرِيقَة .

ثانياً ، يُمْكِن أيضاً الْقَوْل بِأَنَّ الْمَوْتَى لَا يحتويهم مَكَان مُعَيَّنٍ ، فَأَجْسَادُهُم الْمَيْتَة راقدة فِي ألحادها ، وَأَمَّا أَرْوَاحَهُم ، الَّتِي تُشْعَرُ ، فَهِيَ لَا تُوجَدُ فِي مَكَان مُحَدَّد الْمَعَالِم وَالْإِبْعَاد حَتَّى تُشْعِر بِمُرُورِ الزَّمَنِ مَعَ تَغَيُّرِ مَعَالِم الْمَكَان . وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تُسَبَحَ فِي الْفَضَاءِ وَتَسِير بِسُرْعَة عَالِيَة جداً ، شَبَّهَهَا "العائدون مِن الموت" ، كَما يُسَمَيهم الْبَعْض ، بِسُرْعَة الرِيح ، وَلَعَلَّهُم يَقْصِدُون سُرْعَة الضَّوْء (لأن "سرعة الريح" هِي مُضَرَب الْمِثْلِ فِي السُّرْعَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ . يَقُولُون "أسرع مِن الريح" و"أسرع مِن البرق" و "أسرع مِن الطّرف" ، وَالشَّاهِد هُنَا هُوَ أَنْ الْبَرْقَ ضَوْء

وَكَذَلِك الطّرف ، وَهُو الْبَصر ، مُتَعَلّقٌ بالضوء) . وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَرْوَاحِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، كَما تَنُصّ الْآيَة 29 مِنْ سُورَةِ الْحجر "إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" ، وَاللَّهُ تَعَالَى نُور ، كَما يَصِف ذَاتِه العليَّة فِي الْآيَةِ 33 مِنْ سُورَةِ النُّورِ "اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" .

وَرُبَّمَا كَانَ عَدَمُ إِحْسَاس الْمَوْتَى بِالزَّمَن نَاتِجٌ عَنِ انْعِدَام الزَّمَنِ فِي الْحَيَز الْمَكَانِيّ الَّذِي تُوجَدْ أَوْ تَتَحَرَّك فِيهِ الْأَرْوَاحُ ، حَيْثُ إِنَّ الْأَرْوَاحَ تَتَحَرَّك بِسُرْعَة الضَّوْء (وهي 300000 كِيلُومِتر فِي الثانية) ، وَذَلِك لِأَنَّهَا نُورٍ مِنْ رَبَ الْعِزَّةِ وَالْجَلَال ، أَيْ إِنْ الزَّمَنَ يَتَوَقَّفُ لِأَنَّ السُّرْعَة هِي سُرْعَة الضَّوْء ، وَهَذَا مِنْ مَبَادِئ النَّظَرِيَّة النَسْبِيَّة (no time) . وَلَكِن الْأَرْوَاح تَتَحَرَّك بِاتّجاه بَارِيهَا ، وَعَرْشُه جَلَّتْ قُدْرَتُهُ فَوْق السَّمَاوَات وَالْجَنَّة ، يَقُولَ الرَّسُولُ الْكَرِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ" . وَلَكِن حَرَكَة الْأَرْوَاح ، رَغِم سرعتها ، إِلَّا أَنَّهَا تُقْطَع مَسَافَة كَبِيرَة جداً ، حَيْثُ إِنَّ عَرَضَ الْكَوْن يَقْتَرب مِن 93 مليار سُنَّةٌ ضَوْئِيَّةٌ (فما بَالُك بِطُولِه وَارْتِفَاعُه ؟) ، وَرُبَّمَا تَكُونُ أَرْضَنَا فِي وَاحِدٍ مِنْ أَكوان مُتَعَدِدَة (وليس كوناً واحداً فَقَط ،

كَما يَظُنّ البعض) . وَإِذَا أَخَذْنَا بِعَيْنِ الاعْتِبارِ حَقِيقَةً إِنْ الْكَونِ فِي اتَسَاع دَائِمٌ (يقول اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ 47 مِنْ سُورَةِ الذَّارِيَات "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ") ، فَإِن الْمَسَافَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْأَرْوَاح أَن تَقْطَعُهَا أيضاً فِي تَزَايُدٍ دَائِمٌ ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي حَرَكَةٍ دَائِمَة مُنْذُ لَحْظَةِ مَوْت الْأَجْسَاد إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَلَكِنْ لِأَنَّ سُرْعَة حَرَكَة الْأَجْسَاد هِي سُرْعَة الضَّوْء ، فَإِن الزَّمَن يَنْعَدِم ، وَلِذَلِك فَإِن الْمَوْتَى لَا يَشْعُرُونَ بِمُرُور الْوَقْت ، كَما يُشْعِرُ بِهِ الْإِحْيَاءُ .

وَهَذَا مَا نَفْهَمُهُ مِنْ شَهَادَاتِ العائدين مِنْ الْمَوْتِ ، حَيْث يُجمعون عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ أَجْسَادُهُم ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَرْوَاحَهُم هِيَ الَّتِي كَانَتْ تَتَحَرَّك وَتَرَى (وربما اِرْتَبَط هَذَا بِحَقِيقَة ارْتِبَاط الْبَصَر بِالرُّوح ، حَيْثُ يَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "اِنَّ الرُّوحَ اِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ") . وأيضاً يَقُول مُعْظَمُهُم أَن أَرْوَاحَهُم كَانَتْ تَسِيرُ (أو أَنَّهُمْ كَانُوا يسيرون) بِسُرْعَة عَالِيَة جداً فِي فَرَاغ هائِلٌ أَوْ فِي نَفَقَ فِي آخِرِهِ ضَوْء ، حَيْث يَكُونُون يفكرون بِالْمَكَانِ الَّذِي هُمْ فِيهِ والوجهة الَّتِي يَتَحَرَّكُون باتجاهها ، وَهُمْ فِي خَوْفِ وَهلَع شَدِيدٌ (و لَا يفكرون بَابٍ أَوْ بِأُمّ أَو بِأَخ أَوْ بِمَالٍ أَوْ بِوَظِيفَة أَوْ بِمِلْكِ . قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ 34–37 مِنْ سُورَةِ عَبَس "يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلَ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ") . وَبَعْضهمْ مِنْ

يُشْعِر بِسَعَادَة غَامِرَةٌ وَهُوَ يُشَاهِدُ "النور" الَّذِي يَرَاهُ ، وَلَكِن هُنَاكَ مَنْ يَبْلُغُهُم بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ عِنْدَهُم مُتَّسَعٌ مِنْ الْعُمْرِ وَإِنْ عَلَيْهِم الرُّجُوع ، وَلَكِن الْأَحْدَاثَ فِي هَذِهِ التَّجْرِبَة تَحْدُث بِسُرْعَة عَالِيَة جداً . وَهَذِه السُّرْعَة الْعَالِيَة تَدُلُّ عَلَى بُطْءِ الزَّمَنِ أَوْ حَتَّى تَوَقُّفِه ، أَيْ إِنْ الْبُعْد الزمني قَدْ تَمَ تَعْطِيلَه (فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي يَقُولُ بَعْض "العائدين" مِنْهُ أَنَّهُمْ رَأَوْا فِيه أناساً كَانُوا يعرفونهم) ، فَهَلْ هَذَا الْمَكَانِ هُوَ مَا نَعْرِفُهُ بالبرزخ ؟ رُبَمَا هُو ، لِأَنَّ هَذَا أيضاً يَتَّفِقَ مَعَ الِاحْتِمَالِ الثَّالِثُ وَهُوَ أَنْ أَرْوَاحَ الْمَوْتَى تُوجَدُ فِي مَكَان يَتَعَطَّل فِيه الْبُعْد الزمني ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَكَانِ (كالجنة ، وَالنَار ، وَالْعِيَاذ بالله) لَا تَسْرِي عَلَيْه قَوَانِين الزَّمَن الَّتِي نَعْرِفُهَا .

إِحْدَاث الْقِيَامَة سَتَقَع بِالْمُسْتَقْبَل وَلَكِن الْحَدِيث بِصِيغَةِ الْمَاضِي

مِنْ خِلَالِ الْآيَات التَّالِيَة . . ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلْقَاء اللَّه . حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُم السَّاعَة بَغْتَة . قَالُوا يَا حسرتنا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ (الأنعام : 31) . وَفِي آيَةِ أُخْرَى ﴿ وَوَضَع الكتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِين مُشْفِقِين مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا . وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ (الكهف : 49) . وَفِي آيَةِ ثَالِثَةٌ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمِلْك صَفًّا صَفًّا ﴾ (الفجر : 22) . . فَمَاذَا تُلَاحِظ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ

وَغَيْرِهَا الْكَثِير الْكَثِيرِ مِنْ الْآيَاتِ الْمُشَابَهَة ؟ رُبَّمَا الْمُلَاحَظَة الأبرز إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَحَدَّثُ فِي الْآيَاتِ عَنْ مُشَاهَدٌ وَإِحْدَاث سَتَقَع بِالْمُسْتَقْبَل وَلَكِن الْحَدِيث بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، أَي كَأَنَّمَا تِلْكَ الْأَحْدَاثِ وَالْمَشَاهِد قَدْ وَقَعَتْ وَانْتَهَت ! فَلِمَاذَا لَم يَسْتَخْدِم الْقُرْآن صِيغَة الْمُسْتَقْبَل عَنْ إحْدَاثِ لَمْ تَقَعْ بَعْدَ ، كَانَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى بدلاً مِن ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهُ فَلَا تستعجلوه ﴾ (النحل : 1) وَيَقْصِد يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِتَكُون (سيأتي أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تستعجلوه) أَلَيْسَت الصَيغَة الثَّانِيَةُ بِالنَسْبَةِ لَنَا أَقْرَبَ لِلْفَهْمِ والتقبل ؟ نَحْن الْبَشَر نَفْهَم أَنَّ أَيَّ فَعَلَ يُحَدَث الْآنَ مَعَ الْكَلَامِ نُسَمَيه فعلاً مضارعاً أَوْ حَاضِرًا . وَأَيّ فَعَل تَمّ وَانْتَهَى قَبْلَ الْكَلَامِ ، نُسَمَيه فعلاً مَاضِيًا ، وَأَيّ فَعَل سَيَأْتِي فِي قَادِمِ الزَّمَن ، أَوْ بَعْدَ الْكَلَامِ ، نُسَمَيه مستقبلاً . وَحِين تَتَأَمَّل عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ سُورَة المسد ، وَفِيهَا بَيَان الْمَصِير النهائي لِأَبِي لَهَبٍ وَزَوْجَتِه وَأَنَّهُمَا فِي النَارِ ، قَد تستغرب كَمَا اِسْتَغْرَب مَنْ سَمِعُوا بِالسُّورَة حِينَذاك . إذْ كَيْفَ يُقَرَر الْقُرْآن نِهَايَةٌ شَخْصٌ لَا يَزَالُ حياً هُوَ وَزَوْجَتُهُ ، بَل وَيُقَرَر ويحسم نهايتهما أَو مصيرهما الْأَخِير يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ بَعْدَ حِينٍ مِنَ الزَّمَنِ قَصِيرٌ ؟ الْأَمْرَ قَدْ يربك بَعْضُ الشَّيْءِ مِثْلَمَا قِيل وَحَدَّث يَوْمِهَا ، مِنْ أَنَّ أَبَا لَهَبٍ كَانَ بِإِمْكَانِه نَقَض الْقُرْآن وَأَنَّهُ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا مِنْ تَأْلِيفِ النَبِيُّ الْكَرِيمُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَبَر إعْلَان إسْلَامِه وَلَوْ ظاهرياً . . لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ الْوُضُوح لِنِهَايَتِه وَزَوْجَتِه ، لَم يُسْلِمَا وَمَاتَا كَافِرَيْن

فَعلِمَ النَّاسُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كلاماً مِنْ عِنْدِ بِشْرٍ . هَل نَحْن نَعيش الْمَاضِي ؟ حَتَّى لَا ينفرط خَيْط الْمَوْضُوع مِنَّا ، دَعُونِي ارْجِعْ إِلَى النُّقْطَة الرَّئِيسِيَّة لِمَوْضُوع الْيَوْم ، وَأَقُول : هَلْ مَعْنَى هَذَا بَعْدَ كُلَ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ ، أَنَّنَا مَعْشَرَ الْإِنْسِ وَالْجِنَ وَبَقِيَّة الْمَخْلُوقَات وَالْكَائِنَات ، نَعيش فِي الْمَاضِي ؟ وَإِن قِصَّة الْخَلْق وَالْحَيَاة مُنْذُ البدايَة حَتَّى النِهَايَة ، قَدْ انْتَهَتْ فعلاً بِالتَّمَام وَالكَمال وبالتالي حِين يَتَحدَّث الْقُرْآنِ عَنْ إِحْدَاثِ مستقبلية بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، هَلْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَيَاةَ انْتَهَت ، وَإِن حَيَاتِنَا الدُّنْيَا الْآن أَشْبَه بفيلم سِينَمائِي طَوِيلٌ سيتوقف وَيَنْتَهِي بَعْدَ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ ، طَالَ أَمْ قَصُرَ ؟ بِالنِسْبَةِ لَنَا نَحْن الْبَشَر ، وَلِأَنّ حَيَاتِنَا مُرْتَبِطَةٌ بِشَيْء اسْمُه الزَّمَن ، قُمْنَا بِتَقْسِيم الزَّمَن إِلَى مَاض وَحَاضِرٌ وَمُسْتَقْبَل . مَاض نحزن عَلَى فَوَاتِه ، وَحَاضِرٌ نَعيش لَحَظَاتُه ، وَمُسْتَقْبَل نَحْمِل هَمُّه . نصدّق الْمَاضِي أَكْثَر ونتعظ وتعلم مِنْه ، ونحاول أَن نَعيش الْحَاضِر بِكُلّ تَفَاصِيلَه ، لِكِنَنَا تهيب أَو نَخَاف ونشكك فِي الْمُسْتَقْبَل . وَقَد تتساءل عَنْ سَبَب تَخَوّفْنَا مِنْ الْمُسْتَقْبَل ، الَّذِي أَجِدْه معروفاً دُونَ حَاجَةٍ لِكَثِير شروحات وتفصيلات . الْمُسْتَقْبَلُ بِالنِسْبَةِ لَنَا غَيْب وَمَجْهُولٌ ، وَالْإِنْسَان بِفِطْرَتِه يتوجس خِيفَةً مِنْ الْمَجْهُول . وَهَكَذَا هِيَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وبشكل مُخْتَصَر . الْمُسْتَقْبَل عِنْدَ اللَّهِ مَاض التَّقْسِيمَات الزَّمْنِيه الَّتِي فِي حَيَاتِنَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ عِنْدَ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ . إِذ حِين يَتَحدَّث اللَّهِ عَنْ الْمُسْتَقْبَل بِصِيغَةِ

الْمَاضِي ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَذْكُر لَك الْحَقَائِق الَّتِي سَتَقَع لَا مَحَالَة ، بِغَضّ النَّظَر عَنْ الْوَقْتِ ، مستقبلاً قريباً كَانَ أَمْ بَعِيدًا . أَنَّ مَا يَذْكُرُهُ الْقُرْآن مِنْ وَقَائِع وَإِحْدَاث مستقبلية ، هِيَ وَاقِعَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا . خُذ مثالاً عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيب فِي قَوْلِه تَعَالَى ﴿ غُلبت الرّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبَهُم سيغلبون ، فِي بِضْعَ سِنِينَ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبل وَمِنْ بَعْدِ ﴾ (الروم 1–4) . أَمَر مُسْتَقْبِلِي قَرِيبٌ بِالنِسْبَة لِلَّذِينَ كَانُوا وَقْت نُزُول الْآيَات تِلْك . وَقَدْ حَدَّثَ فعلاً إِنْ غَلَبَ الفرسُ الرومَ ، ثُمَّ بَعْدَ سَنَوَات تَتَغَيَّر الظُّرُوف ، فيتغلب الرومُ عَلَى الْفَرَسِ وَيَفْرَح الْمُؤْمِنُون ، كَمَا جَاءَ فِي السُّورَةِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ إِذَا قَالَ أمراً فَإِنَّه سَيَكُون دُون أَدْنَى رَيْب ، وَهَذِه حَقِيقَةً لَا جِدَالَ عَلَيْهَا . الأَمْرِ نَفْسِهِ يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيد – بِالنِسْبَةِ لَنَا – كَإِحْدَاث آخِرِ الزَّمَانِ ثُمّ الْقِيَامَةِ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ حَيَاةِ الْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ وَالنَارِ . كُلُّهَا إِحْدَاث وَوَقَائِع مَذْكُورَةٌ فِي الْقُرْآن بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، عَلَى رَغْمِ أَنَّهَا إِحْدَاث مستقبلية سَتَقَع دُون أَدْنَى شَكَّ . مَا يُمْكِنُ إِيجَازُه هَا هُنَا ، أَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ بِالنِسْبَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ مَاض . لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُحْكِمُه زَمَن وَلَا مَكَان . إِنَّ تفرّد الْقُرْآن بِذِكْر إِحْدَاث الْمُسْتَقْبَل ووقائعه وَكَأَنَّمَا وَقَعَت وَانْتَهَت ، فَهُو سِرّ مِنْ أَسْرَار الْإِعْجَاز فِي الْقُرْآن . إِذْ لَا أَحَدَ مِنْ الْجِنَ وَالْإِنْسِ يَقْدِر وَيَجْزِم لَك بِوُقوعِ أَمْرٍ مُسْتَقْبِلِي بِكَافَّة تَفَاصِيلَه الدَّقِيقَة سِوَى مَنْ لَهُ السَّيْطَرَة التَّامَّة

الْمُطَلَّقَةِ عَلَيْهِ ، وتلكم هِيَ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّة . لُبّ الْمَوْضُوع اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِأَنّ عِلْمه يَسْبق كُلّ شَيْءٍ ، يَعْلَم بِأَمْرِنَا مُنْذ أَن خَلَقْنَا فِي عَالَم الذَّر ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ قَرَرَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الْعَالِم إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَرَأَى أَفْعَالِنَا كُلُّهَا مِنْ لَحْظَة الْوِلَادَةِ حَتَّى الْمَمَاتِ ، مروراً بِعَالِم الْبَرْزَخ وَانْتِهَاء بمصائرنا النَهَائِيَّة يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَيْث عَالِمٌ الْخُلُود ، جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ . فَكَتَب كُلُّ ذَلِكَ فِي لَوْحَة الْمَحْفُوظ . أُسْلُوب الْقُرْآن فِي ذِكْر إِحْدَاث مستقبلية بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ . وَرُبَّمَا إِرَادَة سُبْحَانَه بِتِلْك الطَّرِيقَة ، لِأَنَّ الْمَاضِيَ لَهُ تَقْدِير عِنْدَ الْإِنْسَانِ ، لَا يُشَكَّكُ فِيهِ وَلَا يَخْشَاه كَالْمُسْتَقْبل ، وَخَاصَّةً إِنْ كَانَ هُوَ نَفْسُهُ قَدْ عَاصَر وعايش أَحْدَاثِه ، وبالتالي يَكُونُ ذِكْرُ الْأَحْدَاثِ المستقبلية فِي الْقُرْآنِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، ذَا أَثَر أَبْلَغُ وَأَكْثَرُ وقعاً بِالنَّفْس الْبَشَرِيَّة . وَحِين يَذْكُر لَك اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أمراً سَيَحْدُثُ فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَارِ أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّه سَيَحْدُثُ دُونَ أَدْنَى رَيْب ، بَلْ هُوَ بِمَثَابَةِ وَعَد إِلَهِي ، مِمَّن بِيَدِه مَقَالِيد السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَالسَّيْطَرَة التَّامَّة الْمُطْلَقَةِ عَلَى الْأُمُورِ ، عَلَى أَنَّهُ أَمَرَ وَاقِع لَا مَحَالَةَ . الْعِبْرَة مِنْ كُلّ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ يَكُونَ لَدَى الْإِنْسَان مِنَّا يَقِين تَامّ بِتِلْك الْحَقِيقَة ، لِتُفْعَل تِلْكُم الْحَقِيقَة فِعْلِهَا بِالنُّفُوس ، وتدفعها للاستعداد والتزود بِكُلّ مَا يُؤَدِي لِنِهَايَة سَعِيدَة كَمَا يُرِيدُهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ . .

الأدلة الدِّينِيَّةِ عَلَى قُرْبِ القيامة

ثَانِيًا

مِنْ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَة

ثَبتَ بِالسُّنَّةِ النَبوِيَّة الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ أَنَّ هُنَاكَ عَلَامَات وأشراطا تُسْبَق قِيَامِ السَّاعَةِ ، مِنْهَا مَا ظَهَرَ وَانْقَضَى ، كبعثة النَّبِيّ (صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) وَمَوْتِه ، وانشقاق الْقَمَر وَغَيْرِهَا ، وَمِنْهَا مَا ظَهَرَ وَلَا يَزَالُ يَكْثُر ، كَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الرُّعَاة يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ ، وَكَثْرَة الْهَرْج والمرج ، وَانْتِشَار الزِّنَا .

وَمِنْهَا مَا لَمْ يَظْهَرْ بَعْدَ كعلامات السَّاعَة الْكُبرَى ، وَمِنْهَا « نُزُول عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَخُرُوج الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا » .

وَمُنْتَهَى عِلْمُ السَّاعَةِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) عَنْ وَقْتِ السَّاعَة –كما فِي جَاءَ حَدِيثٌ جِبْرِيلَ الطويل– قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) : « مَا الْمَسْؤُول عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ »

عَلَامَات السَّاعَة الصُّغْرَى

أَوَّلًا : أَخْبَارُ النَبيّ (ﷺ) عَن الْغُيُوب المستقبلية

أَخْبَرَ النَبيُّ (ﷺ) بِمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَذَلِكَ مِمَّا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ الْغُيُوبِ المستقبلية ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، فَمِنْهَا :

مَا رَوَاهُ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَقَد خَطَبَنَا النَبيّ (ﷺ) خُطْبَةٍ مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ ، عِلْمِهِ مِنْ عِلْمِهِ ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ، إِنْ كُنت لَأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيَت ، فَاعْرِفْه كَمَا يُعْرَفُ الرَّجُلَ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآه فَعَرَفَه . (البخاري ، الصَّحِيح الْجَامِع ، رُقِم 6348) .

رَوَى أَبُو زَيْدٍ عُمَرُ بْنِ أَخْطَبَ الأَنْصَارِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَال : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) الْفَجْر ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ ، فَنَزَل ، فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ ، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا . فَهَذِه أَدِلَّة صَحِيحَةٌ عَلَى أَنَّ النَبيَّ (ﷺ) قَدْ أَخْبَرَ أُمَّتِه بِكُلَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فِيمَا يَخُصُّهُم .

وَلَا شَكَّ أَنَّ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، وَرُوِيَت بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ لِكَثْرَةِ مَنْ نَقَلَهَا مِنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

تَدُلّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَة وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ ودنوها ، فَإِنَّ ظُهُورَ أَكْثَرَ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ دَلِيلٌ عَلَى قُرْبَهَا ، وَعَلَى أَنَّنَا فِي آخِرِ أَيَّامِ الدُّنْيَا

ثَانِيًا : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ، وَيُشِيرُ بِأُصْبُعَيْهِ فَيَمُدُّهُمَا » .

(عياض ، الشَّفَا ، 1/650)

مُجْمَلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الصُّغْرَى

تَحْدُث الْعُلَمَاءِ عَنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، وَإِلَيْك أَهَمَهَا مِمَّا ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ النَبوِيَّة مِنْهَا :

بَعَثَهُ النَبِيُّ (ﷺ) .

مَوْتِ النَبِيَ (ﷺ) .

فَتْحَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

طَاعُونِ عَمَوَاسَ .

اسْتِفَاضَة الْمَال ، وَالِاسْتِغْنَاء عَنِ الصَّدَقَةِ .

ظُهُور الْفِتَن ، كَظُهُورِهَا مِنْ الْمَشْرِقِ ، وَمَقْتَل عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَوْقِعُه الْجَمَل ، وَمَوْقِعُه صَفَّيْن وَظُهُور الْخَوَارِج ، وَمَوْقِعُه الْحَرَّة ، وَاتِّبَاع سُنَن الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ .

ظُهُور مُدَّعِي النُّبُوَّةِ .

ظُهُور نَار الْحِجَاز .

انْتِشَار الْأَمْن .

قِتَال التُّرْك .

قِتَال الْعَجَم .

ضَيَاع الْأَمَانَة .

قَبْضَ الْعِلْمِ ، وَظُهُورِ الْجَهْلِ .

كَثْرَة الشُّرَط وَأَعْوَانِ الظَّلَمَةِ .

ٱنْتِشَار الزِّنَا .

ٱنْتِشَار الرِّبَا .

ظُهُور الْمَعَازِف وَاسْتِحْلَالُهَا .

كَثْرَةُ شُرْبِ الْخَمْرَ وَاسْتِحْلَالُهَا .

زَخْرَفَةُ الْمَسَاجِدِ ، وَالتَّبَاهِي بِهَا .

التَّطاوُل فِي الْبُنْيَانِ .

أَنْ تَلِدَ الأَمَة رَبَّتَهَا .

كَثْرَة الْقَتْل .

تَقَارَب الزَّمَان .

تَقَارَب الْأَسْوَاق .

ظُهُور الشِّرْكِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ .

ظُهُور الْفُحْش ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ ، وَسُوء الْجِوَار .

تَشَبَّب الْمَشْيَخَة .

كَثْرَة الشُّحّ .

كَثْرَة التِّجَارَة .

كَثْرَة الزَّلَازِل .

ظُهُور الْخَسْف وَالْمَسْخ وَالْقَذْف .

ذَهَاب الصَّالِحِين .

ارْتِفَاعَ الْأَسَافِلِ .

التَّحِيَّة لِلْمَعْرِفَة : أَيْ لَا يَرْمِي الْمَرْء السَّلَامِ إِلَّا عَلَى مَنْ يَعْرِفُهُ .

الْتِمَاسِ الْعِلْمِ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ .

ظُهُور الكاسيات العاريات .

صَدَق رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ .

كَثْرَةِ الْكِتَابَةِ وَانْتِشَارِهَا .

التَّهَاوُن بِالسُّنَن الَّتِي رَغَّبَ فِيهَا الْإِسْلَامُ .

انْتِفَاخ الْأَهِلَّة .

كَثْرَة الْكَذِب ، وَعَدَم التَّثَبُّتُ فِي نَقْلِ الْأَخْبَار .

كَثْرَة شَهَادَةُ الزُّورِ ، وَكِتْمَان شَهَادَةَ الْحَقّ .

كَثْرَةَ النِّسَاءِ وَقِلَّةَ الرِّجَال .

كَثْرَة مَوْتَ الْفَجْأَةِ .

وُقُوع التَّنَاكُر بَيْنَ النَاسِ .

عَوْد أَرْضِ الْعَرَبِ مروجا وأنهارا .

كَثْرَة الْمَطَر ، وَقِلَّة النَبَات .

حَسَر الْفُرَاتِ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ .

كَلَام السّبَاع وَالْجَمَادَات لِلْإِنْسَان .

تَمَنّي الْمَوْتِ مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاء .

كَثْرَة الرُّوم ، وَقِتَالِهِم الْمُسْلِمِين .

فَتْح قُسْطَنْطِينِيَّة .

قِتَال الْيَهُود .

نَفْي الْمَدِينَة شِرَارِهَا ، ثُمّ خَرَابِهَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ .

بَعْث الرّيح الطَّيّبَة لِقَبْض أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ .

اسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَهَدْمِ الْكَعْبَةِ .

الدُّخَان

قَالَ تَعَالَى : ﴿فارتقب يَوْم تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَان مبين* يَغْشَى النَّاس هَذَا عَذَابٌ أليم﴾ [الدخان : 10-11] .

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَة وأشراطها الْعُظْمَى ظُهُور دُخَان قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ ، يَمْلَأُ الْأَرْضَ كُلُّهَا ، فَتُصْبِح كَبَيْت أَوْقَدِ فِيه ، فَيَأْخُذ بِالْمُؤْمِنِين كَالزُّكْمَة ، وَيَدْخُلُ فِي مَنَافِذ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ كُلَ مُسَمَعٌ مِنْهُم .

فَعَن حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ الْغِفَارِيَ أَنَّهُ قَالَ : اطَّلَعَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَال : « مَا تَذْكُرُونَ ؟ » قُلْنَا : نَذْكُر السَّاعَة ، قَال : « أَنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ ، فَذَكَر : الدُّخَان ، وَالدَّجَّال ، وَالدَّابَّة ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولِ عِيسَى بْنُ مَرِيمَ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، و3 خُسُوف : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ » . (الوابل ، أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، ص 344)

الخسوفات الثَّلَاثَة

وَهِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، جَاءَ ذِكْرُهَا فِي الْأَحَادِيثِ ضَمِن الْعَلَامَات الْكُبْرَى ، فَعَن حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَال : « أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا عَشْرُ آيَاتٍ . . (فذكر منها) وَثَلاثَةُ خُسُوفٍ ، خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ » .

وَهَذِه الْخُسُوف تَكُون عَظِيمَةٌ وَعَامَّة لِأَمَاكِن كَثِيرَةٍ مِنْ الْأَرْض ، فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ . وَقَدْ وُجِدَ عَبْرَ التَّارِيخِ الْخَسْف فِي مَوَاضِعَ ، وَلَكِنْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْخُسُوف الثَّلَاثَة قَدْرًا زَائِدًا عَلَى مَا وُجِدَ ، كَأَنْ يَكُونَ أَعْظَمُ مِنْهُ مَكَانًا وَقَدْرًا .

خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عَلَامَةً مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَة الْكُبْرَى ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ظُهُورِهِمْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ :

وَالْآيَات الدَّالَّةِ عَلَى ظُهُورِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ هِي :

قَالَ تَعَالَى فِي سِيَاقِهِ لِقِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ : ﴿قالوا ياذا الْقَرْنَيْن أَن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مفسدون فِي الْأَرْضِ فَهَل نَجْعَل لَك خَرجا عَلَى أَنَّ تُجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سدا* قَالَ مَا مَكَنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ردما* أَتُونِي زُبَرُ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصدفين قَال انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قطرا* فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَه نقبا* قَالَ هَذَا رَحِمَهُ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعد رَبِّي جَعَلَه دكاء وَكَان وَعد رَبِّي حقا* وَتَرَكْنَا بَعْضُهُم يَوْمَئِذ يَمُوج فِي بَعْضٍ وَنفخ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُم جمعا﴾ [الكهف : 94-99] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿حتى إِذَا فَتَحْتَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ ينسلون* وَاقْتَرب الْوَعْد الْحَقّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَار الَّذِينَ كَفَرُوا يَا ويلنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظالمين﴾ [الأنبياء : 96-97] .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَخَّر ذَا الْقَرْنَيْنِ الْمَلِك الصَّالِح لِبِنَاء السّد الْعَظِيم ، ليحجز يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ الْقَوْم الْمُفْسِدِين فِي الْأَرْضِ عَنْ النَاسِ ، فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ الْمَعْلُومِ ، وَاقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ ، اِنْدَكّ هَذَا السّدّ ، وَخَرَج يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بِسُرْعَة عَظِيمَةٌ ، وَجَمع كَبِيرٌ ،

لَا يَقِفُ أَمَامَهُ أَحَدٌ مِنْ الْبَشَرِ ، فماجوا فِي النَاسِ ، وعاثوا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَهَذِه عَلَامَةٌ عَلَى قُرْبِ النَفْخِ فِي الصُوَرِ ، وَخَرَاب الدُنْيَا ، وَقِيَام السَاعَة .

وَالْأَحَادِيثُ الصَحِيحَةُ الدَالَّةِ عَلَى ظُهُورِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ كَثِيرَةٌ مِنْهَا :

عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا يَقُول : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرَ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » وَحَلْق بِأُصْبُعِي الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا . قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتِ جَحْشٍ : فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ اِنْهَلَك وَفِينَا الصَّالِحُونَ ، قَال : « نَعَم ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ » . (الوابل ، أَشْرَاطِ السَاعَةِ ، ص 344) .

خُرُوج الدَابَّة

قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُم دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُم أَنَّ النَاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يوقنون﴾ [النمل : 82] .

فَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةِ جَاءَ فِيهَا ذِكْرُ خُرُوجِ الدَّابَّة ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ ، وَتَرَكِهِم أَوَامِرِ اللَّهِ ، وتبديلهم الدِينَ الْحَقَّ ، يَخْرُجُ لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ ، فَتَكَلَّم النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وقع القول﴾ : وَجَب الْوَعِيدَ عَلَيْهِمْ ، لتماديهم فِي الْعِصْيَانِ وَالْفُسُوق وَالطُّغْيَان ، وَأَعْرَاضِهِمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَتَرَكِهِم تدبرها ، وَالنُّزُول عَلَى حُكْمِهَا ، وانتهائهم فِي الْمَعَاصِي إِلَى مَا لَا تَنَجَّح مَعَهُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ ، وَلَا تَصَرُّفِهِم عَن غَيِهم تَذَكَّره ، يَقُول عَزَّ مَنْ قَائِلٍ فَإِذَا صَارُوا كَذَلِك : ﴿أخرجنا لَهُم دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ تكلمهم﴾ : دَابَّة تَعَقُّل وَتَنْطِق ، وَالدَّوَابّ فِي الْعَادَةِ لَا كَلَامَ لَهَا وَلَا عَقْلَ ، لِيَعْلَم النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ آيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيَ (ﷺ) قَال : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا : الدَّجَّال ، وَالدُّخَان ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَأَمَر الْعَامَّة ، وخويصة أَحَدُكُم » .

نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ثَابِتٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةُ الْمُتَوَاتِرَة ، وَذَلِكَ عَلَامَةُ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَة الْكُبْرَى :

أ- الْأَدِلَّةِ مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ولما ضَرْبَ ابْنِ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمِك مِنْه يَصُدُّون وَقَالُوا آَلِهَتنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَك إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدَ أَنْعَمْنَا عَلَيْه وَجَعَلْنَاه مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَو نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنْكُم مَلَائِكَة فِي الْأَرْضِ يخلفون وَأَنَّه لِعِلْم لِلسَّاعَة فَلَا تمترن بِهَا واتبعون هَذَا صِرَاط مستقيم﴾ [الزخرف : 57-61] .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ جَاءَتْ فِي الْكَلَامِ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَجَاءَ فِي آخِرِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : أَيْ نُزُولَ ﴿وإنه لِعِلْم للساعة﴾ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَامَةٌ عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ . (الوابل ، أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، 58) .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وقولهم أَنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شَبَّه لَهُمْ وَإِنْ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عَلِمَ إِلَّا إِتْبَاعُ الظَّنَ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَأَنَّ مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : 157-159]

فَهَذِهِ الْآيَاتُ ، كَمَا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ لَمْ يُقْتُلُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَم يصلبوه ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إذ قَال الله﴾ [آل عِمْرَان : 55] فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ سيؤمن بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِهِ ، وَقَبْل مَوْته ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِك الْأَحَادِيث الْمُتَوَاتِرَة الصَّحِيحَة .

وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيّ ، وَقَدْ ثَبتَ فِي (الصحيحين) عَنْ النَّبِيّ (ﷺ) أَنَّهُ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلا ، وَإِمَامًا مُقْسِطًا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ » .

وَثَبَتَ فِي (الصحيح) عَنْهُ أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَى الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، وَأَنَّهُ يُقْتَلُ الدَّجَّال ، وَمَن فَارَقَتْ رُوحُهُ جَسَدَهُ ، لَمْ يُنْزِلْ جَسَدِهِ مِنْ السَّمَاءِ ، وَإِذَا أُحْيِي ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ قَبْرِهِ . (الوابل ، أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، ص 67) .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنِي مُتَوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِرُكَ مِنْ الَّذِينَ كفروا﴾ [آل عِمْرَان : 55] فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْنِ بِذَلِكَ الْمَوْت ، إِذْ لَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمَوْت ، لَكَان عِيسَى فِي ذَلِكَ كَسَائِرِ الْمُؤْمِنِين ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبِض أَرْوَاحَهُم ، ويعرج بِهَا إِلَى السَّمَاء ، فَعُلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ

خَاصَيَّة ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : وَلَوْ كَانَ قَدْ فَارَقْتَ رُوحُهُ ﴿ومطهرك مِنْ الَّذِينَ كفروا﴾ ، لَكَان بَدَنِهِ فِي الْأَرْضِ ، كَبدَن سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، أَوْ غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿وما قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شَبَّه لَهُمْ وَإِنْ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عَلِمَ إِلَّا إِتْبَاعُ الظَّنِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إليه﴾ [النساء : 157-158] فَقَوْلُهُ هُنَا يُبَيِّنَ أَنَّهُ رَفَعَ بَدَنِه ﴿بل رَفَعَهُ اللَّهُ إليه﴾ ، كَما ثَبتَ فِي (الصحيح) أَنَّهُ يَنْزِلُ بِبَدَنِه وَرُوحِه ، إذَا لَوْ أَيَّد مَوْتِه لَقَال : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ بَلْ مَاتَ .

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وإن مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ موته﴾ [النساء : 159] قَال : قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى بْنُ مَرِيمَ .

ب- وَالْأَدِلَّةَ مِنْ السُّنَّةِ عَلَى نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَةٌ ومتواترة مِنْهَا :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَع الْحَرْب ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ ؟ » .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِ ، ظَاهِرِين ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَال : فَيَنْزِلُ عِيسَى بْنُ مَرِيمَ فَيَقُولُ لَهُ أَمِيرُهُم : صَلَ لَنَا ، فَيَقُول : لَا ، أَنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ ، تَكْرِمَةُ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةِ » .

وَقَدْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثِ فِي نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصَحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيد وَغَيْرِهَا مِنْ دَوَاوِينِ السُّنَّة ، وَهِيَ تَدُلُّ دَلَالَةً صَرِيحَةً عَلَى نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ رَدَّهَا .

طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا

مِنْ أَعْظَمِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبرَى ، وَبِه يُغْلَق بَابَ التَّوْبَةِ .

الْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ : قَدْ ذَكَرَ اللَّهِ تَعَالَى طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿هل يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيهِم الْمَلَائِكَةِ أَوْ يَأْتِي رَبك أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبك يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبك لَا

يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا أَنَّا منتظرون﴾ [الأنعام : 158] .

وَقَدْ دَلَّتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِبَعْض الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ هُوَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ .

قَالَ الطَّبَرِيُّ بَعْدَ ذِكْرِهِ أَقْوَالَ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : "وأولى الْأَقْوَال بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ مَا تَظَاهَرَت بِهِ الْإِخْبَارَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) أَنَّهُ قَالَ : « ذَلِكَ حِينَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » "

وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا قَوْلُهُ (ﷺ) : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ ، فَرَآهَا النَاس ، آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَاكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » . (الطبري ، التَّفْسِير ، 6/8) .

النَارَ الَّتِي تُحْشَر النَاس

وَمِنْهَا خُرُوج النَار الْعَظِيمَة ، وَهِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى ، وَأَوْلَى الْآيَات الْمُؤْذِنَة بِقِيَام السَّاعَة ، وَجَاءَت الرِوَايَاتِ بِأَنْ خُرُوجَ هَذِهِ النَار يَكُونُ مِنْ الْيَمَن ، مِنْ قَعْرِهِ عَدْن ، فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ فِي ذِكْرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى قَوْلُه (ﷺ) : « وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ الْيَمَنِ ، تَطْرُدُ النَاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ » ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ عَنْ حُذَيْفَةَ أَيْضًا : « وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِهِ عَدْن تَرْحَل النَاس » .

وَكَوْن النَار تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِهِ عَدْن لَا يُنَافِي حشرها النَاس مَنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِب ، وَذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ خُرُوجِهَا مِنْ قَعْرِهِ عَدْن ، فَإِذَا خَرَجَتْ انْتَشَرَتْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهَا . . وَعِنْدَمَا تَنْتَشِر يَكُون حشرها لِإِهْلِ الْمَشْرِقِ . (النووي ، الْمِنْهَاج شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمِ بْنُ الْحَجَّاجِ ، 18/65)

عَوْدَ عَلَى بَدْءٍ

مِمّا يَنْبَغِي التطرّق إِلَى ذِكره أنّ عَلَامَات السَّاعَة الصُّغْرَى كَثِيرَةٌ جداً يَضِيق الْمَجَال لحصرها ، وَلَمْ يُرِدْ دَلِيلٌ ثَابِتٌ فِي مَا يتعلّق بِتَرْتِيبِهَا ، إذ إنّ كلّ مَا وَرَدَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ إنّما هُو اجْتِهَادَ فِي تَرْتِيبِهَا حَسَبِ مَا وَجَدُوه أَكْثَر وضوحاً لَدَيْهِم ، أَوْ بِحَسَبِ وَاقِعُ الْحَالُّ وَمَا اقْتَضَتْهُ الْحَوَادِث بِتَقْدِيم إِحْدَى الْعَلَامَات عَلَى غَيْرِهَا . إِعْلَان لَا بُدّ مِنْ مَعْرِفَةِ مَعْنَى عَلَامَات السَّاعَةِ

قَبْلَ الْخَوْضِ فِي عَلامَاتِ السَّاعَة الصُّغْرَى وَتَرْتِيبِهَا ؛ فَهِي تُعرَّف فِي اللُّغَةِ بأنّها : سِمَةٌ أَو شِعَارٍ أَوْ أَمَارَةً تُعرَف بِهَا الْأَشْيَاءُ ، وَجَمْعُهَا عَلَامَات ، أمّا فِي الِاصْطِلَاحِ فَهِي : الْأَمَارَاتِ الَّتِي تُسْبَق قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَتَكُونُ مِنْ النَّوْعِ الاعتيادي لِلنَّاس ، كَشُرْبِ الْخَمْرِ وَالْجَهْل وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ قَبْلَ عَلَامَات السَّاعَة الْكُبْرَى ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مصاحباً لَهَا ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بَعْدَ ظُهُورِ بَعْضِ تِلْكَ الْعَلَامَات . وتُعدّ عَلَامَات السَّاعَة الْكُبْرَى الْأَقْرَبُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَة ، بخلاف عَلَامَات السَّاعَة الصُّغْرَى فَهِيَ أَبْعَدُ مِنْ الْعَلَامَاتِ الْكُبْرَى ، ثمّ إنّ عَلَامَات السَّاعَة الْكُبْرَى لَهَا أَثَرٌ كَونِي كَبِيرٌ يُشْعِرُ بِهِ النَّاسُ جميعاً بِلاَ اسْتِثْنَاءٍ ، بِخِلَاف عَلَامَات السَّاعَة الصُّغْرَى الَّتِي قَدْ تَحْصُلُ فِي مَكَان دُونَ آخَرَ ، ولأناس دُون أُنَاسٌ ، وممّا يَنْبَغِي التطرّق إِلَى ذِكره أنّ عَلَامَات السَّاعَة الصُّغْرَى كَثِيرَةٌ جداً يَضِيق الْمَجَال لحصرها ، وَلَمْ يُرِدْ دَلِيلٌ ثَابِتٌ فِي مَا يتعلّق بِتَرْتِيبِهَا ، إذ إنّ كلّ مَا وَرَدَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ إنّما هُو اجْتِهَادَ فِي تَرْتِيبِهَا حَسَبِ مَا وَجَدُوه أَكْثَر وضوحاً لَدَيْهِم ، أَوْ بِحَسَبِ وَاقِعُ الْحَالُّ وَمَا اقْتَضَتْهُ الْحَوَادِث بِتَقْدِيم إِحْدَى الْعَلَامَات عَلَى غَيْرِهَا .

وَيُمْكِن تَقْسِيم عَلَامَات السَّاعَة الصُّغرى إِلَى أَقْسَامٍ ؛

قسمٌ للعلامات الَّتِي لَمْ تَظْهَرْ بَعْدَ ،

وقسمٌ وَقَعَ وَحَصَلَ ، وَقَدْ يَكُونُ مُتكرّر الْوُقُوع ، بِحَيْث إنّه قَد يتكرّر فِي الْمُسْتَقْبَلِ ،

وَقِسْمٌ تدريجيّ الظُّهُور ؛ بِمَعْنَى أنّه وَقَع وَمَا زَالَ مستمرّاً بِالظُّهُور .

الْعَلَامَات الصُّغْرَى الَّتِي ظَهَرَتْ وَانْقَضَت تُعدّ الْعَلَامَات الصُّغْرَى الَّتِي ظَهَرَتْ وَانْقَضَت كَثِيرَةٌ

وَمِنْهَا مَا يَأْتِي : بَعَثَهُ النَبيُّ مُحَمَّدٍ وَمَوْتِه فَلَمَّا بُعث النَبيّ مُحَمَّدٍ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– ،

دلّ ذَلِكَ عَلَى اقْتِرَابِ السَّاعَةِ ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ،

وَيَقْرُنُ بيْنَ إصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ ، وَالْوُسْطَى) كَمَا دلّ عَلَى اقْتِرَابِ السَّاعَةِ مَوْتِه –عليه السلام–

فَقَدْ قَالَ : (اعْدُدْ سِتًّا بيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ : مَوْتِي) . مُعْجِزَة انْشِقَاقِ الْقَمَرِ فِي عَهْدِ النَبيّ –

صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– انشقّ الْقَمَر بِمُعْجِزَة لَمْ يَشْهَدْ لَهَا الْعَرَبُ مثيلاً ، وَقَد ذُكر ذَلِكَ فِي

الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ –تعالى– : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ

مُّسْتَمِرٌّ) ، وَفِي حَدِيثِ عَبْدِاللَّه بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (بيْنَما نَحْنُ مَع رَسُولِ اللهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بِمِنًى إذَا انْفَلَقَ القَمَرُ فِلْقَتَيْنِ ، فَكَانَتْ فِلْقَةٌ وَرَاءَ الجَبَلِ ، وَفِلْقَةٌ دُونَهُ ، فَقَالَ لَنَا

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ : اشْهَدُوا) فَتْحَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَدْ قَالَ عَوْفُ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيّ –رضي اللَّه عنه– : (أَتيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وسلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبوكَ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِن أَدَمٍ ، فَقالَ : اعْدُدْ سِتًّا بيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ : مَوْتِي ، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ) ، وَقَد فُتح بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي عَهْدِ الْفَارُوقِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ –رضي اللَّه عنه– ، حَيْثُ ذَهَبَ بِنَفْسِهِ إِلَى هُنَاكَ وَبَنَى فِيهَا مسجداً وَصَالِح أَهْل الْمِنْطَقَة . نَارٍ عَظِيمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ يَقُول – عليه الصَّلَاة والسلام– : (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى تَخْرُجَ نارٌ مِن أرْضِ الحِجازِ تُضِيءُ أعْناقَ الإبِلِ بِبُصْرَى) ، وَفِي عَامِ سَتّمئة وَأَرْبَعَةٌ وَخَمْسِين لِلْهِجْرَة ، ظَهَرَت هَذِهِ النَّار الْعَظِيمَة ، وَقَدْ أَفَاضَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْكِتَابَةِ عَنْهَا آنذاك ، وَهَذِهِ غَيْرُ النَّارَ الَّتِي سَتَظْهَر آخِرِ الزَّمَانِ لتطرد النَّاس إِلَى مَحْشَرِهِمْ . وِلَادَة الأَمَة ربّتها قَدْ جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّبِيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– بِهَيْئَة رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ فَجَلَسَ عِنْدَ النَّبِيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– وَأَخذ يَسْأَله إِلَى أَنْ قَالَ : (فأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ، قالَ : مَا المَسْؤُولُ عَنْها بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ قالَ : فأَخْبِرْنِي عَن أمارَتِها ، قالَ : أنْ تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها) ، وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ عَلَى عدّة أَقْوَال لخّصها اِبْن التِين فِي مَا يَأْتِي : أَن تتّسع رُقْعَة الدَّوْلَة الْإِسْلَامِيَّة ، وتُسبى نِسَاء الْبُلْدَانِ الَّتِي فَتَحَهَا الْمُسْلِمُون ، فَتَكْثُر الْجَوَارِي ، فَإِذَا وَلَدَتْ الْجَارِيَةُ ولداً

لِمَالِكِهَا ، كَانَ بِمَثَابَةِ ربّها ؛ لأنّه وَلَد سيّدها . أَنْ يَبِيعَ ملّاك الْجَوَارِي أمّهات أَوْلَادِهِم ، فَيَكْثُر تداولهنّ بَيْن المُلّاك حَتَّى يَشْتَرِيهَا وَلَدِهَا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ . أَنْ تَلِدَ الْجَارِيَة حرّاً مِنْ غَيْرِ سيّدها ، كَان تَزْنِي أَو يتمّ وَطْؤُهَا بِشُبْهَةٍ أَوْ بِنِكَاحٍ ، ثمّ تُباع بيعاً صحيحاً ، إِلَى أَنْ يَشْتَرِيَهَا وَلَدِهَا . أَنْ يُكْثِرَ عُقُوق الْأَوْلَاد لأمّهاتهم ، فيمتهنَ الْوَلَد أمّه ويَسبّها وَيَضْرِبُهَا ، فأُطلِق عَلَيْهِ اسْمُ ربُّها مجازاً . الْعَلَامَات الصُّغْرَى الَّتِي ظَهَرَتْ وَلَم تنقض كَثْرَةُ الْمَالِ وَالِاسْتِغْنَاء عَنِ الصَّدَقَةِ إِذْ يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ ، فَيَفِيضَ حتَّى يُهِمَّ رَبَّ المَالِ مَن يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ ، وحتَّى يَعْرِضَهُ ، فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْه : لَا أَرَبَ لِي) فبيّن الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ –عز وجل– سيعطي الْأُمَّة الْكَثِيرِ مِنْ الْكُنُوزِ حَتَّى لَا تَجِدُ رجلاً محتاجاً يَقْبَلُهَا ، وَقَدْ حَدَّثَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ –رضوان اللَّهُ عَزَّ وجل– عَلَيْهِم ؛ إذ كَثُرت الْفُتُوحَات الْإِسْلَامِيَّة وَفَاضَت الْكُنُوز عَلَيْهِمْ مِنْ اقْتِسَام أَمْوَال الْفَرَس وَالرُّوم ، وَحَدَثَ ذَلِكَ أيضاً فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدالعَزِيز –رحمه الله– حَتَّى أَصْبَحَ الرَّجُل يَعْرِض الصَّدَقَةِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا مِنْهُ ، وَهَذَا –والله أعلم– سيتكرّر وُقُوعِهِ فِي زَمَنِ الْمَهْدِيّ وَعِيسَى –عليه السلام– . ظُهُور الْفِتَن الْمَقْصُود بِالْفِتَن هُنَا مَا يَقَعُ فِي النَاسِ مَنْ أُمُورٍ يكرهونها مِن كفرٍ وقتلٍ وعصيانٍ وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ ، وَقَد حذّر النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– أَمَتَهُ مِنْ الْفِتَنِ الْعَظِيمَةِ

الَّتِي سَتَظْهَر فِيهِم ، ووجّههم إِلَى الِالْتِزَام بِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْإِيمَانُ بِاَللَّهِ ، قَال –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (بَادِرُوا بالأعْمَال فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِم ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) . انْتِشَار الْأَمْن ذَلِكَ بِأَنَّ يَسُود الأمنُ البلادَ الْإِسْلَامِيَّة ، فَيَنْتَقِل الْمُسْلِم وَيُسَافِر مِن مكانٍ إِلَى آخِرٍ لَا يُخْشَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَا أَهْلِهِ وَلَا مَالُهُ وَلَا عَقْلِهِ وَلَا دِينِهِ شيئاً ، فَقَدْ قَالَ عَدِيُّ ابْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ : (بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وسلَّمَ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الفَاقَةَ ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ ، فَقَالَ : يَا عَدِيُّ ، هلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ ؟ قُلتُ : لَمْ أرَهَا ، وقدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا ، قَالَ فإِنْ طَالَتْ بكَ حَيَاةٌ ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ ، حتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحدًا إِلَّا اللَّهَ) ، وَقَدْ حَدَّثَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ –رضوان اللَّه عليهم– ، وَذَلِكَ حِينَ فَتَحُوا الْبُلْدَان وَانْتَشَر الْإِسْلَام فِيهَا ، وَسَيَعُود ذَلِكَ حِينَ يَظْهَرُ الْمَهْدِيّ وَعِيسَى –عليه السلام– . ضَيَاع الْأَمَانَة الْأَمَانَة هِيَ التَّكْلِيفُ ، بِأَن يتّبع الْإِنْسَانَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَيَجْتَنِبَ مَا نَهَى عَنْهُ ، وَهِي ضدّ الْخِيَانَة ، وَقَد بيّن النَبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– أَنَّ الْأَمَانَةَ ستُنتزَع مِنْ الْقُلُوبِ ، فَيَصِير الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْخِيَانَة بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْ الصَّالِحِينَ ؛ وَذَلِك لِزَوَال خَشْيَةِ اللَّهِ مِنْ قَلْبِهِ ، وَفِي تِلْكَ الْفَتْرَة يضيّع النَاسَ دِينَهُمْ فيُسنَد الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ .

يَقُول –عليه الصَّلَاة والسلام– : (فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ، قالَ : كيفَ إِضَاعَتُهَا قالَ : إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غيرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) انْتِشَار الزِّنَا ذَلِكَ بِأَنَّ يَشِيع الزِّنَا بَيْنَ النَّاس بَل إِنَّهم يستحلّونه ، وَذَلِك زَمَان تَكُونُ فِيهِ الذِّمَم قَدْ فَسَدَتْ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَفْعَلُ ذَلِكَ جهاراً نهاراً بَيْن الْخَلَائِق كَمَا أَخْبَرَ –عليه الصَّلَاة والسلام– فِي قَوْلِهِ : (مِن أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، –ذكر منها– وَيَظْهَرَ الزِّنَا) انْتِشَار الرِّبَا يَشِيع الرِّبَا بَيْنَ النَّاس ، فَلَا يُبَالِي أَحَدُهُم بِالْمَالِ الَّذِي يَأْخُذُهُ حَلَالٌ أَمْ حَرَامٍ ، ويُرى ذَلِك جلياً فِي هَذَا الزَّمَانِ ، يَقُول النبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– (لَيَأْتِيَنَّ علَى النَّاسِ زَمانٌ ، لَا يُبالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المالَ ، أَمِنْ حَلالٍ أَمْ مِن حَرامٍ) كَثْرَة شُرْب الْخَمْرَ وَاسْتِحْلَالُهَا ذَلِكَ بِأَنَّ تَنْتَشِر هَذِه الْخُمُور بَيْنَ النَّاس ، وَيَظْهَرُ مِنْ يَعْتَقِدُ حلَّها ، وَقَد انْتَشَرَ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الْحَاضِرُ بِشَكْل كَبِيرٌ ، حَتَّى أَصْبَحْت تُشرب وتُباع جهاراً ، وسُمّيت بالمشروبات الرُّوحِيَّة ، يَقُولُ النبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (يشرَبُ ناسٌ مِن أُمَّتي الخمرَ يُسمُّونَها بغيرِ اسمِها) . التَّطاوُل فِي الْبُنْيَانِ هَذِهِ الْإِمَارَة بَدَأَت بِالظُّهُور مُنْذ عَصْر النبوّة تقريباً ، حِين بَدَأَت رُقْعَة الدَّوْلَة الْإِسْلَامِيَّة بالاتّساع وَالظُّهُور ، وَأُخِذَت الْأَمْوَال تُغدَق عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَبَعْد مدّة مِنْ الزَّمَانِ وَكَثْرَة الْمَال ، أَصْبَحَ النَّاسُ يتنافسون فِي الدُّنْيَا حَتَّى وَصَلَ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْبَادِيَة ، وَأَشْبَاهِهِمْ مِنَ أَهْلِ الْفَقْرِ ، فَأَخَذَ النَّاسُ بالمباهاة فِي بِنَاءِ الْبُيُوت وَالْمَبَانِي ، حَتَّى أَنَّ

الشَّخْص لَيُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ مَا هُوَ أَكْبرُ وَأَعْلَى ممّا بَنَى غَيْرِه ، إِلَى أَنْ وَصَلَ بِهِمْ الْحَالُ فِي عَصْرِنَا إِلَى بِنَاءِ مَا يُسمّى بناطحات السَّحَاب ، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ النبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– بِقَوْلِه : (وإذا تَطاوَلَ رِعاءُ البَهْمِ فِي البُنْيانِ ، فَذاكَ مِن أَشْراطِها) . كَثْرَة الْقَتْلُ يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَكْثُرَ الهَرْجُ قَالُوا : وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسولَ الله ؟ قالَ : القَتْلُ القَتْلُ) ، وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا مُنْذ مَقْتَلِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ –رضي اللَّه عنه– ، وَمَا زَالَ مُستمرّاً إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ؛ فَقَدْ فَسَدَتْ النُّفُوس ، وخفّت الْعُقُول ، وَانْتَشَرَت الْأَسْلِحَة الفتّاكة ، وَكَثُرَت الْحُرُوب ، لَا يَدْرِي الْقَاتِل فيمَ قَتل ، وَلَا الْمَقْتُول فيمَ قُتِل . رَفْعِ الْعِلْم وَانْتِشَار الْجَهْل إِذْ يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَأَيَّامًا ، يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ ، ويُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ) ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا لَيْسَ غِيَاب الْعِلْم ، فإِنّ الْعِلْم مَوْجُودٌ ، وَلَكِن قلَّة الْعُلَمَاء الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يُعلّمون النَاس أُمُور شَرْعَهُم ، فالجامعات حاليّاً أَبْوَابِهَا مَفْتُوحَة ، وَلَكِن قلَّما تَجد عالماً مَع تُوفّر كلّ السُّبل لِذَلِك . السَّلَامُ لِلْمَعْرِفَةِ فَقَط ذَلِكَ بِأَنَّ لَا يسلّم الْمَرْء إِلّا عَلَى مَنْ يَعْرِفُهُ ، فَيَتْرُك النَاس السَّلَام بَيْنَهُم بحجّة أَنّهم لَا يَعْرِفُونَ بَعْضُهُم ، يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (إِنَّ مِن أشراطِ الساعةِ أَن يُسلَمَ الرجلُ عَلَى الرجلِ لَا يُسلَمُ عليهِ إِلَّا للمعرفةِ) ، وَهَذَا الْفِعْلُ مُخَالِفٌ لِسُنَّةِ النَبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– الَّذِي أَمَرَ بِإِفْشَاءِ السَّلَامِ بَيْنَ النَاس ، سواءً

الْمَعْرُوفِين أَوْ غَيْرَ الْمَعْرُوفِينَ ؛ لِنَشْر الْأُلْفَة ، والمحبّة بَيْنَهُم . شَهَادَةُ الزُّورِ وَكِتْمَان الْحَقّ يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ الساعةِ تسليمَ الخاصَّةِ وفُشُوَ التجارةِ ، حَتَّى تعينَ المرأةُ زوجَها عَلَى التجارةِ وقطعَ الأرحامِ وشهادةَ الزورِ وكتمانَ شهادةِ الحقَ وظهورَ القلمِ) وَذَلِكَ بِأَنْ يَشْهَدَ الرَّجُلُ الشَّهَادَة فَيَكْذِب فِيهَا ، وَهِيَ مِنْ أَكْبرِ الْكَبائِرِ عِنْدَ اللَّهِ –عز وجل– زَخْرَفَةُ الْمَسَاجِدِ وَالتَّبَاهِي بِذَلِكَ يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يتبَّاهى النَاسُ فِي المساجد) ، إنّ الْمَسَاجِد أَمَاكِن لِلْعِبَادَة وَلَيْسَت أَمَاكِن للزخرفة وَالتَّبَاهِي وَالْمُبَالَغَةُ فِي تَزْيِينُهَا . رَفَض السنّة يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (يوشِكُ أنْ يقعُدَ الرجلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ ، يُحَدَثُ بحديثٍ مِنْ حَدِيثِي ، فيقولُ : بينَنَا وبينَكُم كتابُ اللهِ ، فَمَا وجدْنا فِيه مِنْ حلالٍ اسْتَحْلَلْناهُ ، وَمَا وجدَنا فِيه مِنْ حرامٍ حرَّمْناهُ ، أَلَا وإِنَّ مَا حرَّمَ رسولُ اللهِ مثلَ مَا حرَّمَ اللهُ) ، حَيْثُ ظَهَرَ فِي زَمَانِنَا أُنَاسٌ يدّعون الْأَخْذُ مِنْ الْقُرْآنِ ويحثّون عَلَى تَرْكِ السنّة ، يُطْلِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مسمّى القرآنيّين ؛ فالسنّة هِي الْمَصْدَر الثَّانِي مِنْ مَصَادِرَ التَّشْرِيعِ الإِسْلاَمِيّ ، تَأْتِي مُفسّرة وموضّحةً ومُبيّنةً ومُقيّدةً ومُخصّصةً ومضيفةً لِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَلَا يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْهَا بِحَالٍ مِنْ الْأَحْوَالِ . كَثْرَة الظَّالِمِين الَّذِينَ يَضْرِبُونَ النَاسَ بِالسَيَاطِ ، يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (إِنْ طالَتْ بكَ مُدَّةٌ ، أَوْشَكْتَ أَنْ تَرَى قَوْمًا

يَغْدُونَ فِي سَخَطِ اللهِ ، ويَرُوحُونَ فِي لَعْنَتِهِ ، فِي أَيْدِيهِمْ مِثْلُ أَذْنابِ البَقَرِ .) . ظُهُور الكاسيات العاريات كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : (صِنْفانِ مِن أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُما ، قَوْمٌ معهُمْ سِياطٌ كَأَذْنابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ ، ونِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ مُمِيلاتٌ مائِلاتٌ ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ ، لَا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَها ، وإِنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ كَذا وكَذا .) ، فهنّ نِسَاءٍ مَائِلَاتٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ –عز وجل– ، مُميلات لِمَن رافقهنّ عَنْ صَوَابِ الطَّرِيق ، يَلْبَسْن مِنْ اللَبَاسِ مَا لَا يَسْتُرُ عوراتهنّ بَل ويشفّ عَنْهَا ، ويضعن فَوْق رؤوسهن مَا يُجْعَلُ رؤوسهن كَأَسْنِمَة الْإِبِل ، وَهَذَا يَحْصُلُ فِي الْمُجْتَمَعِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ . كَثْرَة الْكَذِب يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ فَاحْذَرُوهُمْ) فَقَدْ كَثُرَ الْكَذِبُ فِي أَزْمَانٍ خَلَت ، وَلَكِن تجلّى هَذَا الْأَمْرِ وَزَادَ فِي الزَّمَنِ الْحَالِيّ ، فَقَد يَكْذِب الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ، أَوْ الزَّوْجُ عَلَى زَوْجِهِ ، أَوْ الْبَائِعُ عَلَى الْمُشْتَرِي ، وأمثلة ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مِنْ صُوَرِ الْكَذِب . انْتِشَار التِّجَارَةِ يَقُولُ –عليه الصَّلَاة والسلام– : (بين يدَي الساعةِ تسليمُ الخاصَّةِ وفشوُ التجارةِ حَتَّى تعينَ المرأةُ زوجَها عَلَى التجارةِ) ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ جليّ فِي زَمَانِنَا ، فَلَا تَكَادُ تَجِدُ مكاناً إلّا وَفِيهِ مِنْ التجّار ومَحالَهم الْكَثِير . قَطَع الْأَرْحَام يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ الساعةِ تسليمَ الخاصَّةِ –وذكر منها– وقطعَ الأرحامِ) ، وَقَد

سَاد هَذَا الْأَمْرِ فِي زَمَانِنَا . اخْتِلَال الْمَقَايِيس يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (تأتي عَلَى النَاسِ سَنواتٌ خدَّاعاتٌ يُصدَّقُ فِيهَا الكاذبُ ، ويُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادقُ ، ويؤتَمنُ فِيهَا الخائنُ ويخوَّنُ فِيهَا الأمينُ ، وينطِقُ الرُّوَيْبضة قيلَ : يَا رسولَ اللَّهِ وَمَا الرُّوَيْبضةُ ؟ قالَ : الرَّجلُ التَّافِهُ يتَكَلَّمُ فِي أمرِ العامَّةِ) ، وَهَذَا الْأَمْرُ وَاضِحٌ حالياً .

الْعَلَامَات الصُّغْرَى الَّتِي لَمْ تَظْهَرْ بَعْدَ

عَوْدِه جَزِيرَةِ الْعَرَبِ جَنَّات وأنهاراً قِيل بِسَبَب الزَرَاعَة وَحَفر الْآبَار ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ النّبيّ – عليه الصَّلَاة والسلام– : (وحتَّى تَعُودَ أَرْضُ العَرَبِ مُرُوجًا وأَنْهارًا) . اِنْحِسار الْفُرَاتِ عَنْ جبلٍ مِنْ ذَهَبٍ حَيْثُ يَقْتَتِلُ النَاسُ عَلَيْهِ ، فيُقتل مِنْ كُلَ مئةٍ تسعةٌ وَتِسْعُون ، وَقَدْ يَكُونُ اِنْحِسار النَهْر بِسَبَب تحوّل الْمَاءِ عَنْ مَجْرَاهُ لسببٍ مِنْ الْأَسْبَابِ ، أَو لِذَهَاب مِائَة فَيَكْشِفُ عَنْ ذَلِكَ الْجَبَلِ ، قَال –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَحْسِرَ الفُراتُ عَن جَبَلٍ مِن ذَهَبٍ ، يَقْتَتِلُ النَاسُ عَلَيْه ، فيُقْتَلُ مِن كُلَ مِئَةٍ ، تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ ، ويقولُ كُلُّ رَجُلٍ منهمْ : لَعَلي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو) . خُرُوج القحطاني والجهجاه يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِن قَحْطانَ ، يَسُوقُ النَاسَ بعَصاهُ) ، وَيَقُول عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (لا تَذْهَبُ الأَيَامُ واللَّيالِي ، حتَّى يَمْلِكَ رَجُلٌ يُقالُ لَه الجَهْجاهُ) ، فَيَظْهَرُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَان لَم يُذكَر فِي الْأَحَادِيثِ اسْمُه ، وَيَظْهَر آخَرَ مِنْ الْمَمَالِيكِ يُسمّى بالجهجاه ، وكلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُحْكَمُ وَيُمْسِك بِزِمَام الْحُكم ، وَقَد ضُرب الْمِثْل بعصى القحطاني ؛ كنايةً عَن شدّة طَاعَة النَاسِ لَهُ أَوْ خُشُوعَتِه عَلَيْهِم . رِيح تَقْبِض الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي تكلّم عَنِ الدَّجَّالِ ، يَقُول –عليه الصَّلَاة والسلام– : (إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِبَةً ، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلَ مُؤْمِنٍ وَكُلَ مُسْلِمٍ ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَاسِ ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ ، فَعليهم تَقُومُ السَّاعَةُ) ، دَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى أنّ الرِيح تَكُونُ بَعْدَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَخُرُوج الدَّجَّالِ وَنُزُولِ عِيسَى ، بَلْ وَبَعْدَ خُرُوجِ الدَّابَّة وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، حَيْث إنّ الدَّابَّة تَخْرُج لتُفرّق بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مُصَاحِب لِذَلِك ، فَلَوْ كَانَتْ الدَّابَّةُ قَبْلَ الرِيح ، لِمَا بَقِيَ مُؤْمِنٍ عَلَى الْأَرْضِ . هَدْمَ الْكَعْبَةِ يَقُول –عليه الصَّلَاة والسلام– : (يُخَرِبُ الكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ) ، فَفِي آخِرِ الزَّمَانِ يسيطر الْحَبَشَة عَلَى الْكَعْبَةِ ، ويقودهم ذُو السويقتَين ؛ كِنَايَةٌ عَنْ دَقَّه سَاقَيْه ، فيهدمون الْكَعْبَة ، ويستخرجون كَنْزَهَا ، وَلَا يَتِمُّ أَعْمَارِهَا بَعْدَ ذَلِكَ أبداً ، وَيَكُونُ ذَلِكَ إيذاناً بِخَرَابِ الدُّنْيَا . كَثْرَة الزَّلَازِل يَقُولُ النّبيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– : (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ ، وتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ) ، وَهَذَا يَكُونُ مَعَ نُزُول

الْخِلَافَةِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسة ، إذ تكْثُر الزَّلَازِل . مَا يَتْبَعُ عَلَامَات السَّاعَة الصُّغْرَى ظُهُور الْمَهْدِيّ هُو رجلٌ رَشِيد مِنْ آلِ بَيْتِ النَبِيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– ، يُوَافِق اسْمُهُ اسْمُ النَبِيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– ، وَاسْمِ أَبِيهِ اسْم وَالِد النَبِيّ –صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– ، وَهُوَ رَجُلٌ يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، حِينَ يَكُونُ الظُّلْم قَدْ مَلَأَ الْإِرْجَاء ، فَيَخْرُج ناشراً لِلْعَدْل ، مقيماً لِلدِّيْن ، طارداً للأهواء ، يَقُول –عليه الصَّلَاة والسلام– : (لو لَم يَبقَ مِنْ الدُّنْيَا إلَّا يومٌ ، لطوَّل اللهُ ذَلِك اليومَ ، حَتَّى يَخْرُجَ فِيهِ رجلٌ منّي ، أَوْ مِنْ أهلِ بَيْتِي ، يواطئُ اسمُه اسْمِي ، واسمُ أَبِيه اسمَ أَبِي ، يملأُ الأرضَ قسطًا وعدلًا ، كَما مُلِئَتْ جورًا وظُلمًا) . .

عَلَامَات السَّاعَة الْكُبْرَى

هِي عَلَامَات عِظام إذَا ظَهَرَتْ تكُون السَّاعَةُ عَلَى أَثَرِهَا ، وَهِي عَلامَاتٌ مُتتابعات ، إذَا ظَهَرَ شَيْءٌ مِنْهَا تَبِعَتْهَا بَاقِي الْعَلَامَات مُتوالية مُتَقَارِبَةٌ الْأَزْمَان ، وَهِيَ عَشْرٌ عَلَامَات كَما وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْآتِي : (قالَ : إنَّهَا لَنْ تَقُومَ حتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ ، فَذكَرَ ، الدُّخَانَ ، وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ ،

وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ ، وَآخِرُ ذلكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ ، تَطْرُدُ النَاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ .) .

ضَوَابِط التَّعَامُلَ مَعَ عَلَامَات السَّاعَة تَضَافَرَتْ جُهُودُ أَهْلِ الْعِلْمِ قديماً وحديثاً فِي التَّأْلِيفِ وَالْكِتَابَةُ فِي قِيَامِ السَّاعَةِ وَالْأَمَارَات الَّتِي تسبقها ، ولأنّ عِلْمُ السَّاعَةِ غيبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فإنّه لَا بُدّ مِن نصّ صَحِيحٌ يُؤخذ مِنْه ، وَالْقَوْل بِغَيْرِ عِلْمٍ وَالْأَخْبَارَ عَنْ الْغَيْبِ بِلَا قَرِينَةٍ وَلَا دَلِيلَ يُجزم بِهِ قَدْ يؤدّي إِلَى مَفَاسِدَ عَظِيمَةٌ ، كتكذيب اللَّه –تعالى– وَرَسُولُه –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم– ؛ فَالْإِنْسَان غَيْرُ مُطَالَبٍ بِتَنْزِيلِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ عَلَى وَاقِعَةِ ، ويُستثنى مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ المُعتبرين –دون غيرهم– ؛ إذ يُسوَّغ لَهُمْ الِاجْتِهَادُ فِي تَنْزِيلِ هَذِهِ الْأَشْرَاطِ عَلَى وَاقِعِهِم بِشَرْط ألّا تترتّب عَلَى ذَلِكَ مَفَاسِد أَعْظَم .

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

المعطيات الْعِلْمِيَّة عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ

مَا نَقْصِدُهُ بالمعطيات الْعِلْمِيَّة

مَا نَقْصِدُهُ بالمعطيات الْعِلْمِيَّة عَلَى نِهَايَةُ الْكَوْن (يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْمُصْطَلَح الْقُرْآنِيّ) هُوَ تِلْكَ الْآرَاء وَالنَّظَرِيَّات العِلْمِيَّةِ الَّتِي تَتَنَبَّأ بِنِهَايَة الْكَوْن وَقَد بِنْت تِلْك النَّظَرِيَّات اسْتِنَادًا إِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي نَشَأَ بِهَا الْكَوْن وَطَبِيعَتُه التكوينية .

وَقَدْ تَخْتَلِفُ هَذِه النَّظَرِيَّات وَالْآرَاء عِنْد تَحْدِيدُهَا لِلسَّبَب الرَّئِيس الَّذِي سَيُؤَدِي إِلَى نِهَايَةِ الْكَوْن .

وَهَذِه المعطيات نَوْعَيْن مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بدمار كَوْكَب الْأَرْض نَفْسِه نَتِيجَة الاصْطِدَام النيزكي أَو التَّغْيِيرَات المناخية الْكَبِيرَةِ أَوْ الْحَرْب النَوَوِيَّة العَالَمِيَّة وَغَيْرِ ذَلِكَ وَتَحَدُّدٌ هَذِه الْآرَاء زَمَنًا لَيْسَ بِبَعِيدٍ لِهَذِه النِهَايَة وَالنَّوْعُ الثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِفَنَاء الْكَوْن بِرُمَّتِه كنتيجة حَتْمِيَّةٌ نهائية وَتَرَى هَذِهِ الْآرَاء حُدُوثِ ذَلِكَ فِي أَزْمَانٍ بَعِيدَةٌ جِدًّا جِدًّا .

مَا يَهُمُّنَا مِنْ هَذَا الْمَبْحَثِ هُوَ أَنْ الْعِلْمَ يُعْتَبَر قَضِيَّة فِنَاء الْكَوْن أَمْرًا محتوما وَهَذَا يُوَافِقُ ماذكرناه فِي الْمَبْحَثِ الْأَوَّلُ مِنْ الدَّلَائِلِ الْقُرْآنِيَّة مِنْ السُّنَّةِ النَبَوِيَّةِ عَلَى ذَاتِ النَتِيجَة .

نِهَايَةُ الْكَوْن وَفْق الرُّؤْيَة الدِّينِيَّة وتوافقها مع العلم

يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ الْيَوْمَ الَّذِي يَهْلَكْ فِيهِ جَمِيعُ الْإِحْيَاء ؛ فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ –تعالى– فَهُو الحيّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، قَال –تعالى– : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ، يُبعث فِيهِ النَاسُ مَنْ قُبورهم لِلِقَاءِ اللَّهِ –تعالى– ، وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَمُحَاسَبَتُهُم ، ثمّ يُساقون إِلَى دَارِ الخُلد ، كلّ حَسَب عَمَلِه ، كَما أنّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ عظيمٌ وشديدٌ ومخيفٌ جداً لِلْعِبَاد ، تُكثر فِيه الْأَهْوَال وَالْأَحْدَاث الْغَرِيبَة .

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حديثٌ مُفَصَّلٌ عَن أَهْوَال ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَسَأَذْكُر آتياً بَعْضِ النُصُوصِ الَّتِي تُصورُ وقائعَ تِلْك الْأَهْوَال . إِعْلَان أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَبْضُ الْأَرْضِ وطيّ السَّمَاء يَقْبِضَ اللَّهُ –تعالى– يومَ القيامةِ الأرضَ بِيَدِه ، وَيَطْوِي السَّمَاوَات بِيُمْنِه ، كأنّ شيئاً لَمْ يَكُنْ ، وَقِيل أنّ ذَلِكَ يُحَدّثُ بَعْدَ أَنْ يُفني اللَّه خَلقه ، قَال –تعالى– : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، وَفِي كَيفِيَّةِ طيّه للسماوات قَال –تعالى– : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ، وذُكر فِي السنّة النبويّة فِي

الْحَدِيثِ المتّفق عَلَيْه ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي اللَّه عنه– قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– : (يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ ، ويَطْوِي السَّمَواتِ بيَمِينِهِ ، ثُمَّ يقولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ) . دكّ الْأَرْض أخبرَ اللهُ –تعالى– عَن الْآيَات الْكَوْنِيَّة لِلْأَرْض يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فتتحرّك ، وتزلزل ، وتدكّ دكّة وَاحِدَة ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ ﴾ ، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ، وقال–تعالى– : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ ، فَتُصْبِح هَذِهِ الْأَرْضَ الثَّابِتَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مُسْتَوَى وَاحِد كَالْبِسَاط الْوَاحِدِ لَا ارْتِفَاعَ فِيهَا وَلَا انْخِفَاض ، قَال –عزّ وجلّ– : ﴿ فَيَذَرُها قاعًا صَفصَفًا لَا تَرى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمتًا ﴾ ، وتُلقي مَا فِي بَطْنِهَا مِنْ الْأَمْوَاتِ وَتَتَخَلَّى عَنْهُم ، قال–تعالى– : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ . ثمّ بَعْدَ ذَلِكَ تُبدّل بأرضٍ غَيْرِهَا ، كَما قَالَ –تعالى– فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيم : ﴿ يَومَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غَيرَ الأَرضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزوا لِلَّهِ الواحِدِ القَهّارِ ﴾ ، وَقَد أخبرَ النبيُّ –صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم– أنّ هَذَا التَّبْدِيلِ يتمُّ فِي وقتٍ يَكُونُ فِيهِ النَاسُ عَلَى الصّراط ، فَعَن عائشةَ – رضي اللَّه عنها– قَالَت : (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ عَن قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَومَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غيرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ فأيْنَ يَكونُ النَاسُ يومَئذٍ ؟ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقالَ : عَلَى الصِرَاطِ) . نَسَف الْجِبَال تُدكُّ الْجِبَال الرّاسيَة دكَّةً واحدةً ، وتتحول الجبالُ

الْقَاسِيَة إِلَى رملٍ نَاعِم ، بَعْد الصَّلَابَة وَالْقُوَّة والكِبر والكَثرة ، كَما قَالَ –تعالى– : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ ، وَكَما قَالَ –تعالى– أيضاً : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ ، وَقَد ذَكَرَ –عزّ وجلّ– فِي آيَةٍ أُخْرَى حَال الْجِبَال يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ وَيَسأَلونَكَ عَنِ الجِبالِ فَقُل يَنسِفُها رَبّي نَسفًا ﴾ تَفْجِير الْبِحَار تتغيرُ البحارُ عَن طَبيعَتِهَا الْمَعْهُودَة ، لِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنْ أَمْرِ الله– تعالى– ، فتتفجَّر ، وتُصبح ناراً فتيبس الْأَرْض ، وتُصبح بِلَا مَاءٍ ، قال–تعالى– : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ ﴾ ، وَقَال –تعالى– فِي آيةٍ أُخْرَى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : "أي فُجِرَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، فَصَارَت بحراً واحداً ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ . قَالَ الْحَسَنُ : فُجرت : ذَهَب ماؤُها وَيَبِسَت ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أولاً راكدةٌ مجتمعةٌ ، فَإِذَا فُجرت تَفَرَّقَت ، فَذَهَب ماؤُها . وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ بَيْنَ يَدَيْ الساعة" . موران السَّمَاء وانفطارها تتبدّل مَلامِح السَّمَاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ وَذَلِك أَثر تصدّعها وَانْشِقَاقُهَا ، وتخلخل أَرْكَانِهَا ؛ وَاضْطِرَابِهَا ، مِمَّا يُؤَدِي إِلَى اِنْهِيَارُهَا ، كَما أَنّها تتحرّك حَتَّى تَمُوُّج فِي بَعْضِهَا ، قَال –تعالى– : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ ، ، وَعِنْدَمَا تَنْشَقّ يَكُونُ لَهَا لَوْنٌ وَشَكّل آخر ، قَال –تعالى– : ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ، فَيَكُون لَوْنُهَا أحمراً كَلَوْن الْوَرْد ، وَتَكُون كَالزَّيْت المغليّ ، وَتُصْبِح ضَعِيفَةٌ ، وَقَدْ

قَالَ –تعالى– فِي وَصْفِ ضَعْفِهَا : ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ ، وَيَكُونُ فِيهَا أَبْوَابُ ، ثُمّ تُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَر مِنْ هَذِهِ الْأَبْوَاب ، وَفِي نِهَايَةِ الأَمْرِ تُطوى وتُبدَّل بسماءٍ أُخرى ، قَال –تعالى– : ﴿ يَومَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غَيرَ الأَرضِ وَالسَّماواتُ ﴾ . تكْوير الشَّمْس وَخُسُوفِ الْقَمَرِ وَتَنَاثَر النُّجُوم الشمسُ كَما أخبرَ اللَّه –تعالى– تُجمعُ وتُكوَر ، ويَذهبُ ضوؤُها وتُصبح مظلِمة ، قَال –تعالى– : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، والقمرُ كَذَلِك يُخسف وَيَذْهَب ضَوْؤُه ، قَال –تعالى– : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ* وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ ، وَأَمَّا النجومُ فَتَتَغَيَّر وَيَتَبَدَّل حَالِهَا بِأَمْرِ اللَّهِ –تعالى– ، فَتَتَنَاثَر وَتَسَاقُط ، كَما وَصْفِهَا اللَّه –عزّ وجلّ– فَقَال : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ .

تَبْدِيل السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيم : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ، فَإِذَا كَانَتْ أُمُورِ الدُّنْيَا تَتَحَوَّل بِالْأَسْبَاب الْآن فَعِنْد قِيَامِ السَّاعَةِ يُحَدَث كُلَ شَيْءٍ بِلَا سَبَبٍ ، وتتبدل الْأَرْض والسماوات فَتَذْهَب السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَأَرْضِهَا وَتَأْتِي سَمَاء الْمِيعَاد وَأَرْضُهَا . النَّفْخِ فِي الصُّورِ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَبَأ : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ ، النَّفْخِ فِي الصُّورِ هُوَ أَوَّلُ هولٍ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

فَيَنْبَعِث النَّاس مِنْ قُبُورِهِمْ لِلْحِسَاب . انْفِتَاحِ أَبْوَابِ السَّمَاوَاتِ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّبَأ : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ ، تَبْدَأ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِالزَّوَال وَالدَّمَار وتتفتّح كَالأَبْوَاب وَتَظْهَر فِيهَا الشُّقُوق . تَغَيَّر هَيْئَة الْأَجْرَام السَّمَاوِيَّة قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّكْوِير : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ ، فَالشَّمْس تتكور وتُصبح عَلَى غَيْرِ هَيْئَتِهَا ، وتخبو أَضْوَاء النُّجُوم وتموج السَّمَاء ثم تَنْشَقّ وتموج وتنصهر وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِكَيْفِيَةِ ذَلِكَ كُلِه . تَمَدَّد الْأَرْض وانبساطها قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الِانْشِقَاق : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ ، فَتَكُون الْأَرْض مَبْسُوطِه كُلُّهَا وممدودة لَا فِيهَا نتوءات وَلَا اعوجاجات وَلَا قِمَم وَلَا غَيْرِهَا ؛ وَذَلِك حَتَّى تَتَّسِع للنَّاس فَيَكُون كُلُّهُم وَاقِفُونَ عَلَى اسْتِوَاءِ وَاحِد يَنْتَظِر كُلٌ مِنْهُم حِسَابِه . خُرُوج الْكُنُوز والدفائن قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الِانْشِقَاق : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ ، فَيَخْرُج كلّ مَا فِي الْأَرْض مِنْ الْمَوْتَى المدفونين والكنوز فتلقي الْأَرْض كُلُّ مَا فِي بَاطِنِهَا عَلَى ظَهْرِهَا وَتَتَخَلَّى عَنْهُ . تَسْيِيرَ الْجِبَال قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْكَهْفِ : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ، فَمَن أَهْوَال يَوْم الْقِيَامَةِ أَنّ اللَّه –تعالى– يَسِير الْجِبَال إِلَى مَصِيرُهَا . اِخْتِفَاء الْجِبَال قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّبَأ : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، وَالسَّرَاب هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يُتوهم وُجُودِه ، وَمَع أَنَّ الْجِبَال هِي أَرْسَخ شَيْءَ عَلَى

الْأَرْضِ يُضرب الْمِثَال بِهِ يُصبح هَبَاء وكأنّه لَمْ يَكُنْ فِي يَوْمٍ . نَسَف الْجِبَالِ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَارِعَة : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ ، فَتَخْتَلِف مصائر الْجِبَال كلٌّ حَسَب طَبِيعَتَه ، فَمِنْهَا مَا يُسيره اللَّهُ وَمِنْهَا مَا ينسفه ، و تَكُون الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ أَي يَنْسِفُها اللَّهُ فَتَتَفَتَّت وتُصبح مِثْل الصُّوف المندوف .

حَقَائِق عِلْمِيَّة عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

نَعيش رَحْلِهِ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ونحللها علمياً لَنَخْرُج بِنَتِيجَة وَهِيَ أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ يَتَّفِقَ مَعَ الْعِلْمِ وَالْحَقَائِق الْعِلْمِيَّة ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ ذَلِكَ الْيَوْمِ . . . .

عِنْدَما يَكونُ الْحَدِيثُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُصَوِر لَنَا ذَلِكَ الْيَوْمِ وكأننا نعيشه ونراه ، فَاللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لنتعرف عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لِأَنَّ هَذَا الْيَوْمِ هُوَ أَهَمُّ يَوْمٍ فِي حَيَاةِ كُلَ وَاحِدٍ مِنَّا .

وَلِذَلِك فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ خُتِمَ كِتَابُهُ بِآيَة تَأْمُرُنَا أَن نَتَّقِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّ نَعْمَل لِذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلِذَلِك فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ فِي آخِرِ آيَة نَزَلَتْ مِنْ الْقُرْآنِ : (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ

تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [البقرة : 281] يَنْبَغِي أَنْ نُعِيدَ حساباتنا وَإِن نفكر بأننا سَيَأْتِي عَلَيْنَا يومٌ نَقِفُ فِيهِ إمَامُ اللَّه ، يَنْبَغِي أَنْ نجهّز الْإِجَابَة مُنْذ هَذِهِ اللَّحْظَةِ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سيسألنا مَاذَا فَعَلْنَا بِهَذَا الْقُرْآنِ ، وَمَاذَا قَدَّمْنَا لَهُ ، يَقُول عَزَّ وَجَلَّ : (وَإِنَّهُ) أَيْ الْقُرْآنِ (لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) [الزخرف : 44] ، وَلَكِن الْمُلْحِد دائماً يُنْكِرُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ إذَا مَاتَ انْتَهَى كُلَ شَيْءٍ ، وَلِذَلِك فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٌ ، حَدَّثَنَا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

والعجيب فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَسْتَخْدِم الْحَقَائِق الْعِلْمِيَّة وَيُقْسَم بِالظَّوَاهِر الْكَوْنِيَّة الَّتِي خَلَقَهَا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَقّ ، وَأَنَّهُ سَيَأْتِي يومٌ تعلمُ فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَمَا أَحْضَرَت وَمَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ، فَإِذَا تَأَمَّلْنَا كثيراً مِنْ الْآيَاتِ نُلَاحِظ إنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف : 49] يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيَرَى كُلُّ إنْسَانٍ أَعْمَالِه وَكَأَنَّهَا تَعَرَّض إمَامِه ويراها رُؤْيَة يَقِينِيَّة : (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) أَي سَوْف يَحْضُر اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأَعْمَالُ وَيَضَعُهَا إمَامُ هَذَا الْإِنْسَانُ ويراها .

هُنَاك آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تتجلى عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِحْدَاث الْقِيَامَة ، وَلَكِن الْمُلْحِد لَا يَقْتَنِع إِلَّا بِالْحَقَائِق الْعِلْمِيَّة ، فَبَعْض الْمُلْحِدِين يَقُولُون كَيف يُمْكِنُ أَنْ نَرَى أَعْمَالنَا فِي ذَلِكَ الْيَوْم وَكَيف يُمْكِنُ مثلاً لِلْجِلْد أَنْ يَتَكَلَّمَ وَيَنْطِق يَقُول تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [فصلت : 21] . فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْدَعَ فِي الدُّنْيَا أَمْثِلَةٌ لِكَي نلجأ إِلَيْهَا فِي تَقْرِيب نظرتنا وَفَهْمنَا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .

عِنْدَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) [الرحمن : 37] هَذِهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تُحَدِّثُنَا عَنْ انْشِقَاق السَّمَاء وَأَنَّهَا سَتَكُون وَرَدَّه كالدهان ، نُلَاحِظ أَنَّ الْعُلَمَاءَ حديثاً وَجَدُوا بَعْض النُّجُوم الَّتِي تَنْفَجِر ومجرات تَنْفَجِر بأكملها وَجَدُوا أَنَّهَا تَرَسَّم لَوْحَة تُشْبِه اللَّوْحَة الزيتية بِأَلْوان زَاهِيَة وَهَذِه اللوحات الَّتِي ترسمها النُّجُوم أَثْنَاء اِنْهِيَارُهَا طبعاً لَا تَمَثَّل يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّمَا هِيَ صُورَةٌ مصغرة عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . هَذِهِ الصُّورَةِ لِانْفِجَار نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ ، وَهِيَ لَا تَمَثَّل يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّمَا صُورَة مصغرة عَن اِنْهِيَار السَّمَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

نَحْن طبعاً لَن نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى تكَوَر الشَّمْس ، يَقُول تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) [التكوير : 1] . لَن نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى هَذَا النجْم الَّذِي هُوَ الشَّمْسُ وَهُوَ يَنْفَجِر مثلاً ، أَو يتكور

عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَكِنَنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَرَى انْهِيَار النُّجُوم وَمَوْت النُّجُوم مِنَ خِلَالِ التلسكوبات الَّتِي تُلْتَقَط آلاف الصُّوَر يومياً عَنْ مَوْتِ هَذِهِ النُّجُومِ وانفجارها ، فَهَذِهِ صُورَةٌ مصغرة عَنْ نِهَايَةِ الْكَوْن .

عِنْدَمَا يَقُول تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) [التكوير : 6] . أَي أُحْمِيَت ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : سَجَرَ التَّنُّورَ ، أَي أَحْماه وَرَفَع دَرَجَةَ حَرارَتِهِ ، وَلِكَي نتمكن مِن تَخَيَّلَ هَذَا الْأَمْرِ ونستطيع أَنْ نُدْرِكَ كَيف سَيَحْدُث هَذَا الْأَمْرِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِي أَعْمَاقِ هَذِه الْبِحَار شقوقاً وصدوعاً وَأَمَاكِن تتدفق مِنْهَا الْحُمَم المنصهرة لترفع دَرَجَةُ حَرَارَةِ الْمَاءِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ دَرَجَةٍ وَتَرَى وَكَانَ الْمَاءُ تَرْتَفِع حَرَارَته وَيُتِمّ إحماؤه بِشِدَّة ، فَهَذَا الْمَشْهَد لَا يُمَثّلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مصغرة عَنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلِذَلِك فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَقْسَم بِهَذِه الظَّاهِرَة الْكَوْنِيَّة (ظاهرة الْبَحْر المسجور) فَقَال : (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُور * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) [الطور : 6-7]

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُكَلِّمُنَا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بَلَغَه الْحَقَائِق الْعِلْمِيَّة ، وَلَو تَأَمَّلْنَا آيَاتِ الْقُرْآنِ نُلَاحِظ أَن هُنَالِك الْكَثِيرِ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي تَتَحَدّث عَنْ هَذَا الْأَمْرِ . فَكَلَّمَه (البحار) أَثْنَاءِ الْحَدِيثِ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ذَكَرَت مَرَّتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ فَقَطْ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ

التَّكْوِير : (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) [التكوير : 6] . وَفِي السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا سورَةُ الانْفِطارِ : (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) [الانفطار : 3] .

وَهَاتَيْن الْآيَتَيْن كَانَتَا مدخلاً لِأُولَئِك المشككين عِنْدَمَا قَالُوا : أَن مُحمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْسَى مَا كَتَبَهُ فَتَارَةً يَقُولُ (سُجِّرَتْ) ، وَتَارَة (فُجِّرَتْ) ، وَهَذَا اتَهام بَاطِلٌ لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كَلَامَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِنَّمَا هُوَ كَلَامُ رَبِّ مُحَمَّدٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، هُوَ كَلَامُ الْخَالِقِ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْبِحَار وَهُوَ أَعْلَمُ بِهَا .

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ نَرَى إعجازاً فِي تَسَلْسَل مَرَاحِل هَذَا الِانْفِجَار ، فَنَحْن نَعْلَم إِذَا دَرَسْنَا فِيزِياء الْمِيَاه وَتَرْكِيب هَذِهِ الْمِيَاهِ ، أَنَّ الْمَاءَ يَتَأَلَّفُ مِنْ ذَرَّتَيْنِ مِنَ الهيدْرُوجِينَ وَذُرَة وَاحِدَةٍ مِنْ الأوكسجين ، وَعِنْدَمَا تَرْتَفِع دَرَجَةُ حَرَارَةِ الْمَاءِ إِلَى حُدُودٍ كَبِيرَة (آلاف الدَّرَجَات المئوية) ، تتفكك هَذِه الذَّرَّات وتُشَكل مزيجاً غازياً شَدِيدٌ الِانْفِجَار وَهَذَا مَا يَحْدُثُ فِي المختبرات عِنْدَمَا نَقُوم بِوَضْع كَمِّيَّةٍ مِنَ الْمَاءِ وَنَقُوم بِتَحْلِيلِهَا كهربائياً ، نَرَى أَنْ فقاعات الهيدْرُوجِين والأوكسجين تَذْهَب وتتجمع ، فَهَذَا المزيج مِنَ الهيدْرُوجِينَ والأوكسجين ، يَقُول الْعُلَمَاء عَنْهُ هُوَ مَزِيج شَدِيدٌ الِانْفِجَار يَعْنِي يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَجِرَ بِأَقَلّ شَرَارَةٌ .

وَلِذَلِك فَإِن الْبِحَار الَّذِي حَدَّثَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهَا وَجَعَل قيعانها دائماً تتدفق مِنْهَا الحُمَم المنصهرة وآلاف الْفُوَّهَات مِن البراكين وآلاف الشُّقُوق ، وَهُنَالِك دَائِرَةٌ فِي قَاعِ المحيطات يُسَمِيهَا الْعُلَمَاء دَائِرَة النَار ، مُحَاطَة بِحَلْقَة كَبِيرَة جداً تَمْتَدّ لِإِلَاف الكِيلُو مِتْرات وتتدفق مِنْهَا الحُمَم المنصهرة وكأننا نَرَى الْبَحْر يَحْتَرِق أَو يَشْتَعِل وَلِذَلِك فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) [الطور : 7] ، فَانْظُرُوا كَيْفَ رَبَط الْبَيَان الْإِلَهِيّ بَيْنَ الْبَحْرِ المحمَّى المسجور وَبَيْن عَذَابِ اللَّهِ بِنَارِ جِنَّهُم ، وَأَنَّ عَذَابَ اللَّهِ سَيَكُون أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْمَشْهَد بِكَثِير ، فَعِنْدَمَا يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَوْف تَشْتَعِل البراكين فِي قَاعِ المحيطات ، وَهَذَا مَا يَقُولُهُ الْعُلَمَاء ، هَذَا لَيْسَ كلاماً نظرياً ، إِنَّمَا هُوَ كَلَامُ عَمَلِي ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَلْوَاحِ الَّتِي تَغَلُّفُ الْأَرْض (قشرة الْأَرْض رَقِيقِه جداً ، أَقَلَّ مِنْ 1% مِنْ قَطْرِ الأرض) هَذِه الْقِشْرَة هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ أَلْوَاحِ تَتَحَرَّك بِاسْتِمْرَار وَكُلَّمَا تَحَرَّك لوحان وابتعدا عَن بَعْضُهُمَا تتدفق ملايين الأطنان مِنَ الصُّخُورِ الملتهبة وَدَرَجَة حَرَارَتِهَا آلَاف الدَّرَجَات المئوية . وتتدفق بِكَثْرَة عَبَر هَذِه الصدوع . وَسَوْف يَأْتِي زَمَنٍ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تَضْطَرِب فِيهِ حَرَكَةٌ هَذِه الْقِشْرَة الْأَرْضِيَّة ، وَبَعْدَ ذَلِكَ سَوْف تَزْدَاد هَذِه الصدوع وتتدفق كَمِيَّات كَبِيرَة مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْبَحْرَ ستبلغ دَرَجَةَ حَرارَتِهِ آلَاف الدَّرَجَات

وتتفكك هَذِه الذَّرَّات مِنْ الْمَاءِ إِلَى الأوكسجين والهيدروجين ويتشكل ذَلِك المزيج المنفجر الَّذِي يَنْفَجِرُ وبالتالي يَتَحَقَّق وَعَدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ) [الانفطار : 3] .

لَو تَأَمَّلْنَا أَي انْفِجَار ودرسناه فيزيائياً نُلَاحِظ أَن الِانْفِجَار حَتَّى يُحْدِثَ لَا بُدَّ مِنْ ارْتِفَاعِ فِي دَرَجَةِ الحَرَارَةِ أَيْ إِنْ هُنَالِك عَمَلِيَّة تَسْخِين أولاً ، ثُمّ انْفِجَار ، وَهَذَا مَا حَدَّثَنَا الْقُرْآنِ عَنْهُ : فَقَالَ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ أولاً : (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ) [التكوير : 6] . ثُمَّ فِي السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا قَال : (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ) [الانفطار : 3] . إذاً . . التسجير والإحماء وَارْتِفَاع دَرَجَةُ الحَرَارَةِ أولاً . . ثُمّ التَّفْجِير .

إذاً فِي تَرْتِيب هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ لَيْسَ هُنَاكَ إِخْطَاءٌ عِلْمِيَّة أَوْ أَنَّهُ كَمَا يَقُولُونَ إِنّ النَبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْطَأَ أَوْ نَسِيَ فَتَارَةً يَقُولُ فَجَرَت وَتَارَةً يَقُولُ سجرت . . لَا . . هُنَاك تَسَلْسَل عِلْمِي مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْدَعَه لَنَا لنكتشفه فِي هَذَا الْعَصْرِ وَلِيَكُون لَنَا دليلاً عَلَى صِدْقِ هَذَا الْقُرْآنَ وَصَدَق يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَلِذَلِك بَعْدَمَا عَدَدَ لَنَا اللَّهُ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي ستتم يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تكْوِير لِلشَّمْس ، وانكدار للنجوم ، وتسجير الْبِحَار . . . . يَقُول : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) [التكوير : 14] .

وَفِي السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) [الانْفِطار : 1-6] . وَهُنَا نَأْتِي إِلَى الهَدَفِ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، الْمُخَاطَب دائماً بِهَذِهِ الْحَقَائِق هُوَ الْإِنْسَانُ ، لِأَنَّ هَذَا الْإِنْسَانُ هُوَ الْمَعْنِيُّ بِهَذَا الْخِطَابِ الْإِلَهِيّ لِيَتَذَكَّر يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُعَدّ لَه الْعِدَّة ، فَاللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَمَا يُحَدِّثُنَا عَنْ هَذَا الْيَوْمِ ويحدثنا عَنْ حَقَائِقِ عِلْمِيَّة وَظَوَاهِر كونية سَوْف تَحْدُث ، وَنَأْتِي إِلَى الْعُلَمَاءِ وَمَا يكشفونه مِنْ حَقَائِقِ وَجَمِيعُهُم يؤكدون أَنَّ هَذِهِ الظَّوَاهِر سَتُحْدِث : الشَّمْس ستتكور عَلَى نَفْسِهَا . النُّجُوم سَوْف تنكدر وَتَنْطَفِئ وَتَخْتَفِي . وَالزَّلَازِل سَوْف تَكْثُر .

يَقُول تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) [الزلزلة : 1-2] وَانْظُرُوا إِلَى كَلِمَةٍ (أَثْقَالَهَا) هَذِهِ الْكَلِمَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي الْأَرْضِ أَشْيَاء ثَقِيلَة ، وَالْعُلَمَاء يَقُولُون كُلَّمَا نَزَلْنَا فِي الْأَرْضِ زَادَت كَثَافَةُ الْمَادَّة ، أَيْ إِنْ كَثَافَةُ الْقِشْرَة الْأَرْضِيَّة أَقَلّ مِنْ الطَّبَقَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، وَكُلَّمَا تعمقنا تَزْدَاد الْكَثَافَة إِلَى حُدُودِ كَبِيرَة وَلِذَلِكَ يَزْدَادُ ثَقُل هَذِه الطَّبَقَات ، وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ

الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) [الزلزلة : 1-5] . فَهَذِهِ الْآيَاتُ هُنَالِك هَدَف مِنْهَا وَهُوَ أَنْ تَتَذَكَّر أَيُّهَا الْإِنْسَانُ هَذِه الْأَحْدَاثِ الَّتِي ستمرّ بِك وَسَوْف تَقِف بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) وَطَرَحْنَا السُّؤَال : كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُتَخَيَّلَ أَنَّ الْأَحْدَاثَ الَّتِي صَنَعَهَا فِي الدُّنْيَا سيجدها تماماً إمَامِه : (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) ؟ تَقُول النَظَرِيَّة النَسْبِيَّة : أَنَّنَا إِذَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَسِيرَ بِسُرْعَة تُسَاوِي سُرْعَة الضَّوْء ، سَوْف يَتَوَقَّف عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَة الزَّمَن ، فَالْإِنْسَانُ الَّذِي يُسَيِّرُ بِسُرْعَة الضَّوْء فَإِنَّه سَوْف يَتَوَقَّف الزَّمَنُ مِنْ حَوْلَه ، وَإِذَا تَجَاوَز هَذِه السُّرْعَة سَوْف يَعُود وَيَرَى الْمَاضِي حَقِيقَة وَاقِعَةٌ إمَامِه ، وَلِذَلِك قَالَ تَعَالَى : (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) . فَهَذَا إثْبَات عِلْمِي عَلَى إِمْكَانِيَّةٌ رُؤْيَة الْمَاضِي !

لِمَاذَا هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّة ؟

أَنَّ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّة هِيَ وَسِيلَةٌ لِتَقْرِيب الصُّورَة إِلَى أَذْهَانِنَا ، فتفكير الْإِنْسَان مَحْدُود ، عِنْدَمَا خَاطَبَه اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَخْبَرَه عَنْ نَعِيم الْجَنَّة مثلاً ، وَأَخْبَرَه بِأَن الْجَنَّة فِيهَا أَنْهَارٌ

مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَفِيهَا أيضاً أَنْهَارٍ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَفِيهَا أَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ . . فَحَتَّى تتخيل هَذِهِ الأَنْهَارُ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا فِي الدُّنْيَا الْعَسَل ، وَخَلْقٌ لَنَا اللَّبَن ، وَخَلْقٌ لَنَا مثلاً الْفَاكِهَة ، وَحَدَّثَنَا أَنَّ الْجَنَّةَ يُوجَدُ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَكِن فَاكِهَةِ الدُّنْيَا غَيْرُ فَاكِهَةٌ الآخِرَة . .

فدائماً أُحِبُّ أَنْ أَؤكد عَلَى هَذِهِ النُّقْطَة الْجَوْهَرِيَّة وَهِيَ أَنَّ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّة هِيَ فَقَطْ لِتَدَبُّر وَفُهِم الْقُرْآن ، وَلَيْسَت حُجَّةٌ عَلَى الْقُرْآنِ ، أَيْ نَحْنُ لَا نستخدم الْحَقَائِق الْعِلْمِيَّة لِأَنَّنَا نَشُكُّ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَوْ لِأَنَّ إِيمَانُنَا ضَعِيفٌ ! لَا . . نَحْن نَتَأَمَّل هَذِهِ الْحَقَائِق مَنْ بَابِ التَّدَبُّر لِكِتَابِ اللَّهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عِمْرَان : 191] . فَعِنْدَمَا تتفكر فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهَذَا يَعْنِي أَنَّنَا يَنْبَغِي أَنْ ندرس مَادَّةٌ هَذِه السَّمَوَات وَمَادَّة الْأَرْض وَيَنْبَغِي أَنْ ندرس الفِيزِيَاء وَالْكِيمْيَاء وَالْفُلْك وَالنُّجُوم وَالْكَوَاكِب وَالْجِبَال وَالْبِحَار دِرَاسَة عِلْمِيَّة لنستجيب لِنِدَاء اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَيَتَفَكَّرُونَ) .

وَلَكِنْ جَمِيعُ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَتَحدّث عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ هِي إِحْدَاث لِلْعِبْرَة وَعِنْدَمَا نَقُول مثلاً يَقُول تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ : (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) [القيامة : 9] ، وَعِنْدَمَا نَأْتِي لِعُلَمَاء

الْغَرْب وَنَجِد أَنَّهُم يَصْدُرُون بحثاً جديداً عَن إِمْكانِيَّةٌ أَن تبتلع الشَّمْس الْقَمَرُ وَإِنْ يَجْتَمِعَان مَعَ بَعْضِهِمَا ، فَنَحْن طبعاً لَا نَقُولُ إِنَّ هَذَا الْمَشْهَد هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ نَقُولُ هُنَالِك إِمْكانِيَّةٌ عِلْمِيَّة لِحُدُوث مِثْلِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي حَدَّثَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهَا فِي كِتَابِهِ لِتَكُون هَذِهِ الْحَقَائِق وَهَذِهِ الْآيَاتُ دليلاً لِأُولَئِك المشككين أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ وَإِنْ كُلَّ إِنْسَانٍ سيجد أَعْمَالِه حَاضِرَة إِمَامِه .

أَنَّ الْبَحْثَ العِلْمِيّ لِمَوْضُوع (القيامة) يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْرِيفِ حَقِيقَةِ الْمَوْتِ مَا هِيَ . . . فَلَقَد فَصْلٌ الْقُرْآنِ الْكَلَامُ فِي (موضوع الموت) وَعَمَّا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَعِيش حياتين وَالْمَوْت مَيِّتَيْن وَالسُّؤَال الْعِلْمِيّ دَائِمًا يَبْحَثُ عَنْ الْمَوْتِ عَمَّا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ مَا يَقْرُبُ مِنْ مِائَتَيْ أَجَابَهُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ الْخَطِير ، الَّذِي كَثِيرًا مَا يُطْرَحُ فِي الْمَجَالِ الْعِلْمِيَّة مِنْهَا :

(فقدان الْجِسْم لفاعليته) ، (انتهاء عَمَلِيَّة الْإِجْزَاء التركيبية) ، (تجمد الأنسجة العصبية) ، (حلول الْمَوَادّ الزلالية الْقَلِيلَة الْحَرَكَة مَحَلّ الْكَثِيرَة الْحَرَكَة منها) ، (ضعف الأنسجة الرابطة) ، (انتشار سَمُوم « بكتريا » الْأَمْعَاء فِي الجسم) . . . وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ الإِجابات الَّتِي تَتَرَدَّدُ كَثِيرًا حَوَّلَ ظَاهِرَةُ الْمَوْت .

يَقُول الماديون لَا حَيَاةَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي أَعْرِفُهَا لَا تُوجَدُ إِلَّا فِي ظُرُوفٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ تَرْكِيبِ العَنَاصِرِ الْمَادِيَّة . وَهَذَا التَّرْكِيبُ الكيماوي لَا يُوجَدُ بَعْدُ الْمَوْتِ ، إِذْن : فَلَا حَيَاة بَعْد الموت) .

وَيَعْتَقِد (ت . ر . مايلز) بِأَن : « الْبَعْث بَعْد الْمَوْتِ حَقِيقَةً تَمْثِيلِيَّةٌ ، وَلَيْس بِحَقِيقَة لَفْظِيَّة » . ثُمَّ يُضِيفُ قَائِلًا : « إِنَّهَا قَضِيَّةٌ قَوِيَّةٌ عِنْدِي أَنَّ الْإِنْسَانَ يَبْقَى حَيًّا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ مِنْ الْمُمْكِنِ –لفظيا– أَنْ تكُونَ حَقِيقَةً ، وَهِيَ قَابِلَةٌ لِاخْتِبَار صِحَّتِهَا أَوْ بُطْلَانِهَا بِالتَّجْرِبَة ، وَلَكِنَّ الْمَسْأَلَةَ الرَّئِيسِيَّة فِي طريقنا هِي إِنَّنَا لَا نُمْلَك وَسِيلَةٌ لِمَعْرِفَة الْإِجَابَة الْقَطْعِيَّة عَنْ هَذَا السُّؤَال إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلِذَلِك يُمْكِنُنَا أَنْ « نَقِيس » وَحَيْثُ إِنَّ قِيَاسُه لَا يُصَدَّقُ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ فَهِيَ لَيْسَتْ بِحَقِيقَة لَفْظِيَّة . وَقِيَاسُه كَمَا يَلِي : بِنَاءً عَلَى عِلْمِ الْأَعْصَاب لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ الْعَالِم الْخَارِجِيّ ، وَالِاتِّصَال بِه ، إِلَّا عِنْدَمَا يَعْمَل الذِهْن الْإِنْسَانِيّ فِي حَالَتِه الْعَادِيَّة ، وَأَمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ فَهَذَا الْإِدْرَاك مُسْتَحِيلٌ نَظَرًا إِلَى بِعَثْرَة تَرْكِيب النِظَام الذِهْنِيّ » .

وَلَكِن هُنَاك قِيَاسَاتٌ أُخْرَى أَقْوَى مِنْ هَذَا الْقِيَاس ، وَهِي تَؤَكِّد أَن بِعَثْرَة الذَّرَّات الْمَادِيَّة فِي الْجِسْم الْإِنْسَانِيّ لَا تَقْضِي عَلَى الْحَيَاةِ ، فَإِن « الْحَيَاة » شَيْءٌ آخَرُ ، وَهِي مُسْتَقِلَّةٌ بِذَاتِهَا ،

بَاقِيَةٌ بَعْدَ فَنَاءِ الذَّرَّات الْمَادَيَّة وَتَغَيُّرِهَا . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْجِسْمَ الْإِنْسَانِيّ يَتَأَلَّفُ مِنْ أَجْزَاءِ (ذرات) تُسَمَّى (الخلايا) وَمُفْرَدُهَا خَلِيَّةٍ وَهِيَ ذَرَّات صَغِيرَةٌ جِدًّا وَمَقْعَدُه ، يَزِيد عَدَدَهَا فِي الْجِسْمِ الْإِنْسَانِيّ الْعَادِي عَلَى : 260 مليار خَلِيَّةٌ . وَيَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الخلايا مِثْل الطُّوب الصَّغِير يَنْبَنِي مِنْه هَيْكَل أَجْسَامُنَا . وَلَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ طُوب أَجْسَامُنَا والطوب الطيني شَاسِع جِدًّا . . فطوب الطِّينِ الَّذِي يُسْتَخْدَمُ فِي الْعِمَارَات يَبْقَى كَمَا هُوَ نَفْسُ الطُّوب الَّذِي صَنَعَ فِي الْمَصْنَع واستخدم فِي الْبِنَاءِ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى ، بَيْنَمَا يَتَغَيَّر طُوب هياكلنا فِي كُلَ دَقِيقَةٍ ، بَلْ فِي كُلَ ثَانِيَة ، أَن خَلَايَا أَجْسَامُنَا تَنْقُص بِسُرْعَة ، كَالْآلَات الَّتِي تَتَأَكَّل باحتكاكها وَاسْتِهْلَاكِهَا ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّقْصَ يُعَوَضه الْغِذَاء ، فَهُو يُهَيِئ لِلْجِسْم قَوَالِب الطُّوب الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا بَعْدَ نَقص خَلَايَاه وَاسْتِهْلَاكِهَا . فالجسم الْإِنْسَانِيّ يُغَيِر نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ بِصِفَة مُسْتَمِرَّة ، وَهُو كَالنَّهْر الْجَارِي الْمَمْلُوء دَائِمًا بِالْمِيَاه ، لَا يُمْكِنُ أَنْ نَجِدَ بِهِ نَفْسُ الْمَاءِ الَّذِي كَانَ يَجْرِي فِيهِ مُنْذُ بُرْهَة ، لِأَنَّهُ لَا يَسْتَقِرُ ، فالنهر يُغَيِر نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ دَائِمًا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ نَفْسُ النَّهْرِ الَّذِي وَجَدَ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ وَلَكِن الْمَاءِ لَا يَبْقَى ، بَل يَتَغَيَّر وجسمنا مِثْل النَّهْر الْجَارِي ، يَخْضَع لِعَمَلِيَّة مُسْتَمِرَّة ، حَتَّى إِنَّهُ يَأْتِي وَقْتُ لَا تَبْقَى فِيهِ أَيَّةٌ خَلِيَّةٌ قَدِيمَةٌ فِي الْجِسْمِ ، لِأَنّ الخلايا الْجَدِيدَة أَخَذَت مَكَانَهَا هَذِه الْعَمَلِيَّة تَتَكَرَرْ فِي الطُّفُولَة وَالشَّبَاب بِسُرْعَة ، ثُمَّ وَقَدْ أَصَرّ الْكَثِيرُون مِن فلاسفتنا الْمُحَدَثِينَ عَلَى أَنَّ

(الشعور) فِي ذَاتِهِ لَيْسَ إِلَّا التَّفَاعُل وَالرَّدّ الْعَصَبِيّ لِمَا يَحْدُثُ مِنْ حَرَكَةِ وَنَشَاط فِي الْعَالَمِ الْخَارِجِيّ . وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ النَظَرِيَّة لَا مَجَالَ للتساؤل عَنْ إِمْكَانِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، نَظَرًا لِلتَّحْلِيل النظامي الْجُسْمَانِيّ ، وَلِأَنّ الْمَرْكَز الْعَصَبِيّ فِي الْجِسْمِ لَمْ يَعُدْ لَهُ وُجُودٌ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَتَفَاعَل وينسق مَعَ الْعَالِمِ الْخَارِجِيّ ، وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ بِنَاءً عَلَى هَذَا أَنَّ نَظَرِيَّة الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَصْبَحْت غَيْرُ ذَاتِ أَسَاس عَقْلِيً أَوْ وَاقِعِيٌّ سَوْف أَقُولُه : أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةٌ الْإِنْسَانِ ، فلنجرب أَن نُخْلَق إِنْسَانًا حَيًّا ذَا شُعُور ، وَنَحْن –اليوم– نَعْرِف بِكُلّ وُضُوح جميعِ العَناصِرِ الَّتِي يَتَأَلَّف مِنْهَا جِسْمُ الإِنْسانِ وَهَذِه العَنَاصِر تُوجَدُ فِي الْأَرْضِ وَفِي الْفَضَاءِ الخارِجِيّ ، بِحَيْث يُمْكِنُنَا الْحُصُول عَلَيْهَا ، وَقَدْ عَلِمْنَا دَقَائِق بِنَاء النَظَام الْجُسْمَانِيّ ، وَعَرَفْنَا هَيْكَلَة وأنسجته ، وَلَدَيْنَا فنانون مَهَرَه يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصْنَعُوا أَجْسَامًا كجسم الْإِنْسَان ، بِكُلّ مواصفاته ، فلنجرب –لو كَان معارضوا الرُّوح يُصِرُّونَ عَلَى حَقِيقَةِ مبدئهم– ولصنع مِئَات مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَجْسَام ، ولنضعها فِي شَتَّى الْمَيَادِين ، فِي بُقْعَةٍ الْأَرْض الفَسيحَة ثُمّ لننتظر ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي تَمْشِي فِيهِ هَذِهِ الْأَجْسَام وتتكلم وَتَأْكُل « بِنَاءً عَلَى تَأْثِيرَاتٌ الْعَالِمِ الْخَارِجِيّ » ! فَهَذَا عَنْ إِمْكَانِ بَقَاءُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ .

فَمَا الَّذِي جَعَلَنَا نَنْظُرُ إِلَى الكائِنِ الحَيّ ككُلّ وَلَيْس كمجموعة مِنْ الْأَفْرَادِ الْمُكَوّنَة لَه ، يُحَاوِل الْكَاتِب سُوليفان فِي كِتَابِهِ حُدُود الْعِلْم الَّذِي تَرْجِع فَقَرَأْت مِنْهُ إِلَى عِمَادُ الدِين خَلِيلٍ أَنَّ يُحَلَل ذَلِكَ فَيَقُولُ : مَا الَّذِي يَجْعَلَنَا نَنْظُرُ إِلَى الكائِنِ الحَيّ ككُلّ وَلَيْس كمجموعة مِنْ الْأَجْزَاءِ الْمُكَوّنَة لَه فَحَسْب ؟ مَا الَّذِي تعنيه تِلْك الفِكْرَة الْغَامِضَة الَّتِي نُعَبرُ عَنْهَا (بالكل) أَو (التفرد) حَتَّى لَوْ أَمْكَنَ تَفْسِيرُ كُلَ فَعَالِيَة أَو نَشَاط يَقُومُ بِهِ الْجِسْم الْحَيّ عَنْ طَرِيقِ التَّغْيِيرَات الفيزيائية الَّتِي يُحْدِثُهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُعْطِينَا الْإِجَابَة الْمَطْلُوبَة مَا لَمْ يُؤْخَذْ بِعَيْنِ الاعْتِبارِ (النظام الغائي) لِتِلْك التَّغْيِيرَات . عَلَى أَنَّ (الغرض) أَو (الغاية) فِي حَدَ ذَاتِهَا لَيْسَت فكرِه عِلْمِيَّة بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تُسْتَخدَمُ فِي عُلُومِ الفِيزِيَاء وَالْكِيمْيَاء ، وَإِن غالِبِيَّة الْمُشْتَغِلِين فِي عُلُومِ الْإِحْيَاء ، أَوْ عَلَى الْأَقَلَ فِي عِلْمِ الفِيزِيَاء الحيوية ، لَا يستسيغون إِدْخَال آيَة أَفْكَار لَمْ تَثْبُتْ ضَرُورَتِهَا بِالنَسْبَةِ لِتِلْك الْعُلُوم . أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْعَمَلِ هُوَ بِلَا شَكَّ إِجْرَاء جَيِد فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَالَجَة أَصْنَاف مَحْدُودَةٌ وَمُعَيَّنَة مِنْ الْمُشْكِلَاتِ أَو الْقَضَايَا . لَكِنَه يَبْدُو أَيْضًا وَكَأَنَّهُ يقودنا إِلَى نَتِيجَةٍ مُؤَدَّاهَا إِنَّ أَهَمَّ قَضَايَا عِلْمُ الأَحْيَاءِ وَأَنْشَدَهَا بروزا لَمْ يَتَنَاوَلْهُ الدَّرْس وَالتَّحْلِيل بَعْد . لَقَدْ كَانَ البروفيسور (وايت هيد) مُنْصِفًا عِنْدَمَا أَشَارَ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ فِي مَعْرِض حَدِيثِهِ عَنْ تَطْبِيق أَفْكَار الفِيزِيَاء وَالْكِيمْيَاء عَلَى الْحَيَاةِ حَيْثُ قَالَ : (لابد مِنْ الِاعْتِرَافِ بِأَنَّ هَذَا الْأُسْلُوبَ –يقصد تَطْبِيق أَفْكَار الفِيزِيَاء

وَالْكِيمْيَاء عَلَى الظَّوَاهِرِ الحية- قَدْ لَاقَى نَجاحا مرموقا . لَكِن الْمُشْكِلَة وَهِيَ هُنَا تُفْهِم الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْجِسْمُ الْحَيّ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَحدُّد بِوَاسِطَة الْأُسْلُوب الَّذِي تُعَالَجُ بِهِ . وَمَن الْوَاضِح تَمَامًا أَنَّ هُنَاكَ عَمَلِيَّات مُعَيَّنَة تَقُومُ بِهَا بَعْضُ الْأَجْسَام الْحَيَّة بِنَاءً عَلَى تَصَوُّرِ مُسْبَق لِغَايَة مَا ، وَتَصَوُّر طَرِيقَة مُعَيَّنَة لِبُلُوغِهَا وَتَحْقِيقُهَا . وَلَا يُمْكِنُ حَلّ الْمُشْكِلَة إِذَا جَرَى تَجاهَل فَكَرِه الْغَايَة لِمُجَرَّد أَنَّ هُنَاكَ عَمَلِيَّات أُخْرَى يَقُومُ بِهَا الْجِسْمُ الْحَيّ وَيُمْكِن تَفْسِيرُهَا فِي نِطَاقِ قَوَانِين الفِيزِيَاء وَالْكِيمْيَاء . أَنَّ وُجُودَ الْمُشْكِلَة فِي حَدَ ذَاتِهِ لَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ ، بَل جَرَى رَفْضِه بِإِصْرَار . لَقَدْ أَجْرَى الْعَالِم ماني تَجَارِب طَوِيلَة بِقَصْد تَعْزِيز اعْتِقَادِه بِأَن الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْجِسْمُ الْحَيّ لَيْسَت مستوحاة مِن فَكَرِه الْغَايَة . وَأَمْضَى الْعَالِم الْمَذْكُور الْكَثِيرِ مِنْ وَقْتِهِ لِكِتَابِه الْمَقَالَات الَّتِي أَرَادَ مِنْ وَرَائِهَا أَنْ يَثْبُتَ أَنَّ فَكَرِه الْغَرَض أَوْ الْغَايَة غَيْرُ ذَاتِ مَوْضُوعٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَفْسِير التَشَاط الجَسَدِيّ لِلْكَائِنَات الْبَشَرِيَّة ، شَأْن بَقِيَّةِ أَنْوَاعِ الحَيَوانات ، وَذَلِكَ بِمَا فِيهِ إِعْمَال هَذَا الْعَالِمُ نَفْسِه ومقالاته . أَنَّ مُلَاحَظَةَ أُولَئِك الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لِلتَّدْلِيل عَلَى أَنَّ أَعْمَالِهِم لَا مَغْزَى لَهَا ، وَلَا غَرَضَ مِنْ وَرَائِهَا ، لِأَمْر جَدِيرٌ بِالدَرَاسَة وَالِاهْتِمَام .

وَيَرَى عُلَمَاء الْإِحْيَاءِ أَنَّ هُنَاكَ مَفَاهِيم أساسية مِنَ الظَّوَاهِرِ الفيزيائية تَبرَّز وُجُود الصَلَة النَهَائِيَّة وَلَكِن عُقُولِنَا لَم تُدْرِكُهَا بَعْد . إِذَا فَإِن الاتهامات الَّتِي تَنْطَوِي عَلَيْهَا أَقْوَال وَائْت هيد لَهَا مَا يبررها بِالتَّأْكِيد . أَنَّنَا نَحْس الْمَرَّةَ تِلْوَ الْمَرَّة بِأَن الْمَفَاهِيم الأَسَاسِيَّة الَّتِي يَسْتَخْدِمَهَا عُلَمَاء الْإِحْيَاء لَيْسَت كَافِيَةٌ لِمُعَالَجَة أَهَمّ الْمَشَاكِل الَّتِي تواجههم . أَن نَظَرِيَّة الِانْتِقَاء أَو الاصطفاء الطَّبِيعِيُّ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، لتبدو مَلِيئَة بالفجوات عِنْدَمَا تَدْرُس بِالتَّفْصِيل . أَنَّ الْمَرْءَ ليتقبل بِسُهُولَة ، وبشكل عَادِيٌّ ، التَّفْسِيرَات الفيزيائية الْمَحْضَة عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ، وَلَكِن لابُدَّ لَهُ مِنْ بَذْلِ مَجْهُود عَظِيمٌ حَتّى يَسْتَطِيع الِاعْتِقَاد ، وَلَو مُؤَقَّتًا ، بِأَنَّ جَمِيعَ التَّطَوُّرَات الَّتِي حَدَثَتْ لِلْكَائِنَات الْحَيَّة عَلَى ظَهْرِ هَذَا الْكَوْكَب جَاءَت نَتِيجَة (لتغييرات عشوائية) وللصراع مِنْ أَجْلِ الْبَقَاء ، أَن نَظَرِيَّة الاصطفاء الطَّبِيعِيَ لَا تُفَسَرُ وَلَوْ مِنْ جَانِبٍ بَعِيدٌ أَكْثَر الْحَقَائِق وُضُوحًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بالعملية كُلُّهَا ، وَنَعْنِي بِذَلِكَ اتَجَاهُ الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ نَحْو الِارْتِقَاء . فَلَوْ أَنَّ مُجَرَّدَ الْبَقَاءِ كَان الْمُطْلِب الْوَحِيد ، فَإِن نَوْعًا مِنْ الْحَيَاةِ البَدَائِيَّة يَبْدُو لَنَا كَافِيًا لِيُوَفِي بِالْغَرَض . وَيَبْدُو لَنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَيْضًا أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَا يَسْتَدْعِي حَتْمًا ظُهُورَ هَذَا النَوْعِ مِنْ الْحَيَاةِ البَدَائِيَّة ، لِأَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْحَيَاةَ لَا يَجْرِي لَهَا مُنافِسَه الصُّخُور وَالْجَمَادَات فِي الِاسْتِمْرَارِ وَالْبَقَاء ، أَن الانطباع الَّذِي يراودنا بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ ، هُوَ أَنْ عُلَمَاءَ الْحَيَاةِ لَا يَسْتَطِيعُونَ

الِافْتِرَاض بِأَن التَّقَدُّم الْفِعْلِيّ لِلْأَحْيَاء يُمْكِنُ أَنْ يُفَسَّرَ ضَمِن شُرُوطِهِم الَّتِي يَتَمَسّكُونَ بِهَا ، اللَّهُمَّ إِلَّا مِنْ قَبِيلِ الْأَيْمَانِ الْخَارِق . وَيُوجَد بِالطَّبْع بَيْنَ عُلَمَاءِ الْحَيَاةُ مِنْ يُنْكِرُ أَنْ مِثْلَ هَذَا النَّوْعِ مِنْ التَّفْسِيرِ أَمْرٌ مُمْكِنٌ وَقَدْ أَدْخَلَ هَؤُلَاء بَعْض الْأَفْكَار الْجَدِيدَة مِثْل (القوة الحيوية) و(قوة التحقق) أَو (الروح) وَمَا إِلَى ذَلِكَ . لَكِنَّهُم لَن ينجحوا فِي تَعْرِيفِ هَذِهِ الْمُصْطَلَحَات وَتَحْدِيد مَضامينَها بِحَيْثُ يُمْكِنُ اسْتِخْدَامَهَا فِي الْأَغْرَاضِ الْعِلْمِيَّة . وَبَقِيَت الْمُصْطَلَحَات شَاهِدًا عَلَى أَنَّ الْمَفَاهِيمَ الأَسَاسِيَّة الْحَاضِرَة لِعِلْم الْحَيَاةِ غَيْرُ كَافِيَةٍ .

فَهَاهُنَا نَجِد :

أَوَّلًا : صُعُوبَة تَفْسِير النَّشَاط الحَيَوِيّ بَعِيدًا عَنْ النَّظَّامُ الْغَائِيّ ، الَّذِي يَضْبِط أنشطته وَيَسِيرِهَا إِلَى هدفها الْمَرْسُوم . . وَمُحَاوَلَة غَيْر مجدية مِنْ عُلَمَاءِ الْحَيَاة لِاسْتِبْعَاد الْغَائِيَّة وَاعْتِمَاد أَسَالِيب الْعَمَلِ فِي حُقُول الفِيزِيَاء وَالْكِيمْيَاء وَالَّتِي تَرْفُض الاتِكَاءُ عَلَيْهَا . . تِلْك الْأَسَالِيب الَّتِي قَدْ تَحَقَّقَ بَعْض النَّجَاح وَلَكِنَّهَا لَا تَحِلُّ الْمُشْكِلَة مِنْ أَسَاسِهَا . . إذ يَبْقَى التَّعَامُلَ مَعَ الْحَيَاةِ هُوَ غَيْرُهُ مَعَ الذَّرَّات وَالْجُزْئِيَّات ، وَمِنْ ثَمَّ يُطْرَحَ (وايت هيد) تَحْفَظُه حَوْل ضَرُورَة الِاعْتِرَاف ، بِشَكْل أَو بِآخَر ، بِوُجُود تَصَوُّر مُسْبَق لِغَايَة مَا يُفَسَّرُ الْعَمَلِيَّة الحيوية .

لَقَد أَرَاد هولدن وَهُوَ مِنْ الْعُلَمَاءِ الْمَشْهُورَيْنِ فِي (علوم الإحياء) أَنْ يَرَى بِجَانِب تَطَوَّر الْحَيَاة قُوَّة خَصِبَةٌ مُلَازَمَة لَه كملازمة الْعَقْل لِلدِمَاغ فَقَال : ونلتقي بِمُحَاوَلَة أُخْرَى يَقُومُ بِهَا ج . بِ . س . هملدن أَحَدٌ أَلَمع عُلَمَاء الْحَيَاة الْمُحدَثِين ، فِي إِحْدَى مقالاته : (إنني لأتصور وُجُود قُوَّة تَلَازُم خَطّ تَطَوَّر الْحَيَاة مُلَازَمَة الْعَقْل لِلدِمَاغ . لَقَد حَاوَل رُوَيس فِي عَامِ 1901 إِعْطَاء صُورَة مُحَدَّدَة لِهَذِه الْقُوَّة ، وَذَلِك كَعَقْل ذِي إِبْعَاد زَمَانِيَّة هَائِلَة . وَذَكَر أَنَّ الْإِحْسَاس الْقَوِيَّ الَّذِي يُلَازِم عَمَلِيَّة التَّجَدُّد مَوْجُودٌ فِي ذَلِكَ الْعَقْلُ وَوُجُودُهُ فِي عُقُولِنَا . وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ تَنْطَوِي عَلَى عُنْصُرٌ مِنَ عَنَاصِرَ الْحَقِيقَة ، فَإِنَّنِي أَشُكُّ فِي أَنَّ تكُونَ تِلْكَ الْقُوَّةِ ذَات طَبِيعَة مُشَابَهَة لطبيعة الْعَقْل . أَن شُكِى فِي إِمْكَانِيَّةٌ وُجُود نَوْعٌ مِنْ الْكَائِن الْمَجْهُول يُلَازِم عَمَلِيَّة التَّطَوُّر يَعُودُ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِجَمال مِثْلِ هَذَا الْكَائِن وبغرابته الَّتِي لَا تَنْقَضِي ، تِلْك الْغَرَابَة الَّتِي تُشَكِّلُ الميزة الَّتِي ظَلِلْت استشعرها خِلَال عِشْرِين عَامًا قَضَيْتهَا فِي الْعَمَلِ – الْعِلْمِيّ الدَّائِب : (ص 9–10) .

فَكَأَنَّه ، وَهُوَ الْعَالَمُ يَتَحَدَّث بِلِسَان هيغل الْفَيْلَسُوف ، الَّذِي تَقُومُ مُحَصَّلُه فلسفته إِلَى الْقَوْلِ بِالْعَقْل الْكُلِّيّ لِلْعَالِم ، وَالَّذِي يَتَحَرَّك التَّارِيخ وَفْق تَوْجِيهُه ، وَتَعْبُر الدُّوَل والحضارات عَنْ

مَشِيئَتِهِ ، وَيَغْدُو الْإِبْطَال أَدَوَات بِيَدَيْه . . وَالصَّيْرُورَة التَّارِيخِيَّة هدفها تَحْقِيق مَا يُسَمِيهِ هيغل بتجلي الْمُتَوَحد . . الِانْطِبَاق الْهَنْدَسِيّ الْبَاهِر بَيْن التَّارِيخ وَبَيْن مَشِيئَة الْعَقْل الْكُلِّيّ هَذَا .

مَا هِيَ طَبِيعَة هَذَا الْعَقْل ؟ أَيْنَ يَقَعُ ؟ كَيف يَعْمَل ؟ لَا أَحَدَ يَدْرِي . . . تَمَامًا كَمَا أَنَّ هولدن نَفْسِهِ لَا يَدْرِي طَبِيعَة الْعَقْل (الذي يَتَمَيَّز بالغرابة) الَّتِي استشعرها طِيلَة عِشْرِين عَامًا مِنْ الْعَمَلِ العَلَنِيّ الْمُتَوَاصِل . . وَهَكَذَا وَصَفْت فَلْسَفَة هيغل المثالية بِأَنَّهَا تَمْشِي عَلَى رَأْسِهَا . . وَلَا نَدْرِي بِمَاذَا يُمْكِنُ أَنْ تُوصَفَ فكره هولدن هَذِه .

وَالْأَمْرُ فِي حَقِيقَتِهِ لَيْسَ بِهَذِهِ الْبَسَاطَة الَّتِي يُرِيدُ هيغل (متعمدا) أَنْ يُصَوِّرَ بِهَا قَضِيَّة خَطِيرَةٌ كالغائية . . أَنَّهُ بِهَذَا الْمِثَال ، يَقْتَطِع مِن وَقَائِع الْعَالِم جُزْئِيَّة صَغِيرَة يُرِيدُ بِهَا إِنْ يُفَسِّرَ كُنه الْعَالِم وَلَا غائيته بِأُسْلُوب كاريكاتيري ساخِر . . وَمَعْرُوف مَنْطِقِيًّا أَنَّ الْحُكْم عَلَى الْكُل مِنْ خِلَالِ جُزْئِيَّة مِنْ جُزْئِيَّاتِهِ أَمَر بِجَانِب الصَّوَاب ، أَنَّهُ كَمَنْ يَقْتَطِع شَرِيحَة مِنْ لَحْمٍ مَخْلُوقٌ مَا يُرِيدُ أَنْ يُفَسِّرَ بِهَا نَشَاطَه البيولوجي الوظيفي وَحَتَّى الْعَقْلِيّ ، أَوْ كَالَّذِي يَقْتَطِع تَعْبِيرا مِنْ قَصِيدَةٍ أَوْ مِساحَةٌ مِنَ عَمِلَ فَنِّيٌّ لِكَي يُحْكَم مِنْ خِلَالِهِ عَلَى مُجْمَلِ الْعَمَل وملامحه النَهَائِيَّة .

أَنَّ الْبِدَايَةَ التَّارِيخِيَّة نَفْسِهَا ، تؤأمٌ الدياليكتيكية تَجد نَفْسِهَا مسحوقة إِلَى نَوْعٍ مِنْ الْغَائِيَّة يَتَحَرَّكُ مِنْ خِلَالِهَا التَّارِيخ نَحْو الْأَحْسَن ، وَهِيَ لَوْ أَعْطَت الْجَمَاعَة الْبَشَرِيَّة ، أَو الطَّبَقَة ، الْحُرِّيَّة الْمُطْلَقَةِ فِي صِيَاغَة ظُرُوفِهَا التَّارِيخِيَّة وَصَنَع مُسْتَقْبِلِهَا لذهبها مَعَهَا إِلَى رَفْضِ الْغَائِيَّة ، وَلَكِنَّهَا تمنح مِسَاحَة وَاسِعَة فِي إِمْدَادِ التَّارِيخ لِمَا تَسْمِيَة بِالضَّرُورَة التَّارِيخِيَّة . . . الْحَتْمِيّة التَّارِيخِيَّة . . وَمَا دَامَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . . مَا دَامَ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا مَا خَارِج وَعِيّ الْإِنْسَان وَإِرَادَته يَتَحَرَّك بعقلانية صَوْب الْأَحْسَن فَلَابُدَّ أَنْ فِي الْأَمْرِ غَايَةُ مَا ، قُوَّةُ مَا ، هِيَ الَّتِي تَسِيرُ التَّارِيخ ، وَفْق الْمَادَّيَة التَّارِيخِيَّة حَتَّى بالنظريات والرؤى الَّتِي تطرحها الْمَنَاهِج الْعِلْمِيَّة ، فَالْفَرْدِيَّة فِي الْوَقْتِ مَا كَانَ التَّشْكِيك بِهَا يُعَدُّ كُفْرًا بَوَاحًا وَمُرُوقًا عَنْ حَظِيرَة الْعِلْم ، والمادية التَّارِيخِيَّة الْيَوْم يُعَدّ نَقْدِهَا بِالنَسْبَة لِقُطَّاع وَاسِعٌ مِن المثقفين ، الْمُقَدِسين ، خُرُوجًا عَنْ الْأُسْلُوب الْعِلْمِيّ وَضَرْبًا فِي الْخُرَافَة ، هَذَا بِالنَسْبَةِ لنتائج الْبَحْث فَكَيفَ بِالنَسْبَةِ للمنهج نَفْسِه ؟ .

التصور العلمي لِنِهَايَة الْكَوْن

سَاعَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ

مَا هِيَ « سَاعَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، وَهَل تُبشَر بِقُرْب نِهَايَةُ الْعَالِم ؟ وَلِمَاذَا تَمّ تَسْمِيَتِهَا بِهَذَا الِاسْمِ ؟ وَهَل نتحكم فِيهَا كَبِشْر ؟ ، ضُبِطَت « سَاعَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ » عَلَى 90 ثَانِيَةً حَتَّى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، أَمْس الثُّلَاثَاء ، وَهِيَ أَقْرَبُ سَاعَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ ، إذ يُمَثِّل مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ اللَّحْظَةِ الَّتِي سَتَكُون فِيهَا الْأَرْض غَيْرِ صَالِحَةٍ لِسَكَن الْبَشَرِيَّة ، وفقًا لِنَشْرِه عُلَمَاء الذُّرَة الَّذِي أَنْشَأْتَ مُنْذ حَوَالَي 76 عامًا .

وَقَالَت النَشْرَة الصَادِرَةِ عَنْ اللَّجْنَة الْعِلْمِيَّة لَسَّاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (تسمى نَشَرَه عُلَمَاء الذُّرَة) فِي بَيَانِ صَحَفِي ، أَنَّ قَرَارَ تَحْرِيك السَّاعَة 10 ثَوَان إِلَى الْإِمَامِ هَذَا الْعَامِ يَرْجِعُ إِلَى حَدَ كَبِيرٌ إِلَى غَزْو رُوسْيَا لأوكرانيا وَزِيَادَةُ خَطَر التصعيد النَوَوِيّ ، فِي حِينِ لعبت التَّهْدِيدَات الْمُسْتَمِرَّة الَّتِي تشكلها أَزْمَةُ الْمُناخ ، فضلًا عَن اِنْهِيَار المعايير وَالْمُؤَسَّسَات اللَّازِمَة لِلْحَدَ مِنِ الْمَخَاطِر الْمُرْتَبِطَة بالتهديدات البيُولُوجيَّة وكوفيد 19 كَانَ لَهَا دوراً أيضاً .

مَا هِيَ سَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ودُشنت سَاعَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي عَامِ 1947 لِتَحْذِير الْبَشَرِيَّة مِن مَخاطِر الْأَسْلِحَة النَوَوِيَّة ، وَمُنْذ ذَلِكَ الْحِينِ ، حَذَّرْت الْمُتَابِعَيْن مِن مَدَى اقترابنا مِن تَدْمِير عَالِمِنَا بتكنولوجيا مِن صَنَعْنَا ، أَنَّهَا

بِمَثَابَةِ اسْتِعَارَةٌ لتذكير الْبَشَرِيَّة بِقَضَايَا حَيَّوَيْه ، مِثْلُ تَغَيُّر الْمُناخ وفيروس « كوفيد-19 » وَالْحَرْب النَوَوِيَّة ، حَتَّي الْأَمْرَاض الْوَبَائِيَّة ، الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى مُعَالَجَة سريعاً لِكَي نحافظ عَلَى كَوْكَب الْأَرْض

كَمَا أَنَّ سَاعَة الْقِيَامَة تَعَدّ سَاعَة رَمْزِيَّة تَبَيَّن مَدَى قَرُب الْعَالَم مِنْ نِهَايَتِه ، وَيُتِمّ تَحْرِيك عَقَارِبُ السَّاعَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ أَوْ بعيدًا عَنْه بناءً عَلَى قِرَاءَةِ الْعُلَمَاء للتهديدات الْوُجُودِيَّةُ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ .

كَيْفَ يَتِمُّ ضَبْط سَاعَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ

تُجْرَى مُنَظَّمَة غَيْر رِبْحِيَّة مَقَرَهَا شِيكاغُو تُسَيَّمَى نَشَرَه عُلَمَاء الذُّرَة بتحديث الْوَقْت سنويًا فِي « سَاعَة الْقِيَامَة » بناءً عَلَى الْمَعْلُومَاتِ الْمُتَعَلَقَة بالمخاطر الكارثية عَلَى الْكَوْكَب والبشرية وَتَعَرَّض « الْوَقْت » عَلَى مَوْقِعِها عَبَر الإنترنت .

يُنَاقَش مَجْلِسٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ والخبراء فِي مَجَالِ التكنولوجيا النَوَوِيَّة وَعُلُوم الْمُناخ ، بِمَا فِي ذَلِكَ 13 مِنْ أُولَئِكَ الْعُلَمَاء الْحَائِزَيْن عَلَى جَائِزَةٌ نُوبِل ، الْأَحْدَاث العَالَمِيَّة ويحددون مَكَان وَضَع عَقَارِبُ السَّاعَةِ كُلَّ عَامٍ .

كَمْ كَانَ الْوَقْتُ فِي عَامٍ 2022

فِي عَامٍ 2022 ، بَقِيَت سَاعَة يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ 100 ثَانِيَةً حَتَّى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .

وأضافت النَّشْرَة أَنَّهُ بَيْنَمَا سيطرت الدُّوَل الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى جَائِحَةٌ « كوفيد-19 » ، فَإِن الِاسْتِجَابَة فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ العالَم ظَلَّت « غَيْرُ كَافِيَةٍ تَمَامًا » ، مُشِيرَةٍ إِلَى أَنْ الْبُلْدَان الْفَقِيرَة تُركت دُون تَلْقِيح إِلَى حَدَ كَبِيرٌ .

وَكَان تَغَيَّر الْمُناخ أَيْضًا عَامِلًا مَهْمَا ، فَبَيْنَمَا كَان cop 26 غلاسْكُو « مُعَلَّمًا مَهْمَا » ، كَانَتِ النَّتَائِجُ « غَيْرُ كَافِيَةٍ » .

مَا مَدَى احْتِمَالِ التَّغْيِيرِ فِي عَامِ 2023

يُحْتَفَظ الْعُلَمَاء بِالْوَقْتِ الَّذِي ستنتقل فِيه السَّاعَة سِرًّا حَتَّى يَوُمَّ إِعَادَة ضَبْط السَّاعَة ، مَا يُجْعَلُ مِنْ الصَّعْبِ التَّنَبُّؤُ بِمَا سَيَتِمّ ضَبْطُهَا عَلَيْه .

وَكَان لِتَغَيُّر الْمُناخ تَأْثِيرَاتٌ كَبِيرَةٌ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ العالَم فِي الْعَامِ الْمَاضِي ، حَيْث غَمَرَت الفَيَضَانَات ثُلُث باكِسْتان ، وَحُدّثت مَوْجَات حُرٌّ خَطِيرَةٌ فِي أُورُوبَّا وَالصَين ، فَضْلًا عَنْ فَشَلٌ المحاصيل فِي النُمُوَ فِي الْقَرْنِ الْإِفْرِيقِيّ . .

وَبِالنَسْبَة لِعَام 2023 ، قَالَت التَشْرَة أَنَّهَا ستأخذ فِي الِاعْتِبَارِ التَّهْدِيدَات البيُولُوجِيَّة وَانْتِشَار الْأَسْلِحَة النَوَوِيَّة وَاسْتِمْرَار أَزْمَةٌ الْمُناخ والتقنيات التخريبية .

تَصَوُّرَات الْخَيَال الْعِلْمِيِّ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ

هُنَاك الْكَثِيرِ مِنْ أَفْلَام هُولِيوُود حَوْلَ مَوْضُوعٍ كَيفَ يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَهِيَ عَالِمِنَا ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَثَتْ كَإِرْثِه عالَمِيَّة ، فَمَا الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ اللَّوْم لِمَحْو كُلَ إِشْكَالِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ ؟ .

يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدَيَ ثُقْبٌ أَسْوَد مُتَجَوَل وَتَأْثِير كُوَيْكِب عِمْلَاق وَحَرْب نووية إِلَى حُدُوثِ مِثْلِ هَذِهِ الكَارِثَة ، مِثْلُ ظُهُورِ الروبوتات الْقَاتِلَة أَو انْعِكَاس الْمَجَال الْمَغْناطِيسِيّ لكوكبنا .

وَقَد يَبْدُو العَدِيدِ مِنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ بَعِيدٌ الْمَنَال ، لَكِنْ مَعَ تَسْجِيل "ساعة يَوْم القيامة" فِي 90 ثَانِيَة قياسية حَتَّى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ هَذَا الْعَامِ – وَحَذَّر الْعُلَمَاءِ مِنْ أَنَّ اسْتِمْرَار وُجُود الْبَشَرِيَّة فِي خَطَرٍ أَكْبَرُ مِنْ أَيَ وَقْتَ مَضَى – أَصْبَح التَّهْدِيد الْآن حَقِيقِيًّا .

فَكَيف بِالضَّبْط سَتُحْدِثُ هَذِهِ الِاحْتِمَالَاتِ المدمرة ؟

اصْطِدام كُوَيْكِب عِمْلَاق

أَنْهَى عَهْد الديناصورات قَبْل 66 مِلْيُون سُنَّةٌ ، لِذَلِكَ هُنَاكَ فِرْصَة لِحَدَث مُرْعِب مُرْتَبِطٌ بِالصُّخُور الفضائية يُمْكِنُ أَنْ يُحْدِثَ يَوْمًا مَا مَرَّةً أُخْرَى .

اِصْطَدَم كُوَيْكِب تشيككسولوب بِبَحْر ضَحْل فِي مَا يُعْرَفُ الْآنَ بخليج المكسيك ، مَا تَسَبَّبَ فِي حُدُوثِ مَوْجَات تسُونَامِي ضَخْمَةٌ وَأَطْلَق سَحَابَةٌ ضَخْمَةٌ مِنْ السُّخَام وَالْغُبَار مَا تَسَبَّبَ فِي تَغَيُّر الْمُناخ الْعَالَمِيّ وَمَحْو 75% مِنْ أَنْوَاعِ الحَيَواناتِ وَالنَبَاتَاتِ عَلَى الْأَرْضِ .

وَيُقَدَّر عُلَمَاء الْفَلَك أَنَّ أَحَدَ هَذِهِ الكويكبات الْوَحْشِيَّة يَجِبُ أَنْ يَصْطَدِمَ بكوكبنا مَرَّةً وَاحِدَةً كُلّ 100 مِلْيُون سَنَةً أَوْ نَحْو ذَلِكَ .

وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يضعنا عَلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ لِحَدَثٍ آخَرَ عَلَى مُسْتَوَى الِانْقِرَاضَ فِي حَوَالَيْ 30 مِلْيُون سُنَّةٌ ، وَلَكِنْ مَعَ التَّقَدُّمِ التكنولوجي الْمُسْتَمِرّ ، مِنْ غَيْرِ الْمُرَجَحُ أَنْ تُشَكَلَ نَفْس الْخَطَر مِثْل تشيككسولوب .

وَفِي الْعَامِ الْمَاضِي فَقَطْ ، أَجَرْت وَكَالَة نَاسَا بِنَجَاح أَوَّل اخْتِبَار دِفَاع كَوْكَبِي عَلَى الْإِطْلَاقِ للإنسانية يَتَضَمَّن حَرْف كُوَيْكِب فِي أَعْمَاقِ الْفَضَاء .

الروبوتات الْقَاتِلَة

كَثُرَ الْحَدِيثُ مُؤَخَّرًا عَنْ الْمَخَاطِرِ الَّتِي تشكلها أَنْظِمَه الذَّكَاء الِاصْطِناعِي (AI) .

وَبَعْدُ نَجَاحِ رُوبُوتَاتِ الدَّرْدَشَةِ مِثْلِ ChatGPT ، الَّتِي اِجْتَاحَتْ الْعَالَمَ مُنْذُ إِطْلَاقِهَا فِي نِهَايَةِ الْعَامِ الْمَاضِي، اِنْدَلَعَتْ حَرْبٌ فِي وَادِي السَيلِيكُون بِشَأْنِ مَا إِذَا كَانَ يَنْبَغِي بَذْلَ الْمَزِيدِ مِنْ أَجْلِ مُرَاقَبَةِ التَكْنُولُوجْيَا سَرِيعَةَ التَّطَوُّرِ . وَيَنْقَسِمَ أَعْظَمُ الْعُقُولِ فِي الْعَالَمِ حَوْلَ مَا إِذَا كَانَ الذَّكَاءُ الِاصْطِنَاعِيُّ أَمْرًا جَيِدًا أَمْ سَيِئًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ ، مَعَ وُجُودِ أَمْثَالِ مُؤَسِسِ شَرِكَةِ " مَايْكْرُوسُوفْت " بِيلْ غِيتْسْ ، وَالرَّئِيسُ التَّنْفِيذِيُّ لِشَرِكَةِ غُوغِلْ ، سُونْدَارْ بِيتْشَايْ ، فِي جَانِبٍ وَاحِدٍ مِنْ الْجَدَلِ ، وإِيلُونْ مُوسْكْ وَالشَّرِيكُ الْمُؤَسِسُ لِشَرِكَةِ آبِلْ سِتِيفْ وَزْنِيَاكْ مِنْ جِهَةٍ

أُخْرَى . وَامْتَدَّ الْجَدَلُ الْمَرِيرُ إِلَى الْمَجَالِ الْعَامِّ فِي وَقْتٍ سَابِقٍ مِنْ هَذَا الْعَامِ عِنْدَمَا وَقَعَ أَكْثَرُ مِنْ 1000 مِنْ كِبَارِ رِجَالِ الْأَعْمَالِ فِي مَجَالِ التِّكْنُولُوجْيَا عَلَى خِطَابٍ يَدْعُو إِلَى التَّوَقُّفِ مُؤَقَّتًا عَنْ " السِّبَاقِ الْخَطِيرِ " لِتَعْزِيزِ الذَّكَاءِ الِاصْطِنَاعِيِّ . وَقَالُوا إِنَّ هُنَاكَ حَاجَةٌ لِاتِّخَاذِ إِجْرَاءَاتٍ عَاجِلَةٍ قَبْلَ أَنْ يَفْقِدَ الْبَشَرُ السَّيْطَرَةَ عَلَى التِّكْنُولُوجْيَا وَيُخَاطِرُونَ بِالْقَضَاءِ عَلَيْهَا بِوَاسِطَةِ الرُّوبُوتَاتِ . وَفِي عَامِ 2018 ، حَذَّرَ الْأُسْتَاذُ الشَّهِيرُ فِي مَعْهَدِ مَاسَاتْشُوسِتْسْ لِلتِّكْنُولُوجْيَا مَاكْسْ تِيجْمَارْكْ مِنْ أَنَّ الْبَشَرَ يُمْكِنُ أَنْ يُصْبِحُوا يَوْمًا مَا عَبِيدًا لِلْآلَاتِ الذَّكِيَةِ الَّتِي يَصْنَعُونَهَا . وَحَذَّرَ الْعُلَمَاءُ وَالنَّاشِطُونَ مِنْ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الرُّوبُوتَاتِ تُمَثِّلُ " الثَّوْرَةَ الثَّالِثَةَ " فِي الْحَرْبِ بَعْدَ الْبَارُودِ وَالْأَسْلِحَةِ النَّوَوِيَّةِ ، لَكِنَّهَا قَدْ تَجْعَلُ وُجُودَنَا ذَاتَهُ مَوْضِعَ تَسَاؤُلٍ . وَيَعْتَقِدَ الْعَدِيدُ مِنْ عُلَمَاءِ الْكُمْبِيُوتَرِ أَنَّ التَّفَرُّدَ – النُّقْطَةُ الَّتِي يَتَفَوَّقُ فِيهَا الذَّكَاءُ الِاصْطِنَاعِيُّ عَلَى الذَّكَاءِ الْبَشَرِيَ – بَاتَ قَرِيبًا ، مَا يَعْنِي أَنَّنَا سَنَكْتَشِفُ قَرِيبًا مَا إِذَا كَانَتْ الرُّوبُوتَاتُ سَتَكُونُ شَيْئًا جَيِدًا أَمْ سَيِّئًا جِدًّا لِلْبَشَرِيَةِ .

بُرْكَانٌ خَارِقٌ

يَرَى اَلْبَعْضُ أَنَّ اَلْبَرَاكِينَ اَلْهَائِلَةَ هِيَ أَخْطَرُ تَهْدِيدٍ طَبِيعِيٍّ لِوُجُودِنَا ، وَلَدَيْهَا اَلْقُدْرَةِ عَلَى اَلتَّسَبُّبِ فِي زَوَالٍ نَارِيٍّ لِلْغَايَةِ لِجِنْسِنَا اَلْبَشَرِيّ . وَتَحَدَّثَ ثَوْرَاتِ 20 مِنْ اَلْبَرَاكِينِ اَلْعِمْلَاقَةِ اَلْمَعْرُوفَةِ عَلَى اَلْأَرْضِ نَادِرًا – فِي اَلْمُتَوَسِطِ ، مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ كُلَّ 100000 عَامٍ تَقْرِيبًا وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَحْدُثُ ذَلِكَ ، يَكُون لَهَا تَأْثِيرٌ مُدَمِرٌ عَلَى مُنَاخِ كَوْكَبِنَا وَبِيئَتِهِ وَأَوْضَحَ اَلْخُبَرَاءُ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَدِي ثَوَرَانُ بُرْكَانٍ ضَخْمٍ إِلَى نِهَايَةِ اَلْعَالَمِ . أَوَّلاً ، سَتُكَوِّنُ هُنَاكَ سِلْسِلَةً مِنْ اَلزَّلَازِلِ اَلْقَوِيَّةِ مَعَ اِنْدِفَاعِ اَلصَّهَارَةِ إِلَى سَطْحِ اَلْأَرْضِ ، قَبْلُ أَنْ يُطْلِقَ " ثَوَرَانُ عِمْلَاقٍ " اَلْحُمَمِ اَلْبُرْكَانِيَّةِ عَلَى بُعْدِ 40 مِيلاً (64 كِيلُومِتْرًا) وَالرَّمَادُ وَالْغَازَاتُ اَلسَّامَّةُ تَنْدَفِعُ نَحْوَ اَلسَّمَاءِ لِتُشَكِّلَ أَكْبَرَ تَهْدِيدٍ لِلْحَيَاةِ عَلَى اَلْأَرْضِ . وَقَالَ اَلْعُلَمَاءُ إِنَّ اِنْتِشَارَ اَلرَّمَادِ اَلْبُرْكَانِيّ سَيُؤَثِّرُ أَيْضًا عَلَى سُكَّانِ اَلْعَالَمِ ، لِأَنَّهُ سَيُؤَدِي إِلَى اِنْخِفَاضِ دَرَجَاتِ اَلْحَرَارَةِ ، مَا يَجْعَلُ اَلزِرَاعَةَ صَعْبَةٌ ، وَبِالتَّالِي يُؤَدِي إِلَى اَلْمَجَاعَةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ اَلْعَالَمِ . اَلْكَائِنَاتُ اَلْفَضَائِيَّةُ اَلْمُحْتَمَلَةُ يَتَّفِقُ مُعْظَمُ اَلْخُبَرَاءِ عَلَى أَنَّ اَلْحَيَاةَ اَلْفَضَائِيَّةَ مَوْجُودَةٌ بِشَكْلٍ شِبْهٍ مُؤَكَّدٍ فِي مَكَانٍ مَا فِي اَلْكَوْنِ ، مَعَ اَلْأَخْذِ فِي اَلِاعْتِبَارِ أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ 5000 كَوْكَبٍ خَارِجَ اَلْمَجْمُوعَةِ اَلشَّمْسِيَّةِ قَدْ تَمَّ اِكْتِشَافُهَا حَتَّى اَلْآنَ فِي مَجَرَّتِنَا ، وَهُنَاكَ حَوَالَيْ 200 مِلْيَارِ مَجَرَّةٍ فِي اَلْمَجْمُوعِ . لَكِنَّ اَلْأَمْرَ اَلْأَكْثَرَ إِثَارَةً لِلْجَدَلِ هُوَ مَا إِذَا كَانَ أَيٌّ مِنْ هَذَا سَيَكُونُ ذَكِيًا بِنَاءً عَلَى اَلِاحْتِمَالِيَّةِ اَلْمَذْكُورَةِ ، سَيَكُونُ مِنْ اَلْعَدْلِ أَنْ نَأْمُلَ أَنْ لَا يَكُونُ اَلْأَمْرُ

كَذَلِكَ . كَما حَذَّرَ اَلْفِيزْيَائِيُّ اَلرَّاحِلُ اَلْبُرُوفِيسُور سِتِيفِنْ هَوْكِينْغْ ذَاتِ مَرَّةٍ : " إِذَا نَظَرْتُ إِلَى اَلتَّارِيخِ ، فَإِنَّ اَلِاتِّصَالَ بَيْنَ اَلْبَشَرِ وَالْكَائِنَاتِ اَلْأَقَلَ ذَكَاءً غَالِبًا مَا يَكُونُ كَارِثِيًّا مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِهَا ، وَقَدْ سَارَتْ اَلْمُوَاجَهَاتُ بَيْنَ اَلْحَضَارَاتِ ذَاتِ اَلتِّقْنِيَّاتِ اَلْمُتَقَدِّمَةِ مُقَابِلَ اَلتِّقْنِيَّاتِ اَلْبُدَائِيَّةِ بِشَكْلٍ سَيِّئٍ " . وَأَظْهَرَ دَعْمًا لِلْجُهُودِ اَلْمَبْذُولَةِ لِلْعُثُورِ عَلَى كَائِنَاتٍ فَضَائِيَّةٍ مِنْ خِلَالِ اَلِاسْتِمَاعِ ، لَكِنَّهُ حَذَّرَ مِنْ اَلتَّوَاصُلِ بِنَشَاطٍ فِي شَكْلِ رَسَائِلَ إِذَاعِيَّةٍ بِنَاءً عَلَى مَا عَلَّمَنَا إِيَّاهُ اَلْمَاضِي اَلْبَشَرِيُّ حَوْلَ مَدَى خُطُورَةِ ذَلِكَ لَكِنَّ هَذَا لَمْ يُوقِفْ اَلْعُلَمَاءُ . فِي اَلْعَامِ اَلْمَاضِي ، ظَهَرَ أَنَّ اَلْخُبَرَاءَ يُخَطِّطُونَ لِبَثِّ رِسَالَةٍ إِذَاعِيَّةٍ تَحْتَوِي عَلَى مَوْقِعِ اَلْأَرْضِ فِي أَعْمَاقِ اَلْفَضَاءِ ، عَلَى أَمَلِ أَنْ يَتِمَّ تَلَقِّيهَا وَفَهْمُهَا يَوْمًا مَا مِنْ قِبَلِ حَضَارَةٍ غَرِيبَةٍ .

ابتلاعنا مِنْ قِبَلِ الشَّمْسِ

قَد تَعْتَقِد أَنَّهَا لَيْسَتْ الطَّرِيقَة الْأَكْثَر آثَارِه حَتَّى يَنْتَهِيَ الْعَالِم .

وَلَكِن هُنَاك فِرْصَة كَبِيرَة أَنَّه عِنْدَمَا تَنْفَد الشَّمْسُ مِنْ الْوَقُودِ ، يُمْكِنُ أَنْ تبتلع عُطَارِد وَالزُّهْرَة وَرُبَّمَا الْأَرْض فِي أعقابها .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا لَن يُحَدَث لِنَحْو خَمْسَة مليارات سُنَّةٌ ، كَشْف الْعُلَمَاء الأسْبُوعَ الْمَاضِي أَنَّهُمْ رَأَوْا لَمْحَة عَمَّا سيبدو عَلَيْهِ بَعْدَ اِكْتِشاف نَجْم يَبْتَلِع كَوْكَبا عَلَى بُعْدٍ 12000 سُنَّةٌ ضَوْئِيَّةٌ فِي مجرتنا دَرْب التّبَانَة .

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْعَالَمَ الْحارّ بِحَجْم كَوْكَب الْمُشْتَرِي قَدْ سُحب إلَى الْغِلَاف الجَوِيّ لِلنَّجْم الْمُحْتَضَر ثُمَّ اسْتَهْلَك فِي قَلْبِهِ .

وَقَال باحثون فِي مَعْهَد ماساتشوستس للتكنولوجيا : "نحن نَرَى مُسْتَقْبل الأرض" .

إذَا كَانَتْ هُنَاكَ حَضَارَةٌ أُخْرَى تراقبنا مَنْ عَلَى بُعْدٍ 10000 سُنَّةٌ ضَوْئِيَّةٌ بَيْنَمَا كَانَتْ الشَّمْسُ تبتلع الْأَرْض ، فسيرون الشَّمْس تُشْرِق فَجْأَة أَثْنَاء إخْرَاجُهَا لِبَعْض الْمَوَادّ ، ثُمّ تُشْكِل الْغُبَار حَوْلَهَا ، قَبْلَ أَنْ تَسْتَقِرَّ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

عَكْس الْمَجَال الْمَغْنَاطِيسِيِّ لِلْأَرْض

تاريخيا ، انْقَلَب القطبان الشَّمَالِيّ والجنوبي لِلْأَرْض كُلّ 200000 – 300000 سُنَّةٌ .

وَمَعَ ذَلِكَ ، فَقَد حَدَث آخِرهَا مُنْذ حَوَالَي 780 أَلْفِ عَامٍ ، مَا دَفَعَ العَدِيدِ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى الِاعْتِقَادِ بِأَنْ انعكاسا آخَرُ قَدْ يَكُونُ وَشِيكًا .

وَقَد يَبْدُو هَذَا مقلقا ، وَلَكِنْ فِي عَصْرِ نِظَام تَحْدِيدٌ الْمَوَاقِع الْعَالَمِيّ (GPS) بَدَلًا مِنْ البوصلات فَقَط ، رُبَّمَا يَبْدُو غَرِيبًا أَن نتخيل أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى نِهَايَةِ جنْسِنَا الْبَشَرِيّ . وَرُبَّمَا يَكُونُ هُنَاكَ دَرْسٌ نَتَعَلَّمُهُ مِنْ أَسْلَافِنَا

أَظْهَرَت الْأَبْحَاث أَنَّ الِانْعِكَاسَ الْمُؤَقَّت للأقطاب الْمَغْنَاطِيسِيَّة قَبْل 42000 عَام كَانَ يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى إِنْسَانٍ نياندرتال مِنْ خِلَالِ إِحْدَاث تَغْيِير مُناخِي كارِثِي .

وَكَانَ هَذَا الْحَدَثِ الَّذِي يَقْرِنُ نِهَايَةَ الْعَصْرِ الْجَلِيدِيَ الْأَخِيرِ ، وَالْمَعْرُوفَ بِاسْمِ رِحْلَةِ لَاشَامبْ ، حَرَكَةٌ مِغْنَاطِيسِيَّةٌ قَصِيرَةٌ جِدًّا لِلْقُطْبَيْنِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ اِنْعِكَاسًا كَامِلاً فِي الْمَجَالِ الْمِغْنَاطِيسِيّ لِلْأَرْضِ . وَعِنْدَمَا يَحْدُثُ الِانْقِلَابُ الْكَامِلُ ، فَإِنَّهُ يَسْبِقُهُ تَضَاؤُلُ الْمَجَالِ الْمِغْنَاطِيسِيّ لِلْأَرْضِ إِلَى لَا شَيْءَ تَقْرِيبًا ، فَقَطْ لِتُظْهِرَ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ حَوَالَيْ قَرْنٍ مَعَ عَكْسِ الْقُطْبَيْنِ . وَالْأَمْرُ الْمُقْلِقُ هُوَ أَنَّ قُوَّةَ مَجَالِنَا الْمِغْنَاطِيسِيّ الْيَوْمِ قَدْ اِنْخَفَضَتْ بِنَحْوِ 5 % عَلَى مَدَى الْمِائَةِ عَامِ الْمَاضِيَةِ . وَهَذَا مُهِمٌّ لِأَنَّ الْمَجَالَ الْمِغْنَاطِيسِيَّ يَعْمَلُ كَحَاجِزٍ لِحِمَايَةِ طَبَقَةِ

ٱلْأُوزُونِ عَنْ طَرِيقِ تَحْوِيلِ ٱلْأَشِعَّةِ ٱلْكَوْنِيَّةِ وَعَوَاصِفُ ٱلْجُسَيْمَاتِ عَنْ ٱلشَّمْسِ لِحُسْنِ ٱلْحَظِّ ، قَدَّمَتْ دِرَاسَةً حَدِيثَةً تَطْمِينَاتٍ بِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ ٱلْمُرَجَّحِ أَنْ تَنْقَلِبَ ٱلْأَقْطَابُ ٱلْمِغْنَاطِيسِيَّةُ لِلْأَرْضِ فِي أَيِّ وَقْتٍ قَرِيبٍ . وَقَامَ بَاحِثُونَ مِنْ جَامِعَةِ لُونْدْ بِتَجْمِيعِ بَيَانَاتٍ حَوْلَ قُوَّةِ ٱلْمَجَالِ ٱلْمِغْنَطِيسِيِّ ٱلْأَرْضِيِّ لِلْأَرْضِ ٱلَّتِي تَمْتَدُّ إِلَى 9000 عَامٍ ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَا يُوجَدُ دَلِيلٌ عَلَى حُدُوثِ ٱنْعِكَاسٍ .

تَجَوُّلُ ٱلثُّقْبِ ٱلْأَسْوَدِ

لَا يَزَالُ يَتَعَيَّنُ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ تَعَلُّمَ ٱلْكَثِيرِ عَنْ ٱلثُّقُوبِ ٱلسَّوْدَاءِ ، عَلَى ٱلرَّغْمِ مِنْ ٱلْتِقَاطِهِمْ مُؤَخَّرًا أَوَّلَ صُورَةٍ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ لِأَحَدِ ٱلْأَجْسَامِ ٱلْغَامِضَةِ . وَصْفُهُ ٱلْخُبَرَاءُ بِأَنَّهُ " وَحْشٌ " ، يَبْلُغُ عَرْضُ ٱلثُّقْبِ ٱلْأَسْوَدِ 24 مِلْيَارِ مَيْلٍ (40 مِلْيَارِ كِيلُومِتْرٍ) – أَيْ ثَلَاثَةُ مَلَايِينِ ضِعْفِ حَجْمِ ٱلْأَرْضِ – وَتَمَّ ٱلْعُثُورُ عَلَيْهِ فِي مَجَرَّةٍ بَعِيدَةٍ تُسَمَّى M 87

وَمِنْ ٱلْمَعْرُوفِ أَنَّ ثُقْبًا أُسُودًا هَائِلًا مُشَابِهًا يُسَمَّى Sagittarius A يَقَعُ فِي قَلْبِ مَجَرَّتِنَا دَرْبِ ٱلتَّبَّانَةِ ، وَلَكِنْ عَلَى حَدِّ عِلْمِنَا لَا تُوجَدُ مِثْلُ هَذِهِ ٱلْأَجْسَامِ فِي ٱلْمِنْطَقَةِ ٱلْمُجَاوِرَةِ مُبَاشِرَةً لِلْأَرْضِ . وَتَمَّ ٱلْكَشْفُ عَنْ ٱكْتِشَافٍ أَقْرَبِ ٱلثُّقُوبِ ٱلسَّوْدَاءِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِكَوْكَبِنَا فِي ٱلشَّهْرِ

اَلْمَاضِي فَقَطْ . Gaia BH 1 و Gaia BH 2 ، اَللَّذَانِ تَمَّ رَصْدُهُمَا بِاسْتِخْدَامِ اَلْبَيَانَاتِ اَلَّتِي تَمَّ جَمْعُهَا بِوَاسِطَةِ اَلْمَرْكَبَةِ اَلْفَضَائِيَّةِ Gaia اَلتَّابِعَةِ لِوِكَالَةِ اَلْفَضَاءِ اَلْأُورُوبِّيَّةِ ، تَبْعُدَانِ فَقَطْ 1560 سَنَةٍ ضَوْئِيَّةٍ و 3800 سَنَةٍ ضَوْئِيَّةٍ عَنْ اَلْأَرْضِ ، عَلَى اَلتَّوَالِي . لَا دَاعِي لِلْقَلَقِ بِشَأْنِهَا ، وَلَكِنْ مَاذَا لَوْ كَانَ اَلثُّقْبُ اَلْأَسْوَدُ قَدْ تَجَوَّلَ فِي اِتِّجَاهِنَا . بِقَدْرِ مَا قَدْ يَبْدُو هَذَا بَعِيدٌ اَلْمَنَالِ ، فَإِنَّ اَلْفِكْرَةَ لَيْسَتْ مُسْتَحِيلَةً نَظَرًا لِأَنَّ مَا يُسَمَّى بِالثُّقُوبِ اَلسَّوْدَاءِ " اَلْمُرْتَدَّةِ " قَدْ تَمَّ اِكْتِشَافُهَا بِشَكْلٍ يُنْذِرُ بِالسُّوءِ وَتَنْتَقِلُ عَبْرَ اَلْفَضَاءِ بِطَرِيقَةٍ مُمَاثِلَةٍ لِلْكَوَاكِبِ اَلْمَارِقَةِ . وَفِي اَلشَّهْرِ اَلْمَاضِي فَقَطْ ، حَذَّرَتْ نَاسَا مِنْ " وَحْشٍ غَيْرِ مَرْئِيٍّ طَلِيقٍ " ، عَلَى شَكْلِ ثُقْبٍ أَسْوَدَ " هَارِبٍ " . وَيَقَعُ اَلْجِسْمُ عَلَى بُعْدِ 7.5 مِلْيَارِ سَنَةٍ ضَوْئِيَّةٍ مِنْ اَلْأَرْضِ وَيُؤَدِّي حَالِيًّا إِلَى تَشَكُّلِ اَلنُّجُومِ أَثْنَاءَ تَدَفُّقِ اَلْغَازِ أَمَامَهُ . وَهَذَا لَيْسَ قَرِيبًا مِنَّا فِي أَيِّ مَكَانٍ ، وَلَكِنْ إِذَا مَرَّ ثُقْبٌ أَسْوَدَ بِحَجْمِ اَلْقَمَرِ عَبْرَ نِظَامِنَا اَلشَّمْسِيِّ ، فَقَدْ يَتَسَبَّبُ ذَلِكَ فِي كَارِثَةٍ . وَمَعَ عَدَمِ قُدْرَةِ اَلضَّوْءِ عَلَى اَلْهُرُوبِ مِنْ اَلثُّقُوبِ اَلسَّوْدَاءِ ، سَيَكُونُ لِلْأَرْضِ فُرْصَةً ضَئِيلَةً أَيْضًا . وَسَيَمْتَصُّ كَوْكَبُنَا إِلَى أُفُقِ اَلْحَدَثِ اَلْخَاصَ بِالْجِسْمِ وَيُمَزَّقُ بَعِيدًا عَنْ اِحْتِمَالِ أَنْ يَلْقَى بِهِ فِي جُزْءٍ آخَرَ مِنْ اَلْكَوْنِ .

اَلْحَرْبُ اَلنَّوَوِيَّةِ

اِسْتَحْوَذَ اَلْخَوْفُ مِنْ حَرْبٍ نَوَوِيَّةٍ مُرَوِّعَةٍ عَلَى اَلْمُجْتَمَعِ اَلْعَالَمِيِّ لِعُقُودٍ . وَمَا إِذَا كَانَ لِلْحَرْبِ تَأْثِير عَلَى مُسْتَوَى اَلِانْقِرَاضِ سَيَعْتَمِدُ عَلَى مَا إِذَا كَانَتْ قَدْ أَدَّتْ إِلَى " شِتَاءٍ نَوَوِيٍّ " – خَلْقُ سَحَابَةٍ مِنْ اَلدُّخَانِ عَالِيَةً فِي اَلْغِلَافِ اَلْجَوِيِّ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْجُبَ أَشِعَّةُ اَلشَّمْسِ ، وَتُخَفِّضَ دَرَجَاتُ اَلْحَرَارَةِ إِلَى مَا دُونَ دَرَجَةِ اَلتَّجَمُّدِ ، وَرُبَّمَا تُدَمِّرُ طَبَقَةَ اَلْأُوزُونِ . وَلِكَيْ يَحْدُثَ هَذَا ، يَجِبَ أَنْ تُطْلِقَ قَنَابِلُ حَارِقَةٌ ضَخْمَةٌ يُمْكِنُ أَنْ تَرْفَعَ اَلْغُبَارَ إِلَى اَلْغِلَافِ اَلْجَوِيِّ . وَمِنْ اَلْمُحْتَمَلِ أَنْ تُؤَدِّيَ اَلنِّدَاءَاتُ إِلَى تَفَكُّكِ اَلْإِمْدَادَاتِ اَلْغِذَائِيَّةِ اَلْعَالَمِيَّةِ ، مَا يَجْعَلُ اَلْمَجَاعَةَ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ وَانْهِيَارِ اَلدُّوَلِ أَمْرًا مُحْتَمَلاً .

اَلِاحْتِبَاسُ اَلْحَرَارِيُّ

اَلِانْقِرَاضُ جُزْءً مِنْ اَلْحَيَاةِ ، وَتَخْتَفِي اَلْحَيَوَانَاتُ وَالنَّبَاتَاتُ طَوَالَ اَلْوَقْتِ . وَانْقَرَضَتْ حَوَالَيْ 98 % مِنْ جَمِيعِ اَلْكَائِنَاتِ اَلْحَيَّةِ اَلَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً عَلَى كَوْكَبِنَا اَلْآنَ . وَفِي اَلْوَاقِعِ ، عَلَى مَدَى 500 مِلْيُونِ سَنَةِ اَلْمَاضِيَةِ ، كَانَتْ هُنَاكَ خَمْسَةَ أَحْدَاثِ اِنْقِرَاضٍ جَمَاعِيٍّ كَبِيرَةٍ غَيَّرَتْ وَجْهَ اَلْحَيَاةِ عَلَى اَلْأَرْضِ . وَيُحَذِّرَ بَعْضُ اَلْعُلَمَاءِ مِنْ أَنَّ حَدَثًا سَادِسًا قَدْ بَدَأَ بِالْفِعْلِ وَأَلْقَوْا بِاللَّائِمَةِ عَلَيْهِ فِي تَنَامِي شَبَحِ اَلِاحْتِبَاسِ اَلْحَرَارِيَ وَيَتَوَقَّعُ اَلْخُبَرَاء حَالِيًا أَنْ يُؤَدِّيَ تَغَيُّر اَلْمُنَاخ

الناجم عَن النَشَاط الْبَشَرِيّ إِلَى زِيَادَةٍ مُتَوَسِّطٌ دَرَجَات الْحَرَارَة العَالَمِيَّة بِمِقْدَار 7 . 2 دَرَجَة فهرنهايت (4 دَرَجَات مئوية) مَا لَمْ تُتَّخَذْ الْبُلْدَان إِجْرَاءات فَوْرِيَّة وَهَامَة لِلْحَدَ مِن ظَاهِرِهِ الِاحْتِبَاس الحراري .

وَبِقَدْرِ مَا قَدْ يَبْدُو هَذَا التَّحْذِير رهيبا ، هُنَاك خَطَر مِنْ أَنَّ يَكُونَ الاحترار أَكْثَرُ حِدَّةً – وَإِن يَرْتَفِع إِلَى 10 . 8 دَرَجَة فهرنهايت (6 دَرَجَات مئوية) .

وَسَيَكُون تَأْثِير هَذَا أَكْبَرُ فِي الْبُلْدَانِ الْفَقِيرَة ، وَالَّتِي قَدْ تُصْبِح غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلْحَيَاة ، كَما تُشِير الْأَبْحَاث ، مَا يُؤَدِي إِلَى وفيات جَمَاعِيَّة ومجاعات وَهَجْرِه جَمَاعِيَّة .

وَمِنْ حَيْثُ الإبادة الْكَامِلَة ، إِذَا اسْتَمَرَّتْ دَرَجَات الْحَرَارَة العَالَمِيَّة فِي الِارْتِفَاعِ ، فَقَدْ يُؤَدِي ذَلِكَ إِلَى تَأْثِيرِ الدَّفيئة الجامح الَّذِي فِي أَقْصَى الْحَالَاتِ المتطرفة مِنْ شَأْنِه أَنْ يَجْعَلَ الْأَرْض أَقْرَبَ إِلَى كَوْكَب الزَّهْرَة ، حَيْثُ يَكُونُ أَعْلَى ارْتِفَاع فِي يَوْمٍ عَادِيٍّ هُو 900 دَرَجَة فهرنهايت (482 دَرَجَة مئوية) .

نِهايَةِ كُلِّ شَيْءٍ

الطَّاقَة الْمُظْلِمَة

رَصد سَوَّل بيرلموتر ، عَالِمٌ الفِيزِيَاء الَّذِي يَعْمَلُ فِي مُخْتَبَرِ لُورِنْس بيركلي الوَطَنِيّ ، إشَارَةٌ فِي الْبَيَانَات الْخَاصَّة بالمستعرات الْعُظْمَى ، وَهِيَ الْإِشَارَةُ الَّتِي مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَوْجُودَةً . فِي الْوَاقِعِ ، كَانَتْ هَذِهِ الْإِشَارَةَ عَكْس تِلْكَ الَّتِي تُوقِعُهَا هُو وَأَيّ شَخْصٌ آخَرَ فِي فَرِيقِه . تَتَّسِم مُلَاحَظَة الْكَوْن ورصده بالصعوبة الْبَالِغَة ، وَرُبَّمَا كَانَتْ الْبَيَانَات متضاربة لِدَرَجَة يَصْعُب مَعَهَا الِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ، وَرُبَّمَا وَقَعَ فَرِيسَة لِأَحد الْأَخْطَاء المنهجية الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الْعُلَمَاءُ مِنْ وَقْتِ لآخَرَ ؛ فَحَتَّى الْعَالِم الْعَظِيم إدوين هَابِل غَالَى فِي تَقْدِيرِهِ لمعدل تَمَدَّد الْكَوْن وَقَلّل مِنْ عُمَرَ الْكَوْن بمعامل قِيمَتُه ٧ بِسَبَب خَطَأٌ مَنْهَجِي لَمْ يُدْرِكْهُ . ٩ رُبَّمَا كَانَتْ الْأَفْكَار الْخَاصَّة السوداوية هِيَ أَكْثَرَ مَا أَزْعَج بيرلموتر ؛ إذْ كَانَ دخيلًا عَلَى مَجَالٌ عَلِم الكونيات وَكَان الْبَعْض يتصيدون لَه الْأَخْطَاء وينتظرون تَعَثُّرُه .

إلَّا أَنْ فريقًا آخَر بقيادة بريان شميت وَآدَم رايْس فِي جَامِعِهِ هارفارد تَوَصَّلَ إلَى النَّتَائِج نَفْسِهَا . وَفِي عَامِ ١٩٩٨ ، نُشِرَت الْمَجْمُوعَتَان الْبَيَانَات الَّتِي توصلتا إلَيْهَا ، وَهُوَ مَا تَسَبَّبَ فِي تَغَيُّرِ مَشْهَد عَلِم الكونيات نهائيًا . كَانَت الْمَجْمُوعَتَان تتبعان نَهْج هَابِل الْقَائِم عَلَى اسْتِخْدَامِ أَجْرَامٌ ذَات دَرَجَة سُطُوع مَعْرُوفَةٌ لَتَتَبَّع تَارِيخ تَمَدَّد الْكَوْن . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ ،

فَإِنَّ النُّجُومَ الْمُتَغَيِرَة الَّتِي اِسْتَخْدَمَها هَابِل يُمْكِنُ رُؤْيَتُهَا فَقَطْ مِنْ مَسَافَةِ ٣ مليارات سُنَّةٌ ضَوْئِيَّةٌ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ هُنَاكَ حَاجَةَ إِلَى وَسِيلَةٌ جَدِيدَة يُمْكِن بِهَا حِسَاب تَمَدَّد الْكَوْن فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ ؛ لِذَا ، فضَّل الْفَرِيقَان نَوْع انفجارات المستعرات الْعُظْمَى الَّذِي يَحْدُثُ فِي نِظَامٍ نَجْمِي ثُنائِيٌّ ؛ نظرًا لِأَنَّ كُلَّ انْفِجَار لَهُ دَرَجَةً ثَابِتَةٌ مِنْ السطوع ، فضلًا عَنْ أَنْ سُطُوع المستعر الْأَعْظَم يَفُوق سُطُوع الْمَجَرَّة الَّتِي تَحْتَوِيه ، وَمَن ثمَّ يُمْكِنُ رُؤْيَةُ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ مِنْ الانفجارات مِن مَسافات كَبِيرَة لِلْغَايَة

مَا الَّذِي رَأَوْه ؟ تَنَبَّأَ النموذج الْقِيَاسِيّ للتمدد مُتَبَاطِئٌ السُّرْعَة بِدَرَجَة العتامة الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهَا انفجارات المستعرات الْعُظْمَى مِنْ مَسَافَةِ تَبْلُغ ٥ إِلَى ٦ مليارات سُنَّةٌ ضَوْئِيَّةٌ ، وَقَد لَاحَظ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ أَنَّ انفجارات المستعرات الْعُظْمَى كَانَت اعْتَمّ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ بِنِسْبَة ٣٠٪ فِي الْمُتَوَسِطِ . سَبَبَ ذَلِكَ هُوَ أَمَّا أَنْ النُّجُوم المتفجرة كَانَت غَرِيبَةٌ ومعتمة فِي حَدَ ذَاتِهَا لِسَبَب مَا ، أَوْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ عَلَى مَسَافَةِ أَبْعَدَ مِنْ مَكَانِهَا الطَّبِيعِيّ بِنِسْبَة ١٥٪ ، وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ هُوَ أَنْ الْفَضَاءَ تَمَدَّد بِذَلِكَ الْمِقْدَارِ الْإِضَافِيّ نسبةً إِلَى الْكَوْن الخَاضِع لسيطرة الْمَادَّة ، وَهَذَا « الشَّيْء » الْإِضَافِيَ كَانَ يَتَسَبَّبَ فِي زِيَادَةِ سُرْعَة تَمَدَّد الْكَوْن .

لِأَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ تَالِيَةٌ ، ظَلِلْنَا عَلَى جَهلْنَا بِمَاهِيَّة ذَلِكَ الشَّيْءِ ، وَعَلَى غِرَارٌ « الْمَادَّة الْمُظْلِمَة » فَإِنَّ مُصْطَلَحَ « الطَّاقَة الْمُظْلِمَة » مَا هُوَ إِلَّا تَعْبِيرٌ عَنِ جَهلْنَا ، وَلَيْس وصفًا ماديًا . كُلُّ مَا نَعْرِفُهُ حقًّا هُوَ أَنْ ثَمَّةَ قُوَّة تَعْمَلُ عَمَلَ الجَاذِبِيَّة الْمُضَادَّة أَو الغازات ذَات الضَّغْط السَّالِب ، وَأَنَّهَا بَدَأَت فِي السَّيْطَرَة عَلَى سُلُوكِ الْكَوْن مُنْذ حَوَالَي ٥ مليارات عَام . نَخْلُص مِمَّا سَبَقَ إِلَى أَنْ للكون قُوَّة تَعْمَلُ عَلَى إِبْطَاءٌ تَمَدُّدُه وَأُخْرَى تَزِيد مِنْ سُرْعَةِ هَذَا التَّمَدُّد . تَتَمَثَّل الْقُوَّة الْأُولَى الَّتِي تُعْمَلُ عَلَى إِبْطَاءٌ تَمَدَّد الْكَوْنِ فِي الْمَادَّةِ الْمُظْلِمَة ، وَهِي صَارَتْ ذَاتَ تَأْثِير أَضْعَف مَع تَمَدَّد الْكَوْن وَانْخِفَاضٌ كَثَافَتَه . أَمَّا الْقُوَّةُ الَّتِي تُعْمَلُ عَلَى تَسَارَع التَّمَدُّد فَتَتَمَثَّل فِي الطَّاقَة الْمُظْلِمَة ، الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً دومًا ويهيمن تَأْثِيرِهَا بِوُضُوح الْآن . لِذَا يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ أَنَّنَا نَعيش فِي كَوْنِ سَرِيع التَّقَلُّب .

كَان سَوَّل بيرلموتر سينزعج حقًّا لَوْ أَنَّهُ عَرَّفَ مِقْدَارَ القَلَق الَّذِي قَدْ تثيره الطَّاقَة الْمَظْلِمَةِ فِي مُجْتَمَعِ الفِيزِيَاء . فِي بِدَايَةِ عشرينيات القَرْنِ العِشْرِينَ ، وَقَبل الاكتشافات الْعَظِيمَةِ الَّتِي تُوَصَلُ إِلَيْهَا هَابِل ، كَان عُلَمَاء الْفَلْك يُخْبِرُون أَينشتاين أَن الْكَوْن سَاكِنٌ ، لَكِن نظريته أَظْهَرَت أَن

الْكَوْن دِينامِيكِي . وَقَد « جمَل » أَيْنشتاين معادلاته بِإِضَافَة ثَابِت كَوْنِي كَي يُوَاجِه مَيْلِهِم للتنبؤ بانهيار الْكَوْن عَلَى ذَاتِهِ .

رُبَمَا كَانَتْ الطَّاقَة الْمُظْلِمَة هِي الثَّابِت الْكَوْنِيّ الَّذِي اسْتَخْدَمَه أَيْنشتاين ، أَوْ رُبَمَا كَانَتْ نوعًا غريبًا مِنْ الطَّاقَةِ يَخْتَلِفَ عَلَى امْتِدَادِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يُسمى بمجال الكوينتيسينس . تعزو الفِيزِيَاء الْقِيَاسِيَّة تِلْك الطَّاقَة إِلَى الْفَرَاغ ، لكِن أَفْضَل الحِسابات تَتَنبّأ بِطاقَةٌ أَكْبرُ مِمَّا يَحْتَاجُه الْعُلَمَاء لِتَفْسِير تَسَارَع تَمَدَّد الْكَوْن بِمِقْدَار ١٠١٢٠ مَرَّة . بمقدورنا أَن نحي نَظَرِيَّة النَسْبِيَّة الْعَامَّة جانبًا ، الَّتِي حَقَّقْت نجاحًا مدويًّا كنظرية للجاذبية ، أَوْ أَنَّ نَتَوَصَّل إِلَى نَظَرِيَّات فيزيائية جَدِيدَة جريئة . مِنَ الصَّعْبِ تَحْدِيدٌ مَن الَّذِي سيشعر بإحراج أَكْبر ؛ عُلَمَاء الْفُلْك الَّذِينَ لَمْ ينجحوا فِي تَفْسِيرِ سِوَى نَسَبَه ٥٪ فَقَطْ مِنْ الْكَوْن أَم الفيزيائيون الَّذِين أخفقوا فِي تَقْدِيرِ حَجْم الطَّاقَة الْمُظْلِمَة بِمِقْدَار ١٢٠ قِيمَة آسِيَة .

بِصَرْف النَظَر عَنْ الْحِيرَة النَظَرِيَّة الَّتِي تراودنا ، تَظَل الْمُلَاحَظَةُ هِيَ الْعَامِل الحاسِم ، فَمَن الْمُلَاحَظ أَن الْكَوْن يتمدد بمعدل مُتَزَايِدٌ ، وَلَوْ اسْتَمَرَّ هَذَا الْأَمْر ، فَإِنَّ هَذَا يَنْذِر حتمًا بِنِهَايَة تهيمن عَلَيْهَا الْوَحْدَة الشَّدِيدَة ، لكِن خَصَائِص الطَّاقَة الْمَظْلِمَةُ غَيْرُ مُحَدَّدَة تمامًا مِن وَاقِعٌ

الْمُلَاحَظَة أَو التَّظرِيَّات ، لِذَا يَجبُ أَنْ نَضَعَ فِي اعْتِبَارِنَا نَسَبَه قَلِيلَةٍ مِنْ الْمَادَّةِ الْعَادِيَّة غَيْر السَّوْدَاءَ عِنْدَ التَّنَبُّؤ بالنتائج طَوِيلَة الْأَمَد .

الْآفَاق غَيْرِ الْمَرْئِيَّةِ

مَعَ أَنَّ الْكَون دَائِمْ التَّمَدُّد ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا فِيهِ يتمدد ؛ فجسدك وسيارتك ومنزلك كُلُّهَا أَشْيَاءَ لَا تتمدد ؛ لِأَنَّهَا متماسكة بَعْضِهَا مَعَ بَعْضِ بِفِعْل الْقُوَى الذُّرِيَّة . أيضًا نَفْس الْحَالِ مَعَ الْمَجْمُوعَة الشَّمْسِيَّة الَّتِي لَا تتمدد ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ مكوناتها متماسكة بَعْضِهَا مَعَ بَعْضِ بِفِعْل الشَّمْس ، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى المجرات ، بِمَا فِيهَا مجرة دَرْب التَّبَانَة ، الَّتِي لَا تتمدد بِفِعْل مدارات النُّجُوم الَّتِي يُحِيطُ بِهَا يَنْبُوع الْمَادَّة الْمُظْلِمَة الشَّامِل .

ستعمل الطَّاقَة الْمُظْلِمَة عَلَى سُحِب الْكَثِيرِ مِنْ المجرات بعيدًا بَعْضِهَا عَنْ بَعْضِ ، لَكِنَّهَا لَن تُخل بالتكامل البنيوي لمجموعات أَو عَنَاقِيد المجرات ، عَلَى الْمَدَى الْقَصِيرِ عَلَى الْأَقَلَ . قَد يُبَثّ الْكَون ذُو التَّمَدُّد الْمُتَبَاطِئ شعورًا بِالرَّاحَة ؛ لِأَنَّه يُطْرَح احْتِمَالٌ رُؤْيَة الْمَزِيدَ مِنْ أَبْعَادِهِ ، فَأَقْصَى حُدُود رُؤْيَتِنَا فِي دِرَاسَة الْكَون هُو الْأُفُق ، مِثْل حُدُود رُؤْيَتِنَا لِأَيّ مَكَان عَلَى كَوكَب الْأَرْض . ويتمدد الْأُفُق فِي الْكَوْنِ ذِي التَّمَدُّد الْمُتَبَاطِئ بِمُرُور الْوَقْت ؛ لِأَنّ الضَّوْء يُمْكِنُ أَنْ

يَصِلَ إِلَيْنَا مِنْ مَنَاطِق أَكْثَر بعدًا فضلًا عَن الْمَنَاطِق الَّتِي كَانَتْ تَبْتَعِد بَعْضهَا عَنْ بَعْض بِسُرْعَة أَكْبرُ مِنْ سُرْعَةِ الضَّوْء فِي السَّابِق ، وَمِنْ ثَمَّ يَتِيح التَّمَدُّد الْمُتَبَاطِئ لِلضَّوْء « اللَحَاق بِنَا » . وَنَخْلُص مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنْ الْكَوْن الْقَابِل للرصد يُصْبِح أَكْبر حجمًا كُلَّ يَوْمٍ عَنْ ذِي قَبْلُ .

الْكَوْن ذُو التَّمَدُّد المتسارع يُسَبب اِبْتِعَادٌ الْمَنَاطِق النَائِيَة بعيدًا عَنَّا بِصُورَة أَسْرَع وَأَسْرَع ، وَأَيُّ شَيْءٍ لَا تتحكم فِيه الجَاذِبِيَّة سينجرف بعيدًا بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ عَلَيْنَا رُؤْيَتِه . يُمْكِن تَشْبِيهٌ الْمَوْقِفِ فِي الْكَوْنِ ذِي التَّمَدُّد الْمُتَبَاطِئ بالصياد الَّذِي لَدَيْه العَدِيدِ مِنَ صنارات الصَّيْد والأسماك العالقة فِي أَطْرَافِ الصنارات ، هَذَا الصَّيَّاد يُتْرَك السَّمَك يَلْهُو وَيَلْعَبُ ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ سيصيبه الْإِعْيَاء فِي وَقْتِ مَا وستقل سُرْعَتِه ، وَمَن ثمَّ سيسحبه وَيَسْتَمْتِع بوجبة شَهِيَّة . أَمَّا فِي حَالَةِ الْكَوْنِ ذِي التَّمَدُّد المتسارع فينتاب الصَّيَّاد الهلع وَهُوَ يَرَى جَمِيع الأَسْمَاك تَهَرَّبَ مِنَ إِمَامِهِ بِصُورَة أَسْرَع وَأَسْرَع ، بِحَيْثُ لَا تتسنى لَهُ الفُرْصَةُ لاصطيادها ، وَهَكَذَا يَظَلّ الصَّيَّاد جائعًا .

عَمِل مايْكِل بوشا وزملاؤه مَنْ جَامَعَهُ ميشيجن عَلَى اِسْتِشْرَافٌ الْعَوَاقِب النَاجِمَة عَن التَّمَدُّد المتسارع للكون ، مفترضين أَن الطَّاقَة الْمَظْلَمَةِ لَا تَخْتَلِفُ عَلَى امْتِدَادِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ . ١٠

فَمَا سَبَبُ تَسَارَع تَمَدَّد الْكَوْن ؟ نظرًا لِأَنَّ الطَّاقَةَ الْمُظْلِمَة تَعَدّ مَادَّةٌ دَاخِلِيَّة الْمَنْشَأ مِنْ الْفَرَاغِ وَلِأَنَّ الْفَضَاءَ يتمدد بِاسْتِمْرَار ، فَهُنَاك الْمَزِيدَ مِنْ الْفَرَاغِ وَكَذَلِكَ كَم أَكْبرُ مِنْ الطَّاقَةِ الْمُظْلِمَة ؛ هَذَا يَنْتُجُ عَنْهُ بِالتَّبَعِيَّة الْمَزِيدَ مِنْ الْفَضَاءِ . أَنَّه تَأْثِير مُتَعاظِم يُؤَدِي إلَى تَمَدَّد الْكَوْن بِصُورَة أُسية لَا تَسْتَطِيعُ الجَاذِبِيَّة تكْوِين بَنَى جَدِيدَةً فِي مُوَاجَهَةِ تَسَارَع تَمَدَّد الْكَوْن ، فضلًا عَنْ أَنْ البنى الْمَوْجُودَة بِالْفِعْل سَتَكُون أَكْثَر انعزالًا ، وَتُصْبِح مَجْموعَات وَعَناقيد المجرات رقعًا مُتَنَاهِيَة الصَغَر فِي الزمكان مُتَزَايِدٌ الْحَجْم بِسُرْعَة ، بِحَيْث تُشْكِل كُلّ مَجْمُوعِه مِنْهَا « جَزِيرَة كونية » مصغرة لَا تَتَّصِلُ بِغَيْرِهَا مِنْ مَجْمُوعَاتِ أَو عَنَاقِيد المجرات بِأَيّ شَكْلٍ مِنْ الْإِشْكَال . وَتكُون الكُتْلَة فِي هَذِهِ البنى المنعزلة أَصْغَرَ مِنْ الطَّاقَةِ الْمُظْلِمَة الْمَوْجُودَة دَاخِلٌ الْأُفُق بتريليونات الْمَرَّات . سَتُصْبِح الْمَادَّة مُنْعَزِلَة وعديمة الأَهَمِيَّة .

إلَيْك أَبْرَز عَلَامَات هَذَا السيناريو

عَلَى مَدَار مليارات الْأَعْوَام الْقَلِيلَة التَّالِيَة ، لَنْ يَكُونَ بِمَقْدُور عُلَمَاء الْفَلْك المستقبليين رُؤْيَة الْكَوْن الْبَعِيد الْقَدِيم ؛ لِأَنّ الفوتونات الَّتِي كَانَتْ تَقْتَرِب مِنَّا فِي يَوْمِ مَا أَصْبَحْتُ الْآن تَبْتَعِد عَنَّا عَلَى نَحْوِ أَسْرَعَ مِنْ تَمَدَّد الضَّوْء ، وَبَعْد ١٢٠ مليار عَام ، عِنْدَما يَكونُ الْكَوْن أَكْبرُ مِنْ

حَجْمُهُ فِي الْوَقْتِ الْحَالِيّ بِأَلْف مَرَّة ، سيبتعد عُنْقُود الْعَذْرَاء المجري عَنْ الْأُفُقِ الَّذِي نَرَاه وستصبح مجرة ميلكوميدا الْمَجَرَّة الوَحِيدَةُ الَّتِي نَسْتَطِيع رُؤْيَتهَا . يَا لِسُوء حَظّ عُلَمَاء الكونيات وَقْتِهَا ؛ الَّذِين لَن يَقْدِرُوا إلَّا عَلَى التَّحْدِيق فِي مجرتهم وَحَسَب !

بَل سيزداد الْأَمْر سوءًا عِنْدَمَا تَحْدُث نِقاطُ التَّحوُّل التَّالِيَة بَعْدَ مُرُورِ مَا يَقْرُبُ مِنْ تريليُون عَام ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي ستستمر فِيهِ أَقَلُّ النُّجُوم كُتْلَة الْمَوْجُودَةِ فِي المجرات الْمُمَاثَلَة لمجرة دَرْب التّبَانَة فِي السطوع لَكِنْ عَلَى نَحْوٍ خَافَت . سيستطيل الإِشْعاع بِسَبَب تَمَدَّد الْكَوْن ، وَمِنْ ثَمَّ فالموجات الميكرونية المتخلفة عَن الِانْفِجَار الْعَظِيم ، الَّتِي تمددت بِالْفِعْل بمعامل قِيمَتُه ١٠٠٠ فِي الْفَتْرَةِ بَيْنَ ٣٨٠ أَلْفِ عَامٍ بَعْدَ الِانْفِجَار الْعَظِيم وَالْوَقْت الْحَالِيّ ، ستستطيل مَرَّةً أُخْرَى بِمِقْدَار مَعَامِل قِيمَتُه ١٠٢٨ . تِلْك الفوتونات تَماثَل فِي حَجْمِهَا حَجْم الْأُفُق ، وَلَمْ يُعِدْ الْكَوْن قادرًا عَلَى احْتِوَائِهَا . وَبَعْدَ مُرُورِ ١٤٠ مليار عَام أُخْرَى ، حِينَ يَكُونُ حَجْم الْكَوْنُ قَدْ زَادَ بمعامل قِيمَتُه ١٠٠٠٠ ، سيستطيل ضَوْءَ النُّجُوم الْمُنْبَعِثُ مِنْ مجرتنا أَوْ أَيَّ مجرة أُخْرَى لِمَا وَرَاءَ الْأُفُق . لَن تَكُونُ هُنَاكَ أَيْ فوتونات دَاخِلُ هَذِه الْجُزُر الْكَوْنِيَّة ، بَل ستتجسد آثارُهَا عَلَى هَيْئَةِ مجالات كهربية مُتَغَيِّرَة بِبُطْء .

سيتعين عَلَى مَن يَعِيشُ فِي الْكَوْنِ بَعْدَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى حَيِّزِ الزمكان الْخَاصّ بِهِ ، الْخَالِي مِنْ الْمَادَّةِ والإشعاع ، وَلَن يُتَاح لَهُ سِوَى نِطَاق رُؤْيَة مَحْدُود لِلْغَايَة . سيصبح كُلَ أُفُقٍ بِمَنْزِلَة أُفُق حَدَث ؛ مِن ثَمَّ سيبدو وَكَأَنَّه مُحَاصِرٌ فِي قَلْبِ ثُقْبٌ أَسْوَد . يَرَى ستيفن هوكينج أَن الإِشْعاع الخَافِت سيتسرب إِلَى كُلَ أُفُقٍ بِدَرَجَة حَرَارَة تَبْلُغ ١٠—٢٩ دَرَجَة كلفنية فَقَط (—٤٦٠ فهرنهايت) . وَسَيَكُون رَدّ فَعَل السُّكَّان حِينِهَا كَرَدّ فَعَل جاليليو عِنْدَمَا حُكم عَلَيْه بِالْإِقَامَة الْجَبْرِيَّة فِي مَنْزِلِهِ وَأَصَابَه الْعَمَى نَتِيجَة كَثْرَة التَظَر إِلَى الشَّمْسِ دُونَ حَذَّر وَقَال : « هَذَا الْكَوْن الَّذِي زِدْتَ مِنْ حَجْمُهُ بِآلاف الْمَرَّات ... اِنْكَمش الْآنَ حَتَّى أَصْبَحَ لاَ يَتَجَاوَزُ حُدُود جَسَدِي . »

الانفصام الْعَظِيم

عادةً مَا كَانَتْ السيناريوهات الْمُحْتَمَلَة لِنِهَايَة الْكَوْن سَهْلَة الْوَصْف وَالْفَهْم نسبيًّا . كَانَ هُنَاكَ احْتِمَالَان لِنِهَايَة الْكَوْن ؛ التَّحَوُّل إِلَى كُرِه ثَلْجِيَّةٌ أَوْ كَرِهَ نَارِيَّةٌ . وَعِنْدَمَا أَلَّف الشَّاعِر رُوبِرْت فروست قَصِيدَتِه عَن مَصِير الْكَوْن ، وَضَع احْتِمَالَيْن لِذَلِك الْمَصِير : الِاحْتِمَال الْأَوَّل هُوَ عَدَمُ اِحْتِوَاء الْكَوْن عَلَى مَادَّةِ كَافِيَةٌ لِلتَّغَلُّب عَلَى التَّمَدُّد الْكَوْنِيّ مِمَّا سَيَجْعَل الْكَوْن أَكْبر حجمًا

وَأَبْرَد وَأَكْثَر تعقيدًا . أَمَّا الِاحْتِمَالُ الثَّانِي فَهُوَ أَنْ التَّأْثِير التراكمي لِجَذْب جَمِيعَ مُكَوَنَاتِ الْكَوْن بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ سيتسبب فِي أَنَّ يَصِلَ حَجْم الْكَوْن إِلَى حَدَ مُعَيَّنٍ ، ثُمّ التَّنَهُّد (بمعنى استعاري) ، ثُمّ ينهار عَلَى ذَاتِهِ فِي تَسَلْسَل زَمَنِي عَكْسِي لِلْأَحْدَاث مُنْذ وُقُوع الِانْفِجَار الْعَظِيم . وَفِي أَوَاخِرِ سبعينيات القَرْنِ العِشْرِينَ ، اِمْتَلَك عُلَمَاء الْفَلَك مَعْلُومَاتٌ إحصائية كَافِيَةٌ جَيِدَة عَنْ حَجْمِ الْمَادَّة الْمُظْلِمَة استنتجوا مِنْهَا أَنَّ تِلْكَ الْمَادَّةِ لَيْسَتْ متوافرة بِكَمِيَّات كَافِيَةٌ لِلتَّغَلُّبِ عَلَى التَّمَدُّد ؛ مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْكَوْن سَيَسْتَمِرّ فِي تَمَدُّدُه إِلَى الأَبدِ .

لَا تَزَالُ النَتِيجَة وَاحِدَة ؛ فَلَن يُحَدَث « اِنْسِحاق عَظِيمٌ » ، وَالصُّورَة الشَعْرِيَّة الرَّائِعَة عَنْ الْمَوْتِ مِنْ فَرَطِ الْحَرَارَةِ أَوْ الْبُرُودَةِ مَوْضِع نَقّاش ، لَكِن الطَّاقَة الْمُظْلِمَة وَحْش جَدِيد وَغَيْر مَأْلُوفٌ يُغَيِر كُلَ شَيْءٍ ، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ عَنْهَا سِوَى الْقَلِيل ، حَتَّى إِنَّ الْمُنْظَرِين يُطْلِقُون الْعِنَان لخيالاتهم الْخَصْبَة .

يَتَمَثَّل الْخِيَار الأبسط فِي ثَابِتِ أَينشتاين الْكَوْنِيّ ؛ تِلْك الطَّاقَة الْمُظْلِمَة الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي أَيَ مَكَان فِي الْكَوْنِ وَلَا تتطور بِمُرُور الْوَقْت . لَقَد واجهنا بِالْفِعْل مُشْكِلَةٌ تَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ الْأَمْرِ وَهِيَ حَقِيقَةُ إِنْ الطَّاقَة الْمُظْلِمَة أَصْغَر بِمِقْدَار ١٢٠ قِيمَة آسِيَة مِنْ الْقِيمَةِ الَّتِي عادةً مَا تحددها

التَنظِرِيَات الْحَالِيَة لفيزياء الجُسَيْمَات . كَانَ هَذَا هُوَ الدَّافِعُ وَرَاء اِكْتِشاف مَجَالٌ الكوينتيسينس الَّذِي يَعْزُو تَسَارُع تَمَدَّد الْكَون إِلَى تَأْثِيرَاتٌ جَسِيمٌ جَوْهَرِي اِفْتِرَاضِي ضَخْم ـ الْحَجْم . وَمَن الْمُمْكِن اعْتِبَارِ أَنَّ الطَّاقَة الْمُظْلِمَة كَانَتْ قِيمَتُهَا الطَّبِيعِيَّة كَبِيرَةٌ فِي الْكَوْنِ الْمُبَكر ، ثُمّ تَطَوَّرَت بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْقِيمَةِ الصَّغِيرَة لِلْغَايَة الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ الْحَالِيّ .

أَكْثَر إِشْكَال مَجَالٌ الكوينتيسينس تطرفًا هُوَ الطَّاقَةُ الشبحية . وَفِي بَحْثٍ أُجْرِي عَام ٢٠٠٣ ، أَظْهَر رُوبِرْت كالدويل ، مِنْ كُلِّيَةِ دارتموث ، وزملاؤه صدقًا ملحوظًا بِشَأْن دافعهم ـ لِاسْتِكْشَاف تِلْك الطَّاقَة قَائِلِين : « لَا رَيْبَ أَنَّ الطَّاقَة الشبحية لَيْسَت شيئًا يَتَوَقَّعُه أَي منظَر ، وَعَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ لَمْ يَتَنَبّأ كَثِيرٍ مِنْ الْمُنْظَرِينَ بِوُجُود ثَابِت كَوْنِي ! » ١٢ تُشِير الطَّاقَة الشبحية إِلَى الْكَوْن وَهُوَ فِي حَالَةِ هَيَاج شَدِيدٌ ، وَهِيَ لَا تَعْنِي وُجُود التَّمَدُّد أَو التسارع وَحَسَب ، بَل تَعْنِي أيضًا أَن « التسارع » يَتَزَايَد ، فالكون يتمدد إِلَى حَجْم غَيْرُ مَحْدُودٍ فِي وَقْتٍ مَحْدُودٌ .

إِلَيْك مَا سَيَحْدُثُ : سَوْف تَزْدَاد قُوَة الطَّاقَة الْمُظْلِمَة عَلَى نَحْو هائِلٌ ، حَتَّى أَنَّهَا لَن تَتَسَبَّب فَقَطْ فِي تَحْرِيرِ أَيُّ جِسْمٍ مُقَيَّدٌ بِوَاسِطَة الجَاذِبِيَّة ، لَكِنَّهَا قَدْ تَتَخَطَّى أيضًا فِي النِهَايَةِ الْقُوَى

الأَسَاسِيَّة الْأُخْرَى وَتَسَبَّب عَدَم تَماسك الْمَادَّة . وَبَعْد حَوَالَي المليار عَامٍ مِنْ الْآنَ ، قَد تَعْمَل الطَّاقَة الشبحية عَلَى الْفَصْلِ بَيْنَ تجمعات المجرات . لَيْسَ هَذَا فَحَسْب ، بَلْ مِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَجْذِب أيضًا مجرة الْمَرْأَة المسلسلة قَبْلَ وُصُولِهَا إِلَى مجرة دَرْب التّبَانَة ، وَمَن ثَمَّ نُحرم مِن مُتْعَة مُشَاهَدَةٍ تكُونُ مجرة ميلكوميدا . وستتصاعد الْأَحْدَاث بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى تَصِلُ إِلَى ذِرْوَتِهَا بَعْد ٢٠ مليار عَام بدءًا بِمَا يُعرف بِاسْم « الانفصام الْعَظِيم » ؛ مِن ثَمَّ يَجْرِي حِسَاب الْأَزْمَانِ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ .

قَبْلَ حُدُوثِ الانفصام الْعَظِيم بِسِتّين مِلْيُون عَام ، ستتمزق مجرة دَرْب التّبَانَة إربًا ، وسينفصل كَوْكَب الْأَرْض وَغَيْرِه مِنْ الْكَوَاكِب عَنْ الشَّمْسِ قَبْلَ النِهَايَة بِثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ، وَقَد يُلَاحِظ مَن يَقِفُ عَلَى كَوْكَب الْأَرْض وَهُوَ يَتَحَرَّكُ بعيدًا عَنْ الشَّمْسِ أَنْ الطَّاقَة الْمُظْلِمَة قَد ازْدَادَت لِتُصْبِح بِمِثْل قُوَّة الْقُوَى الذُّرِّيَّة الدَّاخِلِيَّة لَكِنْ عَلَى مِقْيَاسٌ الْكَوَاكِب ، يُحَدَثُ ذَلِكَ قَبْلَ ٣٠ دَقِيقَةً مِنْ الانفصام الْعَظِيم ، وستنشطر الذَّرَّات قَبْل النِهَايَة بِنَحْو ١٠—١٩ ثَانِيَة ، وعندئذٍ سَيَكُون الْكَوْن مُتَفَكِك الْإِجْزَاء تمامًا .

فِي نَمُوذَج « الانفصام الْعَظِيم » بِعِلْم الكونيات ، ثَمَّة شَكْل مُعَيَّن مِنْ الطَّاقَةِ الْمُظْلِمَة يَعْمَلُ عَلَى زِيَادَةِ تَسَارُع تَمَدَّد الْكَوْن ، نَتِيجَة لِذَلِك ستهزم كُلَ القِوَى الَّتِي تُعْمَلُ مِثْل « الْمَادَّة اللَّاصِقَة » ، وَيَتَمَثَّل ذَلِك أولًا فِي انْفِصَالِ النُجُوم عَن المجرات ثُمّ انْفِصَال الْكَوَاكِب عَنْ النُجُومِ وأخيرًا انشطار الذَّرَّات يُشْبِه الانفصام الْعَظِيم الِانْفِجَار الْعَظِيم بِدَرَجَة كَافِيَةٌ لِجَعْلِه غَيْر مُرضٍ ، لَكِنْ يُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّهُ مُرَوِع بِدَرَجَة كَافِيَةٌ لَأَنْ يَكُونَ إثْبَاتٌ عَدَمِ حُدُوثِهِ أمرًا رائعًا . وَرُبَّمَا لَن يَجْرِي الِاتِفَاق بِشَأْنِه إلَى أَنْ يَعُودَ الْقَمَر الصَنَاعِيّ « بلانك » بِقَدْر كَبِيرٌ مِنْ الْبَيَانَاتِ ، لَكِن عَمَلِيَّات الرّصَد الْأَخِيرَة تُفِيدُ أَنَّ الطَّاقَة الْمُظْلِمَة تَتَوَافَق مَعَ ثَابِتٍ أَينشتاين الْكَوْنِيّ . وَبِقَدْر مِنْ الِارْتِيَاحِ قَد يُمْكِنُنَا أَنْ نَزِيل الانفصام الْعَظِيم مِنْ قَائِمَةٌ الْمَخَاوِف الَّتِي تؤرقنا .

يُحِبّ عُلَمَاء الْفُلْك الْإِثَارَة الْمُتَوَلَدَةِ عَنْ الْمُطَارَدَة ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ عَالِمْ الْفُلْك آدَم رايْس — أَحَدٌ أَوَائِل مِن شَارَكُوا فِي اِكْتِشاف تَسَارَع تَمَدَّد الْكَوْن فِي تسعينيات القَرْن العِشْرِينَ — بِقَوْلِه : « لَوْ أَنَّ هَذِهِ مُطَارَدَة لِصَيْد الثَّعَالِب وافترضنا أَن الطَّاقَة الْمُظْلِمَة هِي الثَّعْلَب الَّذِي نطارده ، فَفِي اعْتِقَادِي أَنَّنَا قَد أغلقنا طريقًا آخر لِلْهَرَب إمَامُ هَذَا الثَّعْلَب . لَكِنْ لَا تَزَالُ

هُنَاك الْكَثِيرِ مِنْ المخابئ إمَام الثَّعْلَب لِلْهَرَب إلَيْهَا ، لَكِنْ إلَى الْآنَ لَمْ نَرَ أَكْثَرَ مِنْ فَرَاء الثَّعْلَب .

» الزَّوَال البَطيء

كَتَب وِيلْيام بتلر ييتس فِي بِدَايَةِ قَصِيدَتِه بِعِنْوَان « الْعَوْدَة الثَّانِيَة » يَقُول : « تَبْتَعِد الْأَشْيَاءِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْكَز التَّمَاسُك ، وَلَا يُوجَدُ سِوَى الفوضوية الَّتِي تَعُمُّ الْعَالِم بِأَكْمِلِه . » بَعْدَ مَوْتِ النُّجُوم واندماج المجرات وتمدد الْفَضَاءِ إلَى أَنْ يُصْبِحَ متلألئًا بالطاقة الْمُظْلِمَة وَغَيْرِهَا الْقَلِيل ، يُصْبِح الْحَاجِز الدفاعي الْأَخِير للكون هُو الْمَادَّة . أَنَّنَا نُسَلَم بالاستمرارية العنيدة لِلْمَادَّة ، بَيْدَ أَنَّ النَّظَرِيَّاتِ الْمُفَضَّلَة للجسيمات الأَسَاسِيَّة تَتَنَبَّأ بِأَن الْمَادَّة الْعَادِيَّة ستتحلل يومًا مَا .

لَن يُحَدَثُ ذَلِكَ عاجلًا ، لَن يُحَدَث خِلَال تريليُون عَام ، بَل سَيَحْدُث عَلَى امْتِدَادِ وَقْتٍ طَوِيلٌ قَدَّرَه مُقَارَنَة بالتريليون عَام يُمَاثِل قَدْر التريليون عَام لِوَاحِدٍ عَلَى مليار المليار مِنْ الثَّانِيَة .

ستتحلل العَنَاصِر المشعة عَلَى مَدَار نِطَاق وَاسِعٌ مِن الْفَتَرَات الْزِمْنِيه ، وستتحلل النيوترونات الْحُرَّة خِلَال ١٥ دَقِيقَةٌ ، لَكِن الذَّرَّات ، بِصُورَة عَامَّة ، تَبْدُو خَالِدَة ، فَمَا مِنْ شَخْصٌ شَاهِدٌ تَحَلَّل أَحَدٌ البْرُوتونات أَو الإلكترونات . لِمَعْرِفَة مُدَّةُ بَقَاءِ البْرُوتونات فِي الْكَوْنِ بإمْكانِك أَنْ

تَنْتَظِرَ وقتًا طويلًا لِلْغَايَة وَأَنْت تَرَاقَب بروتونًا واحدًا حَتَّى يتفكك ، أَو تَنْتَظِر وقتًا أَقَلّ وَأَنْت تَرَاقَب عددًا كبيرًا مِنْهَا عَلَى أَمَلِ الْتِقَاط مِثْلِ هَذَا الْحَدَثَ النَادِر . أَجْرَى عُلَمَاء الفِيزِيَاء فِي اليَابَان تَجْرِبَة تُعرف بِاسْم « سُوبَر كاميوكاندي » ، وَفِيهَا يَضَع هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ خزانًا كبيرًا تَحْتَ الْأَرْض مليئًا بِمِيَاه فَائِقَةُ النَّقَاء لِمُشَاهَدَة تَحَلَّل البْرُوتونات . وَلَمْ يُشَاهَدْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ تَحَلَّلَ أَيْ برُوتُون حَتَّى الْآنَ مِمَّا يُؤَكِدُ أَنَّ الْحَدَّ الْأَدْنَى لِطُول بَقَاء البروتون فِي الْكَوْنِ يَبْلُغ ١٠٣٥ عَام .

مَا سَبَبُ ثِقَةُ الْعُلَمَاء الشَّدِيدَةُ فِي تَحَلُّلِ الْمَادَّةِ الْعَادِيَّة فِي حِينِ أَنَّهُمْ لَمْ يرصدوا ذَلِكَ قَطُّ ؟ فِي بِدَايَةِ نَشْأَة الْكَوْن ، كَان حَجْم الْمَادَّة الْعَادِيَّة يَزِيدَ عَنْ الْمَادَّةِ الْمُضَادَّة بِقَدْر ضَئِيلٌ ، وَبَعْد كَسْرٌ مِنْ الثَّانِيَةِ عَلَى وُقُوعِ الِانْفِجَار الْعَظِيم أَفْنَت الْمَادَّة الْعَادِيَّة وَالْمَادَّة الْمُضَادَّة إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، بَيْدَ أَنَّ التَذْرَ الْيَسِيرِ المتبقي مِنْ الْمَادَّةِ الْعَادِيَّة هُوَ مَا كَوَّن لَنَا جَمِيع الْجُسَيْمَات الْمَوْجُودَةِ فِي الْكَوْنِ الْيَوْم وَالْبَالِغ عَدَدِهَا ١٠٨٠ جَسِيمٌ وَعَدَد أَكْبر بِكَثِيرٍ مِنْ الفوتونات . يُمْكِنُ تَفْسِيرُ عَدَم التناظر الطَّفِيف بَيْنَ الْمَادَّةِ وَالْمَادَّةِ الْمُضَادَّة مِنْ خِلَالِ نَظَرِيَّات التَّوْحِيد الْعُظْمَى لِقُوَى الطَّبِيعَة ، وَتِلْك التَنَظَرِيَّات هِيَ الَّتِي تنبأت بِتَحَلُّل البْرُوتونات .

مَرَّةً أُخْرَى نَسْتَعِين بفريد آدامز كمرشد لَنَا لِمَعْرِفَة الْمَزِيد فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْأَمْرِ ، وَهُو الفيزيائي الفَلَكِيّ الْمُتَعَمِقُ فِي دِرَاسَة الْأَرْض الَّذِي أَفْنَى حَياتَهُ فِي دِرَاسَة الْمَادَّة الْعَادِيَّة وَانْتِظَار تَحَلُّلِهَا . فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيد للكون ، ستتحول مُعْظَم الْأَجْرَام إِلَى جَمَرَات تَنْخَفِض دَرَجَة حَرارَتِها بِبُطْء ؛ أَي أقزام بَيْضَاء . ستتحلل البْرُوتونات إِلَى بوزيترونات وبيونات ، ثُمّ تَفْنَى البوزيترونات مَع الإلكترونات لتُنتج أَشِعَّة جَامًا ، وستتحلل البيونات أيضًا إِلَى أَشِعَّة جَامًا . سينتشر هَذَا التَّدَفُّق الضَّعِيفِ مِنْ الفوتونات فِي جَمِيع إِرْجَاء الْقُزُم الْأَبْيَض مضيفًا بِذَلِكَ مَا قِيمَتُهُ ٤٠٠ واط إِلَى الإشعاعات المنبعثة مِنْه . مَعَ ذَلِكَ ، لَن تَكُونَ تِلْكَ الأَقْزَام الْبَيْضَاءُ الّتِي تَماثَل فِي حَجْمِهَا حَجْم كَوْكَب الْأَرْض وتعادل قُوَة أَضاءَتْها ثَلَاثَة مَصَابِيح كَهْرَبائِيَّة وَتَبْلُغ دَرَجَة حَرارَتِها عُشر الدَّرَجَة فَوْق الصِّفْر الْمُطْلَق بِمَنْزِلَة مَنَارَات مُضِيئَةٌ . وَجَمِيع الأَقْزَام الْبَيْضَاءُ الّتِي سَتُوجَد فِي مجرة ميلكوميدا لَن تُسَاوِي قُوَةُ الشَّمْسِ فِي أَوْجِهَا .

فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ التَّطَوُّر ، ستعود النُّجُوم إِلَى بداياتها مِنْ جَدِيدٍ ؛ لِأَنّ تَلَاشِي البْرُوتونات يُؤَدِي إِلَى انْخِفَاض الْعَدَد الذَّرِيّ للنوى فِي الأَقْزَام الْبَيْضَاء بِالْإِضَافَةِ إِلَى خَفَض

كتلتها الكُلّيَة . سيفقد النَجْم ٩٠٪ مِن كتلته وَيَتَحوَّل غَاز الكَرْبُون الْمَوْجُود بِهِ إِلَى الهيليوم وَبَعْدَهَا إِلَى الهيدْرُوجِين ، مِمَّا يُعِيدَهُ إِلَى بِسَاطِه الْمَادَّةِ الَّتِي بَدَأَ بِهَا .

يَنْتَظِر النُجُوم النيوترونية الْمَصِير نَفْسِه . فِي وَاقِعِ الْأَمْر ، تَوَاجَه الكَوَاكِب هَذَا الْمَصِير أولًا بِسَبَب انْخِفَاض كتلتها . ستتحول طَبَقَة الوِشَاح الصخرية ولب الْأَرْض الْمَعْدِنِيّ إِلَى غَاز الهيدْرُوجِين فِي فَتْرَةٍ تُقدر بحوالي ١٠٣٨ عَام ، وَلَن تَلْقَى الأَقْزَام الْبَيْضَاء هَذَا الْمَصِيرُ إِلَّا بَعْدَ مُرُورِ ١٠٣٩ عَام . عِنْدَ هَذِهِ النُقْطَة ، لَن يَحْتَوِي الكَوْن عَلَى أَيَ نُجُوم ، وَلَن يَبَقَّى لِأَيَ شَخْصٍ يَأْمُل فِي تَدْفِئَة يَدَيْه بِأَيَ نَوْعٍ مِنْ النَيرَانِ سِوَى أَنَ يَلِجَا إِلَى مَصَادِر الجَاذِبِيَّة ؛ أَي الثُّقُوب السَّوْدَاء .

فِي عَامٍ ١٩٧٤ ، تَنَبَّأ ستِيفِن هوكينج بِأَن الثُّقُوب السَّوْدَاء لَيْسَت سَوْدَاء تمامًا ، فَنَتِيجَة لتأثيرات مِيكانِيكِيَة كمومية ، نَجِد أَن لِتِلْك الثُّقُوب دَرَجَةُ حَرَارَةٍ ، وَأَنَّه يَنْبَعِثُ مِنْهَا كَمِيَّةٍ ضَئِيلَةٍ مِن الإشعاعات . يَنْبَعِثُ مِنْ الثُّقُوب السَّوْدَاء النجمية كَمِيَّةٍ مِنَ الإشعاعات تَبْلُغ ١٠−٢٨ واط فَقَط ، وَهِي كُمَيْه هَزِيلَة مُقَارَنَة بالطاقة الْمُنْخَفِضَة المنبعثة مِن الأَقْزَام الْبَيْضَاءُ الّتِي تَتَعَرَّض لِتَحَلُّل البْرُوتونات . سَوْف تَسْتَغْرِق وقتًا هائلًا يَصِلُ إِلَى ١٠٦٥ عَام كَي تتبخر . لَكِنْ

عِنْدَ إِنْعامُ التَنظَرِ فِي هَذَا الرَّقْم الْهَائِل لبرهة ، سنجد أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ ذَا مَغْزَى ؛ فَمَع انْخِفَاض الكُتْلَة يَزْدَاد مَعْدَل التَّبَخُّر وَالطَّاقَة المنبعثة ، وَمِنْ ثَمَّ سيشهد الْمُسْتَقْبَل الْبَعِيد مُوَجَّهٌ مِنْ الزَّوَالِ عَلَى نَحْوٍ مُتَزامِن مَع اِخْتِفَاء الْبَقَايَا النجمية كَبِيرَة الْحَجْم (الشكل ١١–٦) . وللتحول مِن كُتْلَةٍ تُوَازِي كُتْلَة سَيّارَة شَحَن إِلَى شَيْءٍ عَدِيم الكُتْلَة ، لَن يَنْقَضِي أَكْثَر مِنْ ثَانِيَةٍ ، وسينبعث مِنْ كُلَ عَمَلِيَّة أَفْنَاء كَهَذِه أَشِعَّة جَامًا تُعَادِل ٥ آلاف تريليُون طَنّ مِتْري مِنْ مَادَّةِ تِي أَن تِي ، وَهُوَ مَا يَزِيدُ بِأَلْف مُرَّة عَنْ الترسانات النَوَوِيَّة الْمَوْجُودَةِ فِي الْعَالَمِ أَجْمَع .

أَمَّا الثُّقُوب السَّوْدَاء الْأَكْثَر ضَخَامَة فَهِي نَادِرَةٌ ، وتتبخر بِبُطْء أَكْبر ، وَمِنْ ثَمَّ سَتَكُون آخر مُكَوِنَات الْكَوْن الَّتِي ستتلاشى . سَوْف تَسْتَغْرِق الثُّقُوب السَّوْدَاءِ الَّتِي تَصِلُ كتلتها إِلَى مِلْيُون كُتْلَة شَمْسِيَّة والموجودة فِي مَرَاكِز المجرات الصَّغِيرَة ١٠٨٣ عَام لتختفي مِن الْكَوْن . لَكِن الثُّقُوب السَّوْدَاءِ الَّتِي تَصِلُ كتلتها إِلَى مليار كُتْلَة شَمْسِيَّة وَالَّتِي مَنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَبْقَى فِي مَرْكَز مجرة ميلكوميدا ، فستستغرق ١٠٩٨ عَام ، وَفِي النَهَايَةِ ستنبعث مِنْهَا أَشِعَّة جَامًا بِازْدِيَاد تَدْرِيجِي عَلَى نَحْوِ مُمَاثِل للثقوب السَّوْدَاء الْأَصْغَر حجمًا .

الثُّقُوب السَّوْدَاء لَيْسَت سَوْدَاء تمامًا . ووفقًا للنظرية الَّتِي وَضَعَهَا ستيفن هوكينج ، عِنْدَمَا يَتَكَوَّن زَوْجٍ مِنْ الجسيمات/الجسيمات الْمُضَادَّة بِالْقُرْبِ مِنْ أُفُقِ الْحَدَث ، قَد يَهْرُب أَحَدُهُمَا مكونًا بِذَلِك جُسَيْمَات وفوتونات أُخْرَى . نَتِيجَة لِذَلِك ، تتبخر الثُّقُوب السَّوْدَاء بِبُطْء بمعدل يَتَزَايَد مَع انْخِفَاض الكُتْلَة .

إذَا لَمْ تَكُنْ نُقْطَة النِّهَايَة هِيَ تَلِك الْأَعْوَامِ الْبَالِغ عَدَدِهَا ١٠٩٨ عَام ، فسيُعرف ذَلِكَ فِي وَقْتِهَا . مَا الْأَشْيَاء الْأُخْرَى الَّتِي قَدْ تتبقى لِلْحَدِيث عَنْهَا ؟ بَعْدَ مُرُورِ أَكْثَرَ مِنْ ١٠١٠٠ عَام ، ستلاحظ أَن البْرُوتونات قَد تَلاَشَت ، وَإِن النُّجُوم قَد تَبَدَّدَت ، وَإِن الثُّقُوب السَّوْدَاء قَد تبخرت . لَن يَتَبَقَّى سِوَى النيوترينوات والإلكترونات والبوزيترونات والفوتونات بِطُول مَوْجِي أَكْبَرُ مِنْ الْكَوْن الْمَرْئِيّ ، وَتَكُون جَمِيع الْعَمَلِيَّات الفيزيائية فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَحَتَّى قَبْلَ ذَلِكَ خَاضِعَة لِلطَّبِيعَة غَيْرِ الْمُؤَكَّدَةِ لِلْمَادَّة الْمُظْلِمَة وَالطَّاقَة الْمُظْلِمَة .

عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَة ، لَن يُصِيب الإرهاق فَرِيد آدامز وَحْدَه ، بَل سيصيبنا نَحْن أيضًا — الْكَاتِب وَالْقُرَّاء — وكأننا انخرطنا فِي مَشْرُوعٍ يَسْتَغْرِق اللَّيْلَ كُلَّهُ . لَقَد تَحَلَّلَت رقعتنا مِن الْكَوْن الْمُتَمَدَّد المتسارع فِي ظِلَ سَتّار مِن الظَّلَام لتتحول إلَى خَلِيطٌ مُتَجانِس مِنَ الجُسَيْمَاتِ

والفوتونات . أَن تَجْمِيع النُّجُوم والمجرات وتفكيكها أَمَر مُمْتِع ، لَكِنَّه جَهَد لَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ ، وَسَتَكُون الإنتروبيا ؛ السَمَة الْمُمَيَزَة لِلْقانون الثَّانِي للديناميكا الحرارية ، هِي الفَائِز الْوَحِيد . وَلِسُوء الْحَظّ ، تَعَدّ الفَوْضَى الْمُنْتَظِمَة عدوًّا لِلْحَيَاة وَالْإِبْدَاع ، لَكِن الْمَشْهَد كَان ممتعًا وَقْتِ حُدُوثِهِ .

خَطَّ زمَنِي لِلْمُسْتَقْبَل الْبَعِيد

مَنْشُورٌ مِنْ مَوْقِعِ ويكبيديا

الْخَطّ الزمني لِلْمُسْتَقْبَل يُمَثِل تَنْبُو عِلْمِي اسْتِقْرَائِيّ لِلْمُسْتَقْبَل حَسَب المعطيات الْعِلْمِيَّة المتاحة فِي الْوَقْتِ الْحَالِيّ ، وَعَلَى الرَّغْم أَن التَّنَبُّؤ بِالْمُسْتَقْبَل لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ دقيقاً ، إلَّا أَنْ الْفَهْمَ الْعِلْمِيّ الْحَالِيّ لمجالات عِدَّة سَمَحَت بِرَسْم الْخُطُوط الْعَرِيضَة لمسار وَإِبْعَاد إحْدَاث الْمُسْتَقْبَل الْبَعِيد ، حَتَّى لَوْ بِتَصَوُّرَات عَامَّة . هَذِه الْمَجَالات تَتَضَمَّن الفِيزِيَاء الْفَلَكِيَة ، وَالَّتِي كَشَفَت كَيف تَتَكَوَن الْكَوَاكِب وَكَيف هِي وِلَادَة النُّجُوم ، وَكَيف تتفاعل ، ثُمَّ تَمُوتُ ، وَكَذَلِكَ عِلْمُ فِيزِيَاء الْجُسَيْمَات ، وَكَيف تَتَصَرَّف الْمَادَّةِ عَلَى أَصْغَرِ المقاسات ; عِلْمُ الأَحْيَاءِ التطوري ،

الَّذِي يَتَنَبّأ كَيف ستترقى الْحَيَاة عَبَر الْوَقْت ، ونظرية الصَّفَائِح التكتونية ، الَّتِي تَظْهَرُ كَيف أَن القَارَّات سيتغير شَكْلِهَا وستتحول عَبَر ألفيات السَنِين وَبِمُرُور الزَّمَن .

التوقعات المستقبلية الْعِلْمِيَّة

بَعْد 10000 سُنَّةٌ

لَوْ أَنَّ فَشَلٌ حَوْض ويلكيس تَحْت الجليدي "صمام الثلج" فِي الْقُرُونِ الْقَلِيلَة التَّالِيَة سيهدد شَرَّق الْقَارّة القطبية الْجَنُوبِيَّة ، فَإِنَّه سيأخذ كُلُّ هَذَا الْوَقْتِ ليذوب تماماً . وسيرتفع سَطْحِ البَحْرِ إِلَى 3–4 أَمْتَار . (أحد الْآثَار الْمُحْتَمَلَة عَلَى الْمَدَى الطَّوِيل لِظَاهِرِه الِاحْتِبَاس الحراري ، وَهَذَا مُنْفَصِلٌ عَنْ التَّهْدِيد الْقَرِيب لذوبان غَرَب الْقُطْب الْجَنُوبِيّ الجليدي .)

بَعْد 50000 سُنَّةٌ

ستنتهي فَتْرَة التَّدَاخُل الجليدي الْحَالِيَّة مُسَبَبِه رُجُوع الْأَرْض إِلَى الْفَتْرَة الجليدية لِلْعَصْر الجليدي الْحَالِيّ ، مفترضة تَأْثِيرَاتٌ مَحْدُودَةٌ للاحتباس الحراري بِشَرَّي الْمَنْشَأ . شلالات نياجارا

سَتَكُون تَأَكَّلَت 32 كَم تَارِكُه وَرَاءَهَا بَحِيرَة أُرِي ، وَلَن يَكُونُ لَهَا وُجُودٌ البحيرات الجليدية الْعَدِيدَة لِلدَرْع الْكِنْدِيّ سيمحوها الِارْتِدَاد مَا بَعْدَ الجليدي وعوامل التَّعْرِيَة .

سَيَصِل طُول التَّارِيخ اليولياني إِلَى حَوَالَي 86 . 401 ثَانِيَة بِنِظَام الوَحدات الدُّوَلِيّ ، بِسَبَب تَسَارَع الْمَدّ وَالْجَزَر . وَفِي أَطار نِظَام ضَبْط الوَقْتِ الرَّاهِن ، سَوْف تَحْتَاج قَفْزَة الثَّانِيَةِ إِلَى أَنْ تُضَافَ إِلَى السَّاعَةِ كُلَّ يَوْمٍ .

بَعْد 100000 سُنَّةٌ

حَرَكَة النُجُوم الْخَاصَّةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْقُبَّة السَّمَاوِيَّة ، الَّتِي هِيَ نَتِيجَة لحركتها خِلَال الْمَجَرَّة يُجْعَلَ مِنْ الْعَسِير التَّعَرُّف عَلَى الكوكبات .

مِنْ الْمُرَجَحِ أَنْ تَخْضَعَ الْأَرْض لثورة بُرْكان هائِلٌ كَبِيرٌ بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ لتندلع 400كم مِنْ الصَهَارَةِ كَأَحَد التأثيرات طَوِيلَة الْمَدَى للإحتباس الحراري فَإِن 10% مِن الغازات الدَّفيئة ستظل فِي أَجْوَاء مُسْتَقِرَّةٌ

أَصْغَر بُرْكان فِي Hawaiian–Emperor seamount chain ، سيرتفع فَوْقَ سَطْحِ الْمُحِيط وَيُصْبِح جَزِيرَة بُرْكانِيَّةٌ جَدِيد .

بَعْد 500000 سُنَّةٌ

رُبَّمَا يَصْطَدِم بِكَوْكَب الْأَرْض تَيْزَك قَطْرَة 1 كَم ، بِافْتِرَاض أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَجَنُّبَه .

مِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَتَعَرَّض الْأَرْض لبركان هائِلٌ لِثَوَرَان كَبِيرٌ بِمَا يَكْفِي لِثَوَرَان 3 ، 200 يُحَدَث إِضْرَارًا عَظِيمَةٌ تَشَابَه كَإِرْثه توبا مُنْذ 75 . 000 سُنَّةٌ .

سِتَّة تحديات تُنْذِر بِفِنَاء الْبَشَرِيَّة فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيد

انْدَرَس ساندبرغ مَنْشُورٌ فِي بِي بِي سِيّ 24 يوليو/ تمُّوز 2019

لَمْ يَعُدْ التَّنَبُّؤ بِالْمُسْتَقْبَل الْبَعِيد ضَرْبًا مِنْ الْمُسْتَحِيلِ ، وَلَا سِيَّمَا فِي مَجَالِ الفِيزِيَاء الْفَلَكِيَة وَعُلِم الْكَوْن .

فبإمكاننا مَثَلًا الْجَزْمُ بِأَنَّ كسوفا شمسيا كَامِلًا سَيَحْدُثُ فِي الْمَمْلَكَةِ الْمُتَّحِدَة يَوْم 23 سبتمبر/أيلول عَام 2090 ، لِأَنّ الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ وَالْأَرْض يَتَحَرَّكُون فِي مدارات لَا يَحِيدُون عَنْهَا ، وَيُمْكِن التَّنَبُّؤ بِهَا ، فَضْلًا عَنْ أَنْ قَوَانِين الجَاذِبِيَّة مَوْثُوقٍ بِهَا . وَقَد تساعدنا أَيْضًا قَوَانِين الفِيزِيَاء الْفَلَكِيَة فِي التَّنَبُّؤ بِمَا سَيَحْدُثُ للكون أَثْنَاء تَوْسِعَة .

وَقَد صاغ عَالِمُ الْفَلْك مارْتِن رَيس مُصْطَلَح "علم الْآخِرَة الفيزيائي" لِلْإِشَارَةِ إِلَى اسْتِخْدَام الفِيزِيَاء الْفَلَكِيَة فِي التَّنَبُّؤ بِمَصِير الْكَوْن . واستلهم رَيس الْمُصْطَلَح مَنْ عَلِمَ اللَّاهُوت ، حَيْث يُعنى عَلِم الأخرويات بِدِرَاسَة مصائر الْبَشَر أَو الأَحْدَاثِ الأَخِيرَةِ الَّتِي تُؤْذِن بِنِهَايَة الْعَالِم ، وَمَنْ بَحَثَ أَجْرَاه فريمان دايسون عَام 1979 عَن الكَوَارِث الْمُحْتَمِلَةِ الَّتِي تَهَدَّد بِفَنَاء الْبَشَرِيَّة فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، مِنْ مَوْتِ الشَّمْسِ إِلَى انْفِصَالِ النُّجُوم عَن المجرات .

إذاً مَا هِيَ التحديات الْكُبْرَى الَّتِي ستواجهها الْبَشَرِيَّة فِي حَالَةِ بَقَائِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيد ؟ وَبَيْنَمَا لَا يُمَكِّنَنَا حَتَّى الْآنَ مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ تُفَادِي تَهْدِيدَاتُ الْمُسْتَقْبَل الْكُبْرَى ، إِلَّا أَنَّنَا يُمْكِنُنَا الْجَزْمُ بِأَنَّهَا سَتُحْدِث لَا مَحَالَةَ .

التَّحَدِي الْأَوَّل : هَل سَيَكُون الْبِشْر أَكْثَر قُدْرَةٌ عَلَى التَّحَمُّلِ مُقَارَنَة بالثديات الْأُخْرَى

يَقْدِر الْعُلَمَاء مُتَوَسِّطٌ عُمَر أَنْوَاع الثَّدْيِيَّات مِنْ بِدَايَةِ نَشْأَتِهَا وَحَتَّى انقراضها بِنَحْو مِلْيُون عَام .

لَكِنْ ثَمَةَ مَخاطِر أُخْرَى ، مِثْل الْحَرْب النَوَوِيَّة والأوبئة النَاتِجَةِ عَنِ فيروسات معدلة وراثيا ، قَد تُعجل بِفنَاء الْبَشَرِيَّة ، مَا لَمْ نحد مِن مخاطرها بِشَكْل عَاجِل .

وَبِخِلَاف مَعْدَل الِانْقِرَاض الطَّبِيعِيّ وَالْمَخَاطِر الْوُجُودِيَّة الْأُخْرَى الَّتِي فَرَضَهَا الْبَشَر ، تُوجَد تحديات أُخْرَى عَلَيْنَا مواجهتها .

يَقْدِر الْعُلَمَاء مُتَوَسِّطٌ عُمَر أَنْوَاع الثَّدْيِيَّات ، مِن نَشْأَتِهَا حَتَّى انقراضها ، بِنَحْو مِلْيُون عَام ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُخَالِفَ الْبَشَر هَذِه التوقعات ؟

يَقْدِر الْعُلَمَاء مُتَوَسِّطٌ عُمَر أَنْوَاع الثَّدْيِيَّات ، مِن نَشْأَتِهَا حَتَّى انقراضها ، بِنَحْو مِلْيُون عَام ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُخَالِفَ الْبَشَر هَذِه التوقعات ؟

فِي الْبِدَايَةِ ، نَحْن نَعيش الْآنَ فِي حِقْبَة فَاصِلَةٌ بَيْنَ عَصْرَيْنِ جليديين قَدْ تَنْتَهِي بَعْد بِضْع آلَافٍ مِنْ السَنِينَ . وَقَد تحمّل أَسْلَافِنَا الْعُصُور الجليدية السَّابِقَة رُبَمَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبَائِل رُحل يَعِيشُون عَلَى الصَّيْدِ وَجَمع الثَمار .

وَقَد نواجه أَيْضًا تغيرات كُبْرَى فِي الطَّقْس بَيْن الْعُصُور الجيولوجية الْمُخْتَلِفَة . فَقَدْ كَانَ الطَّقْس فِي بَعْض الْعُصُور أَكْثَر دَفِيء أَيْضًا مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ ، كَمَا فِي عَصْر الإيوسين ، حَيْثُ كَانَتْ دَرَجَات الْحَرَارَة أَعْلَى بِنَحْو 10 دَرَجَات مِئَوِيَّة ، وَكَان الْقُطْب الشَّمَالِيّ مُغَطًّى بِالنَّخِيل وتعيش فِيه التَّماسِيح ، أَمَّا الْمَناطِقُ الاسْتِوائِيَّةُ فَكَانَت شَدِيدَة الْحَرَارَة بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ عَلَى الْبَشَر الْعَيْش فِيهَا . وَفِي بَعْض الْحُقَب فِي الْمَاضِي السحيق ، كَانَتْ الْأَرْضُ جلّها مُغَطَّاة بالجليد .

وَقَد يُوَاجِه الْبَشَر أَيْضًا مَخاطِر تَزَايَد الأنشطة البركانية واصطدام النَيَازِك بِالْأَرْض ، وانفجارات أَشِعَّة غاما ، أَوْ اخْتِلَال التَّوازُن البيئي الَّذِي يُؤَدِي إِلَى حُدُوثِ عَمَلِيَّات انْقِرَاض جَمَاعِيَّة مَرَّة كُلّ 100 مِلْيُون عَام تَقْرِيبًا .

وَرُبَّمَا يَتَغَيَّر شَكْل الْإِنْسَانُ بَعْدَ مَا يَزِيدُ عَلَى ملايين السَنِين ، فَإِن جيناتنا تَتَغَيَّر وتتحور بِاسْتِمْرَار ، كَمَا يَخْضَعُ الْبَشَر لقوانين الانْتِخَاب الطبيعي- نَظَرًا لِلتَّفَاوُتِ فِي الرِعَايَةِ الصَحيَّة وَمَوْت الْبَعْض فِي حَوَادِثِ طرق- نَاهِيك عَنْ أَنْ التكنولوجيا الحيوية أَصْبَحْت تتيح لِلْبَشَر تَعْدِيل جيناتهم عَمْدًا ، كَمَا تَسَمُّحُ التقنيات الحَدِيثَة لِلْبَشَر بِزَرْع أَجْهِزَة ورقائق فِي أَجْسَامِهِمْ .

لَكِن الحضارات الَّتِي سيقيمها الْبِشْرَ فِي صُورَتُهُم المستقبلية بَعْد مليارات السَنِين ، سَتَكُون قَادِرَةً عَلَى الصمود فِي وَجْهِ الكَوارِث الكَوْنِيَّة ، والتخطيط مُسْتَقْبلًا للعصور الجيولوجية .

وتكمن الْمُفَارَقَةِ فِي أَنَ بَقَاءَ الجِنْسِ البَشَرِيَ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ فَنَاءِ الثَّدْيِيَّات الْأُخْرَى ، سَيَكُون مَرْهُونًا بتطوره ، إِذْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ شَكْل الْبَشَر مُخْتَلِفًا تَمَامًا عَن شكلنا الْحَالِيّ .

التَّحَدي الثَّانِي : نِهَايَةُ الْمُحِيط الحَيَوِيّ

بَعْد مليار عَام ، أَوْ نَحْو ذَلِكَ ، سيقضي تَوَسَّع الشَّمْس وَزِيَادَةٌ سطوعها عَلَى الْمُحِيطِ الحَيَوِيّ لِلْأَرْض . فَإِن حَرَارَةَ الشَّمْس ستؤدي إِلَى زِيَادَةِ وَتِيرَة تَأَكُل الصُّخُور الَّذِي يُسَبَب بِدَوْرِه تفاعلات كِيمِيَائِيَّة تُسْحَب كَمِيَّات كَبِيرَةً مِنْ ثَانِي أُكْسِيد الكَرْبُون مِنْ الْهَوَاءِ ، وَمِنْ ثَمَّ قَدْ تَمُوت النَبَاتَات بِسَبَب نَقَص الكَرْبُون اللَّازِم لِلتَّمْثِيل الضَّوْئِيّ .

وسترتفع حَرَارَة كَوْكَب الْأَرْض ، بِسَبَب تَبَخَّر الْمِيَاهِ مِنْ المحيطات فِي صُورَةِ بُخَار مَاء ، الَّذِي يُعَدُّ أَحَدُ الغازات الْمُسَبَّبَة للاحتباس الحراري .

أَنَّ زِيَادَةَ سُطُوع الشَّمْسَ قَدْ يُسَبّب مَشَاكِل خَطِيرَةٌ وَقَد اِقْتَرَح بَعْضُ الْعُلَمَاءِ العَدِيدِ مِنَ الطُّرُقِ لِحِمَايَة الْمُحِيط الحَيَوِيّ ، مِنْ بَيْنِهَا الِاسْتِعَانَة بهندسة الْمُناخ عَنْ طَرِيقِ ضَخّ رَذاذ عَاكِس إِلَى طَبَقَةِ الجَوّ الْعُلْيَا (الستراسوفير) ، أَوْ بِنَاءِ مُظِلّه ضَخْمَةٌ بَيْنَ الْأَرْض وَالشَّمْسُ ، أَو إِزَاحَة كَوْكَب الْأَرْض بَعِيدًا عَنْ الشَّمْسِ .

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى اسْتِيطَان كَوَاكِب أُخْرَى ، فَقَدْ أَصْبَحَ مِنْ الْمُمْكِنِ إِقَامَة مستوطنات بَشَرِيَّة فِي الْفَضَاءِ تَحَقَّق الِاكْتِفَاء الذَّاتِيّ . وَحَتَّى لَوْ كَانَ إِنْشَاءً الْمَبانِي عَلَى أسطح الْكَوَاكِب الْأُخْرَى يَبْدُو صَعْبًا الْآن ، فَإِن إِمَامِنَا مليار عَام لنجتهد وَنَزْدَاد مَهَارَةٌ وثراء .

مَوْت الشَّمْس

بَعْدَ خَمْسَةِ مليارات عَام ، سيزداد تَوَهَّج الشَّمْس بوتيرة أَسْرَع ، لِأَنّ غَاز الهيليوم الْمُتَرَاكِم فِي جَوْفِهَا سيعمل عَلَى تَسْخينُها حَتَّى تَتَحَوَّلُ إِلَى نَجْمٌ أَحَمَرُ عِمْلَاق ، أَوْ مَا يُسَمَّى بِالنَجْم الْمُحْتَضَر . وستنخفض دَرَجَةُ الحَرَارَةِ السطحية ، لكِن الضَّوْءِ الَّذِي يَشِع مِنْهَا سيغطي مساحات أَكْبر بِمَرَاحِل نَظَرًا لضخامة حَجْمَهَا . وَمَن الْمُرَجَحُ أَنْ تبتلع الشَّمْس أَثْنَاء تَمَدَّد

سَطْحِهَا الْخَارِجِيّ ، كَوْكَب الْأَرْض ، وَحَتَّى لَوْ لَمْ تَبْتَلِعْه ستحرقه أَشِعَّتَهَا المتوهجة وَيَتَحَوَّلُ إِلَى صَخْرَةٍ صَمَّاءَ .

وَبَعْد مليار عَامٍ أَوْ نَحْو ذَلِكَ ، ستتخلص الشَّمْسُ مِنْ غِلافُها الجَوِيّ فِي صُورَةِ سَدِيم غَازِيّ وتتحول إِلَى قَزَم أَبْيَض صَغِيرٌ وَلَنْ يَتَمَكَّنَ الْبَشَر أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ الْكَائِنَاتِ مِنْ الْبَقَاءِ إِلَّا إِذَا انْتَقَلُوا إِلَى الْأَنْظِمَة الشَّمْسِيَّة الْمُجَاوِرَة ، لِأَنَّ هَذَا الْكَوْكَب الْقُزُم الْأَبْيَض لَن يَشِع ضوءا وَلَا طَاقَةَ تَكْفِي لدعم الْحَيَاةِ فِي هَذَا النِظَامِ الشَّمْسِيّ .

وسيتطلب الْوُصُول إِلَى الْأَنْظِمَة الشَّمْسِيَّة الْمُجَاوِرَة مركبات فضائية سَرِيعَة لِلْغَايَة ، قَدْ تَكُونُ عَلَى الْأَرْجَح الْمُرَكَّبات الفضائية الدَّقِيقَةِ الَّتِي تُعْرَفُ بـ "الروبوت النانوي" نِسْبَةً إِلَى تِكْنُولُوجيا النانو . وَبَدَلًا مِنْ اسْتِخْدَامِ طَاقَة هَائِلَة لِدَفْع سُفُنٌ نَجْمِيَّةٌ عملاقة ، قَدْ يَكُونُ مِنْ الْأَفْضَلِ إِرْسَال هَذِه السُّفُن الصَّغِيرَة باستخدام الأشرعة العاكسة وأشعة الليزر الْقَوِيَّة . وَمَن الْمُمْكِن إِرْسَال الْآلَاف مِنْهَا ، لِحَمْل الْمُقَوِمَات الجينية اللَّازِمَة لدعم مَظَاهِر الْحَيَاةِ فِي الْأَنْظِمَة الشَّمْسِيَّة الْأُخْرَى .

وَبِمُجَرَّد أَنْ تَصِلَ أَجْهِزَة الروبوت إِلَى أَحَدٍ الكويكبات فِي النِّظَامِ الشَّمْسِيّ ، ستشغل أَنْظِمَه جَمْع أَشِعَّةِ الشَّمْسِ وتنقب عَن الْمَوَادّ وَتَبْنِي أَجْهِزَة رُوبُوت أُخْرَى ومصانع . وَفِي النِّهَايَةِ ستبني مُسْتَوْطَنَة تَصْلُح لِيَعِيش فِيهَا الْبَشَر .

قَدْ يَكُونُ اسْتِيطَان الْفَضَاءَ هُوَ فِرْصَة الْبَشَر لِلْبَقَاءِ عَلَى الْمَدَى الطَّوِيل وَقَدْ لَا يُغَادِرُ الْبَشَر أَنْفُسِهِم النِّظَام الشَّمْسِيّ ، وَلِهَذَا يَتَساءل الْبَعْض عَنْ شَكْل الجِنْسِ البَشَرِيَ أَوْ رُبَّمَا الْجِنْس الْجَدِيد الَّذِي سيعمر الْكَوْن مُسْتَقْبلًا .

نِهَايَةُ النُّجُوم

بَلَغ مَعْدَل تَكْوِين النُّجُوم فِي الْكَوْنِ ذُرْوَتَه بِالْفِعْل ، وَبَعْد بِضْع عَشَرَاتٍ مِنْ الملايين مِن السَّنَوَات ستختفي النُّجُوم المتوهجة وَقَصِيرِه الْعُمْر ، بَيْنَمَا ستبقى نُجُوم حَمْرَاء قزمة خَافَتْه طَوِيلَة الْعُمْر ، وستلمع هَذِهِ النُّجُوم لتريليونات السَّنَوَات ، لِكِن نَشَاط تَكْوِين النُّجُوم سيتراجع ، وَحَتَّى هَذِهِ النُّجُوم الْحَمْرَاء القزمة ستختفي وَلَن يَحِلّ مَحَلَهَا غَيْرِهَا . وَلِكَي يَنْجُو الْبَشَر ، سنحتاج لمصادر طَاقَة بديلة لضوء النُّجُوم .

ويقترح عُلَماء بَعْض الِاحْتِمَالَاتِ لِلنَّجَاة ، مِنْهَا تَوْلِيد الطَّاقَة عَنْ طَرِيقِ تفاعلات الاندماج النَوَوِيّ باستخدام الهيدْرُوجِين الْمُنْبَعِثُ مِنْ الْإِجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي تُسَمَّى النُّجُوم القزمة الْبُنِّيَة وَالْكَوَاكِب الغَازِيَة ، أَوْ التَّخَلُّصَ مِنْ الْقَرْص الْغَازِي الْمُحِيط بِالثَّقْب الْأَسْوَد وَتَجْمِيع الطَّاقَة المنبعثة مِنْه ، أَو الِاسْتِفَادَةُ مِنْ دَوَرَان الثَّقْب الْأَسْوَد مُبَاشَرَة باستخدام مَا يُعْرَفُ بِاسْم قنابل الثُّقُوب السَّوْدَاء فَائِقَةُ الإِشْعاع .

لَكِنْ كُلُّ هَذَا يَتَطَلَّب مَشْرُوعًا هندسيا عملاقا . لَكِن الْمُشْكِلَة تَكْمُن فِي أَنَّ تفاعلات الانشطار النَوَوِيَّ قَدْ تَتَوَقَّف عِنْد نُضُوب النَظَائِر المشعة الَّتِي يُنْتِجُهَا عَادَة اِنْدِماج النُّجُوم النترونية ، وَالشَّمُوس الضَّخْمَة المتفجرة (المعروفة أَيْضًا بِاسْم المستعرات العظمى) . وستنفد أَيْضًا الطَّاقَة الحرارية الجَوْفِيَّة عِنْد اِضْمِحْلالُ النَظَائِر المشعة ، مِمَّا قَدْ يُجْعَلُ دَرَجَةُ حَرَارَةِ الصُّخُور تتراجع بِوُضُوح .

وستتكيف الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ مَع دَرَجَات الْحَرَارَة الْمُنْخَفِضَة والبيئات غَيْر الْمَأْلُوفَة ، حَيْثُ قَدْ تَصِل دَرَجَةُ الحَرَارَةِ إِلَى الصِّفْر الْمُطْلَق . وَعِنْدَمَا تَخْتَفِي النُّجُوم ، ستلجأ الْكَائِنَات الَّتِي تَعِيشُ عَلَى الكَرْبُون وأجهزة الروبوت إِلَى عوالم افتراضية أَكْبر وَأَكْثَر تَعْقِيدا مِنْ الْعَالِمِ الْخَارِجِيّ

نِهَايَةُ المجرات

قَدْ تُؤَدِي حَرَكَة النُجُوم العشوائية عَلَى مَدَار الزَّمَن إِلَى تَلَاشِي المجرات . فالنجوم تَمر بِمُحَاذَاة بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَغَيَّر سرعاتها بِشَكْل عَشْوائِيٌّ . وَفِي بَعْض الْأَحْيَان ، يُصَلّ النَجْم إِلَى سُرْعَة الْهُرُوب الَّتِي تتيح لَه الإِفْلَاتَ مِنْ جَاذِبِيَّة الْمَجَرَّة ويختفي فِي الْفَضَاءِ الشَّاسِع ، وَهَذَا يُؤَدِي إِلَى زِيَادَةِ كَثَافَةُ الْمَجَرَّة .

وَبَعْد مِئَات الملايين مِنْ السَنِينَ ، ستتناثر الْمَجَرَّة بأكملها أَوْ تَسْقُطُ فِي الثُّقْبِ الْأَسْوَد المركزي ، وستصطدم الْكَوَاكِب حَوْل النُجُوم بِبَعْضِهَا .

وَقَدْ يَحْتَاجُ الْبَشَر لِلنَجَاةِ مِنْ هَذِهِ الكَوارث إِلَى تَوْجِيهِ النُجُوم وَوَضَعَهَا عَلَى مدارات ثَابِتَةٌ عَلَى الْمَدَى الطَّوِيل .

هَذَا الِاقْتِرَاح لَيْس مُسْتَحِيلًا فِي الْوَقْتِ الْحَالِيّ ، إِذَا وَضَعْنَا أَدَوَات أَو مَرَايَا عاكِسَة ضَخْمَةٌ ، حَتَّى تَعْمَل الْأَشِعَّة الَّتِي تعكسها عَلَى دَفْعِ النُجُوم ، بِنَفْس قُوَّة المحركات الضَّعِيفَة للصواريخ ،

لتتحرك بِمُحَاذَاة بَعْضُهَا بَعْضًا بِشَكْل مُنْضَبِط . وَإِذَا غُيِّرَتْ النُّجُوم مَوَاقِعِهَا عَلَى الْمَدَارَات ، قَد تُسْتَخْدَم تِلْك المرايا العاكسة الضَّخْمَة لِدَفْع النُّجُوم الْأُخْرَى وَتَغْيِير مَسَارَهَا .

بَعْد عَشَرَات المليارات مِنْ السَنِينَ ستختفي النُّجُوم المتوهجة وَقَصِيرِه الْعُمْر ، بَيْنَمَا ستتبقى نُجُوم حَمْرَاء قزمة خَافَتْه

بَعْد عَشَرَات المليارات مِنْ السَنِينَ ستختفي النُّجُوم المتوهجة وَقَصِيرِه الْعُمْر ، بَيْنَمَا ستتبقى نُجُوم حَمْرَاء قزمة خَافَتْه طَوِيلَة الْعُمْر

نِهَايَةٌ الْمَادَّة

تَتَأَلَّف الْمَادَّةِ مِنْ ذَرَّاتِ تَتَكَوَّنُ مِنْ بروتونات ونترونات وإلكترونات . وَمَن الْمَعْرُوفِ أَنْ البْرُوتونات والإلكترونات مُسْتَقِرَّةٌ تماما– وَتَعْمَل البْرُوتونات عَلَى تَثْبِيتُ النيترونات الَّتِي تَضْمَحِلّ بِمُفْرَدِهَا فِي دَقَائِقِ مَعْدودَةٍ .

لَكِن الْكَثِيرِ مِنْ التَنظَرِيَّات الفيزيائية تَقُولُ إنْ البْرُوتونات لَيْسَت مُسْتَقِرَّةٌ ، وتتنبأ بِأَنَّهَا ستضمحل عَلَى فَتَرَات زمنية هَائِلَة ، قَد تَسْتَغْرِق تريليونات السَّنَوَات ، فِي حَالَةِ حُدُوثِهَا . وَحَتَّى الْآنَ لَمْ يَلْحَظْ أَحَدٌ انْحِلَال البروتون ، رَغِم جُهُودٌ بَعْض الْأَبْحَاث الجَرِيئَة .

وَهَذَا الاضمحلال سيؤذن بِنِهَايَة الْمَادَّةِ كَمَا نَعْرِفُهَا . إذ ستتحول النُجُوم وَالْكَوَاكِب بِبُطْء إلَى إشْعاعٌ وإلكترونات حُرَّةٌ ومضاداتها الَّتِي تُسَمَّى بوزيترون ، وَلَنْ تَكُونَ قَادِرَةً عَلَى تَكْوِين أَنْظِمَه بيئية صَالَحَه لِلْعَيْش .

وستتحول آخر النُجُوم القزمة الصَّغِيرَة الْبَارِدَة تَدْرِيجيّا إلَى بَلُّورات الهيليوم والهيدروجين الَّتِي تتبخر بِبُطْء وَسَط السُّكُونِ الَّذِي يَسُود الْكَوْن . وَلَن يَبْقَى شَيْءٌ فِي الْكَوْنِ سِوَى إشعاعات وثقوب سَوْدَاء .

إمَّا عَنْ سُبُلِ التَنجَاة ، فَكَما يَقُول الروائي إسْحَاق عظيموف ، فِي قِصَّتِهِ الْقَصِيرَة "السؤال الأخير" : "لا يُوجَد حَتَّى الْآنَ مَا يَكْفِي مِنْ الْبَيَانَاتِ لِلْحُصُولِ عَلَى إجَابَةِ شافية" .

السيناريو الْأَكْثَر تَرْجِيحًا لِنِهَايَة الْكَوْنِ فِي عِلْمِ الفَلَكِ

أَنْتَجَت الفِيزِيَاء النَّظَرِيَّة عِدَّة تَصَوُّرَات بِشَأْن نَشْأَة الْكَوْن ، غَيْر أَنْ اهْتِمَام عَالِمَة الفِيزِيَاء الْفَلَكِيَة كاتي ماك انْصَبَّ عَلَى سيناريوهات نِهَايَتِه ، لَكِن عَوَامِل بَشَرِيَّة قَد تَتَسَبَّبْ فِي نِهَايَة الْحَيَاةِ عَلَى كَوْكَب الْأَرْض قَبْلَ نِهَايَة الْكَوْن الْمُفْتَرَضَة بِكَثِير .

إذَا انْطَلَقْنَا مِن فَرْضِيَّة أَن للكون بِدَايَة ، فَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْعَاد فَرْضِيَّة أَنْ تَكُونَ لَهُ نِهَايَةٌ أيضًا . وَحَسَب المعطيات وَالْمَعَارِف الْعِلْمِيَّة المتوفرة حَالِيًا ، فَإِنَّ هَذِهِ النِّهَايَة قَدْ تَتَبَّعَ سيناريوهات ، حَاوَلَت عَالِمَة الفِيزِيَاء الْفَلَكِيَة كاتي ماك وَصْفِهَا بِدِقَّة فِي كِتَابِهَا "نهاية كُلّ شيء" الَّتِي ظَهَرَتْ مُؤَخَّرًا نُسْخَتِه الألمانية وَلَقِي اهْتِمَامًا كَبِيرًا مِنْ قِبَلِ الصُّحُف وَالْمَجَلَّات الْعَلَمِيَّة فِي أَلْمانيا ، وَإِنْ كَانَ صَدَى الْكِتَاب قَدْ وَصَلَ إِلَى أَلْمانيا أَيْضًا حِينَ صُدُورِ النُّسْخَة الإِنْجِلِيزِيَّة . وَرَغَم أَنَّهَا لَا تُتَوَقَّع نِهَايَةٌ سَعِيدَة لِكُلّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ ، فَإِن كِتَابِهَا يستحف الْقِرَاءَةُ لِأَنَّ نِهَايَة الْكَوْن فِي تَصَوُّرِهَا ، قَدْ تَكُونُ مبهرة تَمَامًا كَمَا كَانَتْ بِدَايَتُهُ . وَهُنَاك شَبَه إِجْمَاعٌ لَدَى عُلَمَاء الْفَلَك عَلَى أَنَّ سناريوهات نِهَايَةٌ الْكَوْن ستتوقف إِلَى حَدَ بَعِيدٍ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي سيتطور بِهَا ، فَإِمَّا أَنْ تَتَسَارَع حَرَكَة تَوَسِعَة إِلَى مَا لَا نِهَايَة أَو تتباطأ أَوْ تَتَوَقَّفُ نِهَائِيًا ، ووفقا لِهَذِه الْحَالَات يُمْكِنُ تَصَوُّرُ نِهَايَةٌ الْكَوْن كَمَا نَعْرِفُه الْيَوْم .

فَفِي حَالَةِ تَوَقُّف الْكَوْن عَن التَّوَسُّع ، فَإِن السيناريو الْأَكْثَر احْتِمَالًا هُوَ حَرَكَةٌ معكوسة لِمَا يُسَمَّى بـ"الانفجار العظيم" وبالتالي اِنْهِيَار شَامِلٌ لِكُلِّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ بِمَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَهُوَ مَا أَسْمَاه الْعُلَمَاء بسيناريو "السحق الشديد" (Big Crunch) . غَيْرِ أَنْ عَدَدًا مِنْ عُلَمَاءِ الْفَلْك لَا يُرَجِحُون هَذَا السيناريو ، خُصُوصًا بَعْدَ مَا تَمَّ اكْتِشَافُ تَوَسَّع الْكَوْن بِشَكْل مُتَسارِع بِسَبَب تَأْثِير الطَّاقَة الْمُظْلِمَة . وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ سينطفئ تَدْرِيجِيّا بِمَا فِي ذَلِكَ الثُّقُوب السَّوْدَاء بِفِعْل الْبُرُودَة الحَتْمِيّة . وَهَذَا مَا يَصْطَلِح عَلَيْهِ أَيْضًا بـ"الوفاة الحرارية" للكون ، الَّتِي قَدْ يَحْدُثُ أَمَّا تَدْرِيجِيّا أَوْ عَلَى شَكْلِ انْفِجَار كَوْنِي عَظِيمٌ (Big Rip) أَو "الفتق الكبير" .

لعديد مِن النَظَرِيَّات تُشِيرُ إِلَى أَنْ الْكَوْن سينتهي يَوْمًا مَا ، لَكِنْ كَيفَ سَتَكُون هَذِه النِّهَايَة ؟ هَذَا السُّؤَالِ وَلَد العَدِيدِ مِنَ الفرضيات الفيزيائية الَّتِي تَتَنَبّأ بِمَصِير الْكَوْن ، إِلَيْك أَهَمَهَا .

"التجمد الكبير" أَوْ الْمَوْتِ الحراري

أَوَّل سيناريوهات نِهَايَةُ الْكَوْن هُو سِيناريو تجمده نَتِيجَة مَوْتِه حراريا . فَمُنْذ نَشْأَتِه قَبْل حَوَالَي 13 . 8 مليار عَام ، يَتَطَوَّر الْكَوْن –وفق رَأْيِ بَعْضِ العلماء– مِنْ حَالِهِ التَّرْتِيب إِلَى حَالَةٍ

الفَوْضَى وسيصل فِي النِّهَايَةِ إِلَى حَالَةٍ مِنْ الفَوْضَى الْقُصْوَى ، تَمَامًا مِثْل مُكَعَّب السُّكَّرِ الَّذِي يَذُوب تَدْرِيجِيّا فِي فِنْجان مِن الشَّاي ، وَلَكِنَّه سيستغرق وَقْتًا طَوِيلًا لِلْغَايَة للعودة بِشَكْل عَشْوائِيٍّ إِلَى هَيْكَل مُكَعَّب مُنَظَّمٌ .

فِي حَالَةِ الفَوْضَى الْقُصْوَى سَتَكُون الحَرَارَةُ فِي الْكَوْنِ بِأَكْمِلِه مُوَزَّعَةٌ بِالتَّسَاوِي ، وَفْق تَقْرِير نَشْرٌ عَلَى مَوْقِعٍ "فيز دُوت أورغ" (Phys . org) ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ الْمَزِيدَ مِنْ الطَّاقَةِ الْقَابِلَة للاستخدام ، وستتوقف الْحَرَكَة الميكانيكية دَاخِلٌ الْكَوْن وسيتجمد فِيمَا يُسَمَّى "التجميد الكبير" (Big Freeze) ، الَّذِي هُوَ انْعِكَاس لِلْمَوْت الحراري للكون فِي هَذَا السيناريو ، ستنضب النُّجُومِ فِي النِّهَايَةِ ، وَمَع نَفَاد وَقُودُهَا ، سيزداد الْكَوْن ظلاما ثُمّ سَتَظْهَر الثُّقُوب السَّوْدَاءِ فِي جَمِيعِ أنحائه ، وَالَّتِي ستختفي بدورها مَعَ مُرُورِ الْوَقْت .

ووفقا لِأَفْضَل النَّمَاذِج الفيزيائية لتطور الْكَوْن ، فَإِنَّ هَذَا السيناريو يُعَدّ الْأَكْثَر تَرْجِيحًا إِذَا اسْتَمَرَّتْ الطَّاقَة الْمُظْلِمَةِ فِي تَسْرِيعِ تَمَدَّد الْكَوْن إِلَى الأَبَدِ . لَكِن مَوْتِه البَطِيء هَذَا سَيَسْتَمِرّ مُدَّةً طَوِيلَةً جِدًّا تَقْدِر بحوالي وَاحِد "غوغول" (googol) مِن السَّنَوَات ، أَيَ وَاحِدٍ مَتْبُوعًا بـ 100 صَفَر !

يُرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْكَوْن مُنْذ نَشْأَتِه مِنْ حَالِهِ التَّرْتِيب إِلَى الفَوْضَى حَتَّى يَتَجَمَّد عِنْدَمَا تَبْلُغ الفَوْضَى أَقْصَاهَا التمزق الْكَبِير

وَفْقًا لِلْفَرْضِيَّة الَّتِي تُسَمَّى "التمزق الكبير" (Big rip) ، فَإِن تَسَارَع تَمَدَّد الْكَوْن سيتزايد مَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ بِحَيْثُ تَخْتَفِي مِن سمائنا كُلّ النُّجُوم والمجرات تَدْرِيجِيّا . ثُمّ تَبْدَأ الْهَيَاكِل الْكَوْنِيَّة الْكَبِيرَة بالانهيار تَدْرِيجِيّا بِسَبَب تَقَلَّص تَأْثِير الجَاذِبِيَّة .

وَلَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْقُوَّةِ قَادِرَةً عَلَى تَجْمِيع المجرات مَعًا ، وستبدأ عناقيدها فِي الانفراط ، وَفِي النِّهَايَةِ سَيَحْدُث الشَّيْءِ نَفْسِهِ دَاخِلٌ المجرات ، فتتحرر النُّجُومِ مِنَ تَأْثِيرِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وتغادر الْكَوَاكِب مداراتها حَوْل النُّجُوم .

وَبِمُجَرَّد مَا يَبْدَأُ الْفَضَاء بالتمدد بِسُرْعَة أَكْبَرُ مِنْ سُرْعَةِ الضَّوْء ، حَتَّى تتفكك الذَّرَّات ، فَلَا يُمْكِنُ لِأَيّ جَسِيمٌ فِي الْكَوْنِ التَّفَاعُل مَعَ أَيْ جَسِيمٌ آخَرَ بَعْدَ تِلْكَ اللَّحْظَةَ . وَسَيَدْفَع التَّوَسُّع المتسارع إِلَى تَقْلِيص مَجَالٌ تَأْثِير الْقُوَى الأَسَاسِيَّة ، مِثْل الجَاذِبِيَّة أَو الكهرومغناطيسية .

فِي السَّاعَاتِ الْقَلِيلَة الْأَخِيرَةِ مِنْ الْوُجُودِ ، سيتقلص هَذَا الْمَجَال لِيَكُون أَصْغَرَ مِنْ حَجْم الْجُزْئِيَّات ، مِمَّا يُؤَدِي إِلَى تَعْطِيلِ الْقُوَى الَّتِي تُرْبَطُ الْمَادَّة مَعًا ، وتتفكك الذَّرَّات نَفْسِهَا إِلَى جُسَيْمَات أَصْغَرَ قَبْلَ أَنْ يَتَمَزَّق نَسِيج الزمكان نَفْسِه .

وَحَسَب مَوْقِع "نيو أطلس" (New Atlas) ، فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ يَقْتَرِحُون هَذِه الْفَرْضِيَّة يَقْدِرُونَ أَنْ الْكَون إِمَامِه حَوَالَي 22 مليار سَنَةٍ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ . لكِن ، ولحسن الْحَظّ ، يَرَى عُلَمَاء آخَرُونَ أَنَّ هَذَا السيناريو يَتَضَمَّن معايير غَيْر وَاقِعِيَّةٌ ، لِذَلِك يُقَل احْتِمَالَ وُقُوعِهِ مُقَارَنَة بسيناريوهات أُخْرَى .

حَسَب الْعُلَمَاء ، تَسَارَع التَّمَدُّد يُؤَدِي إِلَى "تمزيق" الْكَون وَنِهَايَتِه (ناسا)

الانسحاق الْعَظِيم

لَكِن مَاذَا لَو اِنْخَفَضَت الطَّاقَة الْمُظْلِمَة بِمُرُور الْوَقْتِ وَكَانَتْ كَثَافَةٌ الْمَادَّةِ فِي الْكَوْنِ عَالِيَة بِمَا فِيهِ الْكِفَايَةُ ؟ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، لَن يَتَبَاطَأ مَعْدَل تَمَدَّد الْكَون فَحَسْب ، بَل سينعكس أَيْضًا لِتُصْبِح الجَاذِبِيَّة هِيَ الْقُوَّةُ المهيمنة .

وسيؤدي هَذَا فِي النِّهَايَةِ إِلَى اِنْكِمَاش الْكَوْن ، فتندمج عَنَاقِيد المجرات وتصطدم المجرات بِبَعْضِهَا بَعْضًا ثُمَّ النُّجُومُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَمَعَ اسْتِمْرَارِ الْكَوْنِ فِي الِانْكِمَاش ، سترتفع دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ فِي كُلِّ مَكَان دَفْعَةً وَاحِدَةً حَتَّى تتبخر النُّجُوم . وَيُسَمَّى هَذَا السيناريو بـ"الانسحاق العظيم" (Big Crunch) .

فِي اللَّحَظَات الْأَخِيرَةِ مِنْ عُمَرَ الْكَوْن ، سَتَكُون دَرَجَةَ حَرارَتِهِ شَدِيدَة الِارْتِفَاع ، بِحَيْث تتفكك الذَّرَّات نَفْسَهَا قَبْلَ أَنْ تبتلعها الثُّقُوب السَّوْدَاءِ الَّتِي ستشغل نَسَبَه مُتَزَايِدَةٌ مِن الْكَوْن المنكمش . فِي النِّهَايَةِ ، سَيَتِمّ سُحِق محتويات الْكَوْن بِالْكَامِلِ فِي مِسَاحَةِ صَغِيرَة لِلْغَايَة ، فِي مَا يُشْبِهُ الِانْفِجَار الْعَظِيم العكسي .

يَخْتَلِفْ الْعُلَمَاءُ فِي تَقْدِيرِ الْوَقْتِ الَّذِي قَدْ تَبْدَأ فِيه مَرْحَلَة الِانْكِمَاش هَذِه ، لَكِن دِرَاسَة عِلْمِيَّة حَدِيثِه –نشرت عَلى مَوْقِعِ الأَكَادِيمِيَّة الوَطَنِيَّة لِلْعُلُوم "بناس" (PNAS)– أَظْهَرَت أَنَّ هَذَا السيناريو قَدْ يَكُونُ قَرِيبًا جِدًّا مِنْ النَّاحِيَةِ الْكَوْنِيَّة ، حَيْث سيعكس الْكَوْن مساره بَعْد حَوَالَي 100 مِلْيُون سَنَةٍ مِنْ الْآنَ . فِي الْمُقَابِلِ ، ستستغرق مَرْحَلَة الِانْكِمَاش حَوَالَي مليار سَنَةٍ قَبْلَ أَنْ نَعُودَ إِلَى هَذَا التَّفَرُّد .

الِانكِماش حَتَّى يَعُودَ الْكَونِ كَما كَانَ لَحْظَة وِلَادَتُهُ فِي أَثْنَاءِ الِانْفِجَار الْعَظِيمُ هُوَ أَحَدُ سيناريوهات النَهَايَة (وكالة الْفَضَاء الأوروبية)

الْفَرَاغ "الزائف"

تُفْتَرَض السيناريوهات الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ أَنْ كَوْنَنَا هُوَ الْكَوْنُ الوَحِيدَ فِي الْوُجُودِ . وَلَكِن مَاذَا لَوْ كَانَ مُجَرَّدَ جُزْءٍ مِنْ أَكوان مُتَعَدَدَة ؟ هَلْ يُمْكِنُ لِهَذِه الْأَكْوان الْأُخْرَى إِنْ تُؤَثِرَ عَلَى مَصِيرَنَا النهائي ؟

الْإِجَابَة نَعَم ، حَسَب مَوْقِع "ديسكفر ماغازين" (Discover magazine) ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَإِن كَوْنَنَا سَيُوجَدُ فِي حَالَةِ تُعْرَف بِالْفَرَاغ الزَّائِف ، حَيْث نفترض خطأً أَنَّنَا مَوْجُودُونَ فِي الْحَالَةِ الْأَكْثَر اسْتِقْرارًا ، وَلَكِنْ لَا يَزَالُ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَتَغَيَرَ الصُّورَة بِشَكْل مُفاجِئٌ وَتَخْضَع لقوانين أُخْرَى مُخْتَلِفَةٌ .

فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، سيشبه الْكَون فُقّاعَة فِي إِنَاءٍ مِنْ الْمَاءِ الْمَغْلِيّ ، تَحْكُمُهَا قَوَانِين خَاصَّةً بِهَا . لَكِنْ يُمْكِنُ للفقاعات (الأكوان) أَن تَصْطَدِم بِبَعْضِهَا بَعْضًا ، مِمَّا يَعْنِي نِهَايَةٌ فَوْرِيَّة لِكَوْنِنَا

حَيْث يَتَغَيَّرُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى حَالَةٍ جَدِيدَة ، إِذْ يُمْكِنُ أَنْ يَنْتُجَ عَنْهُ مَزِيج مِن الْكَوْنَيْن ، أَوْ أَنَ يُشْكِلَ شَيْئًا جَدِيدًا تَمَامًا .

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ

المعطيات الْمَوْضُوعِيَّة عَلَى قُرْبِ السَّاعَةِ

نَقْصِد بالمعطيات الْمَوْضُوعِيَّة تِلْكَ الْحَقَائِقُ وَالْوَقَائِع الَّتِي تَوَكَّد مِنْ أَنَّ حَيَاةَ الْبَشَرِ عَلَى هَذَا الْكَوْكَب شَارَفْت عَلَى نِهَايَتِهَا بِسَبَب الْمَخَاطِر الطَّبِيعِيَّة والمناخية والبيئية الَّتِي لَحِقَت بِالْأَرْض نَتِيجَة التَّقَدُّمُ العِلْمِيُّ والصناعي وَالَّذِي بَدَأ مُنْذ قَرْنَيْن مِنْ الزَّمَنِ وَأَحْدَث نَتَائِجَ وَخِيمَةٍ وَمَن كَافَّة الْجَوَانِب عَلَى الْأَرْض وَالْبشْر لِذَلِك نَرَى الْيَوْم تَسْرِيع الْوَتِيرَه لِلْبَحْثِ عَنْ مَكَانٍ آخَرَ لِيَعِيش فِيه الْبَشَر وَهَذَا اعْتِقَاد وَرُؤْيَة غَرْبِيَّة صَرَفَه تَقُومُ عَلَى فَلْسَفَة مَادِّيَّة الْحَادِيَة لَا تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ خَالِق هَذَا الْكَوْن الْعَظِيم وبالتالي لَا تُؤْمِنَ بِمَا يَقُولُهُ الدِين عَنْ فِنَاء هَذَا الْكَوْن وَإِن الْهُرُوبُ مِنْ هَذَا الْمَصِير الْمَحْتُوم هُوَ فِي رَأْيَنَا فِرَار مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ إِلَى قَضَاءِ اللَّهِ فَلَا مَفَر مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ .

مُسْتَقْبِل الْبَشَرِيَّة فِي الْفِكْرِ الْغَرْبِيّ

يَخْتَلِف عُلَمَاء الِاجْتِمَاع وفلاسفة التَّارِيخ الْغَرْبِيِّين فِي تطلعهم إِلَى طَبِيعَةٍ مُسْتَقْبل الْبَشَرِيَّة ، وَمَا ستؤول إِلَيْه مَيَادِين الصَرَاع عَلَى الْأَرْض ، ومَنْ سَيَكُون هُو السَّائِد فِي نِهَايَة الْمَطَاف . وَيُمْكِنُ أَنْ نسجَل نظريتين متعاكستين فِي ذَلِكَ :

النَّظَرِيَّة الْأُولَى : الْمُسْتَقْبَل السَّعِيد للبشرية بِسِيَادَة الحَضَارَة الْغَرْبِيَّة

يَرَى هَؤُلَاء أنّ الْعَالِم سيؤول إِلَى خَيْرٍ ، وسينحسر الظُّلْمُ وَالْجَوْرُ فِي الْأَرْض ، وستسود الحَضَارَة الْغَرْبِيَّة ، حتّى كَتَب فرانْسِيس فوكوياما كِتَابِه الْمَعْرُوف نِهَايَةٌ التَّارِيخ وَالْإِنْسَان الْأَخِير (صدر عَام 1992م) ، الَّذِي يتبنّى فِيه نِهَايَةٌ الصَرَاع فِي الْعَالَم ، وَذَلِك بِسِيَادَة الدَيمُقْراطِيَّة الليبرالية الْغَرْبِيَّة عَلَى الْعَالِم ، وتبنّي الْعَالِم لَهَا ؛ باعْتِبَارِهَا الحَضَارَة الأرقى الَّتِي وَصَلَتْ إِلَى أَوْج التقدُّم والتطوُّر الفِكْرِيّ الأيديولوجي لِإِنْسَانٍ مَا بَعْدَ الْحَدَاثَة

وَلِذَا يَرَى أَنّه لَا بُدَّ مِن (عولمة الديمقراطية) كصيغةٍ نهائية ، وكأطروحة أَنْسَانِيه لَا تَرْقَى إِلَيْهَا أيّ أُطْروحَةٌ فِي الْعَالَم ، فِي مَا تعنيه العولمة مَنْ جَعَلَهَا مَبَادِئ عالَمِيَّة متفوقة عَلَى الْأَرْض ، شَرْقِهَا وَغَرْبَهَا ، وَلَا بُدَّ مِن النَضَال والكدّ والكدح مِنْ أَجْلِ تَحْقِيق هَذَا التفوُّق والهيمنة ، بحَسَب مَا يمليه مَنْطِق التَّارِيخ وَفَلْسَفَة الْأَحْدَاث العَالَمِيَّة الْكُبرَى ، بعيداً عَنْ رَوْحِ إِلْيَاس

والتشاؤم الَّتِي سادت فِي أُورُوبَّا جرّاء الدَّمَار الَّذِي أَلْحَقْته الحربان العالميتان الْأُولَى وَالثَّانِيَة ، وَصُعُود الْفَاشِيَة والنازية وَغَيْرِهِمَا مِنْ الأفْكارِ المدمّرة ، الَّتِي جُعِلَتْ الْعَالِم وكأنّه يَسِير بِاتّجاه الْخَرَاب وَالدَّمَار .

إنّ مَقُولَة (نهاية التاريخ) لَا تَعْنِي انْتِهَاءِ العَالَم وتوقُّف الْوَقَائِع وَالْأَحْدَاث فِيه ، وإنّما تَعْنِي انْتِصَار الْأَفْكَار وَالْمَبَادِئ وَالْقِيَم الليبرالية وَسِيادَتَها ، وَقَنَاعَةُ الْعَالِم بِمَدَى أَفْضَلِيَّتِهَا ورقيّها ؛ لِمَا توفّره مِنْ سَعَادَةِ حَقِيقِيَّةٌ وَكَرَامَة أَنْسَانِيه وتقدّم عَلَى صَعِيدٍ السَيَاسَة وَالِاجْتِمَاع وَالِاقْتِصَاد والعُمْران ، وَلَوْ فِي الْمَنْظُورِ الْبَعِيد . فإنّ الْعَالِمَ لَا خِيَارَ لَهُ إلاّ الْإِذْعَان بِغَلَبَتِهَا وتفوُّقها وَسِيادَتَها .

وَقَدْ سَارَ فوكوياما فِي أطروحته (نهاية التاريخ) عَلَى خَطَّى هِيجل (الفيلسوف الألماني) ، الَّذِي يُؤْمِنُ بِرُوح التَّارِيخ الَّتِي تَدْفَعُهُ إلَى الصُّعُود والِارْتِقَاء ، مِنْ خِلَالِ مَسِيرَة جهادية ونضالية عَلَى أَكْثَرِ مِنْ صَعِيد ، وَفِي أَكْثَرِ مِنْ مَجَالٌ ، لِيَشْمَل السَيَاسَة وَالِاقْتِصَاد والقِيَم والأخلاق... وَلِذَا لَمْ تَكُنْ نِهَايَةٌ التَّارِيخ كفكرة جَدِيدَة عِنْد فَلَاسِفَة التَّارِيخ الْغَرْبِيَّيْن ، فَقَدْ ذَهَبَ إلَيْهَا العَدِيد مِنْهُم ، مِنْ أَمْثَالِ : هيغل وفرانسيس بيكون وإيمانويل كانْت وتوماس مُور وكارل مَارْكِس ، وإنْ اخْتَلَفَت أطروحاتهم فِي مَضْمُونَهَا ومحتواها وَأَدَوَاتِهَا ووسائلها .

وَقَدْ كَانَ هيغل يَقُول : « الْوُصُولِ إِلَى حَالَةٍ التَّطَابُق بَيْن الْمِثْل وَالْوَاقِع ، تِلْكَ الْحَالَةِ الَّتِي تَغْدُو استثناءً تمييزياً أَعْلَى ، لَا يَنَالُهُ إِلاّ أُولَئِك المُعدّون سلفاً ومقدّماً لِكَسْر الْحَلْقَة التَّارِيخِيَّة ، وَبُلُوغ الْكَمال الْأَخِير » ([67]) ، يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى مَا ستؤول إِلَيْه الْوَقَائِع فِي الْعَالَم ، إِلَى إِقَامَةِ الدَّوْلَة الدُّسْتُورِيَّة الحَدِيثَة المقتدرة ، الْقَائِمَةُ عَلَى أَسَاسِ الحرّية بِمَعْنَاهَا الديمقراطي الليبرالي .

النَّظَرِيَّة الثَّانِيَة : اِنْهِيَار الحضارات وَسُقُوطُهَا

إِنّ هَذِه التَنظَرِيَّة وَالرَّوِيَّة فِي قِرَاءَةِ مَسِيرَة الحضارات الْإِنْسَانِيَّة يسودها الْيَأْس وَالْقُنُوطِ مِنْ محاولات الْإِصْلَاح . وَلِذَا يَرَى أَصْحَابِهَا أَنّ الْأُفُق أَسْوَدُ حَالِكٌ ، نظراً إِلَى قَوْس التُنزُول الَّذِي تَصِيرُ إِلَيْهِ الحَضَارَة الْغَرْبِيَّة ، وَمَا يُعْتَمَل فِيهَا مِنْ عَوَامِل السُّقُوط والانهيار وَالْفَنَاء !

وَقَدْ اعْتَبَرَ بَعْض الألمان أَنّ الْغَرْب تَجَاوَز مَرْحَلَة خَلَق الثَّقَافَة ، وَانْتَقَلَ إِلَى مَرْحَلَةِ الْمَدَنِيَّةِ أَو الحَضَارَة والرفاه الاجْتِمَاعِيّ . وَيَرَى أَنّ الحَضَارَة كائنٌ حيّ لَا بُدَّ أَن يمرّ فِي مَرَاحِل الْعُمْر الْمُخْتَلِفَة : الطُّفُولَة وَالشَّبَاب والكهولة والشيخوخة ، والحَضارَة تَصِلُ إِلَى مَرْحَلَةِ الشَّيْخُوخَة حِينَمَا تتحوّل إِلَى مَدَنِيَّةٌ ؛ لِأَنّ الحَضَارَة ـ كَما يَقُولُ ـ تَقُومُ عَلَى الصَّيْرُورَة (Becoming) الَّتِي تُعْطِي الْإِبْدَاع ، بَيْنَمَا الْمَدَنِيَّة تَقُومُ عَلَى الصَير (Become) ، وَبِذَلِك تَتَحَوَّل الصَّيْرُورَة

إِلَى صَيَّر ، فَيَنْتَهِي عَصْر الْإِبْدَاع وَالْعَطَاء والاستمرار... حِينَمَا يَخْتَفِي الضَّمِير الحيّ وَالرُّوح المبدعة وَالْعَقْل المعطاء والقِيَم الفعّالة السامية ، وَلَا تَبْقَى إلاّ قِيَم الْمَادَّة وَالْمَصَالِح الاقْتِصَادِيَّة ، وَلَا تَسُودّ إلاّ لُغَة القوّة وَالْعَسْكَر .

وَيَرَى أنّ « الاِسْتِعْمار هُو الرَّمْز المميَز لاحتضار الْمَدَنِيَّة الْغَرْبِيَّة وَمَوْتِهَا » . كَما يَرَى « أنّ حَيَوَيْه الْإِنْسَان الحَضَارِيّ تتّجه فِي مَجْرَاهَا إِلَى الْبَاطِنِ ، بَيْنَمَا تتّجه حَيَوَيْه الْإِنْسَان الْمَدَنِيّ إِلَى الْخَارِجِ » .

وَيَذْكُر المفكَر الأوروبي ألْفَيْن توفلر ، فِي كِتَابِه صَدْمَة الْمُسْتَقْبَل (Future shock) ، الَّذِي نَشَرَه عَام 1970م ، أنّ الْأَسِرَّة عَلَى وَشْكِ الاندثار الكلّي فِي الْغَرْبِ ، وأنّ الشاذّين جنسياً يَقُومُون بتبنّي أَطْفَال ممّا يُشْكِل صُورَة جَدِيدَة لِلْأَسِرَّة .

وَيَرَى المؤرِخ البْريطانِيّ الشَّهِير أرلوند توينبي ، الَّذِي توفّي فِي السبعينيات ، وَقَدْ كَتَبَ حَوْل اِنْهِيَار الحَضَارَة الْغَرْبِيَّة ، أنّ الحضارات تُوَلَدُ فِي أَجْوَاء التحدّي وَالْمُعَانَاة وَالصُّعُوبَة وَالْعَقَبَات ، وَذَلِكَ فِي نظريّته (التحدّي والاستجابة) ، وَقَد دَرَسْ ستّاً وَعِشْرِين حضارةً ، وَلَم يبْقَ مِنْهَا إلاّ ستّ حضارات فَقَط . وَيَرَى أنّ مِعْيَار الْبَقَاء والإِرْتِقَاء يَكْمُن فِي مَا يسمّيه بـ (التسامي) ،

الَّذِي يمثّل مُسْتَوَى تحشيد طَاقَات الْأُمَّة للاستجابة لتلكم التحدّيات الَّتِي تَنْطَلِق مِنْ النُّفُوسِ وَالْقُلُوب ، والحضارات تَنْهَار حِينَمَا تتحوَّل الأقلّية المبدعة إِلَى أقلّية مسيطرة ، تَفَقَّد وَلَاء الأمّة لَهَا والتماشي مَعَهَا ؛ لِتَعِيُّش الْأَقَلِّيَة الحاكمة فِي وادٍ وَالْمُجْتَمع الْمَحْكُوم فِي وادٍ آخَر . لِذَا تُحَاوِل الحَضَارَة قَبْلَ السُّقُوطِ أَحْيَانًا إِنْ تمتدّ خارجياً لتؤسّس دَوْلَة عالَمِيَّة . يَرَى (توينبي) أنّ هَذَا الِامْتِدَاد يُحَاوِلْ أَنْ يُخْفِيَ مَا يُعْتَمَلْ فِي الحَضَارَة مِن أزماتٍ وَأَمْرَاض وتفكّك .

وَقَدْ رَأَى الْبَعْض أنّ الصَرَاع لَا زَالَ مستمرّاً ، بَيدَ أنّ الْعَالِم سيشهد صراعاً مِن نوعٍ آخَر ، لِيَكُون صراعاً حضارياً بكلّ مَا تتضمّنه الحَضَارَة مِنْ مُفْرَدَاتِ القِيَم وَالدِين وَالْأَفْكَار والمعتقدات وَالْعَادَات والتقاليد ، وَسَيَكُون الصَرَاع حامياً بَيْن الحَضَارَة الْغَرْبِيَّة والحضارات الْأُخْرَى الثَّمانِيَة ، وَمِنْهَا : الحَضَارَة الْإِسْلَامِيَّة والحَضارَة الصَينِيَّة الكونفوشوسية واليابانية... وَيَرَى أنّ الصَرَاع سَيَكُون عنيفاً مَع الحَضَارَة الْإِسْلَامِيَّة المتحدية .

الْمُسْتَقْبَل لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ ، وستؤول إِلَيْه الْبَشَرِيَّة ، وَهُو مستقبلٌ زَاهِر ، يَسُود فِيه الصَّالِحُون المتَّقون . وَيُقَابِل الاتّجاه الَّذِي مُفَادُهُ أَنَّ الْبَشَرِيَّة تَسِير مِن السيّئ إِلَى الْأَسْوَأ ، وَهُوَ اتَجَاهٌ الْفَلَاسِفَة التشاؤمي ، وَفِي النَهَايَة يَسُود الظُّلْمُ وَالْجَوْرُ . وَعَلَيْهِ فَإِنْ الْإِنْسَانَ يتحمّل مَا يمرّ بِهِ

مِنْ مِحَنٍ وَالْأُمّ وبأساء وَضَرَّاء ؛ لأنّه يُعْرَف مُسْتَقْبل التَجاح والفَوْز وَالْفَلَاحُ : ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر : 43) .

إنّ صِنَاعَة الْمُسْتَقْبَل بارتقاء الحَضَارَة الْإِسْلَامِيَّة بعناصرها الْمُخْتَلِفَة ، مِنْ دِرَاسَةِ الْوَاقِع الْمَعَاصِر وَالْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ الغيبي ، ليلتزم الْمُسْلِمُون بالمعطيات التَّالِيَة : الِاتَحاد وَالتَّأَلُّف والتآزر ، وَإِعْدَاد الْقُوَّة ، وَالْإِصْلَاح ، وَالتَنْظرَة السُّنَنيّة الواعية لِلْأَحْدَاث ، وَالتَّفَاؤُل بِالْمُسْتَقْبَل ، والتخطيط لَه ، مِنْ خِلَالِ فَهْم الْآيَات وتجسيدها فِي حَيَاتِنَا ، وَمُلَاقَاة الشَّدَائِد الَّتِي تُوجِبُ الجُهُود الْكَبِيرَة وَسَيَلَان الْعَرَقُ مِنْ الْكَدْح وَالْعَنَاء ، وَالْقَتْلَى وَالشُّهَدَاء وَالْجِرَاحَات النازفة بِالدَمَاء .

فِي الْوَقْتِ الَّذِي يقصّ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ قَصَص الْمَاضِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَتَارِيخ الْأُمَم وَالدُّوَل والحضارات ، الَّتِي سادت ثمّ بادَت ؛ لاسْتِقْرَاء سُنَن التَّارِيخ وَقَوَانِين الْحَرَكَة الاجْتِمَاعِيَّة ، يَرْسُم للبشرية حَرَكَة الْمُسْتَقْبَل ، ومآلات الْمَسِيرَة الْإِنْسَانِيَّة عَلَى الْأَرْض ، ومساراتها المستقبلية ، كحتميات تَارِيخِيَّةٌ وَوَقَائِع حتميّة ، لَا بُدَّ أَن ترسو عَلَيْهَا سَفِينَة الْعَالِم الماخرة فِي بَحْرِ التيارات الاجْتِمَاعِيَّة المتلاطمة ، وَرِيَاح الصراعات المحتدمة ، لتشقّ أَمْواج

الْفِتَن وَتَبَحَّر عَبَر الزَّمَن ، رَغِم الْآلَام وَالْمَصَائِب والمصاعب والآهات وَالْعَرَق وَالْعَلَق وَالْمِحَن ، لِتَصِلَ إِلَى سَاحِلِ السَّعَادَة وَالْقِسْط وَالْعَدْل وَالْحُرِّيَّة ، وموانئ السَّلَام وَالْأَمْن وَالْأَمَان وَالْكَرَامَة الْإِنْسَانِيَّة . وَهَذِه الْأُمْنِيَّة الْكُبْرَى الَّتِي تَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا الْبَشَرِيَّة المعذَّبة ، وَهِي تنوء بِحَمْلِهَا ، وتكابد آلامها ، وتعاني مخاضاتها ، لَيْسَت أحلاماً وَرْدِيَّةٌ ، وَلَا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ماركسية ، وَإِنَّمَا هِيَ حتميات تَارِيخِيَّةٌ ، ووعود ربّانية ، محكومة بِسُنَن التَّارِيخ الْمُطَّرِدَة ، وَقَوَانِين حَرَاك الْمَسِيرَة الْإِنْسَانِيَّة الثَّابِتَة ، الْمُنْضَبِطَة بنواميس

تَدَاوَل الْأَيَّام ، ومعادلات التَّغْيِير وَالتَّدَافُع ، والممانعة والتمانع ، الَّتِي لَا تُعْرَفُ التَّبْدِيل وَالتَّحْوِيل : ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (آل عِمْرَان : 140) .

إنّ الْحَرَكَة التَّارِيخِيَّة تَسِير نَحْو التقدُّم وَالتَّكَامُل والارْتِقَاء ، وَلَا تُعْرَفُ التَّقَهْقُر إِلَى الْخَلْفِ والوراء . فَإِنَّنَا مَهْمَا رَأَيْنَا مَظَاهِر الظُّلْمُ وَالْجَوْرُ وَالْعُدْوَان وَالطُّغْيَان فَإِنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَزُولَ وتتلاشى وَفْق مَنْطِق التَّارِيخ الَّذِي يُؤْمِنُ إيماناً عميقاً بأنّ الْإِرَادَة الربّانية هِي الْغَالِبَة الْقَاهِرَة عَلَى

كلّ الإرادات الطاغوتية الفرعونية ، الَّتِي تُرِيدُ أَنْ تذلّ الْمُسْتَضْعَفِين وتقهر الْمُؤْمِنِين : ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص : 5) .

الْمَخَاطِر الْوُجُودِيَّة

« الْمَخَاطِر الْوُجُودِيَّة » هِي الْمَخَاطِر الَّتِي تُهدد مُسْتَقْبل الْإِنْسَايَّة ، سُوءًا عَنْ طَرِيق التَّسَبُّبُ فِي انْقِرَاض الْبَشَرِيَّة أَو تَعْوِيق التَّقَدُّم الْبَشَرِيّ بِشَكْل دَائِمٌ .

فِي عِلْم الْمُسْتَقْبَل ، انْقِرَاض الْإِنْسَانِ أَوْ الِانْقِرَاض الْبَشَرِيّ هُو افتراضية نِهَايَةٌ الجِنْس البَشَرِيَ الَّتِي قَدْ تنجُم عَنْ أَسْبَابِ طَبِيعِيَّةٌ أَوْ قَدْ يَكُونُ تَأْثِيرُ الْإِنْسَانِ عَلَى البِيئَةِ عَامِلًا مُباشرا فِي هَذَا الِانْقِرَاض .

يُعتبر احْتِمَالٌ انْقِرَاض الْبَشَرِيَّة فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيب مِنْ خِلَالِ سيناريوهات عَدِيدَةٌ مِنْ قَبِيلِ التَيَازِك أَو البراكين احْتِمَالًا ضَعِيفًا جِدًّا بَلْ يَكَادُ يَنْعَدِم . لَكِن انْقِرَاض الْبَشَرِيَّة بِسَبَب الْإِنْسَانُ هُوَ أَمْرٌ مُمْكِنٌ وَغَيْر مُستبعد حَسَبِ مَا أَكَّدْتُهُ العَدِيدِ مِنَ الدراسات ، فَالْإِنْسَان نَفْسِه قَادِرٌ عَلَى إِنْهَاءِ الْبَشَرِيَّة مِنْ خِلَالِ الإبادة النَوَوِيَّة العَالَمِيَّة ، الْحُرُوب البيُولُوجِيَّة أَو الإِفْرَاجُ عَنِ وَبَاء قَاتَل ، كَمَا أَنَّ الِانْفِجَار الديمغرافي تَدْخُلُ عَلَى الْخَطَ وَبَات أَحَدُ الْأَسْبَابِ الَّتِي قَدْ تعلب دَوْرًا

كَبِيرًا فِي انْقِرَاض الْبَشَر ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الانْهِيَار البيئي وَالتَّغَيُّر فِي الْمُناخ ؛ كَما لَاحَظَت دِراسات أُخْرَى أَنَّ التقنيات النَاشِئَة يُمكن أَن تُسبب وتساهم فِي الِانْقِرَاض وَلَعَلّ أبرزها الذَّكَاء الِاصْطِناعِي الْمُتَقَدِم ، التكنولوجيا الحيوية أَو الروبوتات الصَّغِيرَة . هَذَا وتجدر الْإِشَارَةُ إِلَى أَنْ احْتِمَالَ انْقِرَاض الْبَشَرِيَّة فِي غُضُونِ مِائَةِ سَنَةٍ القَادِمَة بَات مَوْضُوعٌ نَقّاش فَعَّال ومثيرا لِلْجَدَل .

كَثِيرٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ كَانُوا قَدْ لفتوا الِانْتِبَاه إِلَى الْمَخَاطِر الْوُجُودِيَّة وَحُذِرُوا مِنْهَا ، كَوْنِهَا قَادِرَةً عَلَى إِنْهَاءِ حَيَاة ومُستقبل عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ الْبَشَرِ ؛ كَما طالبوا بتخفيض هَذِه الْمَخَاطِر الْوُجُودِيَّة مُعتبرين أَنَّ أَيَّ مُبادرة بَسِيطِه قَدْ تَكُونُ ذَاتَ قِيمَةٍ كَبِيرَةٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيب .

كَتَب كَارْل ساغان فِي عَامٍ 1983 : « إِذًا نَحْن مُطَالَبُون بمُعايرة الِانْقِرَاض مِنَ النَاحِيَةِ الْعَدَدِيَّة ، وَأَوْدّ أَن أتأكد مِنْ عَدَدِ النَاسِ الَّذِينَ قَدْ يَعِيشُونَ فِي الأَجْيَالُ القَادِمَةُ . . . فالمخاطر الْوُجُودِيَّة قَد تُسبب انْقِرَاض الْبَشَرِيَّة أَكْثَر بمليون مَرَّة مِمَّا قَدْ تُسببه الْحُرُوب النَوَوِيَّة الَّتِي تُقْتَلُ مِئات الملايين مِنْ النَاسِ "فقط" . . . هُنَاك العَدِيدِ مِنَ التَّدَابِير المُمكنة قَصَد تُفَادِي الخَسائِر

الْمُحْتَمَلَة والكارثية وَمِنْهَا الثَّقَافَةِ وَالعُلُومِ التطورية وَدِرَاسَة تَارِيخِ هَذَا الْكَوْكَب ، وَكَذَلِك دِرَاسَة حَيَاة أجدادنا الَّذِين ساهموا فِي مُسْتَقْبَلِ أَوْلَادِهِم . »

كَتَب الْفَيْلَسُوف ديريك بارفيت فِي عَامٍ 1984 عَنْ مَوْضوعِ انْقِرَاض الْإِنْسَان ، حَيْث تُحَدَثُ عَنْ مِحْوَر النفعية ، مُؤَكِّدًا عَلَى أَنَّ حَيَاةَ كُلَ إِنْسَانٍ مُتساوية وَلَيْسَ هُنَاكَ فَرْق بَيْنَ غَنِيَ وَفَقِيرٍ أَوْ عَالِمٌ وأُمِي لِأَنَّ الْقِيمَة الْجَوْهَرِيَّة لِلْإِنْسَان تَتَمَثَّل فِي وُجُودِهِ ، بِغَضَ النَظَرِ عَنْ مَكَانِ هَذَا الْوُجُودِ أَوْ زَمَانِهِ كَمَا وَضَحَ عَلَى أَنَّ الْمِسَاحَة الَّتِي يُولد فِيهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ الْأَرْوَاح يَجِبُ أَنْ تكُونَ مَحْفُوظَةً فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَوْفِير فُرَص عَمِل لَهُم ، مِمَّا سيُسفر عَنْ فَائِدَةٍ عَظِيمَةٌ وَهَذَا سَيُؤَدَي بِشَكْل مُباشر إِلَى تَخْفِيض الْمَخَاطِر الْوُجُودِيَّة .

هُنَاك احْتِمَالٌ لِانْقِرَاض الْبَشَرِيَّة بِنِسْبَة 95% كَوْنُهَا قَبْلَ ذَاكَ حَسَب ج . رِيتْشارْد غَوَت الَّذِي سَاهَمَ فِي صِيَاغَة الْبُرْهَان المُثير لِلْجَدَل وَالَّذِي يُعرف الْيَوْم بِاسْم بُرْهَان يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

رَفَض الْفَيْلَسُوف رُوبِرْت آدمز فِي عَامٍ 1989 مَا تُوصَلَ لَه الْفَيْلَسُوف الْآخَر ديريك بارفيت وَقَد اِنْتَقَد وِجْهَةِ نَظَرِهِ الْقَائِمَةُ عَلَى عَدَمِ التَّفْرِقَةِ ، أَمَّا آمز فَقَد تُحَدَثُ عَنْ أخلاقيات الْبَشَر وولائهم والتزاماتهم ، مُفضلا بِذَلِكَ بَعْضُ الْبَشَر عَنْ غَيْرِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ « هُنَاك فِعْلًا مَشْرُوعٌ هائِلٌ

لمستقبل الْبَشَرِيَّة . . . فَنَحْن نتطلع إِلَى مُجْتَمع أَفْضَل ، أَكْثَر عَدْلًا ، أَكْثَر جَدْوَى ، وَأَكْثَر سلمية . . . مصلحتنا فِي حَيَاةِ أَبْنَائِنَا وأحفادنا ، عَلَى أَمَلِ أَنَّهُم سَوْف يَكُونُون قَادِرِين بِدُورِهِم عَلَى تَمرير الْحَيَاة لِأَبْنَائِهِم وأحفادهم . »

جَادَل الْفَيْلَسُوف نيك بوستروم عَام 2013 حَوْلَ مَوْضُوعِ انْقِرَاض الْبَشَر ، حَيْثُ فَضَّلَ الدَيمُوقْرَاطِيَّة عَلَى التَّمْيِيز ؛ وَيَرَى نيك إِنْ مَنَعَ الْخَطَر الْوُجُودِيّ هُو أَوْلَوِيَّة ومسؤولية فَائِقَةٌ الأَهَمِيَّة ، وَلا يَهْتَمُّ بِنَوْعِ الأَفْرَادِ الَّذِينَ سيعيشون فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَمَا سيقدمونه للبشرية . وَكَان بارفيت قَدْ فَصَّلَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعُ بِطَرِيقِه تكَاد تكُون رِيَاضِيَّةٌ ؛ حَيْثُ قَالَ : « إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَرْضَ لَا تَزَالُ صَالَحه لِلسَّكَن بَعْدَ مُرُورِ مليار سُنَّةٌ ، ثُمَّ مَا زَالَتْ صَالَحه للاستقرار عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ أَزْيَدَ مِنْ مليار بِشَرِّي ، فَهُنَاك احْتِمَالٌ 1016) سُنَّةً قَدْ يَعِيشُ فِيهَا الْإِنْسَانُ الْعَادِي عَلَى هَذِهِ الْأَرْضَ . » أَمَّا بوستروم فَيَذْهَب أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ ، مُشيرا إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا الْكَوْن فَارِغ ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَحَمُّلِ أَزْيَدَ مِنْ 1034 بِشَرِّي ؛ بَل يُمكن أَن يُدْعَم ويستحمل أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ (ما مِقْدَارُه 1054 حَيَاة بِشَرِّي عَلَى حَدَ تعبيره) .

السيناريوهات الْمُحْتَمَلَة

الكَوارِث

قَد تَلْعَب الْحُرُوب التَوَوِيَة أَو الْحُرُوب البيُولُوجِيَّة دَوْرًا كَبِيرًا فِي انْقِرَاض الْبَشَرِيَّة ، خَاصَّةً إِنْ الْقَرْنَ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ قَدْ شَهِدَ سباقا كَبِيرًا للتسلح وَتَجْهِيز ترسانات عملاقة وضخمة كَتِلْك الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي الْحَرْبِ البَارِدَةُ ، كَما أَنَّ هُنَاكَ افتراضية الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ سَبَبًا فِي آبَادِه الجِنْسِ البَشَرِيَ .

انْتِشَار أَو نَشَر وَبَاء قَاتَل قَدْ يَكُونُ عِبَارَةً عَنْ فيروسات ، بريونات ، أَوْ حَتَّى مضادات حَيَّوَيْه للبكتيريا الْمُقَاوَمَة . الْأَمْثِلَةِ السَابِقَةِ تَشْمَل جَائِحَةٌ إِنْفلُوَنْزا الَّتِي كَانَتْ قَدْ انْتَشَرَت عَام 1918 وَأَهْلَكْت سُكَّان أَمْرِيكا الْأَصْلِيَّيْن . فالوباء الْمُمِيت قَد يَقْتَصِرُ عَلَى الْبَشَرِ وَحْدَهُم ، وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُقَلَلَ مِنْ كَثَافَةْ السُّكَّان ، بَلْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُبيدهم خَاصَّةً إِذَا تَطَوَر الْوَبَاء وَانْتَشَرَ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ يُمكن تُفَادِي هَذَا السيناريو مِنْ خِلَالِ عُزِل السُّكَّان ؛ لَكِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ صَعْبَة جِدًّا وتكاد لَا تُطبق عَلَى أَرْضِ الْوَاقِع . وَكَان العَدِيدِ مِنَ المسؤولين الأمريكيين قيموا مَا قَدْ يَفْعَلُهُ الْوَبَاءِ فِي الْبَشَرِيَّة وَهَلْ هُوَ قَادِرٌ فِعْلًا عَلَى « مَحْو الْإِنْسَايِيَّة جَمْعَاء » ،

حَيْث أَكَّدُوا عَلَى أَنَّ هَذَا يَبْدُو مِنْ النَاحِيَةِ النَظَرِيَّة مُمْكِنٌ ، إلَّا أَنَّهُمْ واثقون مِنْ أَنَّهُ مُستحيل مِنَ النَاحِيَةِ الْعَمَلِيَّة ؛ حَيْث اعْتَرَفُوا بِقَدْرِه بَاقِي الْبُلْدَان عَلَى « التَّدَخُّل بفعالية » لِوَقْف انْتِشَار هَذَا الميكروب وَمَنَع انْقِرَاض الْبَشَرِيَّة .

التُمُور الديموغرافي الكَبِيرُ

قَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي هَذَا الِانْقِرَاض ، لَكِن انْخِفَاض عَدَدِ السُّكَّانِ مِنْ خِلَالِ وِلَادَة عَدَد أَقَلَّ مِنْ الْأَطْفَالِ قَدْ يَبْدُو كَحِلّ لِهَذِه الْمُشكلة ، خَاصَّةً وَأَنَّ النَقْص فِي عَدَدِ السُّكَّانِ يَعْنِي دُوَلٌ مُتَقَدِمَةٌ أَكْثَر ، وَتَوْزِيع للتركيبة السكانية بِشَكْل أَفْضَل . تَمَ فِي وَقْتِ سَابِق اسْتِقْرَاء الْبَيَانَات حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعُ (أي مَوْضُوعٌ الِانْفِجَار السكاني) .

وَقَد خَلَصَت النَتَائِج إلَى أَنْ الْجِنْسَ البَشَرِيَ مِن الْمُفترض انقراضه قَبْل 3000 سَنَةٍ قَبْلَ الميلاَدِ لَكِنَّ هَذَا لَمْ يَحْصُلْ لِسَبَبٍ مِنْ الْأَسْبَابِ ، وَكَان جَوْن أ . ليزلي قَدْ قُدَرَ أَنَّهُ إذَا بَقِيَ مُعدل التَّكَاثُرَ فِي أَلْمانيا بِهَذِه الْوَتِيرَه فَإِنَّ هَذِهِ الدَّوْلَة الأوروبِيَّة قَد تَفْنَى عَام 2400 . وَمَعَ ذَلِكَ ، فَإِنْ عَلِمَ الأَحْيَاءِ التطوري يُشير إلَى أَنْ التَّحَوُّلَ الديمغرافي قَد يَلْعَب الدَّوْر العكسي وَقَدْ يَكُونُ سَبَبًا مَهْمَا فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى النَوْعِ البَشَرِيَ .

الكَوارِث الجيولوجية أَو الكَونِيَّة

مِثْل تَأْثِير اصْطِدام الْأَجْرَام الْقَرِيبَةُ مِنْ الْأَرْضِ عَلَى الْأَرْضِ نَفْسُهَا ، أَو انْفِجَار أَشِعَّة غاما الفتاكةِ قُرب مجرة دَرْب التّبانَة ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى البراكين الْهَائِلَة والثورات البركانية الضَّخْمَة الَّتِي قَدْ تُؤَثِّرُ عَلَى الْمَدَى الطَّوِيلِ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ خَاصَّة تَأْثِيرِهَا عَلَى الْمُناخ .

تُعتبر الْأَجْرَام الْقَرِيبَةُ مِنْ الْأَرْضِ بِمَثَابَة مِنْطَقَة تَهدِيد لِبَقَاء الكَائِنَاتِ الحَيَّةِ ، وَحَتَّى إِنْ لَمْ تُسبب انْقِرَاض الْبَشَر فَإِنَّهَا تُخلف خَسائِر مَادَيَّة وبشرية كَبِيرَة سَوَاءٌ فِي النَطَاق الْمَحلَيّ ، الإِقْلِيميّ أَوْ حَتَّى الدُّوَلِيّ .

التَّهْدِيدَات بِسَبَب تَصَرُّفَات الْبَشَر

التغيرات فِي الْغِلَافِ الجَوِيّ بِسَبَبِ مَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ فِي الْأَرْضِ ، قَدْ تُجْعَلُ هَذِهِ الْأَخِيرَةَ غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلسَّكَن وبالتالي انْقِرَاض النَوْعِ البَشَرِيَ ، بِسَبَب ثَقْبٌ فِي الأوزُون عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ لَا الْحَصْرِ ، لِأَنَّهُ لَوْ حَصَلَ هَذَا فسينتشر ثَانِي أُكْسِيد الكَرْبُون السَّام بِشَكْل كَبِيرٌ وبتركيزات عَالِيَة مِمَّا قَدْ يَتَسَبَّبَ فِي الْوَفَاةِ بِسَبَب الْحُمَاض التَّنَفُّسِيّ (تحمض الدم) ، أَوْ عَلَى الْأَقَلَ الْإِصَابَة

بِأَمْرَاض فتاكة أَو مُزمنة مَدَى الْحَيَاة ، وَكَان العُلماء قَد تَوَقَّعُوا انتشاراً كَبِيرٌ لِلْمَوَادّ السَّآمَة فِي الْقَرْنِ الْوَاحِد وَالْعِشْرِين مِمَّا قَدْ يُؤَدِي إِلَى الْإِصَابَة بِأَمْرَاض جسدية خَطِيرَةٌ وَكَذَلِك الْأَمْرَاض الْعَقْلِيَّة كَمَا قَدْ يُؤَثِّر هَذَا عَلَى الظُّرُوف الصَحيَّة لِجَمِيع الْبَشَر . هَذَا وتجدر الْإِشَارَةُ إِلَى أَنْ الْحَدَّ الأَقْصَى مِنْ ثُنائِيٌّ أُوكْسِيدِ الكَرْبُونِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ الْبَشَر اسْتِنْشَاقَه أَو بِالْأَحْرَى العَيْش فِيهِ لَا يَزَالُ غَيْرُ مَعْرُوفٍ ، مِمَّا يَعْنِي فَرْضِيَّة انْقِرَاض أَكْثَر وَأَكْثَر خَاصَّة لَوْ عَجَزَ الْإِنْسَانُ عَنْ التَّكَاثُر بِسَبَب الْأَخْطَار الَّذِي تَمَّ ذَكَرَهَا فَوْق .

هُنَاك عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ الْحَيَوَانَاتِ الفقارية فِي تَارِيخ كَوْكَب الْأَرْض كَانَتْ قَدْ نِمْتُ بِشَكْل سَرِيع وتطورت بِطُرق غَيْر مَسْبُوقَة لَكِنَّ هَذَا التَّطَوُّر كَانَ لَهُ عَوَاقِب مُدَمِّرَة ووخيمة خَاصَّةً عَلَى بَاقِي كائِنات الْأَرْض فِي تِلْكَ الْفَتْرَة . رُبَمَا الْيَوْم يُحَدث نَفْسُ الشَّيْءِ ، حَيْثُ إِنَّ كَوْكَب الْأَرْض يَشْهَد نُمُوّا سكانيا رهيبا ؛ فَقَدْ ارْتَفَعَ عَدَدِ السُّكَّانِ مِن مليار وَاحِد عَام 1800 إِلَى مليارين عَام 1930 ، ثُمَّ وَصَلَ إِلَى أَكْثَر مِنْ 7 مليارات بِحُلُول عَام 2018 ، وَهَذَا يَعْنِي بِشَكْل مُبَاشِرٌ أَوْ غَيْرَ مُبَاشِرٍ ضَرُورَة تَوْفِير الْمَزِيدَ مِنْ المنتوجات الْأَوَّلِيَّة ثُمَّ زِيَادَة اسْتِخْدَامْ الْأَرَاضِي عَلَى حِسَابِ الْمَجَال الغابوي ، وَكَان مَرْكَز التَّنَوُّع البيولوجي قَد آكد عَلَى أَنَّ النُّمُوّ الديموغرافي

السَّرِيع سَوْف يُؤَدِي فِي نِهَايَةِ الْمَطَافُ إِلَى انْقِرَاضِ مَجْمُوعِهِ مِنْ الْحَيَوَانَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي تَلْعَب دَوْرًا مَهْمَا فِي بَقَاءِ الْإِنْسَان ، كَمَا أَنَّ هَذَا النُّمُوّ سَيتَجَاوَز قَدَرَه البِيئَة وبالتالي سَوْف يُؤَثِّر عَلَى كِفَايَتِهَا . الْأَدِلَّة تُشير إِلَى أَنْ معدلات الْوِلَادَة قَدْ تَشَهَّدَ ارْتِفَاعًا صاروخيا فِي الْقَرْنِ ال21 فِي الْعَالَمِ الْمُتَقَدَم ، وَهَذَا مَا أكدهُ هانْز روزلنج الطَّبِيب والإحصائي فِي الأَكَادِيمِيَّة السويدية ، حَيْثُ تَوَقَّعَ أَنَّ عَدَدَ سُكَّانِ العَالَم قَدْ يَتَجَاوَز 12 مليارا فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ .

فِي أَقَلَّ مِنْ مليار سَنَةٍ مِنْ الْآنَ ، قَدْ يَزِيدُ سُطُوع الشَّمْسِ عَنْ معدلاتها الِاعْتِيَادِيَّة وَذَلِكَ بِسَبَبِ نَقَص الهيدْرُوجِين وَهَذَا سيعني بِشَكْل مُباشر زِيَادَة سُخُونَة الطَّبَقَات الْخَارِجِيَّةِ الَّتِي قَدْ تُسبب هِيَ الْأُخْرَى تَبَخَّر الْأَقْطَاب الجليدية مِمَّا يَعْنِي ارْتِفَاع الْمَجَال الْمَائِيّ مُقارنة مَع الْيَابِسَة الَّتِي يَعِيش عَلَيْهَا الْبَشَر . لَيْسَ هَذَا فَقَطْ ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ كَانَ مُسْتَوَى ثَانِي أُكْسِيد الكَرْبُون فِي الْغِلَافِ الجَوِيّ مُنْخَفِض جِدًّا ويدعم الْحَيَاة النَّباتِيَة ، أَمَّا الْيَوْمُ فَهُوَ يُؤثر عَلَيْهَا ويُساهم فِي تَدْمِير السَّلَاسِل الغِذَائِيَّة .

بَعْدَ سَبْعِ إِلَى ثَمَانِيَةَ مليارات سَنَةٍ مِنْ الْآنَ ، إِذَا كَانَ بُعد الشَّمْسَ لَمْ يُصبح بَعْد كبعد العملاق الْأَحْمَر فَإِنَّ الْأَرْضَ عَلَى الْأَرْجَحِ ستنتقل إِلَى مَرْحَلَةٍ العملاق المُقارب وتتدمر نَتِيجَة لِذَلِك .

فِي حَالَةِ مَا لَمْ يَقُمْ الجِنْسِ البَشَرِيَ بتنظيم التَّقَدُّمُ العِلْمِيُّ ، فَإِنَّ هَذَا قَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي انقراضه وَذَلِكَ نَتِيجَةُ للاستخدام الْغَيْر العقلاني للتكنولوجيات الْجَدِيدَة ، بَعْض السيناريوهات تَشْمَل :

المبدعين مِن كِيان الذَّكَاء الْخَارِق كَانُوا يهدفون إِلَى الْبَحْثِ عَنْ طُرق تُؤَدِي إِلَى « آبَادِه » الجِنْسِ البَشَرِيَ .

اسْتِهْلَاك الروبوتات ذَاتِيَّةٌ التَّكْرار مَحَلّ كُلَّ صُوَرٌ الْمَادَّةِ عَلَى الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ ، وتُعرف هَذِه الْعَمَلِيَّة بتكنولوجيا النانو الجزيئية تَحْدِيدًا غراي غُو ، مِمَّا يَعْنِي تَدْمِير النِظَام البيئي لِلْأَرْض (إيكوفاجي) .

إِنْشَاءٌ ثُقْبٌ أَسْوَد دَقِيق عَلَى الْأَرْض خِلَال تَجْرِبَةً عِلْمِيَّةً ، أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْحَوَادِثِ الَّتِي قَدْ تَحْصُلُ بِسَبَب التَّجَارِب الْعِلْمِيَّة (التي تَتَطَلَّب تَجْرِبَة عَمَلِيَّة وَلَيْسَت نَظَرِيَّة فقط) مِنْ أَجْلِ اسْتِكْشاف فِيزياء الْجُسَيْمَات وَاسْتِيفَاء البُحُوث حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعُ ، فَمَثَلًا عِنْد تَجْرِبَة فَرَاغ

الْمَرْحَلَة الانتقالية كَانَتْ هُنَاكَ مخاوف بِشَأْن مُصَادِمٌ الهدرونات الْكَبِيرِ فِي سيرن ، كَما شَابٌّ الْعُلَمَاء خَوْفٍ شَدِيدٍ بِاعْتِبَارِ أَنَّ تَصَادَم الْبُرُوتونات بِسُرْعَة قَرِيبَةٌ مِنْ سُرْعَةِ الضَّوْء سَوْف يُؤَدَي بِشَكْل مُباشر إِلَى خَلْقِ ثُقْبٌ أَسْوَد قَد يَتَسَبَّبَ فِي انْقِرَاض الْبَشَر .

الْمَزِيدَ مِنْ السيناريوهات

(اصطدام الْأَجْرَام . وَانْفِجَار أَشِعَّة غاما فِي مجرة دَرْب التّبَانَة سَبَقَ ذِكْرَهَا أَعْلَاه .)

غَزْو الْأَرْضِ مِنْ قِبَلِ قُوَة مُتفوقة عَسْكَرِيّا تَعِيش خَارِج الْأَرْض ، لَكِنَّ هَذَا الْأَمْرِ مُستبعد حَيْث غَالِبًا مَا يُعتبر هَذَا السيناريو فَكَرِه مِن عوالم الْخَيَال الْعِلْمِيّ إِلَّا أَنْ مَجْمُوعِهِ مِنْ الْبَاحِثِين والْمُتخصصين فِي هَذَا الْمَجَال قَد أَكَّدُوا عَلَى ضَرُورَةِ النَظَر بجدية إِلَى هَذَا الِاحْتِمَالَ خَاصَّةً إِنْ هُنَاكَ بَحْثٌ جَارِي عَن ذَكَاءٌ خَارِجٌ الْأَرْض ، وَبِالرَّغْم مِنْ كُلَ هَذَا يَبْقَى هَذَا الِاحْتِمَالَ بَعِيدًا وَغَيْر مُرَجَح .

تَصَوُّر وردود فِعْلُ الْإِنْسَانِ حَوْل خَطَر انقراضه

التَّقْدِيرَات

انْقِرَاض الْإِنْسَانِ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ حَصَلَ فِي التَّارِيخِ كَما حَصَلَ مَعَ أَنْوَاع أُخْرَى مِن قَبِيل الديناصورات ، لِذَلِك فالتكهنات حَوْل سيناريوهات انْقِرَاض الْبَشَر مُختلف نَوْعًا مَا ؛ كَما أَنَّ هُنَاكَ بَعْض السيناريوهات الذَّاتِيَة ؛ فَمَثَلًا يَقُول نيك بوستروم أَن مُعظم السيناريوهات « مضللة » وَأَنَّهُ لَا يُمكننا اِفْتِرَاض مَا قَدْ يَحْصُلُ ، إلَّا أَنْ انْقِرَاض الْبَشَر هِيَ حَقِيقَةٌ مَوْجُودَةٌ بِنِسْبَة قَد تَصِلُ إلَى 25% وَإِن الجِنْسِ البَشَرِيَ تَنْتَظِرُه « مُهِمَّةٌ صَعْبَة » ، لِذَلِك يَجِبُ عَلَيْهِ الِاسْتِعْدَاد وتوفير كُلّ الاحْتِياطات اللَّازِمَةِ مِنْ الْمَرَّةِ الْأُولَى ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ « الْخَطَر الْوُجُودِيّ » لَا يُوفر فُرْصَةً أُخْرَى لِلتَّعَلُّم مِن الْفَشِل ، بَيْنَمَا يَرَى الْفَيْلَسُوف جَوْن ليزلي أَنَّ هُنَاكَ فِرْصَة 70% تُؤكد عَلَى اسْتِمْرَارِ عَيْش الْبَشَر أَزْيَدَ مِنْ 5 قُرُونٌ مِنْ الْآنَ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلَ الْمَخَاطِرِ ، هَذَا وتجدر الْإِشَارَةُ إلَى أَنْ ليزلي كَانَ وَلَا زَالَ مِنْ أَشَدَ المُعارضين لِمَا عُرف بِبُرْهَان يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فِي عَامٍ 2006 صَدر تَقْرِير ستيرن عَنْ الْخِزَانَةِ فِي الْمُمَلَكَةِ الْمُتَّحِدَة وَالَّذِي اِفْتَرَضَ أَنَّ الْبِشْرَ إمَامِه 100 سُنَّةٌ فَقَطْ ثُمَّ يَنْقَرِض وَذَلِك بناءا عَلَى مَجْمُوعِهِ مِنْ الحِسابات الاقْتِصَادِيَّة فِي الدَّوْلَةِ .

يَعتقد العَدِيدِ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ بَعْضَ السيناريوهات العَالَمِيَّة مِثْل الْحُرُوب النَوَوِيَّة قَدْ لَا تَكُونُ كَافِيَةً لِلْقَضَاءِ عَلَى كُلَ البَشَرِ فِي الْأَرْضِ .

فَمَثَلًا يَرَى الفيزيائي وِيلارْد أَن سِيناريو الِانْقِرَاض بِسَبَب الْحُرُوب النَوَوِيَّة لَا يَحْمِلُ فِي طياته أَي مِصْداقِيَّة ، لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُحِبّ الْوُصُول إِلَى مَجْمُوعِه مُتَنَوِعَةً مِنَ الْمَجَالات وتدميرها بِمَا فِي ذَلِكَ مِتْرُو الْإِنْفَاق تَحْتَ الْأَرْضِ فِي الْمُدُنِ الْكُبرَى ، جِبَال التبت ، الْجُزُر النَائِيَة جَنُوب الْمُحِيط الْهَادِي ، وَحَتَّى قَاعِدَةٌ ماك موردو فِي الْقَارّة القطبية الْجَنُوبِيَّة الَّتِي لَدَيْهَا خُطَط للطوارئ والإمدادات لِفَتْرَة طَوِيلَةٍ فِي حَالَةِ مَا عانت مِنْ الْعُزْلَةِ . وَبِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ ، فالحُكومات هيَّأت وجهزت مخابئ وملاجئ تَسْتَطِيع الصمود عِنْد الْهُجُوم النَوَوِيّ ، وبالتالي فَإِنَّ هَذَا الْهُجُوم فِعْلًا قَد قَد يُسبب خَسائِرَ فادِحَةٍ فِي الْأَرْوَاح الْبَشَرِيَّة ، لَكِنَه طَبْعًا لَن يُبيد الْكُلّ ، كَما يُضيف ليزلي قَائِلًا فِيمَا مَعْنَاهُ : « فَكَرِه انْقِرَاض الْبَشَر مَشْكُوكٌ فِيهَا وَلَيْسَتْ ذَات مِصْداقِيَة أَصْلًا . . . قَد تتوقع وَفَاةِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ الْبَشَرِ بِسَبَب خَطَر مِن الْأَخْطَار سَوَاءٌ الطَّبِيعِيَّةُ أَو الْبَشَرِيَّة لَكِنْ إِنْ يَفْنَى الْكُلَ دُفْعَةً وَاحِدَةً فَهَذَا غَيْرُ وَارِدٍ . »

عِلْمِ النَّفْسِ

يَرَى إِيعازَر يودكوسكي أَن نَظَرِيَّة الْإِهْمَال تَلْعَب دَوْرًا كَبِيرًا فِي التَّصَوُّرِ الْعَامّ لِلْمَخَاطِرِ الْوُجُودِيَّة ، حَيْثُ إِنَّ إِهْمَال مُعظم الْبَشَر لِهَذَا الْمَوْضُوع يجعلهم غَيْر مُبالين بِهِ وَبِمَا سَيَحْصُل وَلَوْ أَنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ قَائِمٌ وَخَطَر الِانْقِرَاض لَا زَالَ مُستمرا حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا .

كُلّ توقعات انْقِرَاض الْبَشَر السَّابِقَة أَثْبَتَهَا الزَّمَان أَنَّهَا كَانَتْ خَاطِئَة وَكَاذِبَةٌ ، وَهَذَا يَجْعَل تحذيرات الْمُستقبل تَبْدُو مُنْعَدِمَةٌ المصداقية ، حَيْثُ يَقُولُ نيك بوستروم أَنَّ عَدَمَ انْقِرَاض الْبَشَرِيَّة فِي الْمَاضِي هُوَ دَلِيلٌ ضَعِيف عَلَى أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ أَيْ انْقِرَاض للبشرية فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَبْدَأ التَّحَيُّز للناجين وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَبَادِئِ الْإِنْسَانِيَّة .

بَعْض عُلَماء الِاقْتِصَاد السلوكي يدَّعون أَنَّ تَأْثِيرَ الْمَوْقِف المتسلسل وغياب الْأَدِلَّة جَعَلَ الْمَوْضُوعَ ثَانَوِيًّا ؛ وَلَم يُعطى حَقَّهُ مِنْ الِاهْتِمَامِ بَلْ لَمْ يَتِمَّ تَسْلِيط الضَّوْء عَلَيْهِ إِلَّا نَادِرًا .

عَالِمٌ فِيزِيَاء يُطَالَب بِمُغَادَرَة الْأَرْض خِلَال 100 عَام

طَالِب عَالِمٌ الفِيزِيَاء النَّظَرِيَّة الشَّهِير "ستيفن هوكينج" ، الْبَشَر بِأَن يغادروا كَوْكَب الْأَرْض فِى غُضُون 100 سُنَّةٌ ، ويبحثوا عَنْ مَكَانٍ جَدِيد ، إِذَا أَرَادُوا الْبَقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ .

وَفِي تَحْذِير لَه ، قَال هوكينج أَن الْبَشَرِيَّة تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَعِيشَ عَلَى كَوَاكِب أُخْرَى ، خِلَال الْقَرْن الْمُقْبِل ، حَتَّى تَتَجَنَّب التَّعَرُّض للانقراض .

جَاء تَحْذِير هوكينج ضَمِن فِيلْم وَثَائِقِي جَدِيد بِعِنْوَان "بعثة الْأَرْض الجديدة" ، مِنَ الْمُقَرَّر أَنَّ يَصْدُرَ هَذَا الصَّيْف كَجُزْءٍ مِنْ مَوْسِم جَدِيد لسلسلة "عالم الغد" الَّتِي تُذَاع عَلَى شَبَكَة "بي بِي سي" البريطَانِيَّة ، وَفْق مَا ذَكَرته مَجَلَّة "فوربس" الأَمْرِيكِيَة الْيَوْم الْخَمِيس .

كَان هوكينج صَرَّح لِوَكَالَة أَنْبَاء "تاس" الروسية ، مُنْذُ أَيَّام ، بِأَن الْمِرِّيخ هُو الْكَوْكَب الْأَكْثَر تَشَابُهًا مَعَ الْأَرْض جَرَّاء امْتِلاكِه تُرْبَة وغلافا جويا .

وَقَالَ أَيْضًا فِي مُقَابَلَة ، مَع تِلْفِزْيُون (ITV) البْريطَانِيّ ، إِنّه "ينوي إِجْرَاء رَحْلِه إِلَى الْمِرِّيخ عَبْر شَرِكَة رَجُلُ الْأَعْمَال رِيتْشارْد برانسون المتخصصة فِي الرحلات الفضائية" .

وَأَكَد أَنَّهُ لَا يَشُكُّ فِي إِمْكَانِ اِسْتِعْمارُ الْمِرِّيخ فِي خِلَال 100 سُنَّةٌ ، مُشِيرًا إِلَى أَنْ بَقَاءَ الْبَشَرِيَّة عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ يَتَطَلَّب مُغادَرَة الْأَرْض فِي مُسْتَقْبَل مَنْظُورٌ وَإِيجَاد مَلْجَأ أَمِنَ عَلَى كَوَاكِب أُخْرَى .

وَتَابَع : "من أَجْل تَحْقِيقِ ذَلِكَ نَحْتَاجُ إِلَى استثمارات تتيح لَنَا تَوْسِيع معارفنا حَوْل مَاهِيَّة الْبَقَاءِ فِي ظُرُوفِ الإِشْعاع الفَضَائِيّ وَتَجَاوَز مَخاطِر التغيرات السَّلْبِيَّة فِي جِسْمِ الإِنْسانِ وَمُوَاجَهَة انْعِدَام الْمَوَادّ الحيوية خَارِج الأرض" .

ولفت هوكينج إِلَى التحديات الرَّئِيسِيَّة الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُجْعَلَ الْبَشَرِيَّة مُهَدَّدَةٌ بِالْمَوْتِ عَلَى الْأَرْضِ وَاضِعًا فِي قِمَّةِ الْمَخَاطِر تِلْكَ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْ نَشَاط الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ كالحرب النَوَوِيَّة والفيروسات المعدلة جينيا .

وَقَالَ إِنَّ تِلْكَ الْمَخَاطِر أَكْثَر خُطُورِه مِن الْمَخَاطِر الطَّبِيعِيَّة مِثْل الِاحْتِبَاس الحراري الَّذِي قَدْ يَصِلُ إِلَى حُدُودِ الْمَأْسَاة أَو تَصَادَم الْأَرْضِ مَعَ أَجْسَام فَلَكِيَة فِي مُسْتَقْبَلِ مَنْظُورٌ .

كَان هوكينج تَنَبَّأَ ، الْعَامِ الْمَاضِي ، بِأَن فِرْصَة انْقِرَاضِ جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ "شبه مؤكدة" عِنْدَمَا تُوضَع جَمِيع الِاحْتِمَالَاتِ فِي الِاعْتِبَارِ .

وَقَال : "على الرَّغْم مِنْ أَنَّ فِرْصَة حُدُوث كَارِثه عَلَى كَوْكَب الْأَرْض فِي عَامٍ مُعَيَّن قَدْ تكُونُ مُنْخَفِضَة جِدًّا ، إلَّا أَنَّهُ مَعَ مُرُورِ الْوَقْت تَتَزَايَد وَتُصْبِح شَبَّه مُؤَكَّدَةٌ خِلَال الـ1000 أَو 10 آلَاف عَام المقبلة" .

وَأَضَاف هوكينج : "وبحلول هَذَا الْوَقْتِ ، يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ ننتشر فِي الْفَضَاءِ وَالنُّجُوم الْأُخْرَى ، وبالتالي لَا تَعْنِي الكَارِثَة عَلَى الْأَرْض نِهَايَةٌ الْجِنْس البشري" .

وَعَلَى الرَّغْم مِنْ التَّحْذِير الشَّدِيد ، إلَّا أَنْ هوكينج لَدَيْه بَعْض الْأَخْبَار الْإِيجَابِيَّة ، وَأَشَارَ إلَى أَنْ كَيفِيَّةَ فَهْم الْبَشَر للكون تَقَدَّمَت خِلَال حَيَاتِه .

وحاليا ، هُنَاك جُهُودٌ لِإِنْشَاء مُسْتَعْمَرَة بَشَرِيَّة عَلَى سَطْحِ الْمِرِّيخ ؛ حَيْث يَأْمُل الملياردير إيلون موسك فِي إِنْشَاءِ مُسْتَوْطَنَة عَلَى سَطْحِ الْكَوْكَب الْأَحْمَر خِلَال الْعُقُود الْقَلِيلَة القَادِمَة مِنْ خِلَال شَرِكَة الْفَضَاء "سباس إكس" .

يَذْكُر أنّ هوكينج وُلِدَ فِي مَدِينَةٍ أُكْسفُورْد البريطَانِيَّة عَام 1942 ، وَهُوَ مِنْ أَبْرَز عُلَمَاء الفِيزِيَاء النَّظَرِيَّة عَلَى مُسْتَوَى الْعَالِم .

وَدَرَس هوكينج فِي جَامِعِهِ أُكْسفُورْد وَحَصَلَ مِنْهَا عَلَى دَرَجَةِ الشَّرَف الْأُولَى فِي الفِيزِيَاء ، وَأَكْمَل دِرَاسَتَهُ فِي جَامِعِهِ كامبريدج وَحَصَلَ مِنْهَا عَلَى الدُّكْتوراه فِي عِلْمِ الْكَوْن ، وَلَه أَبْحَاثٌ نَظَرِيَّة فِي عِلْمِ الْكَوْن وَأَبْحَاثٌ فِي الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الثُّقُوب السَّوْدَاء والديناميكا الحرارية ، كَمَا لَهُ أَبْحَاثٌ ودراسات فِي التَّسَلْسُل الزمني .

الْأَرْض تسْتعِدّ ببُطْء ... لجنازتها

فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ مَارَسَ (آذار) الْمَاضِي ، قَال الأَمِينِ العَامّ لِلْأُمَم الْمُتَّحِدَة ، أَنْطُونِيُو غوتيريش ، أَنَّ الْعَالَمَ يَمْضِي نَحْو الكَارِثَة المناخية "مغمض العينين" ، معرباً عَنْ أَسَفِهِ مِنْ اسْتِمْرَارِ الاقتصادات الْكُبْرَى بِرَفْع انبعاثاتها مِن غازات الدَّفيئَة عَلَى الرَّغْمِ مِنْ الْوَضْعِ البيئي المتأزم .

تصريحات غوتيريش الَّتِي جَاءَتْ ضَمِن فعاليات مُؤْتَمَرٌ النُمُوّ الْمُسْتَدَام ، وَالَّذِي تنظمه "ذي إيكونوميست" فِي لَنْدَن كُلَّ عَامٍ ، تَسْتَدْعِي الرَّبْط مَع تحذيرات صَدَرَت أخيراً عَنْ وَكَالَةِ الْفَضَاء وَالطَّيَرَان الأميركية "ناسا" ، عَنْ شَيْءٍ مُخِيف ومرعب يَحْدُثُ فِي الْغِلَاف الجَوِيّ لِلْأَرْض ، وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَتَسَبَّبَ فِي فِنَاءِ الْبَشَرِيَّة وَهَلَاك الْكَوْكَب الأَزْرَق ، مَرَّةً وَإِلَى غَيْرِ رَجْعَة

وَالشَّاهِدُ أَنْ قَضِيَّةَ نِهَايَةُ الْوُجُود الْبَشَرِيّ عَلَى الْأَرْضِ ، اِرْتَبَطْت بعديد مِن السيناريوهات ، مِنْهَا مَا هُوَ مَوْصُولٌ بِأَعْمَال الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ كَمَا فِي حَالِ التغيرات المناخية ، وَبَعْضُهَا الْآخَر خَارِج إِرَادَة الْخَلِيقَة كَمَا الْحَالِ مَعَ فَكَرِه اصْطِدام التَيَازِك والكويكبات بِالْأَرْض ، والمثير للهلع فِي هَذَا الطَّرْح الْأَخِير ، هُوَ أَنْ عَلَامَة الاسْتِفْهامِ لَمْ تَعُدْ : هَل سيصطدم بَعْضِهَا مَعَ الْأَرْضِ ، بَل أَضْحَت مَتَى سَيَحْدُث ذَلِك ؟

وَفِي كُلَ الْأَحْوَالِ فَإِنْ فَكَرِه نِهَايَةُ الْعَالِمُ قَدْ شَاغَبَت الحضارات الْقَدِيمَة ، وَكَذَا الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ وَحَتَّى الشَّرَائِع الْوَضْعِيَّة . وَيَقُول عُلَمَاء الِاجْتِمَاع ، أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَبْقَى شغوفاً بِكُلَ مَا يَتَعَلَّقُ بِوُجُودِه عَلَى الْأَرْضِ طَالَمَا بَقِيَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ، وَقَلَقَه دوماً مِن النَهَايَات ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ يَقِينُهُ بِأَنْ حَيَاتِه لَيْسَتْ سِوَى رَحْلِه عَابِرَة فِي بَحْرِ الزَّمَن اللانهائي .

مَاذَا عَن أَهَمّ وأخطر السيناريوهات الَّتِي تَتَهَدَّد الْبَشَرِيَّة ، ويمكنها أَنْ تَذْهَبَ بِالْكَوْكَب وَمَنْ عَلَيْهِ ، وَهَل جَمِيعِهَا حَقِيقِيَّةٌ ، أَمْ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يهول مِنْ وُجُودِهَا ؟

ثُمّ خُذ إِلَيْك الْمَخَاوِف الَّتِي طَرَأَت أخيراً عَلَى الْعَالِم ، لَا سِيَّمَا بَعْدَ الْغَزْو الروسي لأوكرانيا ، وَالْحَدِيثُ الَّذِي تكَرَرَ مَرَّات عِدَّة الشَّهْرَيْن الْمَاضِيَيْن ، عَن احتمالية اسْتِخْدَامْ الْأَسْلِحَة النَوَوِيَّة ، وَهُوَ أَحَدُ سيناريوهات فِنَاء الْبَشَرِيَّة بِشَكْل يَبْدَأُ مِنْ الْجُزْئِيّ وَيَصِلُ إِلَى الْكَامِل وَالشَّامِل .

فِي هَذِهِ السُّطُور نُحَاوِل مُنَاقَشَةْ بَعْضُ مَنْ رَكَائِز هَذَا الطَّرْح الإنسانوي الْمُثِير للتفكر وَالتَّدَبُّر ، وَتِبْيَان مِسَاحَة الْحَقَائِق ، وَتَخْلِيصِهَا مِنْ شَوَائِب الْأَوْهَام .

تحذيرات "ناسا" مِنْ نِهَايَةِ الْعَالِم

أَوَاخِر نُوفَمْبر (تشرين الثاني) مِنْ الْعَامّ الْمَاضِي ، أَصْدَرَت وَكَالَة "ناسا" تقريراً جَاءَ فِيهِ أَنَّ هُنَاكَ ظَاهِرُه مخيفة ، بَل مرعبة تَحْدُثُ فِي الْغِلَافِ الجَوِيّ للكرة الْأَرْضِيَّة ، هَذِه الظَّاهِرَة تَمّ رَصْدُهَا مِنْ خِلَالِ الْأَقْمَار الصَنَاعِيَّة التَّابِعَة لَهَا ، وَحَال مُضيها قدماً عَلَى هَذَا النَحْو ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي وببساطة شَدِيدَة نِهَايَةْ كَوكَب الْأَرْض ، إِذَا لَمْ يَتِمَّ تَدَارُك الْأَمْر سريعاً .

مَا الَّذِي رصدته أَقْمَار "ناسا" ؟

وَاقِعٌ الْحَالُ أَنَّهَا اِكْتَشَفْت أَن الْغِلَاف الجَوِيّ لكوكب الْأَرْض يَتَقَلَّص بمعدل نَحْو 500 إلَى 650 قدماً سنوياً عَلَى مَدَار الـ30 عاماً الْمَاضِيَة ، حَوْل مَا يُعْرَفُ بِاسْم "ميزوسفير" ، وَهِي الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي تُغَطي سَمَاء الْكَوْكَب ، وتُعد أَبْرَد طَبَقَات الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ .

ولتبسيط الْمَشْهَد نَقُول ، أَن طَبَقَة "الميزوسفير" تَمْتَدّ مَا بَيْنَ 30 و50 ميلاً فَوْقَ سَطْحِ الْكَوْكَب ، ومهمتها أَن تَحْمِي الْأَرْضِ مِنْ الشُّهُب والنيازك ومخاطر الفَضاءِ الخارِجِيَ ، وَيُسَاعِد تمددها عَلَى حِمَايَةِ الْبَشَر .

الْعَلَّامَة الثَّانِيَةِ الَّتِي تُشِير إلَيْهَا "ناسا" ، مُرْتَبِطَةٌ بتمدد الْغِلَاف السُّفْلِيّ لِلْأَرْض ، حَيْث كَشَفَت قِيَاسَاتٌ مُنْطاد الطَّقْس ، الَّتِي تَمَ إجْرَاؤُهَا فِي نِصْفِ الكُرَة الشَّمَالِيّ ، عَلَى مَدَار الْأَرْبَعِين عاماً الْمَاضِيَة ، أَن طَبَقَة التروبوسفير تتوسع صعوداً بمعدل 50 متراً لِكُلّ عَقْد زَمَنِي ، وَهَذِه عَلَامَةٌ لَا لَبْسَ فِيهَا عَلَى تَغْيِيرِ بِنِيَّة الْغِلَاف بِسَبَب الغازات الدَّفيئة النَّاتِجَةِ عَنِ الِاحْتِبَاس الحراري .

هَلْ كَانَ غوتيريش عَلَى حَقّ حِين حَذَّرَ مِنْ أَنَّ مَصِيرَ الْأَرْض يَقْتَرِب ، وَإِن الْبَشَرِيَّة لَا تَكَادُ تَرَى مُسْتَقْبِلِهَا مِنْ شِدَّةِ الضَّبَاب الَّذِي يُلَفّ الْأَرْض ، وَعَلَيْه يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ نِهَايَات الْكَوْكَب قَرِيبَة بِالْفِعْل ؟

نَوَاه الْأَرْضَ هَلْ تَبَرُّد عَمَّا قَرِيبٌ ؟

قَبْلَ نَحْو عَام سَرَى فِي الْأُفُق حَدِيثٍ آخَرَ أَكْثَرِ آثَارِه وَيَتَهَدَّد كوكبنا الْعَامِر ، فَقَد تَحْدُث الْعُلَمَاءِ عَنْ بدايات بُرُودَة تَعُمّ نَوَاه الْأَرْض ، حَيْثُ يُعَدُّ جَوْهَرْ الْأَرْض الْقَلْب الْخَفِيّ لكوكبنا ، وَالْمِفْتَاح السَّرِيّ للمحافظة عَلَى الْحَيَاةِ . . . مَا هِيَ الْقِصَّة ؟

بِاخْتِصَار غَيْر مُخل ، يُعْرَفُ هَذَا الْقَلْب بِأَنَّه حَرَكَة تكتونية لصفيحة القِيادَة ، ويوفر حِمَايَةً مِنْ إِشْعاعْ الشَّمْس الْوَحْشِيّ بِلَا هَوَادَةٌ ، ويتطلب الْأَمْر قدراً هائلاً مِنْ الطَّاقَةِ لِدَفْع حَرَكَة الصَّفَائِح التكتونية لكوكبنا ، وتشغيل مجالها الْمَغْناطِيسِيّ الْهَائِل ، وتستمد الطَّاقَة مِنْ لَبَّ الْأَرْض .

قِصَّة نَوَاه الْأَرْض عَجِيبَةٌ وَغَرِيبَةٌ ، لَا سِيَّمَا إِذَا أَدْرَكْنَا كَيف أَنَّ دَرَجَة حَرَارَةِ بَاطِن الْأَرْض تَصِلُ إِلَى مَا فَوْقَ الْعَشَرَةِ آلَافِ دَرَجَة مِئَوِيَّة ، مَا يُجْعَلُ مِنْهَا أَكْثَرَ سُخُونَة مِنْ سَطْحِ الشَّمْس هَذِه السُّخُونَة الْهَائِلَة تَخَلَّق مجالاً مغناطيسياً هائلاً لِلْأَرْض ، بعيداً فِي الْفَضَاءِ ، حَيْث يُبْقِي

الْجُسَيْمَاتِ الْمَشْحُونَةِ بعيداً قَبْلَ أَنْ تَجْرُفُهَا الرِّيَاح الشَّمْسِيَّة ، وَتُخْلَق هَذِه الْحُقُول الْمَغْنَاطِيسِيَّة حاجزاً لَا يُمْكِنُ اختراقه فِي الْفَضَاءِ يَمْنَع الإلكترونات الأسرع وَالْأَكْثَر نشاطاً مِنْ ضَرْبِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ تَقْدِيرَات التَّبْرِيد المتسارع لِلُبِّ الْأَرْض تَتَضَمَّن عَشَرَات المليارات مِنْ السَنِينَ ، فَإِن الفِكْرَة عَيْنِهَا ترتبط ارتباطاً جذرياً بِمَدَى قَدَّرَه كويكبات أَو نيازك باختراق غِلَاف الْأَرْض الْخَارِجِيّ ، وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْ أَخْطَرِ السيناريوهات الَّتِي تَتَهَدَّد الْأَرْضِ بِالْفِعْلِ .

تـوَهَّج الشَّمْسُ قَبْلَ نِـهَايَـتِهَا وَحَال الْأَرْض

وَلِأَنّ الْإِنْسَانِيَّة مُنْذ بداياتها ، اِرْتَبَط وُجُودِهَا بالنيرين الأعظمين ، الشَّمْس لِضِيَاء النَهَار ، وَالْقَمَر لِضِيَاء اللَّيْل ، فَقَدْ تكُونُ الشَّمْسُ بدورها أَحَدٌ مُسَبَّبَات نِهَايَةٌ الْوُجُود الْبَشَرِيّ عَلَى كَوْكَب الْأَرْض .

يَجْمَع عُلَمَاء الْفُلْك وَالنُجُوم عَلَى أَنَّ الشَّمْسَ سَوْف تَفْقَد طَاقَتِهَا فِي وَقْتِ مَا ، غَيْرَ أَنَّهُ وَقَبْلَ أَنْ تَلْقَى مَصِيرُهَا الْمَحْتُوم ، سَوْف تَبْلُغ عِنْدَ حَدَّ مُعَيَّنٍ دَرَجَةً مِنْ التوهج وَارْتِفَاع دَرَجَات الْحَرَارَة ، بِشَكْل يُؤَدِي إِلَى هَلَاكِ كَوْكَب الْأَرْض وَعَدَم صَلَاحِيَّتِه لِلْعَيْش الْآدَمِيّ .

الْقِصَّةِ مِنْ مَنْظُورٌ عِلْمِي تَمْضِي عَلَى النَّحْوِ التَّالِي : حِين تَرْتَفِع دَرَجَةُ حَرَارَةِ قَلْب الشَّمْس ، سَيُؤَدِي ذَلِكَ إِلَى ارْتِفَاعِ حَرارةِ الْغِلَاف الجَوِيّ ، مَا سيقود إِلَى تَعَطَّل عَمِل ثَانِي أُكْسِيد الكَرْبُون ، الْأَمْرُ الَّذِي سَيَجْعَل النَّبَاتَات غَيْرِ قَادِرَةٍ عَلَى إِنْتَاج الأوكسجين ، وَالْعُهْدَة هُنَا عَلَى الدَرَاسَة الَّتِي أُجْرَتهَا وَكَالَة "ناسا" الأميركية ، ونشرتها مَجَلَّة "نايتشر جيوسيانس" فِي مَارَس (آذار) مِنْ عَامٍ 2021 .

وَتُشِير الدَرَاسَة إِلَى أَنَّهُ مَعَ غِيَاب الْحَيَاة النَّبَاتِيَّة ، سيختفي الأوكسجين الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانَات للتنفس ، وَسَيَكُون اِخْتِفَاؤُه نَتِيجَةٌ حَتْمِيَّةٌ لِزِيَادَة الْوَهَج الشَّمْسِيّ .

حَدِيث "ناسا" أَكَّدْتُه قِرَاءَة عِلْمِيَّة أُخْرَى ، نَشْرِهَا مَوْقِع "ساينس تايمز" ، وَفِيهَا أَنَّهُ مَعَ تَقَدُّم نظامنا الشَّمْسِيّ فِي الْعُمْرِ ، ستزداد الشَّمْس سُخُونَة ، وسيؤدي زِيَادَة إِنْتَاجِ الطَّاقَةِ الشَّمْسِيَّة إِلَى تَدْفِئَة الْغِلَاف الجَوِيّ لِلْأَرْض ، وَانْخِفَاضٌ مستويات ثَانِي أُكْسِيد الكَرْبُون ، وَسَوْف يُؤَدِي ذَلِكَ إِلَى انْقِرَاض كُلَ إِشْكَالِ الْحَيَاة ، وَمُعْظَم الأَنْظِمَة البيئية بشَكْلٍ عَامَّ ، وَلَن يَكُونَ أَمَامَ الْبَشَر سِوَى الِاخْتِفَاء تدريجياً مَنْ عَلَى سَطْحِ الأَرْض ، وصولاً إِلَى الِانْقِرَاض عِنْدَ نُقْطَةِ زمنية بِعَيْنِهَا ، أَوْ أَنَّ يتطوروا إِلَى كائِنات لَا تَحْتَاجُ إِلَى الأوكسجين ، وَهَذَا أَمْرٌ بَعِيدٌ التَّوَقُّع اِرْتَفَعَتْ

حَرَارَةَ اَلْأَرْضِ حَوَالَيْ 1 . 1 دَرَجَةٌ مِئَوِيَّةٌ فِي اَلْمُتَوَسِّطِ مُقَارَنَةً بِعَصْرِ مَا قَبْلَ اَلثَّوْرَةِ اَلصِّنَاعِيَّةِ (أ ف ب) .

عَنْ اَلْوَبَاءِ اَلْمُقْبِلِ وَإِبَادَةُ اَلْجِنْسِ اَلْبَشَرِيَ وَلَعَلَّهُ مِنْ بَيْنِ اَلسِّينَارْيُوهَاتِ اَلَّتِي بَاتَتْ مَطْرُوحَةً بِقُوَّةٍ ، وَضَمِنَ اَلْأَسْبَابَ اَلْمُحْتَمَلَةَ لِفَنَاءِ اَلْجِنْسِ اَلْبَشَرِيَ ، وَنِهَايَةَ كَوْكَبِ اَلْأَرْضِ ، يَطْفُو عَلَى سَطْحِ اَلْأَحْدَاثِ سِينَارْيُو اِنْتِشَارِ وَبَاءٍ تَعْجِزُ اَلْبَشَرِيَّةُ عَنْ إِيجَادِ اَلْأَمْصَالِ اَللَّازِمَةِ لِمُوَاجَهَتِهِ . جَاءَتْ جَائِحَةُ "كُوفِيدْ – 19 " قَبْلَ عَامَيْنِ لِتَدُقَّ جَرَسَ اَلْإِنْذَارِ لِاحْتِمَالِ تَعَرُّضِ اَلْبَشَرِيَّةِ لِمَوْجَةٍ مِنْ اَلْهَجَمَاتِ اَلْفَيْرُوسِيَّةِ غَيْرَ اَلْمَعْرُوفَةِ ، وَلِلْقَارِئِ أَنْ يَتَخَيَّلَ كَمْ كَانَتْ سَتُضَحَّى مَلَايِينِ اَلضَّحَايَا لَوْ لَمْ تُوجَدْ اَلْأَمْصَالُ بِشَكْلٍ سَرِيعٍ ، وَقَبْلَ أَنْ تُشَابِهَ اَلْإِنْفْلُونْزَا اَلْإِسْبَانِيَّةُ فِي أَوَائِلِ اَلْقَرْنِ اَلتَّاسِعِ عَشَر ، تِلْكَ اَلَّتِي قَضَتْ عَلَى نَحْوِ مِئَةِ مِلْيُونِ نَسَمَةٍ ، فِي وَقْتٍ لَمْ تَكُنْ اَلْخَلِيقَةُ فِيهِ بِرُمَّتِهَا تَتَجَاوَزُ مِلْيَارَيْ نَسَمَةٍ ، مِنْ شَمَالِ اَلْأَرْضِ إِلَى جَنُوبِهَا ، وَمِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبِهَا . وَلَعَلَّ اَلْفَيْرُوسَاتِ اَلْفَتَّاكَةَ قَدْ تَجِدُ طَرِيقَهَا إِلَى اَلْكَوْكَبِ اَلْأَزْرَقِ مِنْ خَارِجِهِ ، وَهُوَ سِينَارْيُو لَا يَزَالُ مَطْرُوحًا ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ مُوَاجَهَاتٌ مَعَ كَائِنَاتٍ فَضَائِيَّةٍ أُخْرَى ، أَوْ جَرَى كَمَا فِي أَفْلَامِ اَلْخَيَالِ اَلْعِلْمِيِ ، أَنْ تَصْطَحِبَ بَعْضُ اَلرِّحْلَاتِ اَلْفَضَائِيَّةِ اَلْبَشَرِيَّةِ مَعَهَا مِنْ خَارِجِ كَوْكَبِ

ٱلْأَرْضِ ، وَعَنْ غَيْرَ قَصْدٌ ، بِكْتِيرْيَا ضَارَّةٍ لَا يُمْكِنُ ٱلتَّعَامُلُ مَعَهَا فِي ضَوْءِ حُدُودِ ٱلْعَلَمِ ٱلْبَشَرِيَ ٱلْمُتَاحِ . حَدِيثُ ٱلْجَائِحَةِ وَضْعَهُ عُلَمَاءَ مِنْ مَعْهَدِ مُسْتَقْبَلِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَالتَّحَدِيَاتِ ٱلْعَالَمِيَّةِ بِجَامِعَةِ أُوكْسِفُورْدْ ، ضِمْنَ اِثْنَيْ عَشَرَ سِينَارْيُو مُحْتَمَلاً قَدْ يُنْهِي ٱلْحَضَارَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ . يَتَسَاءَلَ هَوْلَاءْ ٱلْعُلَمَاءُ : مَاذَا لَوْ ضَرَبَ فَيْرُوسُ مِثْلِ ٱلْإِنْفْلُونْزَا ٱلْآسْيَوِيَّةِ ٱلْأَرْضِ مَرَّةً أُخْرَى فِي حَاضِرَاتِ أَيَامِنَا ؟ هُنَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا ٱلْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ ٱلْعَالَمَ قَبْلَ مِئَةِ عَامٍ ، وَحِينُ اِنْتَشَرَ ذَلِكَ ٱلْوَبَاءِ ، لَمْ يَكُنْ مُتَّصِلاً اِتَصَالاً جُغْرَافِيًّا ، كَمَا هُوَ ٱلْيَوْمَ ، بِمَعْنَى أَنَّ سُرْعَةَ اِنْتِشَارِ ٱلْوَبَاءِ وَقْتَهَا كَانَتْ بَطِيئَةً بِسَبَبَ عَدَمِ سُهُولَةِ وَيُسْرِ ٱلْاِنْتِقَالَاتِ ٱلَّتِي كَانَتْ حِكْرًا عَلَى ٱلسَّفَرِ بِالسُّفُنِ عَبْرَ ٱلْبِحَارِ وَالْمُحِيطَاتِ ، ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي كَانَ يُقَلِّلُ مِنْ سُرْعَةِ اِنْتِشَارِ أَيَ فَيْرُوسٍ حَوْلَ ٱلْكُرَةِ ٱلْأَرْضِيَّةِ . ٱلْيَوْمُ ، يَبْدُو ٱلْمَشْهَدُ مُخْتَلِفًا اِخْتِلَافًا جَذْرِيًّا ، ذَلِكَ أَنَّ ٱلْبَشَرِيَّةَ تَكَادُ تُلَامِسُ أَطْرَافَ بَعْضِهَا ٱلْبَعْضِ ، وَقَدْ أَضْحَتْ بِالْفِعْلِ كُتْلَةً وَاحِدَةً ، مَا يُضَاعِفُ مِنْ خَطَرِ اِنْتِشَارِ ٱلْأَوْبِئَةِ ، وَظُهُورَ أَوْبِئَةٍ جَدِيدَةٍ لَمْ تَدْرُسْ سَابِقًا .

عَلَى أَنَّ حَدِيثَ ٱلْفَيْرُوسَاتِ وَالْبَكْتِيرْيَا لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ حُدُودِ مَا يُمْكِنُ لِلطَّبِيعَةِ أَنْ تُصْدِرَهُ لِلْبَشَرِيَّةِ ، ذَلِكَ أَنَّ هُنَاكَ بَابًا آخَرُ لِلْمَهَالِكِ بَدَا وَكَأَنَّهُ اِنْفَتَحَ أَخِيرًا ، وَمَا يَدُورُ حَوْلَ مُخْتَبَرَاتٍ

بَيُولُوجِيَّةٍ لِتَصْدِيرِ الْمَوْتِ ، وَجَدَتْ عَلَى الْأَرَاضِي الْأُوكْرَانِيَّةِ ، أَمْرٌ مُرْعِبٌ حَقًّا . هُنَا قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مَصْدَرَ الْخَطَرِ بِحَدِ ذَاتِهِ ، عَبْرَ تَطْوِيرِ فَيْرُوسَاتٍ مُخْتَبَرِيَّةٍ ، وَإِنْ يَنْسَ الْمَرْءُ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْسَى الْحَدِيثُ عَنْ فَيْرُوسِ " كُوفِيدْ – 19 " ، وَالَّذِي لَا يَزَالُ السُّؤَالُ بِشَأْنِهِ دَائِرًا وَحَائِرًا ، وَهَلْ هُوَ فَيْرُوسٌ طَبِيعِيٌّ ، أَمْ أَنَّهُ مُخَلَّقٌ فِي الْمَعَامِلِ . هُنَا رُبَّمَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ ، أَنَّهُ فِي عَامِ 2011 أَعْلَنَ عَنْ تَطْوِيرِ نَوْعٍ جَدِيدٍ مِنْ إِنْفْلُونْزَا الطُّيُورِ مُخْتَبَرِيًّا ، وَيُمْكِنَ اِنْتِشَارُهُ فِي الْهَوَاءِ وَعَبْرَ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَمُجَرَّدُ خُرُوجِهِ مِنْ الْمُخْبِرِ قَدْ يُشَكِّلُ كَارِثَةً عَالَمِيَّةً . اَلتَّغَيُّرُ الْمُنَاخِيُّ وَالْمُتَبَقِي مِنْ عُمْرِ الْأَرْضِ أَظْهَرَتْ الْمُوَاجَهَاتُ الْعَسْكَرِيَّةُ الْأَخِيرَةُ بَيْنَ رُوسْيَا وَأُوكْرَانْيَا ، وَمَا جَرَى وَرَاءَهَا مِنْ تَحْشِيدٍ لِلْقُوَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ ، مَا بَيْنَ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمِيرِكِيَة وَأُورُوبَّا مِنْ جِهَةٍ ، وَرُوسْيَا وَالصِينُ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ ، أَنَّ قَضِيَّةَ التَّعَاوُنِ الدَّوْلِيَ لِلْقَضَاءِ عَلَى أَسْبَابِ اِرْتِفَاعِ دَرَجَةِ حَرَارَةِ كَوْكَبِ الْأَرْضِ ، لَا تَأْتِي فِي مُقَدَمَةِ الِاهْتِمَامَاتِ الْأُمَمِيَّةِ . حِينُ عَقَدَتْ قِمَّةَ غِلَاسْكُو لِلْمُنَاخِ قَبْلَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ ، خُيِلَ لِلنَّاظِرِ أَنَّ هُنَاكَ بِالْفِعْلِ تَوَجَّهَ لِاسْتِنْقَاذِ كَوْكَبِ الْأَرْضِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْأَمَلِ كَانَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ سَرَابًا ، ذَلِكَ أَنَّهُ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لِلْقِمَّةِ كَانَتْ الصِينُ تَرْفَعُ نِسْبَةَ اِسْتِهْلَاكِهَا مِنْ الْفَحْمِ إِلَى الرُّبْعِ ، مَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ الْجُهُودِ الَّتِي بُذِلَتْ لِقَرْعِ نَاقُوسِ الْخَطَرِ الْإِيكُولُوجِيَ قَدْ ذَهَبَتْ هَبَاءً .

بِتَارِيخِ 16 أُغُسْطُسَ (آبُ) 2021 نَشَرَتْ مَجَلَّةَ " نَايْتْشَرْ " اَلْعِلْمِيَّةِ اَلْمُتَخَصَصَةِ دِرَاسَةَ بِقَلَمِ اَلْبَاحِثِ جِيفْ تُولِيفْسُونْ ، أَشَارَ فِيهَا تَقْرِيرٌ صَادِرٌ عَنْ اَلْأُمَمِ اَلْمُتَّحِدَةِ شَارَكَ فِيهِ نَحْوُ 200 بَاحِثٍ ، وَاسْتَغْرَقَ إِعْدَادُهُ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ ، وَقَدْ تَمَّ مُشَارَكَتُهُ فِي قِمَّةٍ غِلَاسْكُو ، حَيْثُ نَجِدُ أَرْقَامًا تُشِيرُ إِلَى أَنَّ دَرَجَةَ حَرَارَةِ سَطْحِ اَلْأَرْضِ قَدْ اِرْتَفَعَتْ بِمِقْدَارِ 1.1 دَرَجَةٍ مِئَوِيَّةٍ ، مُقَارَنَةً بِمُتَوَسِطِ دَرَجَاتِ اَلْحَرَارَةِ بَيْنَ عَامَيْ 1850 و 1900 ، وَهُوَ مُعَدَّلُ اِرْتِفَاعٍ لَمْ تَشْهَدْهُ اَلْأَرْضُ مُنْذُ 125 أَلْفِ سَنَةٍ ، أَيْ مُنْذُ اَلْفَتْرَةِ اَلَّتِي سَبَقَتْ اَلْعَصْرَ اَلْجَلِيدِيَّ اَلْحَدِيثَ . هَلْ اَلِاحْتِرَارُ اَلْعَالَمِيُّ كَفِيلٌ بِإِغْرَاقِ سَطْحِ اَلْأَرْضِ ؟ اَلتَّقْرِيرُ يُفِيدُ بِأَنَّ تَأْثِيرَ اَلِاحْتِرَارِ اَلْعَالَمِيِ عَلَى اَلْمِسَاحَاتِ اَلَّتِي تَتَكَيَفُ بِبُطْءٍ مَعَ اِرْتِفَاعِ دَرَجَاتِ اَلْحَرَارَةِ ، مِثْلُ اَلْأَنْهَارِ اَلْجَلِيدِيَّةِ ، وَالصَّفَائِحُ اَلْجَلِيدِيَّةُ ، وَالْمُحِيطَاتُ ، سَوْفَ يَسْتَمِرُّ وَسَوْفَ نَظَلُّ نَلْمِسُ آثَارُهُ لِعِدَّةِ قُرُونٍ ، بَلْ لِعِدَّةِ أَلْفِيَاتٍ ، فَمِنْ اَلْمُتَوَقَّعِ أَنْ تَرْتَفِعَ مُسْتَوَيَاتُ اَلْبِحَارِ حَوْلَ اَلْعَالَمِ بِمِقْدَارٍ يَتَرَاوَحُ بَيْنَ مِتْرَيْنِ وَثَلَاثَةِ أَمْتَارٍ خِلَالَ اَلْأَلْفِي عَامُ اَلْمُقْبِلَةِ ، حَتَّى وَلَوْ تَمَكَّنَا مِنْ اَلْحِفَاظِ عَلَى مُعَدَّلِ اَلِاحْتِرَارِ عِنْدَ 1.5 دَرَجَةٍ مِئَوِيَّةٍ ، عَلَى أَنْ يَصِلَ هَذَا اَلِارْتِفَاعِ إِلَى 6 أَمْتَارٍ فِي حَالَةِ وُصُولِ مُعَدَّلِ اَلِاحْتِرَارِ إِلَى دَرَجَتَيْنِ مِئَوِيَّتَيْنِ ، وَهُوَ مَا سَوْفَ يُغَيِرُ طَبِيعَةَ اَلسَّوَاحِلِ بِرُمَّتِهَا ، وَاَلَّتِي يَسْكُنُهَا فِي اَلْوَقْتِ اَلْحَالِيَ مِئَاتُ اَلْمَلَايِينِ مِنْ

اَلْبَشَرِ ، وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ بِدَايَةُ اَلطُّوفَانِ اَلْأَكْبَرِ اَلَّذِي يَتَوَقَّعُهُ اَلْبَعْضُ لِلْمَرَّةِ اَلثَّانِيَةِ فِي تَارِيخِ كَوْكَبِ اَلْأَرْضِ .

خَاتِمَة

اَلْحَتْمِيَّةِ اَلتَّارِيخِيَّةِ وَمُسْتَقْبَلِ اَلْبَشَرِيَّةِ وَفْقَ اَلرُّؤْيَةِ اَلْقُرْآنِيَّةِ

لَا بُدَّ مِنْ عَمَلِيَّةِ اِسْتِقْرَاءٍ لِلنُّصُوصِ اَلْقُرْآنِيَّةِ اَلَّتِي تَتَضَمَّنُ (اَلْحَتْمِيَّةَ اَلتَّارِيخِيَّةِ) ، وَاَلَّتِي تُعَدُّ نُبُوآتٌ قُرْآنِيَّةٌ صَادِقَةٌ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَيْهَا اَلْبَشَرِيَّةُ فِي مَسِيرَتِهَا وَكَدْحَهَا اَلْمُسْتَمِرَّ ، وَمَا عَانَتْهُ مِنْ بَأْسَاءَ وَضَرَّاءَ ، وَمَشَقَّةٌ وَعَنَاءٍ ، وَحُرُوب وَدِمَاءً . اِنْتِصَارُ رِسَالَةِ اَلسَّمَاءِ وَسِيَادَةِ

اَلدَينِ تُظْهِرُ هَذِهِ اَلْحَتْمِيَّةِ اَلتَّارِيخِيَّةِ بِقِرَاءَةِ اَلْآيَاتِ اَلتَّالِيَةِ ، اَلَّتِي تُؤَكِدُهَا وَتُوَضِحُهَا : ? هُوَ اَلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدَينِ كُلِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ? (اَلتَّوْبَةُ : 33) هُوَ اَلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدَينِ كُلِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ? (اَلصَّفُّ : 9) . ? هُوَ اَلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ اَلْحَقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدَينِ كُلِهِ وَكَفَى بِاَللَّهِ شَهِيدًا ? (اَلْفَتْحُ : 28) . وَهَذِهِ اَلْآيَاتُ اَلثَّلَاثُ تُؤَكِدُ عَلَى حَقَائِقَ أَسَاسِيَّةٍ ، مُسْتَنْتَجَةً مِنْ تَفْسِيرِهَا وَسِيَاقِهَا :

اَلْحَقِيقَةُ اَلْأُولَى

حَتْمِيَّةُ غَلَبَةِ اَلْإِسْلَامِ كَدِينٍ سَمَاوِيٍ عَلَى جَمِيعِ اَلْأَدْيَانِ اَلسَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى إِظْهَارِ دِينِ اَلْحَقِ عَلَى اَلدَينِ كُلِهِ فِي اَلْآيَاتِ . وَاللَّامُ هُنَا لِلْجِنْسِ . « وَظُهُورُهُ عَلَى اَلْأَدْيَانِ هُوَ أَنَّ لَا يُدَانُ اَللَّهُ تَعَالَى إِلَّا بِهِ » . وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ اَلْآيَاتِ وَالْإِسْلَامِ لَمْ يَخْرُجْ فِي اِنْتِشَارِهِ مِنْ اَلْجَزِيرَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ ، وَلَمَّا يَصِلْ إِلَى اَلصَينِ بَعْد !

وَقَدْ « أَثْبَتَتْ أَحْدَاثُ الْمُسْتَقْبَلِ صَدَّقَ هَذَا التَّنَبُّؤِ الْعَظِيمِ ، وَغَلَبَةُ الْإِسْلَامِ مِنْ النَاحِيَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ عَلَى كَافَّةِ الْمَذَاهِبِ الْأُخْرَى . وَقَدْ حَقَّقَ خُطُوَاتٍ عَظِيمَةً فِي طَرِيقِ التَّقَدُّمِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَاكْتَسَحَ مَنَاطِقَ وَاسِعَةً مِنْ الْعَالَمِ . وَهُوَ الْآنَ فِي تَقَدُّمٍ مُسْتَمِرٍ ، وَقُوَّةٌ يَخْشَى مِنْهَا عَالَمِيًّا » .

الْحَقِيقَةُ الثَّانِيَةُ

إِنَّ هَذِهِ الْغَلَبَةِ لَا تَكُونُ بِالسَّيْفِ وَالْعُنْفِ وَالْقُوَّةِ الْخَشِنَةِ ، كَمَا تَوَقَّعَ أَعْدَاؤُنَا ، بَلْ سَتَكُونُ أَوَّلاً وَقَبْلَ كُلِ شَيْءٍ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ وَالْقُوَّةِ النَاعِمَةِ ، بِقُوَّةِ الْحَقِ وَالْهُدَى الَّذِي يَحْمِلُهُ ، وَمَا سَيَظْهَرُهُ اللَّهُ مِنْ حَقَائِقَ وَبَرَاهِينَ وَدَلَائِلَ تَجْعَلُ الْبَشَرِيَّةُ جَمْعَاءُ تُدِينُ بِهَذَا الدِينِ الْإِنْسَانِيِ الْفُطْرِيَ ، الَّذِي يُوَاكِبُ الْمَسِيرَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي تَطَوُّرِهَا وَارْتِقَائِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ ، أَوْ مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ : سَنُرِيهِمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ? (فَصِلَتْ : 53) ، وَالْهَاءُ فِي (أَنَّهُ) تَعُودُ إِلَى الْقُرْآنِ بِحَسَبِ السَيَاقِ .

الْحَقِيقَةُ الثَّالِثَةُ

مَدَى مُقَاوَمَةِ قُوَى اَلشِّرْكِ وَالضَّلَالِ وَالظَّلَامِ لِهَذَا اَلظُّهُورِ ، وَمُحَاوَلَتُهَا اَلْحَثِيثَةُ لِإِيقَافِهِ أَوْ تَحْجِيمِهِ أَوْ تَضْعِيفِهِ ، وَاسْتِعْمَالُهَا كَافَّةَ اَلْأَسَالِيبِ لِمُحَارَبَتِهِ وَمُكَايَدَتِهِ ، وَهَذَا مَا يُعْطِيهِ قَوْلُهُ : ? وَلَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ ? فِي خِتَامِ اَلْآيَتَيْنِ ، مَا يَعْنِي أَنَّ اَلْأَمْرَ لَا يَكُونُ سَهْلاً وَيَسِيرًا ، وَلَا بُدَّ مِنْ جِهَادٍ وَعَطَاءٍ وَتَضْحِيَاتٌ ، وَتَحَمُّلٍ لِلْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ . وَإِذَا تَدَبَّرْنَا سِيَاقَ اَلْآيَاتِ اَلثَّلَاثِ اَلْآنِفَةِ يَتَّضِحُ اَلْأَمْرُ جَلِيًّا ، فَقَدْ جَاءَتْ اَلْآيَةُ اَلَّتِي قَبْلَهَا فِي سُورَةِ اَلتَّوْبَةِ لِتَرْسُمَ مَسَاعِيَ اَلْأَعْدَاءِ وَمَكْرِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ فِي مُحَاوَلَاتِ اَلْإِطْفَاءِ : ? يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ? (اَلتَّوْبَةُ : 32) ، وَكَذَا فِي سِيَاقِ سُورَةِ اَلصَّفِّ : ? يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ? (اَلصَّفُّ : 8)

إِنَّهَا إِرَادَةُ اَلْإِطْفَاءِ ذَاتِهَا ، رَغْمَ اِخْتِلَافِ اَلتَّعْبِيرِ فِي اَلتَّصَيْنِ اَلَّذِي يَقْتَضِيهِ اَلسِّيَاقُ ، ? يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورٌ ? و ? يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُور ? . وَإِنَّهَا اَلْإِرَادَةُ اَلرَّبَّانِيَّةُ ذَاتُهَا اَلَّتِي تَرْفُضُ وَبِقُوَّةِ تِلْكَ اَلْمُحَاوَلَاتِ : ? وَيَأْبَى اَللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ ? و ? وَاَللَّهُ مُتِمُّ نُورَهُ ? . وَاَلتَّعْبِيرُ فِي اَلْآيَتَيْنِ عَنْ اَلْإِطْفَاءِ ب (اَلْأَفْوَاهُ) تَعْبِير عَنْ مَدَى يَأْسِ تِلْكَ اَلْمُحَاوَلَاتِ ، وَعَجْزُهَا فِي إِطْفَاءِ (نُورْ اَللَّهْ) ، بِإِضَافَةِ اَلنُّورِ إِلَى اَللَّهِ .

اَلْحَقِيقَةُ اَلرَّابِعَةُ

إِنَّ وَعْدَ اَللَّهِ لَآتٍ وَانْ اَللَّهِ لَا يُخَلِفُ اَلْمِيعَادُ فَلَقَدْ رَأَيْنَا وَبَحْثْنَا فِي اَلنُصُوصِ اَلْقُرْآنِيَّةِ وَالْحَدِيثِ اَلنَبَوِيَ اَلَّتِي تُؤَكِدُ مِنْ أَنَّ اَلسَّاعَةَ آتِيَةٌ وَقَدْ اِقْتَرَبَتْ وَلَا مَفَرَّ مِنْ هَذِهِ اَلْحَقِيقَةِ اَلْيَقِينِيَّةِ مُهِمًّا حَاوَلَ بُنِيَ اَلْبَشَرُ اَلْهُرُوبُ مِنْهَا وَمِنْ اِسْتِحْقَاقَاتِهَا وَخَاصَّةً ذَلِكَ اَلصَنْفَ مِنْ اَلْبَشَرِ اَلَّذِي يَحْسُبُ أَنَّهُ نِتَاجُ تَفَاعُلٍ كِيمَاوِيَ طَبِيعِيَ وَأَنَّهُ مِنْ أَسْلَافِ اَلْقِرَدَةِ وَالَّذِينَ أَنَّ اَلْكَوْنَ صَارَ بِالصُّدْفَةِ وَأَنَّهُمْ خَلَقُوا عَبَثًا . ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [اَلْمُؤْمِنُونَ : 115]

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [اَلْأَنْبِيَاءَ : 16] صَدَقَ اَللَّهُ اَلْعَظِيمُ

اِنْتَهَى بِعَوْنِ اَللَّهِ تَعَالَى